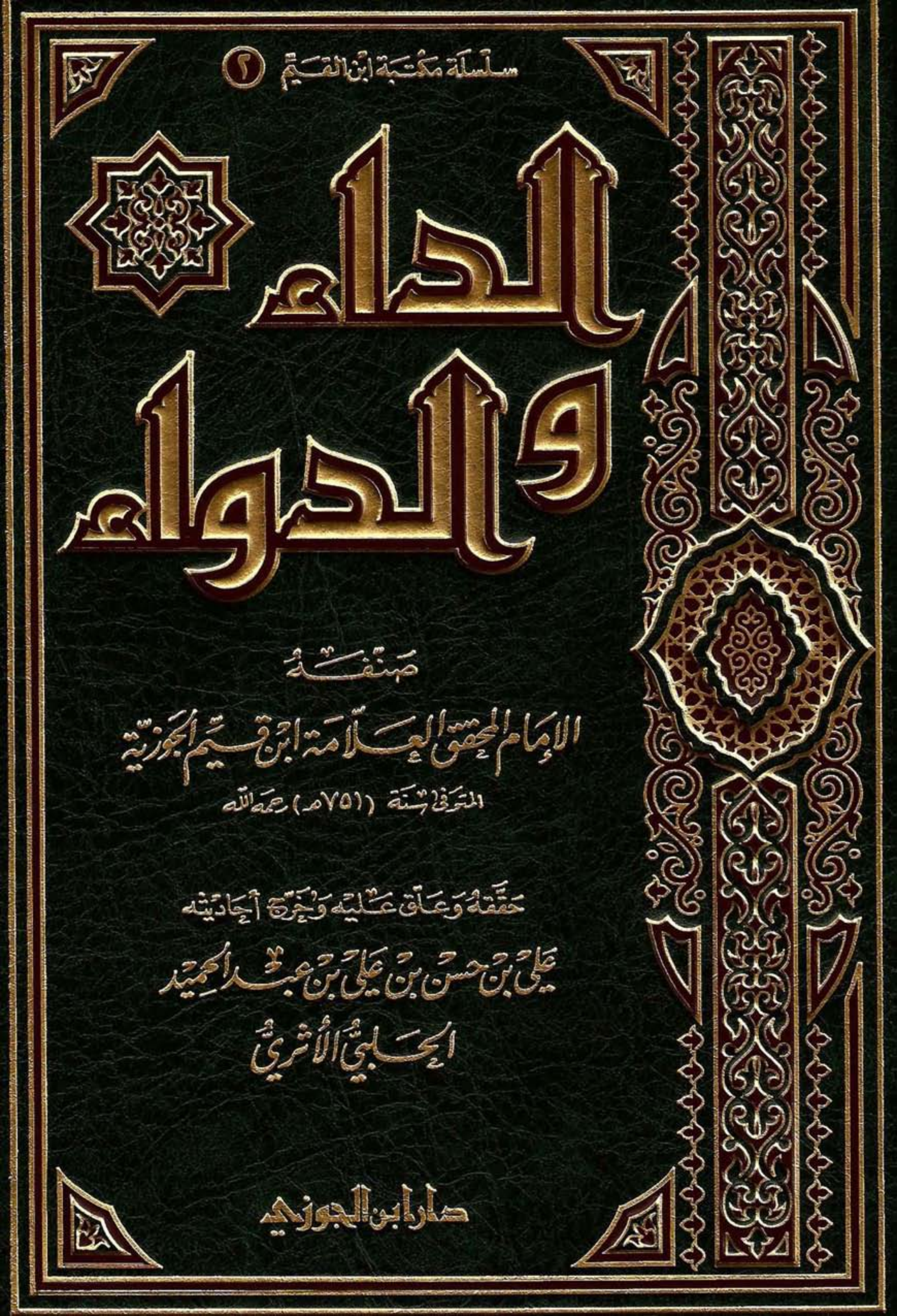

سلسلة مكتبة ابن القيم (٢)
الداء والدواء
صنفه
الإمام المحقق العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة (٧٥١هـ) رحمه الله
حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري
دار ابن الجوزي

الدَّاءُ والدَّوَاءُ

الطبعة السادسة

صفر ١٤٢٣



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

سلسلة مكتبة ابن القيم
(٢)

الداء والدواء

صنفه

الإمام المحقق العلامة ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١هـ) رحمه الله

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري

دار ابن الجوزي



مقدمة التحقيق

الحمـدُ للهِ حقَّ حمـدِه، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه وعبدِه، وعلى آلِه وصَحبِه وَوَفْدِه.

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ كتابَ «الداءِ والدواءِ» للإمام العلَّامةِ ابنِ قَيِّم الجوزيَّة[1] رحمه اللهُ تعالى مِن أهَمِّ وأعظمِ ما صُنِّف في باب الأخْلاقِ والتربيةِ وتزكيةِ النُّفوسِ:

فتراه يتكلَّمُ عن الدعاءِ، وأهمِّيتهِ، والحاجةِ إليه، وصِلَتِه بالقَدَر...

وتراه يتكلَّم عن المعاصي وأضرارها، والذنوب وشؤمها، ثم يُطيل في ذلك جدّاً ـ رحمه الله ـ.

وتراه يتكلَّم عن العقوباتِ الشرعيَّةِ والقَدَريَّةِ، القلبيَّةِ والبدنيَّة، الدنيويَّة والأخرويَّة.

وتراه يتكلَّم عن الشِّرْكِ وأقسامهِ في العبادةِ، في الأفعال، في الأقوال، في الإرادات والنيَّات، ثم شرك النصارى، وشرك الذين يتّخذون الوسائطَ والشُّفَعاءَ...

---

(١) وقد ذكرتُ ترجمتَه في مقدّمتي على كتابِه «مفتاح دار السعادة» طبع دار ابن عفّان؛ فأغنى عن التكرار.

وتراه يتكلّم عن الكبائر ومفاسِدِها، فذكر الظلمَ، والقتلَ، والزِّنى . . .

وتراه يتكلّم عن مداخل المعاصي؛ من الخَطَراتِ، واللفظاتِ، والخُطُواتِ . . .

وتـراه يتكلّم عن اللّواط، وعن وطء البهيمةِ، وعن مراتب الحُبِّ، وعن مفاسد عشق الصور . . .

وغير ذٰلك كثيرٌ وكثيرٌ مِمّا توسَّع في ذِكره، وأفاض في إيراده من «لطائف العلمِ وحقائقهِ، وبيانِ مُحاسَبَةِ النفسِ ومُراقبتها ما لا يستغني عنه طالبُ العلم»[1].

ولقد طُبع الكتابُ من قبل طَبعاتٍ كثيرةً أوّلها سنةَ (١٢٨٢هـ) في مصر، ثم طُبع طبعةً أخرى في مصر ـ أيضاً ـ سنة (١٣٤٦هـ).

وكلتا الطبعتين باسم «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»[2].

ثم طُبع في مصر سنة (١٣٧٧) بعنوان «الداء والدواء» بتحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد رحمه الله.

والمؤلّف رحمه الله تعالى لم يُسَمِّه بواحدٍ منهما في مقدّمة كتابهِ.

وهمـا اسمـانِ وُضِعـا لمسمّى واحـدٍ، وهـو جوابٌ لسؤالٍ وَرَدَ عليهِ،

---

(١) «ابن القيّم حياته وآثاره» (ص ٢٤٦) لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد.

(فائدة): ذكر الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ـ وهو خطيبُ الحرم المكيّ وإمامه، توفي سنة (١٣٧٠هـ) وهو مصريُّ الأصل، مترجم في «الأعلام» (٤ / ١١) للزركلي، في (صفحة ٣٣٤) من خاتمةِ الطبعة التي قام عليها (سنة ١٣٤٦) أنَّ هٰذا الكتابَ كان هو السببَ في هداية الله له إلى طريق السلف الصالح وسلوك منهجهم في التوحيد والعبادة.

(٢) «ذخائر التراث العربي والإسلامي» (١ / ٢٢٤) عبد الجبار عبد الرحمٰن.

والمناسَبَةُ لكلّ واحدٍ من الاسمين ظاهرةٌ، لٰكنّها بهٰذا الاسمِ «الداء والدواء» أظهرُ»[1].

ويؤكّـدُ ذٰلـك أنَّ عامَّةَ المُترجِمين للمؤلِّف رحمه الله قد ذكروه باسْمِ «الداء والدواء»؛ كالحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٥٠)، وابن العماد في «الشذرات» (٦ / ١٦٩)، والشوكاني في «البدر الطالع» (٢ / ١٤٤).

ولقد تَمَّ الوَهَمُ على عددٍ من المؤلِّفين ـ قُدامى ومُحْدَثين ـ إذ عَدُّوا هٰذا الكتابَ باسْمَيْهِ كتابَيْنِ!! كحاجي خليفة في «كشف الظنون» (١ / ٧٢٨ و١٤١٧)، والنَّدْوي في «رجال الفكر والدعوة» (ص ٣١٩) وغيرهما.

ولقد حقَّقتُ الكتابَ[2]، وعلّقتُ عليه، وخرّجت أحاديثَه بما أحْسِبُه ـ إن شاء اللهُ ـ أنّي قدّمت فيه ما تميّز عن المطبوعات السابقة، وبخاصّةٍ منها ما ذُكِرَ أنّه محقّق ومُخرَّج!! ضارباً الصفحَ عن تناولها أو نَقْدِها.

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.

وكتبه

علي بن حسن

أبو الحارث الحلبي الأثري

٢٤ / ربيع الثاني ١٤١٦هـ

---

(١) «ابن القيّم حياته وآثاره» (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥) للشيخ بكر أبو زيد.

(٢) وذٰلك عن نسخةٍ مخطوطة قدّمها إليّ الأخُ الودود الفاضلُ أحمد الجُهَني، وهو من طَلَبَة العلم القاطنين في جُدَّة، فجزاه اللهُ تعالى خيرَ الجزاء، ونفعه ونفع بهِ، وترى صورتَها في آخِرِ الكتاب إن شاء الله.

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وبه نستعين

سُئل الشيخُ الإمامُ العلاَّمةُ المُتقنُ الحافظُ الناقدُ شمسُ الدين أبو عبد الله، محمَّد بن الشيخ تقيّ الدين أبي بكر، المعروف بابن قيِّم الجوزيّة ـ زاده اللهُ من فضله ـ:

ما تقولُ السادةُ العُلماءُ، أئمّةُ الدين ـ رضي اللهُ عنهم أجمعين ـ في رجلٍ ابْتُليَ ببليّةٍ، وَعَلِمَ أنها إن استمَّرت به أفسدتْ عليه دنياه وآخرتَه، وقد اجتهد في دَفْعِها عن نفسهِ بكلّ طريق، فما يزدادُ إلا توقُّداً وشدّة؛ فما الحيلةُ في دفعها؟ وما الطريقُ إلى كشفها؟

فرحم الله مَنْ أعان مُبْتَلَى، واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عونِ أخيه[1]، أفتونا مأجورين، رحمكم اللهُ.

فكَتَبَ الشيخُ رضي الله عنه:

الحمدُ للهِ، أمّا بعدُ:

---

(١) إشارة إلى ما صحّ عن النبيِّ ﷺ بهذا اللفظ، وهو حديثٌ رواه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٦٩٩) عن أبي هُريرة رضي الله عنه.

فقد ثبتَ في «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أَنْزَلَ اللهُ داءً إلَّا أنزلَ لهُ شِفاءً».

وفي «صحيح مسلم»[2] من حديث جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لِكُلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيبَ دواءُ الدَّاءِ؛ بَرَأَ بإِذْنِ اللهِ».

وفي «مسند الإمام أحمد»[3] من حديث أُسامة بن شَريك، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ لم يُنْزِلْ داءً إلَّا أنزلَ لهُ شِفاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ».

وفي لفظ: «إنَّ اللهَ لم يضعْ داءً إلَّا وضعَ له شِفاءً، أو دواءً، إلَّا داءً واحداً»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ! ما هو؟ قال: «الهرمُ». قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ صحيحٌ»[4].

وهذا يَعُمُّ أدواءَ القلب والروحِ والبَدَنِ وأدويتَها، وقد جعلَ النبيُّ ﷺ الجهلَ داءً، وَجعل دواءَه سؤالَ العلماء:

فروى أبو داودَ في «سننه»[5] من حديث جابر بن عبد الله؛ قال: «خَرَجْنا

---

(١) (برقم: ٥٣٥٤).

(٢) (برقم: ٢٢٠٤).

(٣) (٤ / ٢٧٨).

ورواه الحميدي (٨٢٤)، وابن أبي شيبة (٨ / ٢)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وسنده صحيحٌ، وفي الباب عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٤) في نسختنا مِن «الترمذي»: «... حسنٌ صحيحٌ».

(٥) (برقم: ٣٣٦)، وهو حديثٌ حَسَنٌ.

وفي سندِهِ اختلافٌ كثيرٌ، انظر تحقيقه في تعليقي على «مِفتاح دار السعادة» (١ / ٣٦٨) للمصنِّف رحمه الله.

في سفرٍ، فأصابَ رجُلاً منَّا حجرٌ، فشَجَّهُ في رأسه، ثمَّ احْتَلَمَ، فسألَ أصحابَهُ فقال: هل تجدُون لي رُخْصَةً في التَّيَمُّمِ؟ قالوا: ما نجدُ لك رُخْصةً، وأنتَ تَقْدِرُ على الماءِ، فاغْتَسَلَ فماتَ، فلمَّا قَدِمْنا على النَّبيِّ ﷺ أُخْبِرَ بذلكَ، فقالَ: «قَتَلُوهُ؛ قَتَلَهُمُ اللهُ! ألا سألوا إذْ لم يَعْلَمُوا؟ فإنَّما شِفَاءُ العِيِّ السُّؤالُ، إنَّما كانَ يكفيهِ أن يتيمَّمَ ويعصِرَ - أو يَعْصِبَ - على جرحهِ خِرْقَةً، ثمَّ يَمْسَحَ عليها، ويَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ».

فأخبر أنَّ الجهلَ داءٌ، وأنَّ شِفاءَه السؤالُ.

وقد أخبر الله سبحانه عن القرآنِ أنه شفاءٌ، فقال تعالى: ﴿ولَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أعْجَمِيّاً لَقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمَنوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و(مِن) ها هُنا لبيانِ الجنسِ لا للتَّبعيضِ (١)؛ فإنَّ القرآنَ كلَّه شفاءٌ ورحمة للمؤمنين، كما قال في الآية المتقدِّمةِ، فهو شفاءٌ للقلوبِ من داء الجهلِ والشكِّ والرَّيْبِ، فلم يُنزلِ اللهُ سبحانه وتعالى من السماءِ شفاءً قَطُّ أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظمَ ولا أنجعَ في إزالةِ الدَّاءِ منَ القرآنِ.

وقد ثبت في «الصحيحين»(٢) من حديث أبي سعيدٍ؛ قال: «انطلقَ نفرٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ في سَفْرةٍ سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياءِ العرب فاستضافوهم؛ فأبَوْا أن يُضيِّفُوهُمْ. فَلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحيِّ، فسَعَوْا له بكُلِّ شيءٍ؛ فلم ينفعْهُ شيءٌ، فقالَ بعضهم لبعضٍ: لو أتَيْتُم هؤلاءِ الرَّهطَ الَّذين نزلوا، لعلَّهُ أن يكونَ عِندَ بعضهم شيءٌ، فأتوهم، فقالوا: يا أيُّها الرَّهطُ! إن سيِّدنا لُدِغَ،

---

(١) قارن بـ «خزانة الأدب» (٣ / ٢٧٠) و(٨ / ١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٤١٧)، ومسلم (٢٢٠١).

وسعينـا لهُ بكـلِّ شيءٍ لا ينفعُـهُ شيءٌ! فهـل عِنْدَ أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعم، والله إنِّي لأرقي، ولكنْ والله لقدِ اسْتضفناكم فلم تُضَيِّفُونا، فما أنا بِرَاقٍ حتّى تجعلوا لي جُعْلاً، فصالَحُوهُم على قطيعٍ من الغنمِ، فانطلقَ يَتْفُلُ عليهِ ويقـرأ: ﴿الحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ فكأنّما نُشِطَ من عِقَالٍ. فانطلقَ يمشي، ومـا به قَلَبَةٌ. فأوْفَوْهُم جُعْلَهُمُ الّذي صالحوهم عليه. فقالَ بعضهم: اقْتَسِمُوا، فقال الّذي رَقَى: لا نَفْعَلُ حتّى نَأْتِيَ النّبيَّ ﷺ فنذكُرَ له الذي كانَ، فَنَنْـظُرَ ما يَأْمُـرُنا. فَقَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: «وما يُدْرِيكَ أنّها رُقْيَةٌ؟» ثُمَّ قالَ: «قد أصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا واضْرِبُوا لي مَعَكُم سَهْماً».

فقد أثّر هٰذا الدواءُ في هٰذا الداءِ وأزاله حتى كأنْ لم يكُن؛ وهو أسهلُ دواءٍ وأيسرُهُ، ولو أحسنَ العبدُ التداويَ بالفاتحةِ لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء.

ومكثتُ بمكَّةَ مدةً تعتريني أدواءٌ، ولا أجدُ طبيباً ولا دواءً، فكنتُ أُعالجُ نفسي بالفاتحةِ، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصِفُ ذٰلك لمن يشتكي ألماً، فكان كثيرٌ منهم يبرأُ سريعاً.

ولكنْ ها هنا أمرٌ ينبغي التفطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ وَالأدعيـة التي يُستشفى بهـا ويُرقى بهـا، هي في نفسهـا نافعـةٌ شافية، ولكنْ تستدعي قَبولَ المَحَـلِّ، وقـوةَ همَّـةِ الفاعل؛ وتأثيره، فمتى تخلَّفَ الشفاءُ كان لضعفِ تأثيرِ الفاعلِ، أو لعدمِ قَبولِ المَحَلِّ المنفعلِ، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنعُ أن ينجعَ فيه الدواءُ، كما يكونُ ذٰلك في الأدوية والأدواء الحِسِّية؛ فإنَّ عدمَ تأثيرها قد يكون لعدمِ قَبولِ الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكونُ لمانعٍ قويٍّ يمنع من اقتضائه أثَرَهُ، فإن الطبيعةَ إذا أخذت الدواء بِقَبولٍ تامٍّ كان انتفاع البدن به بِحَسْبِ ذٰلك القَبول، وكذٰلك القلب إذا أخذ الرُّقى والتعاويذ بقَبولٍ تامٍّ، وكانَ للراقي نفسٌ فعَّالةٌ وهمَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ؛ أثّر في إزالة الداء.

وكـذلـك الـدُّعـاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحُصولِ المـطلوب، ولكن قد يتخلَّف عنه أثرُهُ، إمَّا لضعفٍ في نفسه ـ بأن يكون دعاءً لا يُحِبُّـه اللـه لما فيه من العدوان ـ، وإمَّا لضعفِ القلب وعدم إقبالِه على الله وجمعيَّتِه عليه وقتَ الدعاء ـ فيكون بمنزلة القَوْس الرَّخْو جدّاً، فإن السـهم يخرج منـه خروجـاً ضعيفـاً ـ، وإمَّـا لحصول المانع من الإجابة؛ من أكل الحرام، والظلم، ورَيْنِ الذنوب على القلوب، واستيلاءِ الغفلة والشهوة واللهو وغَلَبتها عليها.

كما في «مستدرك الحاكم»[1] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ادْعُوا اللهَ وأنتم مُوْقِنُونَ بالإجابةِ، واعْلَمُوا أنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ دُعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ لاهٍ».

فهـذا دواءٌ نافـعٌ مُزيلٌ للداء، ولكنَّ غفلةَ القلب عن الله تُبـطل قُوَّته، وكذلك أكْلُ الحرام يُبطل قُوَّتَه ويُضعفها، كما في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناسُ: إنَّ اللهَ طيِّبٌ، لا يقبلُ إلاّ

---

(1) (1 / 493).

ورواه الترمذي (3479)، وابن حبان في «المجروحين» (1 / 372)، والخطيب في «تاريخه» (2 / 356).

وفي سنده صالحُ المُرِّيّ، وهو متروكٌ كما قال المنذري والذهبيُّ.

وأورد شيخُنا الألباني في «الصحيحة» (594) شاهداً للحديث رواه أحمد (2 / 177)!

قلتُ: ولا يُقـوِّيه؛ إذ فيه ابن لهيعـة، وهو مشهورٌ بضعفه؛ فالمشهودُ له شديدُ الضعف، وشاهده ضعيفٌ فلا يعضده، لذا؛ قال المُناوي في «فيض القدير» (1 / 229): «فمَنْ زعم حُسْنَه ـ فضلاً عن صحَّته ـ؛ فقد جازفَ».

وأمَّا الهيثمي في «المجمع» (10 / 148)؛ فقد حسَّنه!!

(2) (برقم 1015).

طَيِّباً، وإنَّ اللهَ أمرَ المُؤمنينَ بما أمرَ بِهِ المُرْسَلينَ، فقال: ﴿يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذكرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يديهِ إلى السَّماءِ: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعَمُهُ حرامٌ، ومشرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فأنَّى يُسْتَجابُ لِذلك؟».

وذكر عبدُ الله بن الإمام أحمد في كتاب «الزهد»(١) لأبيه: «أصاب بني إسرائيل بلاءٌ، فخرجوا مَخْرَجاً، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نبيِّهم أن أخبرهم: إنَّكم تَخْرُجون إلى الصعيد بأبدانٍ نجسةٍ، وترفعون إليَّ أكُفَّاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتَكم من الحرام، الآنَ حينَ اشتدَّ غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا منِّي إلا بُعداً».

وقال أبو ذَرّ: يكفي من الدعاء مع البِرّ، ما يكفي الطعامَ من المِلْحِ(٢).

١ ـ فَصْلٌ [الدعاءُ دواءٌ]:

والدعاءُ من أنفع الأدوية، وهو عدوُّ البلاء، يدافعه ويُعالِجُه، ويمنع نزولَه، ويرفعه، أو يُخَفِّفه إذا نزل، وهو سلاحُ المؤمن.

كما روى الحاكمُ في «صحيحه»(٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي

(١) (١ / ١٧٦) بنحوه عن مالك بن دينار.

(٢) «الزهد» (٢ / ٧٧) لأحمد.

(٣) أي: «المستدرك»! وتسميته «الصحيح» تجوُّز شديد!!

والحديث فيه (١ / ٤٩٢)، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو يعلى (٤٣٩)، وابن عدي (٦ / ٢١٨١)، والقُضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣)، وهو حديثٌ ضعيفٌ جدّاً، فيه محمد بن الحسن الهَمْداني وهو متروكٌ.

وانظر ـ لتفصيل القول ـ: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٧٩) لشيخنا الألباني.

الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّعاءُ سِلاحُ المؤمنِ، وعِمَادُ الدِّين، ونُورُ السَّماواتِ والأرضِ».

وله مَعَ البلاء ثلاثُ مقاماتٍ:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فَيَدْفعهُ.

الثاني: أن يكونَ أضعفَ من البلاء فيقوى عليه البلاءُ، فَيُصاب به العبدُ، ولكن قد يُخَفِّفه، وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما ويمنعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه.

وقد روى الحاكم في «صحيحه»[1] من حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ. والدُّعاءُ ينفَعُ مِمَّا نزلَ ومِمَّا لم يَنْزِل، وإنَّ البلاءَ لَيَنْزِلُ فَيَلْقَاهُ الدُّعاءُ فيعْتَلِجَانِ إلى يومِ القِيامةِ».

وفيه[2] أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الدُّعاءُ ينفعُ مِمَّا نزلَ

---

(١) (١ / ٤٩٢)، وقال: «صحيح الإسناد!»، وتعقَّبه الذهبي بقولِهِ: «زكريَّا مُجْمَعٌ على ضعفِهِ». وروى الحديثَ الطبراني في «الأوسط» (٤٦١٥ ـ مجمع البحرين)، وفي «الدعاء» (٣٣)، والبزَّار (٣ / ٢٩)، والخطيب في «تاريخه» (٨ / ٤٥٣)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٤١١) ـ وضعَّفه ـ.

وضعَّفه ـ بزكريَّا ـ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٤٦)

ويشهدُ للحديثِ ما رواه أحمد (٥ / ٢٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠ / ٨٦)، والقُضاعي (٨٦٢) عن مُعاذ بن جبل ـ دون فقرة الاعتلاج ـ، وفيه ضعفٌ وانقطاعٌ.

وحسَّنه شيخنا في «صحيح الجامع الصغير» (٦ / ٢٤١).

(٢) «المستدرك» (١ / ٤٩٣)، وضعَّفه الذهبيّ في «تلخيصه»، ورواه الترمذي (٣٥٤٨)، وضعَّفه.

قلتُ: ويشهد له ما قبلَه.

وحسَّنه شيخنا في «صحيح الجامع» (٣٤٠٩).

ومِمَّا لم ينزلْ، فعليكُم عِبادَ اللهِ بالدُّعاءِ».

وفيه[1] أيضاً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «لَا يَرُدُّ القَدَرَ إلَّا الدُّعاءُ، ولا يزيدُ في العُمرِ إلَّا البِرُّ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصيبُهُ».

٢ ـ فَصْلٌ [الإلحاح في الدعاءِ]:

ومن أنفع الأدويةِ؛ الإلحاحُ في الدعاء.

وقد روى ابنُ ماجه في «سننه»[2] من حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يسألِ اللهَ يغضبْ عليهِ».

وفي «صحيح الحاكم»[3] من حديث أنس عن النبي ﷺ: «لا تَعْجَزُوا في

---

(١) «المستدرك» (١ / ٤٩٣).

ورواه ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٤١)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٥ / ٢٧٧)، والبغوي (١٣ / ٦)، وابن حبان (١٠٩٠)، والقُضاعي (٨٣١)، وسنده منقطع.

ولـه شاهدٌ عن سلمان؛ أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤ / ١٦٩)، والقُضـاعي في «مسند الشهاب» (٢ / ٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٦ / ٣٠٨)، وفي «الدعاء» (٣٠).

وفيه أبو مودودٍ وهو ضعيفٌ؛ فهو به ـ إن شاء الله ـ قويٌّ.

(٢) (٣٨٢٧).

ورواه التـرمـذي (٣٣٧٠)، والبخـاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، وأحمد (٢ / ٤٤٢ و٤٧٧)، والحاكم (١ / ٤٩١)، والبيهقي في «الدعوات الكبيرة» (رقم ٢٢).

وفي إسناده أبو صالحٍ الخُوزيّ، قال فيه أبو زُرعة: «لا بأس به»، كما في «الجرح والتعديل» (٩ / ٣٩٣).

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧ / ٣٠٩): «وهذا إسنادٌ لا بأس به».

وللحديث شاهدٌ ـ بسند ضعيف ـ؛ رواه الطبراني في «الدعاء» (رقم ٢٤) عن أنس.

(٣) (١ / ٤٩٣).

=

الدُّعاءِ: فإنَّهُ لا يَهْلِكُ مع الدُّعاءِ أحدٌ».

وذكر الأوزاعي عن الزُّهري عن عُروةَ عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعاء»[1].

وفي «كتاب الزهد»[2] للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مُوَرِّقٌ: ما وجدتُ للمؤمن مَثَلاً إلَّا رجلاً في البحر على خَشَبةٍ، فهو يدعو: يا ربِّ! يا ربِّ! لعلَّ الله عزَّ وجلَّ أن يُنجيه.

٣ ـ فَصْلٌ [استعجال استجابة الدعاءِ]

ومن الآفات التي تمنع ترتُّبَ أثرِ الدعاء عليه: أن يستعجلَ العبدُ، ويستبطىءَ الإجابةَ، فيستحسر ويَدَعَ الدعاء، وهو بمنزلة مَنْ بَذَرَ بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعهَّده ويسقيه، فلمَّا استبطأ كماله وإدراكه؛ تركه وأهمله!

وفي «صحيح البخاري»[3] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه أن رسول

= ورواه الضياء في «الأحاديث المختارة» (١٧٦٠) و(١٧٦١)، والعُقيل في «الضعفاء» (٣ / ١٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥ / ١٦٧٤)، وابن حبان (٨٧١)، وأبو نُعيم في «ذِكر أخبار أصبهان» (٢ / ٢٣٢).

وفي إسنادِه عمرُ بن محمد بن صُبْهان، وهو متروك، ومنْ ظنَّه عُمر بن محمد بن زيد ـ كالحاكم وابن حبان والضياء ـ؛ فقد وهم.

وانظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٨٤٣) لشيخنا.

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (٢٠)، والعُقيلي في «الضُّعفاء» (٤ / ٤٥٢)، وابن عدي (٧ / ٢٦٢١).

وقال الحافظُ ابنُ حجر في «التلخيص الحبير» (٢ / ٩٥):

«تفرَّد به يوسف بن السَّفْر بن الأوزاعي، وهو متروكٌ، وكان بقيَّة ربَّما دلَّسه»!

(٢) (٢ / ٢٧٣)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٢٣٥).

(٣) (برقم ٥٩٨١).

الله ﷺ قال: «يُسْتَجابُ لأحدِكُم ما لم يَعْجَلْ، يقولُ: دَعوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لي».

وفي «صحيح مسلم»[1] عنه: «لا يزالُ يُسْتَجابُ للعبدِ، ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قَطِيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجلْ». قيلَ: يا رسولَ اللهِ! وما الاستعجالُ؟ قالَ: «يقولُ: قد دعوتُ وقد دعوتُ؛ فلم أرَ يستجيبُ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عندَ ذلك ويَدَعُ الدُّعاءَ».

وفي «مسند أحمد»[2] من حديث أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما لم يستعجل». قالوا: يا رسولَ اللهِ! كيف يستعجلُ؟ قالَ: «يقولُ: قد دعوتُ ربِّي فلم يَسْتَجِبْ لي».

٤ ـ فَصْلٌ [أوقات الاستجابة]:

وإذا جُمِعَ مع الدعاء حضورُ القلب وجمعيَّتُه بِكُلِّيَّتِه على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي:

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقْضى

---

(١) (برقم ٢٧٣٥).

(٢) (٣ / ١٩٣، ٢١٠).

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٢٠ ـ مجمع البحرين)، وفي «الدعاء» (٢١)، وأبو يعلى (٥ / ٢٤٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ٢٢١٩).

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٤٧): «وفيه أبو هلال الراسي، وهو ثقةٌ، وفيه خلاف».

قلت: فالسند حسن.

وله طريقٌ أخرى عند البزَّار (٤ / ٣٧) بسند فيه ضعفٌ.

الصلاة من ذٰلك اليوم[1]، وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خُشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الربّ، وذلَّةً له وتضرُّعاً وَرِقَّةً.

واستقبل الداعي القبلةَ.

وكان على طهارة.

ورفع يديه إلى الله.

وبدأ بحمد الله والثناء عليه.

ثم ثنَّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ.

ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفارَ.

ثم دخل على الله، وألحَّ عليه في المسألة، وتملَّقه ودعاه رغبةً ورهبةً.

وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

وقدمَّ بين يدي دعائه صَدَقَةً، فإن هٰذا الدعاء لا يكاد يُرَدُّ أبداً، ولا سيَّما إن صادف الأدعية التي أخبر النبيُّ ﷺ أنها مَظِنَّةُ الإجابة، أو أنَّها متضمنَّةٌ للاسم الأعظم.

فمنها ما في «السنن» و«صحيح ابن حِبَّان»[2] من حديث عبد الله بن

---

(١) وفي ذٰلك نظرٌ ليس هٰذا موضعَ بيانِه.

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن حبان (٨٩١)، وأحمد (٥ / ٣٥٠)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٧١)، والحاكم (١ / ٥٠٤).

ونقل المنذري في «مختصر سُنن أبي داود» (٢ / ١٤٤) عن شيخهِ أبي الحسن المقدسي قوله:

«وهو إسنادٌ لا مطعن فيه، ولا أعلم أنَّه رُوي في هٰذا الباب حديثٌ أجودَ إسناداً منه».

بُريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهمَّ إنِّي أسألُك بأنِّي أشهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلهَ إلاَّ أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ الَّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحدٌ. فقالَ: لقد سألَ اللهَ بالاسمِ الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجابَ».

وفي لفظٍ: «لقد سألتَ اللهَ باسمِهِ الأعظمِ».

وفي «السنن» و«صحيح ابن حِبَّان»[1] أيضاً من حديث أنس بن مالك: «أنَّـهُ كانَ مع رسولِ اللهِ ﷺ جالساً ورجلٌ يُصَلِّي، ثمَّ دَعا فقالَ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لكَ الحمدُ. لا إلهَ إلاَّ أنتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، يا حَيُّ يا قَيُّومُ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: لقد سألَ الله باسمِهِ العظيمِ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به أعطى».

وأخرج الحديثينِ الإمامُ أحمدُ في «مُسنده»[2].

وفي «جامع الترمذي»[3] من حديث أسماءَ بنت يزيدَ أن النبي ﷺ؛ قال: «اسمُ اللهِ الأعظمُ في هاتينِ الآيتينِ ﴿وإلَهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ

---

(١) رواه النَّسائي (٣ / ٥٢)، وأبو داود (١٤٩٥)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، والترمذي (٣٥٤٤)، وابن حبان (٨٩٣)، وأحمد (٣ / ١٥٨ و٢٦٥ و٢٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠٥)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٧٢) من طرق عن أنس، وبعضُها صحيحٌ لذاتِهِ.

(٢) سبق العزوُ إليه.

(٣) (برقم ٣٥٤٤).

وروراه أبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وأحمد (٦ / ٤٦١)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٣٢)، والدارمي (٢ / ٤٥٠)، والطبراني في «الدعاء» (١١٣)، وفي «الكبير» (٢٤ / ١٧٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٨)، وعبد بن حُميد (٢٨٧).

وفي إسناده عُبيد الله بن أبي زياد، وشهر بن حَوْشَب وهما ضعيفان.

ولكنّ له شاهداً أخرجه ابن ماجه (٢ / ١٢٦٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١ / ٦٣)، =

الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وفاتحةِ آلِ عمرانَ: ﴿الٓمٓ . اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾.

قال الترمذيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي «مسند الإمام أحمد» و«صحيح الحاكم»[1] من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلِظُّوا بـ (يا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ)».

يعني: تعلَّقوا بها والْزَمُوهَا وداوِمُوا عليها.

وفي «جامع الترمذي»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا أَهَمَّهُ الأَمْرُ رَفَعَ رأسهُ إلى السَّماءِ، وإذا اجْتَهَدَ في الدُّعاء قال: يا حَيُّ يا قَيُّومُ».

وفيه[3] أيضاً من حديث أنس بن مالك؛ قال: «كانَ النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ

= والحاكم (١ / ٥٠٥)، والطبراني (٨ / ٢١٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٦) عن أبي أسامة بسند حسن، وسيورده المصنِّف ـ بَعْدُ ـ.

(١) رواه أحمد (٤ / ١٧٧)، والحاكم (١ / ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢ / ١ / ٢٥٦) عن ربيعة بن عامر، وسنده صحيحٌ.

وحديث أبي هُريرة؛ رواه الحاكم (١ / ٤٩٩) بسند فيه رِشْدين بن سعد، وهو ضعيفٌ.

وحديث أنس؛ رواه الترمذي (٣٥٢٥)، والطبراني في «الدعاء» (٩٣ و ٩٤) من طريقين؛ فالحديث صحيحٌ بلا ريب.

(٢) (رقم ٣٤٣٢).

وقال الترمذي: «هٰذا حديثٌ غريبٌ»؛ أي: ضعيفٌ.

وعلَّته إبراهيم بن الفضل المَخْزُوميّ، وهو متروكٌ؛ فالحديثُ ضعيفٌ جدّاً.

(٣) (برقم ٣٥٢٢).

ورواه ـ أيضاً ـ ابن السُّنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٩)، وفي سنده يزيد الرَّقاشيّ. =

قال: يا حَيُّ يا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ».

وفي «صحيح الحاكم»[1] من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «اسمُ اللهِ الأعظمُ في ثلاثِ سورٍ من القرآنِ: البقرةِ، وآل عمرانَ، وطه».

قال القاسم: فالتمستها فإذا هي: ﴿الحيّ القيُّوم﴾.

وفي «جامع الترمذي» و«صحيح الحاكم»[2] من حديث سَعْد بن أبي وقَّاص عن النبي ﷺ؛ قال: «دَعْوَةُ ذي النُّون، إذ دعا وهو في بَطْنِ الحوتِ: ﴿لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] إنَّه لم يَدْعُ بها مُسْلِمٌ في شيءٍ قطُّ إلَّا استجابَ اللهُ لهُ».

قال الترمذي: حديثٌ صحيحٌ.

وفي «مُستدرك»[3] الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي ﷺ: «ألا أُخبِرُكُم بشيءٍ إذا نزلَ بِرَجُلٍ أمرٌ مُهِمٌّ، فدعا به يُفَرِّجِ اللهُ عنهُ؟». يعني: دُعَاءَ ذي النُّونِ.

وفي «صحيحه»[4] أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول: «هَل أَدُلُّكُم

= وله شاهد في «المستدرك» (١ / ٥٠٩) عن ابن مسعود وصحَّحه!

وتعقَّبه الذهبيُّ بقوله: عبد الرحمٰن لم يسمع من أبيه، وعبد الرحمٰن ومَن بعده ليسوا بحجَّةٍ؛ فالحديث به حَسَنٌ.

(١) (١ / ٥٠٥).

وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٠)، والحاكم (١ / ٥٠٥) و(٢ / ٣٨٢)، والنَّسائي في «عمل اليوم» (٦٥٥)، وأحمد (١٤٦٢)، وأبو يعلى (٢ / ١١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤) بسند حسن.

(٣) هو لفظٌ آخر للروايةِ السابقةِ ذاتها.

(٤) (١ / ٥٠٥ ـ ٥٠٦). =

على اسمِ اللهِ الأعظمِ ؟ دُعاءُ يُونسَ. قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! هل كانت ليونسَ خاصَّةً؟ فقال: ألا تَسْمَعُ قولَهُ تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ فأيُّما مُسْلِمٍ دعا بها في مرضه أربعينَ مَرَّةً فماتَ في مرضِهِ ذٰلك أُعْطِيَ أجرَ شَهيدٍ، وإنْ بَرأَ بَرَأَ مَغفوراً له».

وفي «الصحيحين»(١) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إلـه إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إله إلَّا اللهُ ربُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريمِ».

وفي «مسند الإمام أحمد»(٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: «علَّمَني رسولُ اللهِ ﷺ إذا نَزَلَ بي كَرْبٌ أن أقولَ: لا إله إلَّا اللهُ الحلِيمُ الكريمُ، سُبْحَانَ اللهِ وتباركَ اللهُ رَبُّ العرشِ العظيمِ، والحمدُ للهِ رب العالمينَ».

وفي «مسنده»(٣) أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصابَ أحداً قطُّ هَمٌّ ولا حُزْنٌ، فقالَ: اللهمَّ إنِّي عبدُكَ ابنُ عبدِكَ ابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتِي بِيَدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤكَ، أسألكَ اللهمَّ

= ورواه ابن جرير في «تفسيره» (١٧ / ٦٥)، وفيه عمرو بن بكر السَّكْسَكي؛ متروكٌ.
وما قبلَه يُغني عنه.

(١) رواه البخاري (٥٩٨٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) (رقم ٧٠١)، والحاكم (١ / ٥٠٨). وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر.

(٣) (١ / ٣٩١ و٤٥٢)، والحاكم (١ / ٥٠٩)، وابن حبان (٩٧٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن السُّنِّي (٣٤٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) بسند صحيح.

وانظر: «شرح المسند» (١٢ ٣٧) للشيخ أحمد شاكر، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٨) لشيخنا الألباني.

بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو علَّمْتَهُ أحداً من خلقِكَ. أو أنْزَلْتَهُ في كِتَـابِكَ أو اسْتَأْثرتَ به في علمِ الغيبِ عندكَ: أن تجعلَ القُرآن العظيمَ رَبيعَ قلبي، ونُورَ صدري، وجلاءَ حُزْني، وذهابَ همِّي؛ إلاَّ أذهبَ الله عزَّ وجلَّ همَّه وحَزَنَهُ، وأبدلَهُ مكانه فرحاً، فقيل: يا رسولَ اللهِ! ألا نتعلَّمُها؟ قال: بلى ينبغي لمن سَمِعَها أن يتعلَّمها».

وقال ابن مسعود: «ما كَرَبَ نبيٌّ من الأنبياء، إلاَّ استغاث بالتسبيح».

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المُجابين في الدعاء»[1] عن الحسن عن [أنس بن مالك][2]؛ قال: «كان رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يُكنى أبا مِعْلقَ، وكان تاجراً يتَّجر بمالٍ له ولغيره، يضربُ به في الآفاق، وكان ناسكاً وَرِعاً، فخرج مرَّة فلقيه لصٌّ مُقنَّع في السلاح. فقال له: ضَعْ ما معك، فإنِّي قاتِلُك، قال: ما تريدُه من دمي؟ شأنُك بالمال. قال: أمَّا المال فلي، ولست أريدُ إلاَّ دمك. قال: أمَّا إذا أبيتَ فذَرْني أُصلِّي أربع ركعات. قال: صَلِّ ما بدا لك. فتوضَّأ ثم صلَّى أربع ركعات. فكان من دعائِهِ في آخرِ سجدة أن قال: يا ودودُ! يا ذا العرش المجيد! يا فعالاً لما يريد! أسألك بعزِّك الذي لا يُرام، ومُلكك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركانَ عرشِك: أن تكفيني شرَّ هذا اللص. يا مُغيث! أَغِثْني. يا مُغيثُ! أَغِثْني. ثلاث مرات. فإذا هو بفارسٍ قد أقبل بيدهِ حَرْبَةٌ قد وضعها بين أُذُني فرسهِ، فلما بَصُرَ به اللصُّ أقبل نحوه، فطعنه فقتله. ثم أقبل إليه فقال: قُم. فقلت: مَن أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم. فقال: أنا مَلَكٌ من أهل السماء الرابعة، دعوتَ بدعائك الأول فسمعتُ لأبواب السماء قَعْقَعَةً. ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسمعتُ لأهل السماء

---

(١) (برقم ٢٣)، وسنده ضعيفٌ.

(٢) ما بين المعكوفين استدركته مِن «مُجابي الدعوة» (رقم ٢٣)، و«أُسد الغابة» (٦ / ٢٩٥)، وفي «الإصابة» (١٢ / ٢٤): أُبَيٍّ بن كعب! وهو خطأ.

ضجّة. ثم دعوتَ بدعائك الثالث، فقيل لي: هذا دعاءُ مكروبٍ. فسألتُ الله أن يولّيني قتله». قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء؛ استجيب له، مكروباً كان أو غير مكروب.

٥ ـ فَصْلٌ [من أسرار الدعاءِ]:

وكثيراً ما نجدُ أدعيةً دعا بها قومٌ فاستُجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبِهِ وإقبالُه على الله، أو حَسَنةٌ تقدَّمت منه جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكراً لحسنته، أو صادفت وقتَ إجابة، ونحو ذلك فأجيبت دعوته، فيظنُّ الظانُّ أن السرَّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذُه مجرّداً عن تلك الأمُور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجلٌ دواءً نافعاً، في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به؛ فظنَّ غيرهُ أن استعمال هذا الدواء بمجرَّدهِ كافٍ في حصول المطلوب؛ فإنه يكونُ بذلك غالطاً. وهذا موضعٌ يغلط فيه كثير من الناس.

ومن هذا أنه قد يتّفق دعاؤه باضطرارٍ عند قبرٍ فيُجاب، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ السرَّ للقبر[1]، ولم يعلم أنَّ السرَّ للاضطرار وصدقِ اللَّجْإِ إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيتٍ من بيوت الله؛ كان أفضلَ وأحبَّ إلى الله.

٦ ـ فَصْلٌ [الدعاءُ كالسِّلاح]:

والأدعيةُ والتعوُّذات بمنزلة السلاح، والسلاحُ بضاربه، لا بحدِّه فقط؛ فمتى كان السلاحُ سلاحاً تامّاً لا آفةَ به، والساعدُ ساعدٌ قويٌّ، والمانعُ مفقودٌ،

(١) ومن هنا دَخَلَ الغَلَطُ على كثيرٍ من مُؤلِّفي التَّاريخ والتراجم الَّذين نراهُم يكتبون عَقِبَ ترجمةِ بعض العُلماءِ أو الصُّلحاءِ: «والدعاءُ عند قبرِه مستجابٌ»!!

وليس الأمرُ كذلك بيقينٍ، وإنَّما الحالُ ـ في حقيقته ـ كما قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى.

حصلت به النِّكايةُ في العدو، ومتى تخلَّف واحدٌ من هٰذه الثلاثةِ؛ تخلَّف التأثيرُ.

فإذا كان الدعاءُ في نفسه غيرَ صالح، أو الداعي لم يجمعْ بين قلبِهِ ولسانِهِ في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانعٌ من الإجابة؛ لم يحصل الأثَرُ.

٧ ـ فَصْلٌ [بين الدعاء والقَدَر]:

وها هنا سؤالٌ مشهورٌ، وهو:

أن المدعوَّ به إن كان قد قُدِّرَ لم يكن بُدٌّ من وقوعِهِ، دعا به العبدُ أو لم يَدْعُ؛ وإن لم يكُن قد قُدِّر لم يقعْ، سواءٌ سألَهُ العبدُ أو لم يسأله؟!

فظنَّت طائفةٌ صحَّةَ هٰذا السؤال، فتركت الدعاءَ وقالت: لا فائدةَ فيه!

وهٰؤلاء ـ مع فَرْطِ جهلهم وضلالهم ـ مُتناقضون، فإنَّ طَرْدَ مذهبِهِم يوجبُ تعطيلَ جميع الأسباب.

فيقال لأحدهم: إن كان الشِّبَعُ والرِّيُّ قد قُـدِّرا لك فلا بُدَّ من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل. وإن لم يُقَدَّرا لم يَقَعا أكلت أو لم تأكل!

وإن كان الولدُ قد قُدِّر لك فلا بُدَّ منه وُطِئَت الزوجةَ والأمَـةَ أو لم تُطَأْ، وإن لم يُقدَّر لم يكن؛ فلا حاجةَ إلى التزوُّج والتسرِّي. وهلُمَّ جرًّا!

فهـل يقـولُ هٰذا عاقلٌ أو آدميٌّ؟ بل الحيوانُ البهيمُ مفطورٌ على مباشرة الأسباب التي بها قوامُهُ وحياتُهُ؛ فالحيواناتُ أعقلُ وأفهم من هٰؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً.

وَتَكايَسَ بعضُهم وقال: الاشتغالُ بالدعاء من باب التعبُّد المَحْض يُثيب اللهُ عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثيرٌ في المطلوب بوجهٍ ما، ولا فَرْقَ عند هٰذا المُتكـايس بين الـدعاء وبين الإمساكِ عنه بالقلب واللسان في التأثير في

حصولِ المطلوب، وارتباطُ الدعاء عندهم به كارتباط السكوتِ، ولاَ فَرْقَ.

وقالت طائفةٌ أخرى أَكْيَسُ من هٰؤلاء: بل الدعاءُ علامةٌ مجرَّدةٌ نَصَبها اللهُ سبحانه أمارةً على قضاء الحاجة، فمتى وَفَّق اللهُ العبد للدعاء كان ذٰلك علامةً له وأمارةً على أنَّ حاجتَه قد قُضيت.

وهٰذا كما إذا رأينا غيماً أسودَ بارداً في زمن الشتاء، فإنَّ ذٰلك دليلٌ وعلامةٌ على أنه يمطر.

قالوا: وهٰكذا حُكْمُ الطاعاتِ مع الثَّواب، والكفرِ والمعاصي مع العقاب، هي أماراتٌ مَحْضَةٌ لوقوع الثواب والعقاب، لا أنَّها أسبابٌ له.

وهٰكذا عندهم الكَسْرُ مع الانكسارِ، والحَرْقُ مع الإحراق، والإزهاق مع القتل. ليس شيءٌ من ذٰلك سبباً ألبتة، ولا ارتباطَ بينه وبين ما يترتَّب عليه، إلاَّ مجرَّد الاقتران العادي، لا التأثيرُ السَّبَبِيُّ!

وخالفوا بذٰلك الحِسَّ والعقلَ، والشرعَ والفطرةَ، وسائرَ طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصوابُ: أنَّ ها هنا قِسْماً ثالثاً، غيرَ ما ذكره السائلُ، وهو أن هٰذا المقدَّر قُدِّر بأسبابٍ، ومن أسبابِهِ الدعاءُ، فلم يُقَدَّر مُجَرَّداً عن سببه، ولكنْ قُدِّر بسببه، فمتى أتى العبدُ بالسبب وقع المقدورُ، ومتى لم يأتِ بالسبب انتفى المقدورُ. وهٰذا كما قُدِّر الشِّبَعُ والرِّيُّ بالأكل والشرب، وقُدِّر الولدُ بالوطء، وقُدِّر حصولُ الزرع بالبَذْر، وقُدِّر خروجُ نَفَسِ الحيوان بالذبح، وكذٰلك قُدِّرَ دخولُ الجنة بالأعمال، ودخولُ النار بالأعمال.

وهٰذا القسم هو الحقُّ، وهٰذا الذي حُرِمَهُ السائلُ ولم يُوَفَّق له.

وحينئذٍ؛ فالدعاءُ من أقوى الأسباب، فإذا قُدِّر وقوعُ المدعوّ به بالدعاء لم

يَصِحَّ أن يقال: لا فائدةَ في الدعاء! كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! وليس شيءٌ من الأسباب أنفعَ من الدعاء، ولا أبلغَ في حصول المطلوب.

ولمَّا كان الصحابةُ رضي الله عنهم أعلمَ الأمَّةِ بالله ورسوله ﷺ وأفقَهَهُم في دينه، كانوا أقْوَمَ بهٰذا السببِ وشروطهِ وآدابهِ من غيرهم.

وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوِّه، وكان أعظم جُنْدِهِ بِهِ، وكان يقول لأصحابه: «لستم تُنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء». وكان يقول: «إني لا أحمل هَمَّ الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتم الدعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه».

وأخذ الشاعر هٰذا المعنى فنظمه، فقال:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ ... مِنْ جُودِ كَفَّيْكَ مَا عَوَّدْتَنِي الطَّلَبَا

فمن أُلهم الدعاء؛ فقد أُريدَ به الإجابةُ، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي «سنن ابن ماجه»(١) من حديث أبي هُريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يسألِ اللهَ يَغْضَبْ عليه».

فهٰذا يدلُّ على أنَّ رضاءَه في سؤالهِ وطاعتهِ، وإذا رضي الربُّ تبارك وتعالى فكلُّ خيرٍ في رضاه، كما أنَّ كلَّ بلاءٍ ومُصيبةٍ في غضبه ومعصيتهِ.

وقد ذكر الإمامُ أحمدُ في «كتاب الزهد»(٢) أثراً: «أنا اللهُ، لا إلٰهَ إلَّا أنا،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) (ص ٥٢). وهٰذا الأثر أشبهُ ما يكون بالإسرائيليَّات.

إذا رضيتُ باركتُ، وليسَ لِبَــركتِي مُنتهى، وإذا غضبتُ لَعَنْتُ، ولَعْنَتِي تبلُغُ السَّابِعَ مِنَ الولَدِ».

ولقـد دلَّ العقلُ والنقلُ والفطرةُ وتجاربُ الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومِلَلِهـا ونِحَلِهَـا ـ على أنَّ التقـرُّب إلى ربِّ العالَمِين، وطلب مرضاته، والبرَّ والإحسان إلى خَلْقِه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادُها من أكبر الأسباب الجالبةِ لكل شرٍّ، فما استُجْلِبَتْ نِعَمُ الله تعالى واستُدْفِعَتْ نقمتهُ بمثل طاعته والتقرُّب إليه، والإحسان إلى خَلْقِه.

وقد رتَّب اللهُ سبحانه حصولَ الخيراتِ في الدنيا والآخرة وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة في كتابهِ على الأعمال ترتيبَ الجزاءِ على الشرط، والمعلول على العلَّة، والمُسَبَّب على السبب.

وهٰذا في القرآن يزيدُ على ألفِ موضعٍ.

فتـارةً يُرَتِّبُ الجـزاءَ على الحكم الكـوني والأمر الشرعي على الوصفِ المُناسِبِ له، كقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعـراف: ١٦٦]، وقـولـه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقـوله: ﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نكالاً﴾ [المائدة: ٣٨]، وقـولـه: ﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَـاتِ والمُؤمِنِينَ والمُؤمِنَـاتِ والقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصـدِّقِينَ والمُتَصَـدِّقَـاتِ والصَّـائِمِينَ والصَّـائِمَـاتِ والحَـافِظِينَ فُرُوجَهُم والحَافِظَاتِ والذَّاكرِينَ اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وهٰذا كثيرٌ جدّاً.

وتـارةً يُرَتِّبُـه عليه بصيغـةِ الشَّرْطِ والجزاءِ كقولهِ: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ

لَكُم فُرْقَـانـاً وَيُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لَكُم» [الأنفال: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُم فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾ [الجن: ١٦]، ونظائره.

وتـارةً يأتي بلام التعليل كقوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً﴾ [البقر: ١٤٣].

وتارةً يأتي بأداة (كي) الَّتي للتعليل، كقولِهِ تعالى: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم﴾ [الحشر: ٧].

وتارةً يأتي بباء السَّبَبِيَّةِ، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُم تَعْمَـلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُم تَكْسِبُـونَ﴾ [الأنعـام: ١٢٩]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وتـارة يأتي بالمفعـولِ لأجله ظاهراً أو محذوفاً، كقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقولِه: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا﴾ [الأنعام: ١٥٦]؛ أي: كراهةَ أن تقولوا.

وتـارةً يأتي بفاء السَّبَبِيَّة، كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِم فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِم فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]، وقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨] ونظائرِه.

وتـارة يأتي بأداة (لمَّا) الدالَّة على الجزاء كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ [الزخرف: ٥٥] ونظائره.

وتـارة يأتي بإنْ وما عَمِلَتْ فيه، كقـولـه: ﴿إِنَّهُم كَانُـوا يُسَـارِعُـونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقـولـه في ضدّ هٰؤلاء: ﴿إِنَّهُم كَانُـوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وتارة يأتي بأداة (لولا) الدالَّة على ارتباطِ ما قبلَها بما بعدَها كقولِه: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ و١٤٤].

وتارة يأتي بـ (لو) الدالَّة على الشرط، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُـمْ فَعَلُوا مَا يُوْعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وبـالجملة؛ فالقرآنُ من أوَّله إلى آخره صريحٌ في ترتيب الجزاء بالخير والشرِّ والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيبُ أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

ومَنْ فَقِهَ هٰذه المسألةَ وتأمَّلَها حقَّ التأمُّل انتفعَ بها غايةَ النفع، ومَن يَتَّكل على القَدَرِ جهلاً منه، وعَجْزاً وتفريطاً وإضاعةً؛ فيكون توكُّلهُ عجزاً، وعجزُهُ توكُّلاً!

بل الفقيهُ كلُّ الفقيهِ الذي يَرُدُّ القَدَرَ بالقدرِ، ويدفعُ القدرَ بالقدرِ، ويُعارض القدر بالقدر[١]، بل لا يُمكن للإنسان أن يعيشَ إلا بذٰلك، فإنَّ الجوعَ والعطش والبردَ وأنواعَ المخاوف والمحاذير هي من القَدَر، والخَلْقُ كلُّهُم ساعون في دفع هٰذا القدر بالقدر.

---

(١) انظر شرحاً مفصَّلاً، وبياناً موضِّحاً لهٰذه الجملةِ في كتاب «العبوديَّة» (ص ٣٧ ـ ٤٠) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وتعليقي عليه.

وهكذا مَنْ وَفَّقه الله وألهمه رُشْدَه يدفع قَدَرَ العقوبة الأُخروية بقدرِ التوبةِ والإيمـان والأعمال الصالحة، فهٰذا وِزانُ القَدَرِ المُخَوّف في الدنيا وما يضادُّه سواء، فَرَبُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يُناقض بعضُها بعضاً، ولا يُبطل بعضها بعضاً.

فهٰذه المسألةُ من أشرف المسائل لمن عرف قَدْرَها، ورعاها حَقَّ رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمرانِ بهما تتمُّ سعادتُه وفلاحُهُ:

أحـدُهما: أن يعرفَ تفاصيلَ أسبابِ الشرِّ والخيرِ، وتكونَ له بصيرةٌ في ذٰلـك بما يُشاهدهُ في العالم، وما جرّبه في نفسِ وغيره، وما سمعه مِن أخبارِ الأمَمِ قديماً وحديثاً.

ومِن أنفع ما في ذٰلك تدبُّرُ القرآن، فإنه كفيلٌ بذٰلك على أكمل الوجوه، وفيه أسبابُ الخير والشر جميعاً مُفَصَّلةً مُبَيَّنَةً؛ ثُمَّ السُّنَّة، فإنها شقيقةُ القرآن، وهي الـوحيُ الثاني، ومن صرف إليهما عنايتَهُ اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يُريانك الخيرَ والشرَّ وأسبابهما، حتى كأنَّك تُعاين ذٰلك عِياناً.

وبعد ذٰلك إذا تأمَّلْتَ أخبارَ الأمم وأيامَ اللهِ في أهل طاعته وأهل معصيته طَابَقَ ذٰلك ما عَلِمْتَهُ من القرآن والسنة، ورأيتَه بتفاصيل ما أخبر اللهُ به ووعد به، وعلمتَ من آيتهِ في الآفاق ما يدلُّك على أنَّ القُرآن حقٌّ، وأنَّ الرسولَ حقٌّ، وأنَّ اللهَ يُنجز وعدَه لا محالةَ؛ فالتاريخُ تفصيلٌ لجزئيَّاتِ ما عرَّفنا اللهُ ورسولهُ به من تفصيل الأسباب الكُلِّية للخير والشر.

٨ ـ فَصْلٌ [أوهام في الدعاء]:

الأمر الثاني: أن يحذَرَ مُغالَطَةَ نفسهِ على هٰذه الأسباب، وهٰذا مِن أهمِّ الأمور؛ فإن العبدَ يعرف أن المعصيةَ والغفلةَ من الأسباب المُضِرَّة له في دنياه

وآخرتـهِ ولا بُدَّ، ولكنْ تُغـالِـطُهُ نفسُـه بالاتّكـال على عفو الله ومغفرته تارةً، وبـالتسـويفِ بالتوبةِ تارة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوباتِ تارةً، وبـالعلم تارةً، وبالاحتجاجِ بالقَدَرِ تارةً، وبالاحتجاجِ بالأشباهِ والنظائرِ تارةً، والاقتداءِ بالأكابرِ تارة أخرى.

وكثيرٌ من النـاس يَظُنُّ أنّـه لو فعـل ما فعل ثم قال: «أستغفر الله» زال أثرُ الذنوب، وراح هذا بهذا!!

وقـال لي رجـلٌ من المنتسبين إلى الفقـه: أنا أفعلُ ما أفعلُ ثم أقول: سبحان الله وبحمده مئةَ مرة، وقد غُفِرَ ذلك أجمعهُ؛ كما صحَّ[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قالَ في يومٍ: سبحانَ اللهِ وبحمْدِهِ مئةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خطاياهُ وَلَوْ كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»!

وقال لي آخَرُ من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدُنا ما فعل، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً[2] وقد مُحي عنه ذلك!

وقال لي آخر: قد صحَّ[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «أَذْنَبَ عبدٌ ذنباً، فقالَ: أيْ رَبِّ! إنِّي أَصَبْتُ ذنباً فاغْفِرْ لي، فَغَفَرَ لهُ. ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ أذنبَ ذنباً آخَرَ، فقالَ: ربِّ إنِّي أصبتُ ذنباً فاغفر لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء اللهُ ثم أذنب ذنباً، فقال: أيْ رَبِّ! أَصَبْتُ ذنباً فاغْفِرْ لي، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويأخُذُ بهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي؛ فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ». قال: وأنا لا أشكُّ أن لي ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به!

وهذا الضَّرْبُ من الناس قد تعلَّق بنصوصٍ من الرجاءِ، واتَّكل عليها،

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٢)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) أي: سبعةَ أشواطٍ.

(٣) رواه البخاري (٧٠٦٨)، ومسلم (٢٧٥٨).

وتعلَّق بها بكلتا يديه، وإذا عُوتب على الخطايا والانهماك فيها سَرَدَ لك ما يحفظُهُ من سَعَةِ رحمة الله ومغفرتِهِ ونصوص الرجاء.

وللجُهَّالِ من هٰذا الضَّرب من الناس في هٰذا الباب غرائبُ وعجائبُ، كقولِ بعضهم:

وَكَثِّـرْ مَا اسْتَـطَعْتَ مِنَ الخَـطَايَا ... إِذَا كَانَ الـقُـدُومُ عَلَى كَرِيمِ!

وقولِ الآخر: التنزُّه من الذنوب جهلٌ بسعة عَفْوِ الله!

وقول الآخر: تركُ الذنوب جُرْأةٌ على مغفرة الله واستصغارٌ لها!

وقال أبو محمد بن حَزْم: رأيتُ بعض هٰؤلاء يقول في دعائه: اللهم إني أعوذُ بك من العصمة!!

ومِن هٰؤلاء المغرورين من يتعلَّق بمسألة الجَبْر، وأنَّ العبدَ لا فعل له ألبتَّة ولا اختيارَ، وإنما هو مجبورٌ على فعل المعاصي.

ومن هٰؤلاء من يغترُّ بمسألة الإرجاء[1]، وأنَّ الإيمانَ هو مُجرَّدُ التصديق، والأعمالَ ليست من الإيمان، وإيمانُ أفسقِ الناس كإيمان جبريل وميكائيل!

ومن هٰؤلاء من يغترُّ بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرةِ التردُّد إلى قبـورهم والتضـرُّع إليهم، والاستشفـاع بهم، والتوسُّل إلى الله بهم، وسؤاله

(١) وفي مسألة الإرجاء خَلْطٌ عظيمٌ اليومَ، فالناس فيها بين مُفْرِطٍ ومُفَرِّطٍ!!

ولقد بَلَغني عن (بعضهم) أنَّه (سوَّد) رسالةً يُثبت فيها أنَّ قولَ أهل السُّنة: «لا نُكفِّر أحداً مِن أهل القبلةِ بذنبٍ ما لم يستحلَّه»؛ يُعَدُّ من الإرجاءِ!!

وهٰـذا - إن صحَّ منـه - دليلٌ على فسـادِ رأيِهِ وكسادِ مَذْهَبِهِ، وسَوْأَةِ فكرِهِ... ولقد يدفعُ (الحـرصُ) الموهومُ أمثالَ هٰذا (الرجل) إلى مثل هٰذه الجرأةِ الباطلةِ بوساوسَ وشبهاتٍ (يحسبها) حُججاً ودلائل، وما هي بحججٍ ودلائل!!

ولْتُنْظَر رسالة شيخنا «حكم تارك الصلاة» (ص ٢٠) بمقدِّمتي عليها.

بحقِّهم عليه، وحُرمتهم عنده[1]!!

ومنهم من يغترُّ بآبائهِ وأسلافهِ، وأنَّ لهم عند الله مكانةً وصلاحاً، فلا يَدَعونه حتَّى يُخَلِّصوه، كما يُشاهَدُ في حضرةِ الملوك، فإنَّ الملوكَ تَهَبُ لخواصِّهم ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحدٌ منهم في أمر مُفْظِعٍ خلَّصه أبوه وجدُّه بجاهِهِ ومنزلتِهِ.

ومنهم من يغترُّ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غَنِيٌّ عن عذابه، وأنَّ عذابه لا يزيد في مُلْكِه شيئاً، ورحمتَهُ لا تَنْقُصُ من مُلْكِه شيئاً! فيقول: أنا مُضْطَرٌّ إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء. ولو أنَّ فقيراً مِسكيناً مُضطرّاً إلى شَرْبَةِ ماءٍ عند مَنْ في داره شطٌّ يجري لما منعه منها، فالله أكرمُ وأوسعُ؛ فالمغفرةُ لا تَنْقُصُه شيئاً، والعقوبةُ لا تزيد في مُلكِه شيئاً.

ومنهم من يغترُّ بفهمٍ فاسدٍ فَهِمَهُ هو وأضرابُهُ من نصوص القرآن والسنَّة، فاتَّكَلُوا عليه، كاتِّكالِ بعضِهم على قولِه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]، قالوا: وهو لا يرضى أن يكونَ في النار أحدٌ من إمَّته!

وهٰذا من أقبحِ الجهلِ، وأبْيَنِ الكذبِ عليه، فإنَّه يرضى بما يرضى به ربُّه عزَّ وجلَّ، واللهُ تعالى يُرضيه تعذيبُ الظَّلَمَةِ والفسقةِ والخونةِ والمُصِرِّين على الكبائر، فحاشا رسول الله ﷺ أنْ لا يرضى بما يرضى به ربُّه تبارك وتعالى.

وكاتِّكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]!

وهٰذا أيضاً من أقبحِ الجهل، فإنَّ الشِّرْكَ داخلٌ في هٰذه الآية، فإنَّهُ رأسُ الذنوبِ وأساسُها، ولا خلافَ أن هٰذه الآية في حَقِّ التائبين، فإنَّه يغفر ذنبَ كُلِّ

(١) وهٰذا كلُّه مِن المحرَّمات، بل قد يكون ـ أحياناً ـ شِركاً أكبرَ عياذاً بالله.

تائبٍ من أيِّ ذنبٍ كان، ولو كانت الآيةُ في حق غير التائبين لبطلت نصوصُ الوعيدِ كلُّها، وأحاديثُ إخراجِ قومٍ من المُوَحِّدين من النار بالشفاعة[1].

وهٰـذا إنما أتي صاحبُه من قلّةِ علمه وفهمه؛ فإنه سبحانه ها هنا عمَّم وأَطْلَقَ، فعُلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النِّساء خصَّص وقيَّد فقال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفرُ الشرك، وأخبر أنه يغفرُ ما دونَه، ولو كان هٰذا في حقِّ التائب لم يُفرِّقْ بين الشرك وغيره.

وكـاغتـرارِ بعض الجُهَّال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَـرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: كرمه! وقد يقولُ بعضُـهم: إنه لقَّن المُغْتَرَّ حُجَّتَهُ، وهٰذا جهلٌ قبيحٌ، وإنما غرَّه بربِّه الغَرُورُ، وهو الشيطانُ، ونفسهُ الأمَّارةُ بالسوءِ وجهله وهواه.

وأتى سبحانه بلفظ ﴿الكريم﴾ وهو السيدُ الشديدُ العظيمُ المُطاعُ الذي لا ينبغي الاغترارُ به ولا إهمالُ حقِّه، فَوَضَعَ هٰذا المغترُّ الغرورَ في غير موضعه، واغترَّ بما لا ينبغي الاغترارُ به.

وكاغترار بعضِهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥ و١٦]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ولـم يدر هٰذا المغترُّ أن قولَه: ﴿فَأَنْذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، هُو لنارٍ مخصوصة من جملة دَرَكاتِ جهنَّم، ولو كانت جميعَ جهنَّم فهو سبحانه لم يَقُل: (لا يدخُلُها)، بل قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى﴾، ولا يَلْزَمُ من عدم صَلْيها عدمُ دُخُولها، فإنَّ الصَّلْيَ أخصُّ من الدخول، ونفيُ الأخصِّ لا يستلزمُ نَفْيَ الأعمِّ.

---

(١) وهي نصوصٌ من قواصمِ ظهور المبتدعةِ المُكَفِّرين الذين لا يجدون عنها مَهْرباً سوى الردِّ والإِنكارِ، أو التأويل والتحريف!

ثم إنَّ هٰذا المُغْتَرَّ لو تأمَّل الآيةَ التي بعدَها لعلم أنه غيرُ داخلٍ فيها، فلا يكونُ مضموناً له أن يُجَنَّبها.

وأمَّـا قولـهُ في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقد قال في الجنَّة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ولا يُنافي إعدادَ النار للكافرين أن يدخلها الفُسَّاق والظلمة. ولا ينافي إعدادَ الجنة للمتقين أن يدخلها مَنْ في قلبه أدنى مثقالِ ذرَّةٍ من الإيمان، ولم يعمل خيراً قطّ.

وكاغترار بعضِهم بالاعتماد على صَوْمِ يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقولَ بعضهم: صومُ يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صومُ يومِ عرفة زيادةً في الأجر، ولم يَدْرِ هٰذا المغترُّ أنَّ صومَ رمضان والصلوات الخمس أعظمُ وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تُكَفِّر ما بينهما إذا اجْتُنِبَتْ الكبائر[1].

فرمضانُ إلى رمضانَ، والجمعةُ إلى الجمعةِ لا يَقْوَيانِ على تكفير الصغائر إلَّا مع انضمام تركِ الكبائر إليها، فيقوىٰ مجموعُ الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يُكفِّر صومُ يوم تطوع كلَّ كبيرة عملها العبد وهو مصرٌّ عليها، غير تائب منها؟ هٰذا مُحالٌ، على أنَّه لا يَمْتَنِعُ أن يكونَ صومُ يومِ عرفة ويوم عاشوراء مُكَفِّراً لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكونَ من نصوص الوعد التي لها شروطٌ وموانعُ، ويكونَ إصرارهُ على الكبائر مانعاً من التكفير؛ فإذا لم يُصِرَّ على الكبائر تساعَدَ الصـومُ وعـدم الإصـرار، وتعاونا على عموم التكفير، كما كان رمضانُ والصلواتُ الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم﴾ [النساء: ٣١]، فَعُلِمَ أنَّ جَعْلَ الشيء سبباً للتكفير لا يمنـعُ أن يتساعد هو وسببٌ

(١) ورد هٰذا القيدُ في رواية مسلم في «صحيحه» (٢٣٣).

آخر على التكفير، ويكونُ التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتمَّ منه مع انفراد أحدهما، وكُلَّما قويت أسبابُ التكفير كان أقوى وأتمَّ وأشملَ.

وكاتِّكال بعضهم على قوله ﷺ حاكياً عن ربه: «أنا عندَ حُسْنِ ظنِّ عبدي بي؛ فلْيَظُن بي ما شاءَ»[1]. يعني ما كان في ظنِّه فإنِّي فاعلُه به.

ولا رَيْبَ أنَّ حُسْنَ الظنِّ إنَّما يكون مع الإحسانِ، فإنَّ المُحْسِنَ حَسَنُ الظنِّ بربه أنْ يُجازيه على إحسانِهِ ولا يُخْلِفُ وعدَه، ويقبل توبته.

وأمَّا المُسيءُ المصرُّ على الكبائر والظُّلم والمُخالفات فإنَّ وَحْشَةَ المعاصي والظُّلم والحرام تمنعُهُ من حُسن الظن بربه، وهٰذا موجودٌ في المُشاهدة؛ فإنَّ العبدَ الآبقَ المُسيء الخارجَ عن طاعةِ سيده لا يُحسن الظنَّ به، ولا يُجامِعُ وحشةَ الإساءة إحسانُ الظن أبداً، فإنَّ المُسيءَ مستوحشٌ بِقَدْرِ إساءتهِ، وأحسنُ الناس ظنّاً بربه أطوعهم له.

كما قال الحسن البَصْري: إنَّ المؤمنَ أحسنَ الظنَّ بربِّه فأحسن العملَ، وإنَّ الفاجر أساء الظنَّ بربِّهِ فأساءَ العمل[2].

وكيف يكونُ يُحْسِنُ الظنَّ بربِّه مَنْ هو شاردٌ عنه، حالٌّ مرتحلٌ في مساخطِه وما يغضبُهُ، متعرّضٌ لِلعْنَتِهِ، قد هانَ حقُّه وأمرهُ عليه فأضاعَه، وهان نهيهُ عليه فارتكبه وأصرَّ عليه؟ وكيف يُحسن الظنَّ بربه من بارَزَهُ بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءَه، وجَحَد صفاتِ كمالِه، وأساء الظنَّ بما وصف به نفسَه ووصفَه به رسولهُ ﷺ، وظنَّ بجهله أن ظاهرَ ذٰلك ضلالٌ وكفرٌ؟ وكيف يُحَسِّن

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٩١)، وابن حبان (٦٣٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٠٩)، والدارمي (٢ / ٣٠٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢ / رقم ٢١١)، وفي «الأوسط» (١٢٠٥ ـ مجمع البحرين)، وسنده صحيح.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٣٤٨).

الظنَّ بمن يظنُّ أنه لا يتكلَّم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب.

وقد قال اللهُ تعالى في حَقِّ من شكَّ في تعلُّق سمعه ببعض الجزئيَّات، وهو السرُّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

فهٰؤلاء لمَّا ظنوا أنَّ الله سبحانه لا يعلمُ كثيراً ممَّا يعملون كان هٰذا إساءةً لظنِّهم بربهم، فأرداهم ذٰلك الظنُّ، وهٰذا شأنُ كُلِّ من جحد صفاتِ كماله ونعوتَ جلاله، ووَصفَهُ بما لا يليقُ به، فإذا ظنَّ هٰذا أنَّه يُدْخِلُهُ الجنَّة كان هٰذا غُروراً وخِداعاً من نفسهِ، وتسويلاً من الشيطان، لا إحسانَ ظنٍّ بربه.

فتأمَّلْ هٰذا الموضعَ، وتأمَّلْ شدَّةَ الحاجة إليه!! فكيف يجتمعُ في قلب العبد تيقُّنُهُ بأنه مُلاقٍ الله، وأنَّ اللهَ يسمعُ كلامَهُ ويرى مكانه، ويعلم سرَّه وعلانيتَه، ولا يخفى عليه خافيةٌ من أمره، فإنَّه موقوفٌ بين يديه، ومسؤولٌ عن كُلِّ ما عمل، وهو مقيمٌ على مساخطِهِ، مضيِّعٌ لأوامره، مُعَطِّلٌ لحقوقهِ، وهو مع هٰذا يُحَسِّنُ الظنَّ به، وهل هٰذا إلا مِن خِدَعِ النفوس، وغرور الأمانيِّ؟

وقد قال أبو أُمامة سهل بن حُنَيف: دخلت أنا وعُروة بن الزبير على عائشةَ رضي الله عنها؛ فقالت: لو رأيتُما رسولَ الله ﷺ في مَرَضٍ له، وكانت عندي ستةُ دنانير، أو سبعةٌ، فأمَرَني رسولُ الله ﷺ أن أُفرِّقَها، قالت: فَشَغَلَني وَجَعُ رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: «ما فَعَلْتِ؟ أَكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ دنانير؟» فقلت: لا واللهِ، لقد كان شَغَلَني وجعُك، قالت: فدعا بها فوضعَها في كفِّه، فقال: «ما ظنُّ نبيِّ اللهِ لو لَقِيَ اللهَ وهٰذه عندهُ؟» وفي لفظٍ: «ما ظنُّ محمدٍ بربِّهِ لو لَقِيَ اللهَ وهٰذه عندهُ»[1].

---

(١) رواه أحمد (٦ / ١٠٤)، وابن حبان (٦٨٦) بسند حسن.

وله طريقٌ أخرى أخرجها أحمد (٦ / ١٨٢)، وابن سعد (٢ / ٢٣٨)، وابن جرير في =

فياللهُ ما ظَنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمَةِ بالله إذا لَقَوْهُ ومظالمُ العباد عندهم؟

فإن كان ينفعُهم قولُهم: حَسَّنّا ظنونَنا بك أنَّك لن تُعَذِّب ظالماً ولا فاسقاً، فَلْيَصْنَع العبدُ ما شاء، ولْيرتكبْ كلَّ ما نهاه الله عنه، ولْيُحَسِّنْ ظنَّه بالله، فإنَّ النَّار لا تمسُّهُ، فَسُبْحان الله ما يبلُغُ الغرورُ بالعبد؟! وقد قال إبراهيمُ لقومِهِ: ﴿أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ و٨٧]؛ أيْ: فما ظنُّكم به أن يفعلَ بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غَيْرَهُ؟

ومَنْ تأمَّل هٰذا الموضعَ حقَّ التأمُّلِ عَلِمَ أنَّ حُسْنَ الظنِّ باللهِ هو حُسْنُ العملِ نفسِهِ، فإنَّ العبدَ إنما يحملهُ على حُسْنِ العمل حسنُ ظنِّه بربه أن يُجازيه على أعمالِهِ ويُثيبه عليها ويتقبَّلها منه، فالذي حَمَلَهُ على حُسن العمل حُسْنُ الظنّ، فكلّما حسّن ظنّه بربّه حَسّنَ عمله، وإلا فحُسنُ الظنّ مع اتباع الهوى عَجْـزٌ، كما في حديث الترمذي و«المسند»[1] من حديث شدَّاد بن أوس عن النبيِّ ﷺ قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِما بعدَ الموتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى على اللهِ».

وبـالجُملةِ؛ فَحُسْنُ الظنِّ إنما يكونُ مع اعتقادِ أسبابِ النجاة، وأمَّا مع اعتقادِ أسباب الهلاكِ فلا يتأتَّى إحسانُ الظنّ.

فإن قيل: بل يتـأتَّى ذٰلك، ويكون مستندُ حُسنِ الظنّ سعةَ مغفرةِ اللهِ

«تهذيب الآثار» (١ / ٢٦٠)، وابن حبان (٣٢١٢)، وسنده حسن أيضاً.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٤٠): «رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح».

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (٤ / ١٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٧١٤٣)، والحاكم (١ / ٥٧)، وقال: «صحيحٌ على شرط البخاريّ»!

فتعقَّبه الذهبيُّ بقولِهِ: «لا واللهِ؛ أبو بكرٍ واهٍ».

ورحمتِه، وعفوِه، وجُودِه، وأنّ رحمتَه سبقت غَضَبَهُ، وأنَّه لا تنفعُه العقوبةُ، ولا يضرُّه العفوُ.

قيل: الأمْرُ هكذا، واللهُ فوقَ ذلك وَأجلّ وأكرمُ وأجودُ وأرحمُ، ولكن إنّما يضع ذلك في محلِّه اللائق به، فإنّه سبحانه موصوفٌ بالحكمة، والعزَّة، والانتقام، وشدَّة البَطْش، وعقوبةِ مَنْ يستحقُّ العقوبة، فلو كان مُعوَّلُ حُسن الظن به على مُجَرَّدِ صفاته وأسمائه لاشْتَرَكَ في ذلك البرّ والفاجر، والمؤمنُ والكافر، ووليُّه وعدوُّه، فما ينفع المجرمَ أسماؤه وصفاتُهُ وقد باء بسخطِه وغضبه، وتعرّض لَلعَنَهُ، وأوضع في محارمِه، وانتهك حُرُمَاتِهِ، بل حُسْنُ الظنِّ ينفعُ مَنْ تَابَ وندم وأقلعَ، وبدَّل السيئةَ بالحسنة، واستقبل بقيَّةَ عمرِه بالخيرِ والطاعةِ، ثم حسَّن الظنَّ بعدهَا؛ فهٰذا هو حُسن الظن، والأولُ غرورٌ، والله المستعان.

ولا تَسْتَطِلْ هٰذا الفصلَ؛ فإنَّ الحاجةَ إليه شديدةٌ لكلِّ أحد؛ فَفَرقٌ بين حُسْنِ الظنِّ بالله وبين الغُرورِ به، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فجعل هٰؤلاء أهلَ الرجاءِ، لا البطَّالين والفاسقين.

وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، فأخبر سُبحانه أنَّه بعد هٰذه الأشياءِ غفُورٌ رحيمٌ لِمَن فعَلها.

فالعالمُ يَضَعُ الرجاءَ مواضعَه، والجاهلُ المُغْتَرُّ يضعهُ في غيرِ مواضعهِ.

٩ ـ فَصْلٌ [بين عفو الله وأمره]:

وكثيرٌ من الجُهَّالِ اعْتَمَدُوا على رحمةِ الله وعَفْوِه وكَرَمِه، وَضيَّعُوا أمرَهُ ونهيَه، ونَسُوا أنَّه شديدُ العقاب، وأنه لا يُرَدُّ بأسهُ عن القوم المجرمين.

ومَن اعتمد على العَفْوِ مع الإصرار على الذنب فهو كالمُعاندِ.

قال معروفٌ: رجاؤك لرحمةِ مَن لا تطيعه من الخِذلان والحُمق.

وقال بعضُ العلماء: مَنْ قَطَعَ عُضواً منك في الدنيا بسرقةِ ثلاثةِ دراهمَ لا تَأْمَن أن تكونَ عقوبتُهُ في الآخرة على نحوٍ مِنْ هٰذا.

وقيل للحَسَن: نراك طويلَ البُكاء! فقال: أخاف أن يَطْرَحَني في النار، ولا يُبالي.

وكان يقول: إنَّ قوماً أَلْهَتْهُم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبةٍ، يقولُ أحدهم: لأنّي أُحَسِّن الظن بربّي! وكَذَبَ، لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العملَ.

وسأل رجلٌ الحَسَنَ فقال: يا أبا سعيد! كيف نصنعُ بمجالسة أقوام يُخوِّفوننا حتى تكادَ قلوبُنا تطير؟ فقال: واللهِ لأنْ تصحبَ أقواماً يُخوِّفونك حتى تُدركَ أَمْناً خيرٌ لك من أن تصحبَ أقواماً يُؤَمِّنونك حتى تلحقكَ المخاوفُ[1].

وقد ثبت في «الصحيحين»[2] من حديث أُسامة بن زيد؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ، فيُلْقَى في النَّارِ، فتندَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ في النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَطُوفُ به أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فُلانُ! ما أصابَكَ؟ أَلَمْ تَكُن تأمُرُنَا بالمعروفِ وتنهانا عنِ المنكرِ؟ فيقولُ: كُنْتُ آمُرُكُم بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنهاكُم عن المنكرِ وآتيهِ».

وذكر الإمام أحمد[3] من حديث أبي رافع؛ قال: مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ

---

(١) «الزهد» (٢٥٩) لأحمد.

(٢) رواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) في «المسند» (٦ / ٣٩٢). =

بالبقيعِ ، فقالَ : «أفٍّ لَكَ ، أفٍّ لك» ؛ فَظَنَنْتُ أنَّهُ يُرِيدُني ، فقالَ : لا ، ولكنْ هٰذا قبرُ فلانٍ ، بَعَثْتُهُ ساعياً على آلِ فُلانٍ ، فَغَلَّ نَمِرَةً فَدُرِّعَ الآنَ مِثْلَها مِنْ نارٍ» .

وفي «مسنده»[1] أيضاً من حديث أنس بن مالك ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي على قومٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بمَقَارِيضَ مِنْ نارٍ . فقلتُ : مَنْ هٰؤلاءِ؟ فقالوا : خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنيا ، كانوا يأمرونَ النَّاسَ بالبرِّ وينْسَوْنَ أنفُسَهم ؛ أفَلا يَعقِلُونَ؟» .

وفيه[2] أيضاً من حديثه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «لمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخْمُشُونَ بِهَا وجوهَهُم وصدورهم ، فقلتُ : مَنْ هٰؤلاء يا جبريلُ؟ فقالَ : هٰؤلاءِ الَّذينَ كانوا يأكلونَ لحومَ النَّاسِ ، ويقعونَ في أعراضهم» .

وفيه[3] أيضاً عنه ؛ قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : «يا مُقَلِّبَ القلوبِ

= ورواه النَّسائي (٢ / ١١٥ ـ ١١٦) ، وابن خزيمة (٢٣٣٧) ، والطبراني في «الكبير» (٩٦٢) ، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (رقم ١٤٩) ، وفي إسناده مَنْبوذٌ وهو مجهولٌ .

وله طريقان آخران يُقَوِّيانِه :

الأوَّل : رواه البزَّار (٨٦٩) ، والطبراني في «الكبير» (٣٠٩) ، والبيهقي (١٣٩) .

والثاني : رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١ / ١٨٤) ؛ فهو ـ بهما ـ حَسَنٌ .

(١) رواه أحمد (٣ / ١٢٠ و٢٣٩ ـ ٢٤٠) ، والخطيب (٦ / ١٩٩ ـ ٢٠٠) ، والبغوي في «شرح السنة» (١٤ / ٣٥٣) ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٧٠) من ثلاث طرق ـ يقوِّي بعضُها بعضاً ـ عن أنس .

وقد حسَّنَ الحديثَ الإمامُ البغويُّ .

(٢) رواه أحمد (٣ / ٢٢٤) ، وأبو داود (٤٨٧٨ و٤٨٧٩) ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٦٥ ، ٥٧٢) ، وسنده صحيحٌ .

(٣) رواه أحمد (٣ / ١١٢) ، والترمذي (٢٢٢٦) ، والحاكم (١ / ٥٢٦) بسند صحيح .

ثَبِّتْ قلبي على دينِكَ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ! آمَنَّا بِكَ وبِما جئتَ به، فهلْ تخافُ علينا؟ قال: نعم، إنَّ القلوبَ بينَ إصبعيْنِ مِن أصابعِ اللهِ يُقَلِّبُها كيف شاءَ».

وفيه[1] أيضاً عنه، أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «ما لي لم أرَ ميكائيلَ ضاحِكاً قَطُّ؟ قالَ: ما ضَحِكَ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ».

وفي «صحيح مسلم»[2] عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعَمِ أهلِ الدُّنيا من أهلِ النَّارِ، فيُصْبَغُ في النَّارِ صبغةً، ثُمَّ يُقَالُ له: يا ابْنَ آدمَ! هل رأيْتَ خيراً قطُّ؟ هَل مرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ. ويؤتى بأشدِّ النَّاسِ بؤساً في الدُّنيا من أهلِ الجنة، فيُصْبَغُ في الجنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقالُ له: يا ابنَ آدمَ! هَلْ رأيتَ بؤساً قَطُّ؟ هلِ مرَّ بكَ شدَّةٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ».

وفي «المسندِ»[3] من حديثِ البراءِ بن عازبٍ؛ قال: «خرجنا مع النبيِّ ﷺ

---

(1) (٣ / ٢٢٤).

ورواه الآجُرِّي في «الشريعة» (٣٩٥)، وابن أبي الدنيا في «الخائفين» ـ كما في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٨١) ـ، وقال العراقي: «بإسناد جيِّد»!

وقال الهَيْثَمي في «المجمع» (١٠ / ٣٨٥): «رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عيَّاش عن المدنيِّين وهي ضعيفةٌ».

ورواه البيهقي في «الشُّعَب» (٨٨٧) بسند رجاله ثقات، لكنَّه مرسل، ووقع فيه: «إسرافيل»؛ فالحديثُ محتمل التحسين.

(2) (برقم ٢٨٠٧).

(3) (٤ / ٢٨٧ و٢٨٨ و٢٩٥ و٢٩٦)، ورواه أبو داود (٤٧٥٤)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢١٩)، وابن أبي شيبة (٣ / ٣٧٤)، والحاكم (١ / ٣٧ ـ ٤٠)، والطيالسي (٧٥٣)، والآجرِّي (٣٦٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٥٥)، وأبو نُعَيم في «الحلية» (٩ / =

في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ، فانْتَهَيْنَا إلى القبرِ ولمَّا يُلْحَدْ، فَجلسَ رسولُ الله ﷺ وجلسنا حولَهُ كأنَّ على رؤوسِنا الطَّيْرَ، وفي يدهِ عُودٌ يَنْكُتُ به في الأرض، فرفعَ رأسَهُ فقالَ: اسْتَعِيذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ ـ مرَّتين أو ثلاثاً ـ، ثُمَّ قال: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرةِ، نزلَ إليه ملائكةٌ مِنَ السَّماءِ بيضُ الوُجُوهِ، كأنَّ وجوهَهُم الشَّمْسُ، معهم كفنٌ من أكفانِ الجنةِ، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنَّةِ، حتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البصرِ. ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِهِ، فيقولُ: اخرُجِي أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ، اخرُجِي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ، فتخْرُجُ تَسِيلُ كما تسيلُ القطرةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ فيأخُذُها، فإذا أخـذَهَا لـم يدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عينٍ حَتَّى يأخُذُوها، فيجعَلُوهَا في ذٰلِكَ الكَفَنِ وفي ذلكَ الحَنُوطِ، ويخرجُ منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيصْعَدُونَ بها، فلا يَمرُّونَ بها على ملأٍ من ملائكة السماء إلاَّ قالوا: ما هٰذه الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فيقولون: فُلانٍ بنِ فُلانٍ، بِأحْسَنِ أسمائِهِ التي كانوا يُسَمُّونَهُ بها في الدُّنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتِحُونَ له، فيفتحُ لهُ، فَيُشَيِّعُهُ من كُلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوهَا إلى السَّماءِ التي تليها، حتّى يُنتهى به إلى السَّماءِ السـابعـةِ، فيقـولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّين، وأعِيدُوهُ إلى الأرضِ، فإنِّي منها خلقتُهُم، وفيها أعِيدُهُم، ومِنها أُخْرِجُهُم تارةً أُخرى. قال: فتُعادُ رُوحُهُ إلى الأرضِ فيأتيهِ مَلَكانِ، فَيُجْلِسانه فيقولانِ له: مَنْ ربُّك؟ فيقول: ربِّيَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فيقولانِ له: ما دِينُكَ؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولانِ لهُ: ما هٰذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقولُ: هُوَ محمدٌ رسولُ اللهِ، فيقولانِ لهُ: وما عِلْمُكَ؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فآمَنْتُ بِهِ وَصدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ

= ٥٦)، ورواه مختصراً النَّسائي (٤ / ٧٨)، وابن ماجه (١٥٤٨).

وصحَّحه ابن القيِّم في «تهذيب سُنن أبي داود» (٤ / ٣٣٧).

وانظر ـ لزاماً ـ: «أحكام الجنائز» (ص ١٥٦ ـ ١٦٠).

السَّماءِ أن صَدَقَ عَبْدِي، فافْرُشُوهُ مِنَ الجنَّةِ، وألْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وافْتَحُوا لهُ باباً إلى الجنّةِ، قالَ: فيأتيهِ مِنْ رُوحِهَا وطيبِهَا، ويُفْسَحُ لهُ فِي قَبْرِهِ مدَّ بصرِهِ.

قالَ: ويأتيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيْحِ، فيقولُ: أبْشِرْ بالّذي يَسُرُّكَ، هٰذا يَوْمُكَ الّذي كُنْتَ تُوْعَدُ فَيقولُ له: مَنْ أنتَ؟ فوَجْهُكَ الوجهُ الذي يَجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الصَّالحُ، فيقولُ: رَبِّ! أقمِ الساعَةَ، رَبِّ! أقمِ السَّاعَةَ؛ حتّى أرجعَ إلى أهلي ومالي. قالَ: وإنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقبالٍ مِنَ الآخرةِ نَزَلَ إليه ملائكةٌ من السَّماءِ، سُودُ الوُجُوهِ، معهمُ المُسُوحُ، فيجلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ الموتِ حَتَّى يجلِسَ عِنْدَ رأسِهِ، فيقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ، اخْرُجِي إلى سَخَطٍ من اللهِ وَغَضَبٍ. قالَ: فتَغْرَقُ في جَسَدِهِ فيَنْتزِعُها كما يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المُبْتَلِّ، فيأخُذُها، فإذا أخذَهَا لم يَدَعُوها في يدهِ طرفةَ عينٍ، حتَّى يجعَلُوهَا في تِلْكَ المُسُوحِ، ويخرجُ مِنْهَا كأنْتَنِ ريحِ جيفَةٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعَدُونَ بها، فلا يَمُرُّونَ على مَلأٍ مِنَ الملائِكَةِ إلاّ قَالُوا: ما هٰذه الرُّوحُ الخَبيثَةُ؟ فيقولونَ: رُوحُ فُلانٍ بنِ فُلانٍ، بأقبحِ أسمائِهِ التي كانَ يُسَمَّى بِهَا في الدُّنيا، فيُسْتَفْتَحُ فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ.

ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّماءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينَ، في الأرْضِ السُّفْلَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرحاً، ثُمَّ قرأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعَادُ روحُهُ في جسدِهِ، ويأتيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فيقولانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقولُ: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقولُ: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هٰذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيُنَادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أن كَذَبَ عبدي، فافْرُشُوهُ

مِنَ النّارِ، وألبسوهُ من النّارِ، وافْتَحُوا لَهُ باباً إلى النّارِ، فيأتيهِ مِنْ حَرِّها وسَمُومِها، ويَضِيقُ عليه قَبْرُهُ، حتّى تَخْتَلِفَ فيهِ أضلاعُهُ، ويأتيهِ رجلٌ قبيحُ الوجهِ قبيحُ الثّيابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالّذي يَسُوؤكَ، هٰذا يَوْمُكَ الّذي كُنْتَ تُوْعَدُ، فيقولُ: وَمَنْ أنتَ؟ فوجهُكَ الوَجْهُ الذي يَجِيءُ بالشَّرِّ، فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الخَبيثُ، فيقولُ: رَبِّ! لا تُقِمِ السَّاعَةَ».

وفي لفظٍ لأحمد[1] أيضاً: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أعمَى أصَمُّ أبْكَمُ، في يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ، لو ضُرِبَ بِها جبلٌ كانَ تُراباً، فيضربُهُ ضربةً حتى يصيرَ تُراباً، ثُمَّ يُعيدُهُ اللهُ كما كَانَ، فيضربُهُ ضَرْبَةً أُخرى، فيصيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شيءٍ إلاَّ الثَّقَلَيْنِ». قالَ البَرَاءُ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ مِنَ النَّارِ، ويُمْهَدُ لَهُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ».

وفي «المسند»[2] أيضاً عنه؛ قال: «بينما نحنُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ بَصُرَ بجماعةٍ فقالَ: عَلامَ اجْتَمَعَ هٰؤلاءِ؟ قِيلَ: على قبرٍ يَحْفُرُونَهُ، ففَزِعَ رسولُ الله ﷺ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أصحابِهِ مُسْرِعاً، حَتَّى انْتَهَى إلى القبرِ، فَجَثَا على رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَقْبَلْتُهُ بينَ يديهِ لأنْظُرَ ماذا يَصْنَعُ، فبكى حتّى بلَّ الثّرى مِن دُمُوعِهِ، ثُمَّ أقْبَلَ علينا فقالَ: أيْ إخواني! لِمِثْلِ هٰذا اليوم؛ فأعِدُّوا».

وفي «المسند»[3] مِنْ حديثِ بريدةَ؛ قال: «خرجَ إلينا رسولُ اللهِ ﷺ يوماً، فنادى ثلاثَ مرّاتٍ: يا أيُّها النَّاسُ! أتدْرُونَ ما مَثَلِي ومَثَلُكُم؟ قالوا: اللهُ ورسوله

---

(1) وهو قطعةٌ من السابق.

(2) (٤ / ٢٩٤).

ورواه ابن ماجه (٤١٩٥)، والبخاري في «تاريخه» (٨ / ١ / ٢٢٩)، والخطيب (١ / ٣٤١) بسند حسنٍ إن شاء الله، كما جَزَم شيخنا في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ١٧٥١).

وانظر: «تهذيب الكمال» (٢٦ / ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(3) (٥ / ٣٤٨). ورواه الرامَهُرْمُزي في «الأمثال» (رقم ٧).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢ / ١٨٨): «رجاله رجال الصحيح».

قلتُ: ولٰكنَّ بشر بن مُهاجر متكلَّمٌ فيه، وإن أخرج له مسلمٌ.

أعلم، فقالَ: إنَّما مَثَلي ومَثَلُكم مِثْلُ قومٍ خافُوا عَدُوّاً يأتِيهُم فَبَعَثُوا رَجُلاً يَتراءى لهم، فأبصَرَ العدُوَّ، فأقبَلَ لِيُنْذِرَهُم، وخَشِيَ أن يُدْرِكَهُ العَدُوُّ قَبْلَ أن يُنْذِرَ قومَهُ، فأهْوَى بثوبهِ: أيُّها النَّاسُ! أُتِيتُم، أيُّها النَّاسُ! أُتِيتُم ـ ثلاثَ مرَّاتٍ».

وفي «صحيح مسلمٍ»(١) من حديثِ جابرٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وإنَّ على اللهِ عزَّ وجلَّ عهداً لِمَن شربَ المُسْكِرَ أن يَسْقِيَهُ مِن طينةِ الخَبَالِ، قيلَ: وما طينةُ الخَبَالِ؟ قالَ: عَرَقُ أهْلِ النَّار، أو عُصَارَةُ أهل النارِ».

وفي «المسندِ»(٢) أيضاً من حديثِ أبي ذرٍّ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنِّي أرَى ما لا تَرَوْنَ، وأسمعُ ما لا تسمعونَ، أَطَّتِ السَّماءُ، وَحَقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلاَّ وعليه مَلَكٌ ساجِدٌ. لو تعلمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكتُم قليلاً ولبَكَيْتُم كثيراً، وما تلذَّذْتُم بالنِّساءِ على الفُرُشِ، ولَخَرَجْتُم إلى الصُّعُداتِ تجْأَرُونَ إلى اللهِ عَزَّ وجلَّ».

قال أبو ذرٍّ: والله لوددتُ أنِّي شجرةٌ تُعْضَدُ.

وفي «المسند»(٣) أيضاً من حديثِ حذيفةَ؛ قالَ: «كُنَّا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في جَنَازَةٍ، فَلَمَّا انْتَهَيْنا إلى القبرِ قعدَ على شَأفتهِ، فجعلَ يُرَدِّدُ بصرهُ فيه، ثُمَّ قالَ: يُضْغَطُ المُؤمِنُ فِيه ضَغْطَةً تَزُولُ منها حَمَائِلُهُ، ويُمْلأُ على الكافرِ ناراً».

---

(١) (برقم ٢٠٠٢).

(٢) (٥ / ١٧٣).

ورواه الترمذي (٢٤١٤)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢ / ٥١٠) بسند حسن.

(٣) (٥ / ٤٠٧).

ورواه عبد الله ابنه في «السنة» (١٤٦٢)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (رقم ١٢٨).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣ / ٤٦): «وفيه محمد بن جابر، وهو ضعيفٌ».

قلتُ: وهو ـ أيضاً ـ منقطعٌ.

وانظر ـ لزيادة الفائدة ـ: «الموضوعات» (٣ / ٢٣١)، و«القول المسدّد» (ص ٢٨ ـ ٢٩).

والحمائل: عروق الأُنثيين.

وفي «المسند»[1] أيضاً من حديثِ جابرٍ؛ قال: «خَرجْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى سعدِ بن مُعَاذٍ حينَ تُوُفِّيَ، فلمَّا صلَّى عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ ووُضِعَ في قبرِه، وَسُوِّيَ عليه، سبَّحَ رسولُ اللهِ ﷺ، فَسَبَّحْنا طَويلاً، ثُمَّ كَبَّرَ فكَبَّرْنَا طويلاً؛ فَقِيلَ: يا رسولَ اللهِ! لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ؟ فقالَ: لقَدْ تضايَقَ على هذا العَبْدِ الصَّالحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ».

وفي «صحيح البخاري»[2] من حديث أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضِعَتِ الجَنَازةُ، واحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ على أعناقِهم، فإنْ كانت صالحةً قالت: قَدِّمُوني قَدِّمُوني، وإنْ كانت غيرَ صالحةٍ؛ قالت: يا وَيْلَهَا، أينَ تَذْهَبُون بِهَا؟ يسمعُ صوتَهَا كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانَ، وَلو سَمِعَهَا الإنْسَانُ؛ لَصُعِقَ».

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[3] من حديثِ أبي أُمامَة؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «تَدْنُو الشَّمْسُ يومَ القِيامةِ على قَدْرِ مِيلٍ، ويُزادُ في حَرِّها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوسُ كما تغلي القُدُورُ، يعرَقُونَ فيها على قَدْرِ خطاياهُم، منهم من يبلُغُ

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٣٦٠ و٣٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٥٣٤٦)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (١٢٦)، وابن إسحاق (٣ / ٢٧٢ «سيرة ابن هشام»).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣ / ٤٦): «وفيه محمود بن محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر ابن الجَمُوح، قال الحُسيني: فيه نظر، قلت ـ أي: الهيثمي ـ: ولم أجد من ذكره غيره».

(٢) (برقم ١٢٥١).

(٣) (٥ / ٢٥٤).

ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٧٧٩)، وفي «مسند الشاميِّين» (١٩٩٣).

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٣٨): «ورجال أحمد رجال «الصحيح» غير القاسم ابن عبد الرحمٰن، وقد وثَّقه غير واحد».

قلتُ: وللحديث شواهدُ عدَّةٌ؛ فهو صحيحٌ ثابتٌ إن شاء الله.

إلى كعبيهِ، ومنهم من يبلُغُ إلى ساقَيْهِ، ومنهم من يبلُغُ إلى وَسَطِهِ، ومنهم من يَلْجِمُهُ العَرَقُ».

وفيه[1] عن ابنِ عباسٍ عنِ النبيِّ ﷺ: «كيفَ أَنعَمُ وصاحِبُ القرنِ قدِ التَقَمَ القرنَ؟ وحَنَى جَبْهَتَهُ يستَمِعُ متى يُؤمَرُ فَيَنْفُخُ، فقالَ أصحابُهُ: كيفَ نقولُ؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، على اللهِ تَوَكَّلْنَا».

وفي «المسندِ»[2] أيضاً عنِ ابنِ عمرَ يرفعهُ: «مَنْ تعظَّمَ في نفسهِ، أوِ اخْتَالَ في مشيَتِهِ؛ لَقِيَ اللهَ تعالى وَهُوَ عليه غضبانُ».

وفي «الصَّحيحين»[3] عنـه؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ المُصَوِّرِينَ يُعذَّبُونَ يومَ القيامةِ، ويُقالُ لهم: أَحْيُوا ما خَلَقْتُم».

وفيهما[4] أيضاً عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أحدَكُم إذا ماتَ عُرِضَ عليهِ مَقْعَدُهُ بالغداةِ والعَشِيِّ، إن كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ فمِنْ أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النَّارِ فمِنْ أهلِ النَّارِ، فيُقَالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ حَتَّى يبعَثَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ».

وفيهما[5] أيضاً عنه عنِ النبي ﷺ: «إذا صارَ أهلُ الجنَّةِ في الجَنَّةِ، وأهلُ

---

(1) (١ / ٣٢٦).

وروراه الحاكم (٤ / ٥٥٩)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٦٣) مختصراً.

وسنده ضعيف. ولٰكنَّ شواهدَه تُقوِّيه؛ فانظر «الصحيحة» (١٠٧٩) لشيخنا الألباني.

(2) (٢ / ١١٨).

وورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٩)، والحاكم (١ / ٦٠) بسند صحيح.

(3) رواه البخاري (٥٦٠٧)، ومسلم (٢١٠٨).

(4) رواه البخاري (١٣١٣)، ومسلم (٢٨٦٦).

(5) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٨٥٠).

وانظر كتابي: «العقلانيُّون: أفراخُ المعتزلة العصريُّون» (ص ٧٣)، طبع دار الغُرباء الأثريَّة - المدينة النبويَّة.

النَّار فِي النَّارِ جِيءَ بالموتِ حتَّى يُوقَفَ بينَ الجَنَّةِ والنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنادٍ: يا أهلَ الجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا موتٌ، ويا أهلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا موتٌ. فَيَزْدَادُ أهلُ الجَنَّةِ فرحاً إلى فرحِهِم، ويَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْناً إلى حُزنهم».

وفي «المسندِ»[1] عنه؛ قال: «مَنِ اشْتَرى ثوباً بعشرةِ دراهِمَ فيها دِرْهَمٌ حرامٌ لم يَقبلِ اللـهُ لهُ صلاةً ما دامَ عليهِ». ثم أدخلَ أصبعيهِ في أذنيهِ ثم قال: «صُمَّتا إنْ لم أكنْ سمعتُ النبيَّ ﷺ يقوله».

وفيه[2] عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ سُكْراً مرَّةً واحدةً فكأنما كانت لهُ الدُّنيا وما عليها فسُلِبَها، ومَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ سُكْراً أربعَ مرَّاتٍ كان حقّاً على اللهِ أنْ يَسْقِيَهُ طِينَةَ الخبالِ، قيلَ: وما طينَةُ الخَبالِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: عُصَارَةُ أهلِ جهنَّمَ».

وفيه[3] أيضـاً عنه مرفوعاً: «مَنْ شَرِبَ الخمرَ مرَّةً لم يقبلِ اللهُ لهُ صلاةً

---

(1) (٢ / ٩٨) عن ابن عُمر.

ورواه ابن حبان في «المجروحين» (٢ / ٣٨)، وابن الجوزي في «التحقيق» (١ / ٢٦١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤ / ٢١)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (برقم ١٧٣)، وابن عدي في «الكامل» (٧ / ٢٥٧٦).

وسنده ضعيف جدّاً، مداره على هاشمٍ الأوقص وهو متروكٌ.

وانظر: «نصب الراية» (٢ / ٣٢٥)، و«تخريج الإحياء» (٢ / ٩٠)، و«ميزان الاعتدال» (٢ / ٣٩٤)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٨٤٤).

(2) (٢ / ١٧٨).

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤ / ١٤٦)، وسنده حسن.

وانظر: «مجمع الزوائد» (٥ / ٦٩)، و«الترغيب والترهيب» (٣ / ١٨٩)، و«شرح المسند» (١٠ / ١٤٣ ـ شاكر)، و«مختصر استدراك الذهبي على الحاكم» (رقم ٩٠١).

(3) (٢ / ٣٥).

ورواه الترمذي (١٨٦٣)، والطيالسي (١٩٠١) عن ابن عُمر. =

أربعينَ صباحاً، فإن تابَ تابَ اللهُ عليهِ، فإنْ عادَ لم يقبلِ اللهُ لهُ صلاةً أربعينَ صباحاً، فإنْ تابَ تابَ اللهُ عليهِ، فلا أدري في الثّالثةِ أو في الرَّابعَةِ قالَ: فإنْ عادَ كانَ حَقّاً على اللهِ أن يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْغَةِ الخَبَالِ يومَ القِيَامَةِ».

وفي «المسندِ»[1] أيضاً منْ حديثِ أبي موسى؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ مُدْمِناً للخَمْرِ سقاهُ اللهُ مِنْ نهرِ الغُوطةِ. قيلَ: وما نهرُ الغوطةِ؟ قال: نهرٌ يجري مِنْ فُرُوجِ المُومِسَاتِ، يُؤذي أهلَ النَّارِ ريحُ فُرُوجِهِنَّ».

وفيه[2] أيضاً؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يومَ القيامةِ ثلاثَ عَرَضاتٍ، فأمَّا عرْضَتَانِ فجدَالٌ ومعاذيرُ، وأما الثَّالثةَ فعندَ ذلكَ تَطيرُ الصُّحُفُ في الأيْدِي، فآخِذٌ بيَمِينِهِ وآخِذٌ بِشِمَالِهِ».

وفي «المسندِ»[3] أيضاً من حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:

= وسنده صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر في «شرح المسند» (٤٩١٧).
وفي الباب عن ابن عَمْرو وأسماء.

(١) (٤ / ٣٩٩).
وأخرجه ابن حبان (٥٣٤٦)، والحاكم (٤ / ١٤٦)، وهو ضعيفٌ لضعفِ أبي حريزٍ!!
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ٧٤) ـ بعد أن زاد عزوه لأبي يعلى ـ: «ورجال أحمد وأبي يعلى ثقاتٌ».

(٢) (٤ / ٤١٤).
ورواه الترمذي (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧) عن الحسن عن أبي هُريرة، وفي سماعهِ منه كلام.
ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٩ / ٥٩) بإسنادين موقوفين؛ فَلعلَّهُ الراجح.

(٣) رواه أحمد (١ / ٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥٠٨١ ـ مجمع) بسند فيه مجهولان.
ولٰكنْ؛ رواه أحمد (٥ / ٣٣١)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢)، و«الصغير» (٢ / ٤٩)، =

«إيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ، فإنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ على الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ. وضربَ لَهُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ مثلاً، كمثلِ قومٍ نَزَلُوا أرضَ فلاةٍ، فحضرَ صنيعُ القومِ، فجعلَ الرَّجُلُ ينطَلِقُ فيجيءُ بالعُودِ، والرَّجُلُ يجيءُ بالعُودِ، حتَّى جَمَعُوا سَوَاداً وأجَّجُوا ناراً، فأنضَجُوا ما قذفُوا فيها».

وفي «الصَّحيحِ»[1] من حديث أبي هريرة؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يُضْرَبُ الجِسْرُ على جهنَّمَ، فأكونُ أوَّلَ من يُجيزُ، ودعوةُ الرُّسُلِ يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، به كلاليبُ مثلُ شوكِ السَّعْدانِ، تخطَفُ النَّاسَ بأعمالهم، فمنهم المُوبَقُ بعملِهِ، ومنهم المُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حتَّى إذا فرغَ اللهُ مِنَ القضاءِ بين العبادِ، وأرادَ أن يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أرادَ أنْ يرحمَ مِمَّنْ كانَ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، أمرَ الملائكةَ أن يُخْرِجُوهُم، فيعرفونَهُم بعلامَةِ آثارِ السُّجُودِ، وحَرَّمَ اللهُ على النَّارِ أن تأكُلَ مِن ابنِ آدمَ أثرَ السُّجُودِ، فيُخْرِجُونَهُم قَدِ امْتَحِشوا فَيُصَبُّ عليهم مِنْ ماءٍ يُقَالُ لهُ: ماءُ الحياةِ، فيَنْبُتُونَ نباتَ الحَبَّةِ في حَمِيلِ السَّيْلِ».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عنه؛ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فيهِ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: رجلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فقالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتلتُ فِيكَ حتى قُتِلْتُ. قالَ: كَذَبْتَ، ولكن قاتلتَ لِيُقالَ: هُوَ جَرِيءٌ، وقدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ وقرأَ القُرآنَ، فأُتِيَ بهِ فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فقالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ فيكَ العِلْمَ وعلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيكَ القُرآنَ. فقالَ: كَذَبْتَ، ولكن تَعَلَّمْتَ لِيُقالَ: هُو عالِمٌ، فقد قِيلَ، وقرأتَ القرآنَ لِيُقالَ:

= و«الأوسط» (٥٠٨٠ ـ مجمع البحرين) بسند صحيح.

وانظر «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٩٠).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٤).

(٢) (برقم ١٩٠٥).

هو قارىءٌ، فقد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليهِ وأعطاهُ مِنْ أصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، فقالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ فقالَ: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلاَّ أنْفَقْتُ فيها لكَ، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ لِيُقالَ: هُوَ جوادٌ، فقدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ». وفي لفظ: «فهٰؤلاءِ الثلاثةُ أوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهمُ النّارُ يومَ القِيَامَةِ».

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ يقولُ[1]: كما أنَّ خيرَ الناسِ الأنبياءُ؛ فشرُّ الناسِ مَنْ تَشَبَّهَ بهم مِنَ الكذَّابينَ، وادَّعى أنَّه منهم وليس منهم، فخيرُ الناس بعدهم: العلماءُ، والشُّهداءُ، والمُتصدِّقون المُخْلِصون، وشرُّ الناسِ مَنْ تشبه بهم يُوهِم أنَّهُ منهم وليس منهم.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[2] منْ حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ كانَتْ عِنْدَهُ لأخيهِ مَظْلَمةٌ من مالٍ أو عِرْضٍ فلْيَأْتِه، فلْيَسْتَحِلَّهَا مِنْهُ قبلَ أنْ يُؤخَذَ وَلَيْسَ عِندهُ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، فإنْ كانتْ لهُ حسناتٌ أُخِذَ من حَسَناتِهِ فأُعْطِيها هٰذا، وإلاَّ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ هٰذا فَطُرِحَتْ عليهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ».

ومن «الصحيح»[3] منْ حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ؛ قال: «مَنْ أَخَذَ شِبراً مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يومَ القيامةِ إلى سبعِ أرضينَ».

وفي «الصَّحيحيْنِ»[4] عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَارُكُم هٰذه التي

---

(١) قارن بـ «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» (ص ٧) له رحمه الله.

(٢) (برقم ٦١٦٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٠٢٤).

(٤) رواه البُخاري (٣٠٩٢)، ومسلم (٢٨٤٣).

يُوقِدُ بَنُو آدمَ جُزْءٌ واحدٌ مِنْ سبعينَ جُزءاً من نارِ جهنّمَ، قالوا: واللهِ! إن كانتْ لكافِيَةً، قالَ: فإنّها قد فُضِّلَتْ عليها بِتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّها».

وفي «المُسنَدِ»[1] عن مُعاذٍ؛ قالَ: «أوصاني رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: لا تُشْرِكْ باللهِ شيئاً، وإن قُتِلْتَ أو حُرِّقْتَ، ولا تَعُقَّنَّ والِدَيْكَ، وإن أمَرَاكَ أن تَخْرُجَ عَنْ أهلِكَ ومَالِكَ، وَلاَ تَتْرُكَنَّ صلاةً مكتوبةً متعمِّداً، فإنَّ مَنْ تركَ صلاةً مكتوبةً مُتعمِّداً فقدْ بَرِئَتْ منهُ ذمَّةُ اللهِ، ولا تشربَنَّ خمراً؛ فإنَّهُ رأسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وإيَّاكَ والمعصيةَ، فإنَّ المعصيةَ تُحِلُّ سَخَطَ اللهِ».

والأحاديثُ في هٰذا البابِ أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نَصَحَ نفسَهُ أنْ يتعامى عنها، ويُرسِلَ نفسَه في المعاصي، ويتعلَّقَ بحبلِ الرجاءِ وحُسنِ الظنّ.

قال أبو الوفاء بنُ عَقِيلٍ: احْذَرْهُ ولا تغترَّ به، فإنّه قطعَ اليدَ في ثلاثةِ دراهمَ[2]، وجلدَ الحدَّ في مثلِ رأسِ الإبْرةِ مِنَ الخمرِ[3]، وقد دخلتِ امرأةُ النَّار في هرَّةٍ[4]، واشتعلتِ الشّملةُ ناراً على مَنْ غلَّها وقد قُتِلَ شهيداً[5].

---

(١) (٥ / ٢٣٨).

وقال المُنذري في «الترغيب» (١ / ١٩٦):

«إسنادُ أحمدَ صحيحٌ لو سَلِمَ من الانقطاعِ، فإنَّ عبد الرحمٰن بن جُبير بن نُفير لم يسمع من مُعاذ».

وانظر: «المجمع» (٤ / ٢١٥).

قلتُ: وللحديث شواهد عدَّة تُصحِّحهُ تراها في تعليق أخينا الفاضل الشيخ سَعْد الحميّد على «مُختصر استدراك الذهبي على الحاكم» (٥ / ٢٤٠٥ ـ ٢٤٠٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٠١ و٦٤١١).

(٣) سبق (ص ٤٤) حديثُ: «كلُّ ما أسكر حرامٌ».

(٤) كما رواه مسلم (٢٢٤٢).

(٥) كما رواه مسلم (١١٥).

وقال الإمامُ أحمدُ[1]: حدَّثنا أبو معاوِيَةَ: حدَّثنا الأعمشُ عن سَلْمَانَ بن ميسرةَ عن طارقِ بنِ شهابٍ يرفعهُ؛ قال: «دَخَلَ رَجُلٌ الجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ في ذبابٍ. قالوا: وكيفَ ذٰلك يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: مرَّ رجلانِ على قومٍ لهم صَنَمٌ لا يجوزُهُ أحدٌ حتَّى يُقَرِّبَ له شيئاً. فقالوا لأحدِهِمَا: قَرِّبْ. قالَ: ليسَ عِندي شيءٌ. قالوا له: قَرِّبْ ولو ذُباباً، فقرَّب ذُباباً، فخلّوا سبيلهُ، فدخَلَ النارَ. وقالوا للآخر: قَرِّبْ. فقال: ما كنتُ لأقربَ لأحَدٍ شيئاً من دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فضربُوا عُنُقَهُ فدخلَ الجَنَّةَ. وهٰذه الكلمةُ الواحدةُ يتكلمُ بها العبدُ يَهْوِي بها في النَّارِ أبعَدَ مَا بينَ المشرِقِ والمغرِبِ».

وربَّما اتَّكل بعضُ المُغْتَرِّيْن على ما يرى من نِعَمِ الله عليه في الدنيا وأنه لا يُغَيِّرُ ما به، ويظنُّ ذٰلك أنه من محبَّة الله له، وأنه يُعطيهِ في الآخرة أفضلَ من ذٰلك! وهٰذا من الغُرورِ.

قـال الإمام أحمد[2]: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدِين بن سَعْد، عن حَرْمَلَةَ بن عِمران التُّجيبي، عن عُقْبَةَ بن مُسْلِمٍ، عن عقبةَ بن عامرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رأيتَ اللهَ عزَّ وجلَّ يُعطي العبدَ مِنَ الدُّنيا على معاصيهِ ما يُحِبُّ، فإنَّما هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»؛ ثم تلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

---

(١) في كتاب «الزُّهد» (ص ١٥)، ورواه ـ أيضاً ـ أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١ / ٢٠٣) مِن طريق طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً بسند صحيح.

(٢) في «المسند» (٤ / ١٤٥)، وفي «الزهد» (ص ١٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٨٨)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (٧٤)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (ص ٣٢)، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (٢٩٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٣٣٠) من طرق عن عُقبة بن مسلم عن عُقبة بن عامر.

وحسَّنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤ / ١٣٢).

[الأنعام: ٤٤].

وقال بعضُ السَّلَفِ: إذا رأيتَ اللهَ يُتابعُ عليك نِعَمَهُ وأنت مُقِيمٌ على معاصيهِ فاحْذَرْهُ؛ فإنَّما هو استدراجٌ يستدرجُك به»، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقد ردَّ سبحانه على من يَظُنُّ هٰذا الظنَّ بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]؛ أي: ليس كُلُّ مَنْ نعَّمتُهُ ووسَّعتُ عليه رزقَه أكونُ قد أكرمتهُ، ولا كلُّ مَنْ ابتليتُهُ وضيَّقْتُ عليهِ رزقَه أكونُ قد أهنتُهُ، بل أبتَلِي هٰذا بالنِّعمِ، وأُكْرِمُ هٰذا بالابتِلاءِ.

وفي «جامع الترمذيِّ»(١) عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنيا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، ولا يُعطي الإيمانَ إلَّا مَنْ يُحِبُّ».

---

(١) لم أره في «جامع الترمذي».

وهو قطعةٌ من حديث رواه أحمد (١ / ٣٨٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٨ / ١٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٤ / ١٦٦)، والحاكم (١ / ٣٤) مرفوعاً.

وهو معلولٌ؛ فقد قال الدارقطني: «رفَعَه جماعةٌ، وَوَقَفَهُ جماعةٌ، والصحيحُ الموقوف»، كما في «العلل المتناهية» (٢ / ٣٥٢) لابن الجوزي.

والموقوف؛ رواه المروزي في «زوائد الزهد» (١١٣٤)، وابن أبي شيبة (٣ / ٢٩٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٩) عن ابن مسعود قوله، وسنده صحيحٌ.

وقال شيخُنا في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٢٧١٤ ـ مخطوط): «... لكنَّه لا يخفى أنَّه في حُكم المرفوع؛ لأنه لا يُقال من قِبَل الرأي...».

وانظر: «مجمع الزوائد» (١ / ٥٨) و(١٠ / ٩٣) و(١٠ / ٢٣١).

وقال بعضُ السَّلَفِ: رُبَّ مُسْتَدْرَجٍ بنعمِ الله عليه وهو لا يعلمُ، ورُبَّ مغرورٍ بستر الله عليه وهو لا يعلمُ، ورُبَّ مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلمُ.

١٠ - فَصْلٌ [نَقْدُ أهل الاغْترار]:

وأعظمُ الناسِ غروراً مَنِ اغترَّ بالدنيا وعاجِلها، فآثرهَا على الآخرةِ، ورضيَ بها من الآخرةِ، حتى يقولَ بعضُ هٰؤلاءِ: الدُّنيا نَقْدٌ، والآخرةُ نسيئةٌ، والنقدُ أنفعُ مِنَ النَّسيئةِ!

ويقولُ بعضُهم: ذَرَّةٌ منقودةٌ، ولا دُرَّةٌ موعودةٌ!

ويقولُ آخرُ منهم: لذّات الدنيا متيقّنة، ولذّاتُ الآخرة مشكوكٌ فيها، ولا أدَعُ اليقينَ للشكِّ!

وهٰذا مِنْ أعظمِ تلبيس الشيطانِ وتسويلِه، والبهائمُ العُجْمُ أعقلُ من هٰؤلاء؛ فإنَّ البهيمةَ إذا خافتْ مضرَّةَ شيءٍ لم تُقْدِمْ عليه ولو ضُرِبَتْ، وهٰؤلاء يُقْدِمُ أحدُهم على عَطَبِهِ، وهو بينَ مصدِّقٍ ومكذِّبٍ!

فهٰذا الضَّرْبُ إنْ آمنَ أحدُهم باللهِ ورسولِه ولقائهِ والجزاءِ، فهو من أعظمِ الناسِ حسرةً؛ لأنَّهُ أقدمَ على علمٍ، وإنْ لم يؤمن بالله ورسولِه فأَبْعِدْ بهِ!

وقولُ هٰذا القائلِ: النقدُ خيرٌ مِنَ النَّسيئةِ!!

فجوابُه: إنه إذا تساوى النقدُ والنَّسيئةُ فالنقدُ خيرٌ، وإنْ تفاوتَا وكانتِ النسيئةُ أكثرَ وأفضلَ فهي خيرٌ! فكيفَ والدنيا كلُّها مِنْ أوَّلها إلى آخرِها كنَفَسٍ واحدٍ مِنْ أنفاسِ الآخرةِ.

كما في «مُسْنَدِ» الإمام أحمد والترمذيِّ[1] من حديثِ المستورد بن شدادٍ؛

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٢٩ و٢٣٠)، والترمذي (٢٣٢٢)، وهو في «صحيح مسلم» (٢٨٥٨) =

قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلَّا كما يُدْخِلُ أحَدُكُمْ إصبَعَهُ في اليَمِّ، فلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟!».

فإيثارُ هٰذا النقدِ على هٰذه النسيئةِ مِنْ أعظمِ الغُبْنِ وأقبحِ الجهلِ، فإذا كان هٰذا نسبةَ الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدارُ عمرِ الإنسانِ بالنسبةِ إلى الآخرةِ؟

فأيُّما أَوْلى بالعاقل؟ إيثارُ العاجلِ في هٰذه المدَّةِ اليسيرةِ، وحرمانُ الخيرِ الدائمِ في الآخرةِ؟أم تركُ شيءٍ صغيرٍ حقيرٍ منقطعٍ عن قريبٍ، ليأخذَ ما لا قيمةَ له، ولا خطرَ له، ولا نهايةَ لعددهِ، ولا غايةَ لأمدِه؟

وأمَّا قولُ الآخرِ: لا أتركُ متيقّناً لمشكوكٍ فيه!

فَيُقالُ له: إمَّا أن تكونَ على شكٍّ من وعدِ اللهِ ووعيدِهِ وصدقِ رسلِهِ، أو تكونَ على يقينٍ من ذٰلك، فإن كنتَ على يقينٍ فما تركتَ إلَّا ذَرَّةً عاجلةً منقطعةً فانيةً عن قُربٍ، لأمرٍ مُتيقَّنٍ لا شكَّ فيه ولا انقطاعَ له.

وإنْ كُنْتَ على شكٍّ فراجِعْ آياتِ الربِّ تعالى الدالةَ على وجُودِهِ وقُدرتِهِ ومشيئتِهِ، ووحدانيّتِهِ، وصدقِ رُسُلِهِ فيما أخبرُوا به عن اللهِ، وتجرَّدْ، وقُمْ للهِ ناظراً أو مُناظِراً، حتى يتبيَّنَ لك أنَّ ما جاءَت به الرسلُ صلواتُ الله عليهم عن اللهِ فهو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وأنّ خالقَ هٰذا العالمِ وربَّ السماواتِ والأرضِ يتعالى ويتقدَّسُ ويتنزَّهُ عن خلافِ ما أخْبَرَتْ به رسلُهُ عنه.

ومَنْ نَسَبَهُ إلى غيرِ ذٰلك فقد شتمَهُ وكذَّبه، وأنكرَ ربوبيَّتَهُ ومُلْكَهُ؛ إذ مِنَ المُحَالِ الممتنعِ عندَ كلِّ ذي فطرةٍ سليمةٍ، أنْ يكونَ الملكُ الحقُّ عاجزاً أو

= بلفظ: «واللهِ؛ ما الدنيا في الآخرة إلَّا مثلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في هٰذه ـ وأشار بالسبَّابةِ ـ في اليمِّ؛ فَلْيَنْظُر بم يرجع؟!».

جاهلاً، لا يعلمُ شيئاً، ولا يسـمعُ، ولا يبصرُ، ولا يتكلمُ، ولا يأمرُ، ولا ينهى، ولا يُثيبُ، ولا يعاقبُ، ولا يُعِزُّ مَنْ يَشاءُ، ولا يُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، ولا يُرسلُ رُسلَهُ إلى أطرافٍ مملكتهِ ونواحيها، ولا يعتني بأحوالِ رعيَّتِهِ بل يتركهُم سدىً ويخلّيهم هملاً!

وهٰـذا يقدحُ في مُلْكِ آحادِ ملوكِ البشر ولا يليقُ به؛ فكيفَ يجوزُ نسبةُ الملكِ الحقِّ المبينِ إليه؟

وإذا تأمَّـلَ الإنسـانُ حالَهُ من مُبتدأ كونهِ نطفةً إلى حين كمالهِ واستوائهِ تبيَّنَ له أنَّ مَنْ عُنِيَ به هٰذه العنايةَ، ونقلهُ في هٰذه الأحوالِ، وصرفَهُ في هٰذه الأطوارِ، لا يليقُ به أنْ يُهملَهُ ويتركَهُ سُدىً، لا يأمرهُ ولا ينهاه ولا يُعرِّفه حقوقَه عليه، ولا يثيبُهُ ولا يعاقبه.

ولو تأمَّلَ العبدُ حقَّ التأمل لكانَ كلّ ما يبصرهُ وما لا يبصرهُ دليلاً له على التوحيد والنبوّةِ والمعادِ، وأنَّ القرآنَ كلامُهُ.

وقد ذكرنَا وجهَ الاستدلالِ بذٰلك في كتاب «أَيْمانِ القرآن»(١) عند قولهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠].

وذكـرنـا(٢) طرفـاً مِنْ ذٰلـك عنـدَ قولـهِ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وأنَّ الإنسانَ دليلٌ لنفسه على وجودِ خالقهِ وتوحيدِه، وصدقِ رسلهِ، وإثباتِ صفاتِ كمالهِ.

فقد بانَ أنَّ المُضَيِّعَ مغرورٌ على التقديرَيْنِ: تقديرِ تصديقهِ ويقينهِ، وتقديرِ تكذيبهِ وشكِّهِ.

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (١٠٩).

(٢) «التبيان» (١٨٣).

فإنْ قُلْتَ: كيف يجتمعُ التصديقُ الجازمُ الذي لا شكَّ فيه بالمعادِ والجنَّةِ والنارِ ويتخلَّفُ العملُ؟

وهـل في الطِّباعِ البشريةِ أَنْ يعلمَ العبدُ أنَّه مطلوبٌ غداً إلى بين يديّ بعضِ الملوكِ ليعاقِبَهُ أشدَّ عقوبةٍ، أو يكرمَهُ أتمَّ كرامةٍ، ويبيتَ ساهياً غافلاً، لا يتذكرُ موقفهُ بين يدي الملكِ، ولا يستعدُّ له، ولا يأخذُ له أهبتَهُ؟

قيل: هٰذا لعَمْرُ اللهِ سؤالٌ صحيحٌ واردٌ على أكثرِ هٰذا الخَلْقِ؛ واجتماعُ هٰذينِ الأمرينِ من أعجبِ الأشياءِ، وهٰذا التخلُّفُ له عدةُ أسبابٍ:

أحدُها: ضعفُ العلمِ ونقصانُ اليقين، ومَنْ ظنَّ أنَّ العلمَ لا يتفاوَتُ، فقولُهُ مِنْ أفسَدِ الأقوالِ وأبطلِها.

وقد سألَ إبراهيمُ الخليلُ ربَّهُ أن يُرِيَهُ إحياءَ الموتى عَيَاناً بعدَ علمهِ بقدرةِ الربِّ على ذٰلك؛ ليزدادَ طمأنينةً، ويصيرَ المعلومُ غيباً شهادةً[1].

وقد روى أحمدُ في «مُسنده»[2] عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «لَيْسَ المُخْبِرِ كالمعايِنِ».

فإذا اجتمعَ إلى ضعفِ العلمِ عَدَمُ استحضارِهِ، وغيبَتُهُ عنِ القلب في كثيرٍ من أوقاتِهِ أو أكثرها لاشتغالِهِ بما يضادُّهُ، وانضمَّ إلى ذٰلك تقاضِي الطَّبعِ، وغلباتُ الهوى، واستيلاءُ الشهوةِ، وتسويلُ النفسِ، وغرورُ الشيطانِ، واستبطاءُ

---

(١) كما في سورة البقرة: ٢٦٠.

وانظر: «الدر المنثور» (٦ / ٣٣٤) للسيوطي.

(٢) (برقم ١٨٤٢).

ورواه الطبرانيُّ في «الأوسط»(٢٨٤)، وفي «الكبير» (١٢٤٥١)، وابن حبان (٦٢١٣) و(٦٢١٤)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، والحاكم (٢ / ٣٢١)، والبزَّار (٢٠٠)، وابن عدي (٧ / ٢٥٩٦).

الوعدِ، وطولُ الأملِ ، ورقدةُ الغفلةِ، وحبُّ العاجلةِ، ورُخَصُ التأويلِ ، **وإلْفُ العوائِدِ**؛ فهناكَ لا يُمسكُ الإيمانَ إلا الذي يمسكُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا .

وبهٰذا السبب يتفاوتُ الناسُ في الإيمانِ والأعمالِ ، حتى ينتهي إلى أدنى أدنى مثقالِ ذرَّةٍ في القلبِ.

وجماعُ هٰذه الأسبابِ يرجعُ إلى ضعفِ البصيرةِ والصبرِ؛ ولهٰذا مدحَ اللهُ سبحانهُ أهلَ الصبرِ واليقينِ، وجعلَهم أئمةَ الدِّينِ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] .

١١ ـ فَصْلٌ [الفرق بين حُسن الظنّ والغرور]:

فقد تبيَّن الفرقُ بينَ حُسنِ الظنِّ والغرورِ، وأنَّ حُسنَ الظنِّ إنْ حَمَلَ على العملِ وحثَّ عليه وساقَ إليه فهو صحيحٌ ، وإنْ دعا إلى البطالةِ والانهماكِ في المعاصِي فهو غرورٌ.

وحُسْنُ الظنِّ هو الرجاءُ؛ فَمَنْ كانَ رجاؤهُ هادياً له إلى الطاعةِ، وزاجراً له عن المعصيةِ؛ فهو رجاءٌ صحيحٌ ، ومَنْ كانَتْ بطالتُهُ رجاءً، ورجاؤهُ بطالةً وتفريطاً ؛ فهو المغرورُ.

ولو أنَّ رجلاً كانت له أرضٌ يُؤمِّلُ أنْ يَعُودَ عليه مِنْ مُغِلِّها ما ينفعُه ، فأهْمَلَهَا ولم يبذُرْها، ولم يَحْرُثْها، وحَسَّنَ ظنَّهُ بأنَّهُ يأتي مِنْ مُغِلِّهَا ما يأتي مِنْ غيرِ حرثٍ وبذرٍ وسقيٍ وتعاهدِ الأرضِ لعدَّهُ الناسُ مِنْ أسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

وكذٰلِكَ لو حَسُنَ ظَنُّهُ وقويَ رجاؤهُ بأنْ يجيئَهُ ولدٌ مِنْ غيرِ جماعٍ ، أو يصيرَ أعلمَ أهلِ زمانِهِ من غيرِ طلبٍ للعلمِ وحرصٍ تامٍّ عليه، وأمثالِ ذٰلكَ.

فكـذٰلك مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ وقويَ رجاؤهُ في الفوزِ بالدَّرجاتِ العُلا والنَّعيمِ المقيمِ ، من غيرِ طاعـةٍ ولا تقـرُّبٍ إلى اللهِ تعـالى بامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابِ

نواهيه، وبالله التوفيقُ.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]؛ فتأمَّلْ كيفَ جعلَ رجاءَهُم إتيانَهُم بهٰذه الطَّاعاتِ؟!

وقال المُغْتَرُّونَ: إنَّ المُفَرِّطينَ المُضَيِّعينَ لحقوقِ اللهِ المُعَطِّلينَ لأوامرِه، الباغينَ على عبادِهِ، المُتَجَرِّئينَ على محارِمِهِ؛ أولٰئكَ يرجونَ رحمةَ اللهِ.

وسِرُّ المسألةِ: أنَّ الرجاءَ وحُسنَ الظنِّ إنَّما يكونُ مع الإتيانِ بالأسبابِ التي اقتضتْها حكمةُ اللهِ في شرعِهِ، وقَدَرِهِ، وثوابِهِ وكرامتِهِ، فيأتي العبدُ بها ثم يُحسنُ ظنَّهُ بربِّهِ، ويرجوهُ أنْ لَا يَكِلَهُ إليها، وأنْ يَجْعَلَهَا مُوصِلةً لما ينفعُهُ، ويصرفَ عنه ما يعارِضُها ويبطلُ أثَرَها.

١٢ ـ فَصْلٌ [لوازم الرجاء]:

ومما ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ مَنْ رَجا شيئاً استلزمَ رجاؤه ثلاثَة أمورٍ:

أحدها: محبةُ ما يرجوه.

الثاني: خوفُه مِنْ فواتِهِ.

الثالث: سعيُهُ في تحصيلِهِ بحسبِ الإمكان.

وأمَّا رجاءٌ لا يقارِنُهُ شيءٌ من ذٰلك؛ فهو مِنْ بابِ الأمانِيِّ.

والرجاءُ شيءٌ والأماني شيءٌ آخَرُ؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائرُ على الطريق إذا خافَ، أسرعَ السيرَ مخافةَ الفواتِ.

وفي «جامعِ الترمذيِّ»[1] من حديثِ أبي هريرةَ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ

=

(١) (برقم ٢٤٥٢).

ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألاَ إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ».

وهو سبحانه كما جعلَ الرَّجاءَ لأهلِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، فكذلك جعلَ الخوفَ لأهلِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، فَعُلِمَ أنَّ الرجاءَ والخوفَ النافعَ هو ما اقترنَ به العملُ الصالحُ؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . والَّذِينَ هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤمِنُونَ . والَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِم لاَ يُشْرِكُونَ . والَّذِينَ يُؤتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وقد روى الترمذيُّ في «جامعهِ»[1] عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها؛ قالَتْ: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقلتُ: أهُمُ الَّذين يَشْرَبُونَ الخَمْرَ ويَزْنُونَ ويَسْرِقُونَ؟ فقالَ: لاَ، يا بِنْتَ الصِّدِّيق، ولكنَّهُم الَّذينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ ويَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أن لا تُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ في الخيراتِ».

وقد رُوِيَ من حديث أبي هُريرة أيضاً[2].

= ورواه البخاري في «تاريخه» (١٧٨)، والحاكم (٤ / ٣٠٧)، وعبد بن حُميد في «مسنده» (١٤٥٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٧٣).

وفي سنده يزيد بن سنان الرُّهاوي، وهو ضعيفٌ، وله شاهدٌ:

رواه الحاكم (٤ / ٣٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٣٧٧) عن أُبَيِّ بن كَعْب بسند حَسَن.

(١) (برقم ٣١٧٥).

ورواه ابن ماجه (٤١٩٨)، وابن جرير (١٨ / ٢٦)، والحاكم (٢ / ٣٩٣)، وأحمد (٦ / ١٥٩ و٢٠٥) بسند رجاله ثقات، لكنَّه منقطع.

وله طريقٌ ثانٍ عن عائشة، رواه ابن جرير (١٨ / ٣٤) أيضاً، فيتقوَّى به.

ويُقَوِّيه ـ أيضاً ـ حديثُ أبي هُريرة الآتي.

(٢) رواه ابن جرير (١٨ / ٣٤)، ولكنَّ في إسناده محمد بن حُميد الرازي، وهو ضعيفٌ. =

واللهُ سبحانـه وصفَ أهـلَ السعادةِ بالإحسانِ مَعَ الخَوْفِ[1]، ووصفَ الأشقياءَ بالإساءةِ معَ الأَمْنِ[2].

ومَنْ تأمَّلَ أحوالَ الصحابةِ رضي الله عنهم وجدَهم في غايةِ العملِ مع غايةِ الخوفِ.

ونحنُ جَمعْنَا بين التقصير ـ بل التفريطِ ـ والأمنِ؛ فهٰذا الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: «وَدِدْتُ أنِّي شعرةٌ في جَنْبِ عبدٍ مؤمنٍ». ذكره أحمدُ[3] عنه.

وذُكِرَ عنه أنَّه كان يُمسكُ بلسانهِ ويقولُ: «هٰذا الذي أَوْردني الموارد»[4].

وكانَ يبكي كثيراً، ويقولُ: «ابكُوا، فإنْ لم تبكُوا فتباكُوا»[5].

وكان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ كأنَّهُ عودٌ مِنْ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[6].

وأُتِيَ بطائرٍ فقلَّبه ثم قالَ: «ما صِيدَ مِنْ صَيْدٍ، ولا قُطِعتْ من شجرةٍ إلا بما ضيَّعَتْ من التَّسبيحِ»[7].

= وقارن بـ «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٦٢) لشيخنا الألباني.

(١) كما في قوله سبحانه: ﴿والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهم وَيَخافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾.

(٢) كما في قولهِ سبحانه: ﴿أَفَأَمِنْتُم أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ جَانِبَ البَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُم وَكِيلاً﴾.

(٣) في «الزهد» (٢ / ١٣).

(٤) رواه ابن السُّنِّي في «عمل اليوم» (٧)، وأبو يعلى (٥)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣)، ومالك في «الموطأ» (٢ / ٩٨٨)، وابن أبي شيبة (٩ / ٦٦)، وابن المبارك (٣٦٩) بسند صحيح.

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ١٣).

(٦) انظر: «تاريخ الخلفاء» (١٠٤).

(٧) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ١٥).

ولَمَّا احْتُضِرَ قال لعائشةَ: «يا بنيَّةِ! إنِّي أصبتُ مِنْ مالِ المسلمين هٰذه العباءةَ وهٰذا الحلابَ وهٰذا العبدَ، فأسرِعي به إلى ابنِ الخطَّابِ»[1].

وقال: «والله لوددتُ أنّي كنتُ هٰذه الشجرةَ تؤكَلُ وتُعْضَد».

وقال قتادةُ: بلغني أنَّ أبابكرٍ؛ قال: «وددتُ أنّي خَضِرَةٌ تأكُلُني الدوابُّ»[2].

وهٰذا عمرُ قرأَ سورةَ الطورِ حتى إذا بلغَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧]، بكى واشتدَّ بكاؤه حتى مرِضَ وعادوه[3].

وقال لابنِهِ وهو في المَوْتِ: «وَيْحَكَ ضَعْ خَدِّي على الأَرْضِ، عساه أن يَرْحَمَنِي»، ثمَّ قال: «ويلَ أُمِّي، إنْ لم يغفِرْ لي». ثلاثاً، ثم قضىٰ[4].

وكان يمرُّ بالآيةِ في وِرْدِهِ بالليلةِ فَتُخيفُهُ، فيبقى في البيتِ أياماً يُعادُ، يحسبونَهُ مريضاً[5].

وكان في وجهِهِ رضي الله عنه خَطَّانِ أسودانِ مِنَ البُكَاءِ[6].

وقال له ابنُ عباسٍ: مصَّرَ اللهُ بكَ الأمصَارَ، وفتحَ بك الفُتوحَ، وفَعَلَ وَفَعَلَ، فقالَ: «وَدِدْتُ أني أنجو لا أجْرَ ولا وِزْرَ»[7].

وهٰذا عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنه، كان إذا وقفَ على القبرِ يبكي حتى

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ١٦).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ١٧).

(٣) انظر التعليق الآتي بعد تعليقٍ.

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ٨١).

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ٢٩)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١ / ٥١).

(٦) رواه أحمد (٢ / ٣٠)، وأبو نعيم (١ / ٥١).

(٧) رواه أحمد (٢ / ٣٤)، وأبو نعيم (١ / ٥٢).

تبتلَّ لحيَتُهُ[1].

وقال: «لو أنّني بينَ الجنَّةِ والنَّارِ لا أدري إلى أيتهما يُؤمَرُ بي؛ لاخترتُ أنْ أكونَ رماداً قبلَ أن أعلمَ إلى أيَّتهما أصيرُ»[2].

وهٰذا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه وبكاؤه وخوفُه:

وكان يشتدُّ خوفُهُ مِنْ اثنتين: طولِ الأملِ، واتِّباعِ الهوى؛ قال: «فأمَّا طولُ الأملِ فَيُنْسِي الآخرةَ، وأمَّا اتِّباعُ الهوى فيصدُّ عن الحَقِّ، ألا وإنَّ الدنيا قد ولَّتْ مدبرة، والآخرةَ مقبلةٌ، ولكلٍّ واحدةٍ بنون، فكونُوا من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكونوا من أبناءِ الدنيا؛ فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ»[3].

وهٰـذا[4] أبو الدرداءِ رضي اللهُ عنه كانَ يقولُ: «إنَّ أشدَّ ما أخافُ على نفسي يومَ القيامةِ أنْ يُقالَ لي: يا أبا الدَّرداءِ! قد عَلِمْت؛ فكيفَ عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟».

وكان يقولُ: «لو تعلمونَ ما أنتم لاقونَ بعدَ الموتِ لما أكلتُم طعاماً على شهوةٍ، ولا شربتُم شراباً على شهوةٍ، ولا دخلتُم بيتاً تستظلُّونَ فيه، ولخرجتُم إلى الصعيدِ تضربُونَ صدورَكُم، وتبكونَ على أنفسِكُم، ولوددتُ أني شجرةٌ تعضدُ ثم تؤكلُ».

وكان عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ أسفلَ عينيهِ مثلُ الشِّراكِ البالي من الدُّموعِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٢٤)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١ / ٦١).

(٢) رواه أحمد (٢ / ٤٢)، وأبو نعيم (١ / ٦٠).

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (٢ / ٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ٧٦).

(٤) وسائرُ الآثارِ الآتيةِ بَعْدُ مِنْ رواية أحمد في «الزهد»، أو أبي نُعيم في «الحلية»؛ فلا أُطيل في تكرار العزو لهما.

وكان أبو ذرٍّ يقولُ: «يا ليتني كنتُ شجرةً تعضدُ، ووددتُ أنّي لم أُخْلَقْ».

وعُرِضَتْ عليه النفقةُ فقال: «عندنا عنزٌ نحلبها وأحمرةٌ ننقلُ عليها، ومُحرَّرٌ يخدمُنا، وفضلُ عباءةٍ، وإنّي أخافُ الحسابَ فيها».

وقرأ تميمٌ الدّاري ليلةً سورةَ الجاثيةِ، فلما أتى على هٰذه الآيةِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، جعلَ يُردِّدُهَا ويبكي حتى أصبحَ.

وقال أبو عُبيدةَ عامرُ بنُ الجراح: «وددتُ أنّي كبشٌ فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحَسَوا مرقِي».

وهٰذا بابٌ يطولُ تتبُّعُهُ.

قال البُخاريُّ في «صحيحه»[1]: «بابُ خوفِ المؤمنِ مِنْ أنْ يَحْبَطَ عملهُ وهو لا يَشْعُرُ»:

وقالَ إبراهيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قولي عَلَى عَمَلِي، إلَّا خَشَيْتُ أنْ أكونَ مُكَذِّباً.

وقال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: أدْرَكْتُ ثلاثينَ مِنْ أصحَابِ النَّبيِّ ﷺ كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ على نفسِهِ، ما مِنْهُم أحدٌ يقولُ: إنَّهُ على إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ.

ويُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: ما خافَهُ إلَّا مُؤمِنٌ، ولا أمِنَهُ إلَّا مُنَافِقٌ.

وكانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يقولُ لحُذَيْفَةَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ؛ هل سَمَّاني لك رسولُ اللهِ ﷺ - يعني في المُنافقين -؟ فيقولُ: لا، ولا أُزَكّي بعدَكَ أحداً».

فسمعتُ شيخنا[2] يقول: ليس مرادُه أنّي لا أُبَرِّىءُ غيرَكَ مِنَ النِّفَاقِ، بل

---

(١) (١ / ١٠٩).

(٢) هو شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى.

المرادُ: لا أفتحُ على نفسي هٰذا البابَ، فكلُّ مَنْ سَأَلَني: هل سمَّاني لك رسولُ اللهِ ﷺ؟ فأزكِّيه!

قلت: وقريبٌ مِنْ هٰذا قولُ النبيِّ ﷺ للَّذي سأله أنْ يدعوَ له أن يكونَ مِنَ السبعينَ ألفاً الذين يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

ولم يَرِدْ أنَّ عُكاشةَ وَحده أحقُّ بذٰلك مِمَّنْ عداه مِنَ الصَّحابةِ، ولٰكنْ لو دعا له لقامَ آخرُ وآخرُ وانفتَحَ البابُ، وربَّما قامَ مَنْ لا يستحقُّ أن يكونَ منهم؛ فكانَ الإمساكُ أولى، واللهُ أعلمُ.

١٣ ـ فَصْلٌ [ضرر الذنوب والمعاصي]:

فَلْنَرْجِعْ إلى ما كُنَّا فيهِ مِنْ ذكرِ دواءِ الدَّاءِ الذي إن استمرَّ أفسدَ دنيا العبدِ وآخرتَهُ.

فممّا ينبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ الذنوبَ والمعاصي تضرُّ ولا بدَّ، وأنَّ ضرَرَها في القلوبِ كضررِ السمومِ في الأبدانِ، على اختلافِ درجاتِها في الضّررِ، وهل في الدنيا والآخرةِ شرٌّ وداءٌ إلا وسببهُ الذنوبُ والمعاصي؟

فما الذي أخرَجَ الأبوينِ من الجنَّةِ، دارِ اللذةِ والنعيمِ والبهجةِ والسرورِ، إلى دارِ الآلامِ والأحزانِ والمصائبِ؟

ومـا الذي أخرَجَ إبليسَ مِنْ مَلَكُوتِ السماءِ وطردهُ وَلَعَنَهُ، ومسخَ ظاهرَه وباطنَه فجعلَ صورتَهُ أقبحَ صورةٍ وأشنَعها، وباطنَه أقبحَ من صورتِهِ وأشنعَ، وبُدِّلَ بالقربِ بُعْداً، وبالرحمةِ لعنةً، وبالجمالِ قُبحاً، وبالجنةِ ناراً تلظَّى، وبالإيمانِ كفراً، وبموالاةِ الوليِّ الحميدِ أعظمَ عداوةٍ ومشاقةٍ، وبزَجَلِ التسبيحِ والتقديسِ

(١) رواه البخاري (٦١٧٥)، ومسلم (٢١٦).

والتهليلِ زَجَلَ الكُفرِ والشركِ والكذبِ والزّورِ والفحشِ ، ويلباسِ الإيمانِ لباسَ الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ؛ فهانَ على اللهِ غايةَ الهـوانِ، وسقطَ من عينهِ غايةَ السقوطِ، وحلَّ عليه غضبُ الربِّ تعالى فأهواه، ومقتَه أكبرَ المَقْتِ فأرداه، فصارَ قوَّاداً لكلِّ فاسقٍ ومجرمٍ ، رضي لنفسهِ بالقيادةِ بعدَ تلك العبادةِ والسِّيادةِ؟ فعياذاً بك اللهمَّ مِنْ مخالفةِ أمرِك وارتكابِ نهيكَ.

وما الذي أغرقَ أهلَ الأرضِ كلَّهم حتى علا الماءُ فوقَ رؤوسِ الجبالِ؟

وما الذي سَلَّطَ الريحَ على قومِ عادٍ حتى ألقَتْهُم موتى على وجهِ الأرضِ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ، ودمَّرت ما مرَّت عليه مِنْ ديارِهم وحروثِهم وزروعِهم ودوابِّهم، حتى صاروا عبرةً للأممِ إلى يومِ القيامةِ؟

وما الَّذي أرسلَ على قومِ ثمودَ الصَّيحةَ حتى قطَّعتْ قلوبَهُم في أجوافِهم، وماتوا عن آخرِهم؟

وما الذي رفعَ قرى اللُّوطيَّةِ حتى سمعتِ الملائكةُ نبيحَ كلابِهم، ثمَّ قَلَبَها عليهم، فجعلَ عاليها سافِلَها، فأهلكَهم جميعاً، ثم أتبعَهم حجارةً مِنَ السماءِ أمطرَها عليهم، فجمعَ عليهم مِنَ العقوباتِ ما لم يجمَعْهُ على أُمَّةٍ غيرِهم، ولإخوانِهم أمثالُها، **وما هي مِنَ الظَّالمين ببعيدٍ**[1]؟

وما الذي أرسلَ على قومِ شُعيبٍ سحابَ العذابِ كالظُّللِ، فلمَّا صارَ فوقَ رؤوسِهم أمطرَ عليهم ناراً تلظَّى؟

وما الذي أغرقَ فرعونَ وقومَهُ في البحرِ، ثم نقَلَ أرواحَهم إلى جهنَّمَ؛ فالأجسادُ للغَرَقِ، والأرواحُ للحَرْقِ؟

وما الَّذي خَسَفَ بقارونَ ودارهِ ومالِهِ وأهلِه؟

---

(١) إي واللهِ.

=

وما الذي أهلكَ القرونَ مِنْ بَعْدِ نوحٍ بأنواعِ العقوباتِ ودمَّرها تدميراً؟

وما الذي أهلكَ قومَ صاحبِ يسٓ بالصَّيحةِ حتى خمدُوا عن آخرِهم؟

وما الذي بعثَ على بني إسرائيلَ قوماً أولي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خلالَ الديارِ، وقتلُوا الرجالَ، وَسَبُوا الذُّرِّيَّةَ والنساءَ، وأحرقُوا الديار ونهبوا الأموالَ، ثم بعثهم عليهم مرةً ثانيةً فأهلكُوا ما قدرُوا عليه وتبَّرُوا ما عَلَوْا تتبيراً؟

وما الذي سَلَّطَ عليهم أنواعَ العقوباتِ، مرَّةً بالقتلِ والسَّبيِ وخراب البلادِ، ومرَّةً **بجَوْرِ الملوكِ**، ومرَّةً بمسخهم قردةً وخنازيرَ، وآخِرُ ذلك أقسمَ الربُّ تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؟

قال الإمامُ أحمدُ[١]: حدَّثنا الوليدُ بنُ مسلمٍ، حدَّثنا صفوانُ بنُ عمروٍ، حدَّثني عبدُ الرحمٰنِ بنُ جبيرِ بنِ نفيرٍ عن أبيهِ؛ قالَ: «لما فُتِحَتْ قبرصُ فَفُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضُهم إلى بعضٍ، رأيتُ أبا الدرداءِ جالِساً وحده يبكي، فقلتُ: يا أبا الدرداءِ! ما يبكيكَ في يومٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهله؟ فقال: ويحكَ يا جبيرُ؛ ما أهونَ الخلقَ على اللهِ عزَّ وجلَّ إذا أضاعوا أمره! بينا هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ، لهم الملكُ، تركوا أمرَ اللهِ فصاروا إلى ما ترى».

وقال عليُّ بنُ الجعدِ[٢]: أنبأنا شُعبةُ عن عمروِ بن مُرَّةَ؛ قال: سمعتُ أبا

---

(١) في «الزهد» (١ / ٨٦) وبسند صحيح.

وهٰذا الأثرُ قاعدةٌ ذهبيَّةٌ يَحُلُّ فهمُهُ مسألةً أشكلت على دُعاة العصر، ألا وهي مسألةُ التَّغْيير.

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى فَهمهم ـ رحمهم الله ـ لمسألة التَّغييرِ، وأنَّه مبنيٌّ على الالتزام بأمر الله جلَّ شأنُه.

(٢) في «مسنده» (رقم ١٣٠).

ورواه أحمد (٤ / ٢٦٠)، وأبو داود (٤٣٤٧)، وسنده صحيحٌ.

البَخْتَريِّ يقولُ: أخبرني مَنْ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «لن يَهْلِكَ النَّاسُ حتَّى يُعْذَرُوا مِن أنفسهم».

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[1] من حديثِ أمِّ سلمةَ؛ قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إذا ظهرتِ المعاصي في أُمَّتي عمَّهُمُ اللهُ بعذابٍ مِن عنده. فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! أما فيهم يومئذٍ أناسٌ صالحونَ؟ قالَ: بلى. قلتُ: فكيفَ يُصنَعُ بأُولئكَ؟ قال: يُصيبُهُم ما أصابَ النَّاسَ، ثُمَّ يصيرُونَ إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ».

وفي مراسيلِ الحسنِ[2] عن النبيِّ ﷺ: «لا تزالُ هٰذه الأمَّةُ تحتَ يدِ اللهِ وفي كَنَفِهِ ما لم يُمَالِئْ قُرَّاؤها أمراءَهَا، وما لم يُزَكِّ صُلَحَاؤها فُجَّارَها، وما لم يُهِنْ خِيَارَهَا أشرارُها، فإذا هُم فعلوا ذٰلكَ رفعَ اللهُ يدهُ عنهم، ثمَّ سَلَّطَ عليهم جبابِرَتَهُم فَسامُوهُم سُوءَ العذابِ، ثُمَّ ضربَهُمُ اللهُ بالفاقةِ والفقرِ».

وفي «المسندِ»[3] من حديثِ ثوبانَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

---

(١) (٦ / ٣٠٤).

وفي سنده ليثُ بن أبي سُليم وهو ضعيفٌ، ولٰكنَّ له شواهد تُثَبِّتُهُ، انظرها في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٧٢).

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢ / ١٥٠): «رواه أبو عَمْرو الدَّاني في «كتاب الفِتَن» من رواية الحسن مرسلاً، ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث علي وابن عمر بلفظ: «ما لم يُعظِّم أبرارُها فُجَّارَها، ويُداهن خيارُها شرارها»، وإسنادهما ضعيفٌ».

(٣) (٥ / ٢٧٧).

ورواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، والحاكم (١ / ٤٩٣)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٤٤٢)، والطحاوي في «المشكل»، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٦)، وفيه جهالةٌ.

وفيه[1] أيضاً عنه؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يوشِكُ أن تَتَداعى عليكمُ الأمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كما تداعى الأكَلَةُ على قصعتها. قُلنا: يا رَسُولَ اللهِ! أمِنْ قلَّةٍ بنا يومئذٍ؟ قالَ: أنتُم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكُم غُثاءٌ كغُثَاءِ السَّيلِ، تُنْزَعُ المَهابَةُ من قلوبِ عدوِّكُم، ويُجعَلُ في قلوبِكُمُ الوَهْنُ. قالوا: وما الوهنُ؟ قالَ: حُبُّ الدنيا وكراهَةُ الموتِ».

وفي «المسندِ»[2] من حديثِ أنسٍ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمَّا عُرِجَ بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ مِنْ نُحاسٍ يَخْمِشُونَ بها وُجُوهَهُم وصدورَهُم، فقلتُ: مَنْ هٰؤلاء يا جبريلُ؟ قالَ: هٰؤلاءِ الَّذينَ يأكلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، ويقعُونَ في أعراضهم».

وفي «جامع الترمذيِّ»[3] من حديثِ أبي هريرة؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يخرجُ في آخِرِ الزَّمَانِ قومٌ يختِلُونَ الدُّنيا بالدِّين، ويَلْبسُونَ للنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأنِ مِنَ اللِّين، ألسنتُهُم أحلى من السُّكَّرِ، وقُلُوبُهُم قُلُوبُ الذِّئاب، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أبِيَ يَغْتَرُّونَ؟ وعليَّ يَجْتَرِؤُنَ؟ فبي حَلَفْتُ، لأبْعَثَنَّ على أُولٰئكَ فِتنةً تَدَعُ الحليمَ فيها حيرانَ».

---

(١) (٥ / ٢٧٨).

ورواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١ / ١٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٤٥٢) من طريقين عن ثوبان بسند حسن.

(٢) (٣ / ٢٢٤).

وقد سبق تخريجُه.

(٣) (برقم ٢٤٠٤).

ورواه البَغَويُّ في «شرح السنة» (٤١٩٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٧)، وابن عبد البَرِّ في «جامع بيان العلم» (١ / ٢٣٢) من طريق يحيى بن عُبيد الله عن أبيه عن أبي هريرة.

ويحيى بن عُبيدالله؛ ضعَّفه جماعةٌ مِن أهل العلمِ؛ منهم أبو حاتم والنَّسائي وأحمد.

وذكر ابنُ أبي الدنيا[1] مِنْ حديثِ جعفرَ بنِ محمدٍ عن أبيه عن جدِّه؛ قال: قال عليٌّ: «يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى مِنَ الإسلام إلا اسمُهُ، ولا مِنَ القرآنِ إلَّا رسمُهُ، مساجِدُهم يومَئذٍ عامرةٌ، وهي خرابٌ مِنَ الهدى، علماؤهم شرُّ مَنْ تَحتَ أديمِ السَّماءِ، منهم خرجتِ الفتنةُ، وفيهم تعودُ».

وذكر[2] من حديثِ سماكِ بنِ حربٍ عنْ عبدِ الرحمٰنِ بن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ عن أبيه؛ قال: «إذا ظهرَ الزنا والرِّبا في قريةٍ أذِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهلاكِها».

ومن مراسيلِ الحسنِ[3]: «إذا أظْهَرَ النَّاسُ العِلْمَ وَضَيَّعُوا العَمَلَ، وتحابُّوا بالألْسُنِ، وتَبَاغَضُوا بالقُلوبِ، وتقاطَعُوا الأرحامَ؛ لَعَنَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ عندَ ذٰلكَ، فأصَمَّهُمْ وأعمى أبصارَهُم».

وفي «سننِ ابنِ ماجه»[4] من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمر بن الخطابِ رضي

---

(١) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٦٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٥٤٣) عن علي مرفوعاً، وفيه ضعفٌ وانقطاع.

وعلَّقه بصيغة التمريض البخاري في «خلق أفعال العباد» (رقم ٢٣٩) موقوفاً.

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٩٨١) موقوفاً، وفي سنده شَرِيكٌ، وهو سيِّئُ الحفظِ.

ولـه طريقٌ أخـرى في «معجم الـطبراني الكبير» (١٠٣٢٩)، وفي سنده أحمد بن يحيى الأحول، وهو ضعيفٌ.

ورُوي الحديثُ ـ أيضاً ـ مرفوعاً؛ فانظر تخريجه في «غاية المرام» (٣٤٤) لشيخنا الألباني.

(٣) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في كتاب «العلم»، كما في «الدُّرِّ المنثور» (٦ / ٦٦).

وأخرجه أحمد في «الزهد» (١٩٣) موقوفاً على سلمان الفارسي.

وأخرجه الطبراني (٦ / ٣٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ١٠٩) عن سلمان مرفوعاً.

وضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٧٩).

(٤) (برقم: ٤٠١٩).

ورواه أبو نُعيم في «الحلية» (٨ / ٣٣٣)، وفي سنده ضعفٌ.

ولٰكنَّ له طريقاً أخرى في «مستدرك الحاكم» (٤ / ٥٤٠) بسند حسن.

الله عنه؛ قال: «كُنْتُ عاشِرَ عشرةِ رَهْطٍ مِنَ المهاجرينَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فأقبلَ علينا رسولُ الله ﷺ بوجهِهِ فقالَ: يا معشرَ المهاجرينَ! خَمْسُ خِصالٍ وَأعوذُ باللهِ أن تُدْرِكُوهُنَّ: ما ظَهَرَتِ الفاحِشَةُ في قومٍ حتى أعلنوا بها إلَّا ابْتُلُوا بالطَّواعِينِ والأوْجَاعِ الَّتي لم تَكُنْ في أسلافِهِمُ الَّذينَ مَضَوا، ولا نَقَصَ قومٌ المِكيالَ والميزانَ إلَّا ابتُلُوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلطانِ، وما منعَ قومٌ زكاةَ أموالِهِم إلَّا مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّماءِ فَلَوْلاَ البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، ولا خَفَرَ قومٌ العَهْدَ إلَّا سَلَّطَ اللهُ عَليهم عدُوّاً مِنْ غيرهِم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمَّتُهُم بِمَا أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ إلَّا جعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُم».

وفي «المسندِ» و«السُّننِ»[1] من حديثِ عمرو بن مُرَّةَ عن سالمِ بنِ أبي الجعدِ عن أبي عُبيدةَ بن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ عن أبيه؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كانَ إذا عَمِلَ العَامِلُ فيهم بالخَطِيئَةِ جاءَهُ النَّاهِي تعذيراً، فإذا كانَ الغدُ جالَسَهُ وواكَلَهُ وشارَبَهُ، كأنَّهُ لَمْ يَرَهُ على خَطِيئَةٍ بالأمْسِ، فلمَّا رأى اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك مِنهُم ضَرَبَ بقلوبِ بعضهم على بعضٍ، ثُمَّ لعنَهُم على لسانِ نَبيِّهم داودَ وعيسى بن مَريَمَ. ذلك بِمَا عَصَوْا وكانوا يعتَدُونَ. والَّذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ؛ لتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيهِ، ولَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْراً، أو لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلوبِ بعضِكُم على بعضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُم كَمَا لَعَنَهُم».

وذكر ابنُ أبي الدنيا[2] عن إبراهيمَ بنِ عمروٍ الصنعانيِّ؛ قالَ: أوحَى اللهُ

= وانظر «الصحيحة» (١٠٦).

(١) رواه أحمد (١ / ٣٩١)، والترمذي (٣٠٤٧)، وأبو داود (٤٣٣٦)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٦٢)، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيهِ.

(٢) هٰذا خَبَرٌ مِن الإسرائيليات، والإعضال فيه بَيِّنٌ.

ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٢٨)، ولكنْ جَعَلَه عنه عن الْوَضين بن عطاء.

إلى يُوشَعَ بنِ نونٍ: إنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أربعينَ ألفاً مِنْ خِيَارِهِم، وستينَ ألفاً من شرارهم. قالَ: يا ربِّ! هؤلاءِ الأشرارُ، فما بالُ الأخيارِ؟ قالَ: إنَّهم لم يَغْضَبُوا لغضبي، وكانوا يُواكِلُونَهُم ويُشارِبُونَهُم».

وذكر أبو عمر بنُ عبدِ البرِّ عن أبي هِزَّان؛ قال: «بَعَثَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكَيْنِ إلى قريةٍ: أن دَمِّرَاها بِمَنْ فيها، فوجدا فيها رجلاً قائماً يُصلِّي في مسجدٍ، فقالا: يا ربِّ! إنّ فيها عبدَكَ فلاناً يُصلِّي، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: دَمِّرَاها ودمِّراهُ معهم، فإنَّهُ ما تَمَعَّرَ وجهُه فِيَّ قَطُّ»[1].

وذكر الحميديُّ عن سفيانَ بنِ عُيينَةَ؛ قال: حدَّثني سفيانُ بنُ سعيدٍ عن مسعرٍ: «أنَّ ملكاً أُمِرَ أن يخسِفَ بقريةٍ، فقالَ: يا ربِّ! إنَّ فيها فلاناً العابدَ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليه: أنْ به فابدأْ، فإنَّهُ لم يتمعَّرْ وجهُهُ فيَّ ساعةً قطُّ».

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن وهبِ بن مُنَبِّهٍ؛ قال: «لمَّا أصابَ داودُ الخطيئةَ[2] قالَ: يا ربِّ! اغْفِرْ لِي، قالَ: قد غفرتُها لكَ، وألزمتُ عارهَا بني إسرائيلَ. قال: يا ربِّ! كيفَ وأنتَ الحَكَمُ العَدْلُ لا تظلمُ أحداً، أنا أعملُ الخطيئةَ وتُلْزِمُ عارَها غيري؟ فأوحى اللهُ إليه: إنَّكَ لمَّا عملْتَ الخطيئةَ لم يعجِّلوا عليكَ بالإنكارِ».

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن أنسِ بنِ مالكٍ: «أنَّهُ دَخَلَ على عائشةَ هو ورجلٌ آخرُ، فقال لها الرجلُ: يا أمَّ المؤمنينَ! حدِّثينا عن الزلزلةِ، فقالت: إذا استباحُوا

(١) كلُّها معاضيلُ ولا تصحُّ، وانظر لمعرفةِ أبي هِزّان: «الاستغنى في الكُنى» (٢ / ٩٨١).

نَعَم؛ رُوي مثل ذٰلك عن جابر مرفوعاً: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٣٩٠ - مجمع البحرين)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩٥) بسند ضعيف.

ورواه البيهقي (٧٥٩٤) معضلاً عن مالك بن دينار، ثم قال: «هٰذا هو المحفوظ».

وانظر: «تخريج الإحياء» (٢ / ٣١٠)، و«مجمع الزوائد» (٧ / ٢٧٠).

(٢) هي قصَّة من قصص بني إسرائيل، وقد رُويت لها أسانيدُ، وضعَّفها العُلماءُ والأئمة؛ فانظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٣١)، و«الشفا» (٤ / ١٩٢) للقاضي عياض.

الـزِّنـا، وشَـرِبُوا الخمورَ، وضربُوا بالمعازفِ غارَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سمائه فقالَ للأرض : تَزَلْـزَلِي بهم ؛ فإنْ تابُـوا وَنَـزَعُوا، وإلاَّ هَدِّمِيها عليهم. قالَ: يا أمَّ المؤمنينَ! أعـذابـاً لهم؟ قالت: بل موعـظةً ورحمـةً للمؤمنينَ. ونَكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرينَ.

فقالَ أنسٌ: «ما سَمِعْتُ حديثاً بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أنا أشدُّ فرحاً به مني بهٰذا الحديثِ».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا حديثاً مرسلاً[1]: «أنَّ الأرضَ تزلزلَتْ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فوضعَ يدهُ عليها، ثم قال: اسكُني؛ فإنهُ لم يَأْنِ لكِ بعدُ. ثم التفتَ إلى أصحابهِ، فقال: إنَّ ربَّكُم لَيَسْتَعْتِبُكُم فاعْتِبُوهُ، ثُمَّ تزلزلتْ بالنَّاسِ على عهدِ عمـرَ بنِ الخـطَّابِ فقـال: أيُّهـا النَّـاسُ! ما كانت هٰذه الزلزلةُ إلاَّ عـن شيءٍ أحدثْتُمُوهُ، والَّذي نَفسي بيدهِ؛ لَئِنْ عادَتْ لا أُساكِنُكُم فيها أبداً».

وفي «مناقبِ عمرَ» لابن أبي الدنيا: «أنَّ الأرضَ تزلزلَتْ على عهدِ عمرَ، فضـربَ يدَه عليهـا، وقـال: ما لَكِ؟ ما لَكِ؟ أما إنَّها لو كانتِ القيامةُ حدَّثتْ أخبارَهَا، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ فَلَيْسَ فِيها ذراعٌ ولا شِبْرٌ إلاَّ وهو يَنْطِقُ»[2].

---

(١) ووصله الحاكم في «المستدرك» (٤ / ٥١٦) من طريق بقيَّة، عن يزيدَ الجُهني عن أنس. وقال الحاكم: «هٰذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يُخَرِّجاهُ».

فتعقَّبه الذهبي بقوله: «بل أحسبه موضوعاً على أنس، ونُعيم مُنكر الحديث إلى الغاية مع أنَّ البخاريَّ روى عنه، وبقيَّة مدلِّسٌ، وقد عنعنه». وانظر: «ميزان الاعتدال» (٤ / ٤٣١).

(٢) لم أر ـ فيما بحثتُ ـ كتاباً لابن أبي الدنيا بهٰذا العنوان.

نعم؛ ذكر صاحب «معجم المصنَّفات ابن أبي الدنيا» (١٧٧) كتاباً بعنوان «مقتل عمر»، لٰكنّ لم أقف عليه، وانظر مقدّمة كتاب «الصمت» (ص ١٠٦ ـ طبع دار الغرب).

وأمّا الحديثُ فلم أجده بعد تتبُّع، حتى إنّي راجعتُ «معجمَ الحديث» لشيخنا الألباني؛ فلم أجده، والله تعالى أعلم.

وذكر الإمامُ أحمدُ عن صفيةَ؛ قالت: «زُلْزِلَتِ المدينةُ على عهدِ عمرَ فقال: يا أيُّها النَّاسُ! ما هٰذا؟ ما أسرعَ ما أحدثتُم! لئن عادَتْ لا أُساكِنُكُم فيها».

وقال كعبٌ: «إنما تُزلزلُ الأرضُ إذا عُمِلَ فيها بالمعاصي فترعدُ فَرَقاً مِنَ الربِّ جلَّ جلالُهُ أنْ يطَّلعَ عليها».

وكتب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الأمصارِ: «أما بعدُ؛ فإنَّ هٰذا الرجفَ شيءٌ يُعاتِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ به العبادَ، وقد كتبتُ إلى الأمصارِ أنْ يخرجوا في يومِ كذا وكذا في شهرِ كذا وكذا، فَمَنْ كان عنده شيءٌ فليتصدَّقْ به؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤ و١٥]. وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قالَ نوحٌ: ﴿وإِلَّا تَغْفِرْ لِي وتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقولوا كما قالَ يونسُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]».

وقال الإمامُ أحمدُ[1]: حدَّثنا أسودُ بنُ عامرٍ، حدَّثنا أبو بكرٍ عنِ الأعمشِ عن عطاءِ بنِ أبي رباحٍ عنِ ابنِ عمرَ؛ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينارِ والدِّرْهَمِ وتَبَايَعُوا بالعينةِ، وَتَبِعُوا أذنابَ البقرِ، وتَرَكُوا الجهادَ في سبيلِ اللهِ؛ أنزَلَ اللهُ بهم بلاءً لا يرفَعُهُ حتَّى يُراجِعُوا دينَهُم». رواه أبو داود بإسناد حسن.

وذكر ابنُ أبي الدنيا[2] من حديثِ ابنِ عمرَ؛ قالَ: لقد رأيتنا وما أحدُ أحقَّ

---

(١) في «الزهد» ـ كما في «نصب الراية» (٤ / ١٧) ـ.

ورواه أيضاً في «مسنده» (برقم ٤٨٢٥)، وقوَّاه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٩ / ٣٠) وانظر تمامَ تخريجه في «الأربعين حديثاً في الدعوة والدعاة» (رقم ٢) بقلمي.

(٢) وهو إحدى روايات الحديث السابق.

بدينارِه ودرهمِهِ من أخيهِ المسلمِ ، ولقد سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولَ: «إذا ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينارِ والدِّرْهَمِ ، وتبايعُوا بالعِيْنَةِ، وتركوا الجهادَ [في سبيلِ اللهِ]، وأخذوا أذنابَ البقرِ؛ أنزلَ اللهُ عليهم مِنَ السماءِ بلاءً، فلا يَرْفَعُهُ عنهم حتَّى يُراجِعُوا دينهم».

وقال الحسنُ: «إنَّ الفتنةَ واللهِ ما هي إلَّا عقوبةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ على الناسِ».

ونظرَ بعضُ أنبياءِ بني إسرائيلَ إلى ما يصنعُ بهم بُخْتَنَصّرُ فقال: «بما كسبتْ أيدينا سَلَّطْتَ علينا مَنْ لا يعرِفُكَ ولا يرحَمُنَا».

وقال بُخْتَنَصَّرُ لدانيالَ: ما الذي سَلَّطني على قومِكَ؟ قال: «عِظَمُ خطيئتِكَ وظلمُ قومِي أنفسَهم».

وذَكَرَ ابنُ أبي الدنيا[1] مِنْ حديثِ عمارِ بن ياسرٍ وحُذَيْفَةَ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادَ بالعِبادِ نقمةً أماتَ الأطفالَ، وأعقَمَ أرحامَ النِّساءِ، فتنزِلُ النِّقْمَةُ، وليْسَ فيهم مرحومٌ».

وذَكَرَ[2] عن مالكِ بن دينارٍ؛ قال: قرأتُ في الحكمةِ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: «أنا اللهُ مَالِكُ المُلُوكِ، قُلُوبُ المُلُوكِ بيَدِي؛ فَمَنْ أطاعَنِي جعَلْتُهُم عليهِ رحمةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُم عَلَيْهِ نِقْمَةً؛ فلا تُشْغلُوا أنفسَكُم بسبِّ الملوكِ، ولكنْ تُوبوا

---

(١) ورواه الشيرازي في «الألقاب» ـ كما في «الجامع الصغير» (١٥٤٤ ـ ضعيفه)، وضعَّفه ـ فيه ـ شيخُنا الألباني.

(٢) رواه ابن حبان في «المجروحين» (٣ / ٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦١١ ـ مجمع البحرين)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٣٨٨) من طريق مالك بن دينار مرفوعاً، واستغربه.

وفي إسناده وهب بن راشد، وهو متروك كما قال الدارقطني؛ فانظر «لسان الميزان» (٦ / ٢٣٠)، وبه أعلَّه الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٥ / ٢٤٩).

إليَّ أَعَطِّفْهُم عليكم».

ومِنْ مراسيلِ الحسنِ[1]: «إذا أرادَ اللهُ بقومٍ خيراً جعلَ أمرَهُم إلى حُلَمَائِهِم، وفيئَهُم عِنْدَ سُمَحَائِهِم، وإذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرّاً جعلَ أمرَهُم إلى سُفَهَائِهِم، وفيئَهُم عِنْدَ بُخَلائِهِم».

وذكر الإمامُ أحمدُ[2] وغيرُهُ عن قتادةَ؛ قالَ: قال موسى: «يا ربِّ! أنت في السماءِ، ونحنُ في الأرضِ، فما علامةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ؟ قالَ: إذا استعملتُ عليكُم خيارَكُم فهو من علامة رضائي عليكم، وإذا استعملتُ عليكم شِرَارَكُم فهُوَ علامةُ سُخْطِي عليكم».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا[3] عن الفضيلِ بن عياضٍ؛ قالَ: «أوحى اللهُ إلى بعضِ الأنبياءِ: إذا عصاني مَنْ يَعْرِفُني سلَّطْتُ عليه مَنْ لا يعرِفُني».

وذكرَ[4] أيضاً مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ يرفعُهُ: «والَّذي نفسي بيدِهِ؛ لا تقومُ

(1) رواه أبو داود في «مراسيله» ـ كما في «الترغيب» (٣ / ٣٨٢) ـ، وليس هو في المطبوع منه.

ورواه الديلمي في «الفردوس» عن مهران، كما في «جمع الجوامع» (١٤٥٩٥ ـ ترتيبه).

وقال الحافظ في «تسديد القوس» (١ / ٣٠٤): «أسنده من رواية حميد عن الحسن عن مهران، وله صُحبة، وفي الباب عن أبي سعيد».

وفي «فيض القدير» (١ / ٢٦٢): «إسناده جيِّد»! وأورده شيخُنا في «ضعيف الجامع» (٣٤٣).

(2) في «الزهد» (٢٧٧).

(3) أورده ابن كثير في «تاريخه» (١٣ / ٨١) مصدِّراً إيَّاه بقولِه: «وفي الأثر»، وهو مُعضلٌ كما ترى.

(4) رواه الشجري في «أماليه» (٢ / ٢٥٧ و٢٦٤)، وفي سنده كوثر بن حكيم.

قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٧ / ١٠٤٥): «منكر الحديث».

وقال النَّسائي في «الضعفاء» (٥٢٨): «متروك الحديث».

السَّاعةُ حتَّى يبعثَ اللهُ أُمَرَاءَ كَذَبَةً، ووُزَرَاءَ فَجَرَةً، وأعْوَاناً خَوَنَةً، وعُرَفَاءَ ظَلَمَةً، وقُـرَّاءَ فَسَقَـةً، سِيمـاهُم سِيمـاءُ الرُّهْبَانِ، وقُلوبُهم أَنْتَنُ مِنَ الجِيَفِ، أهْوَاؤُهُم مُخْتَلِفَةٌ، فيفتحُ اللهُ لهم فتنةً غبراءَ مُظْلِمَةً فيتهاوَكُونَ فيها. والَّذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ؛ لَيُنْقَضَنَّ الإسلامُ عُرْوَةً عُرْوَةً، حتَّى لا يُقالَ: اللهُ اللهُ. لتأمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أو لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكم شرارَكُم فيسومُونَكُم سوءَ العذاب، ثُمَّ يدعـو خِيَارُكُم فلا يُسْتَجَـابُ لَهُم. واللهِ لَتَـأْمُـرُنَّ بالمعروفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أو لَيَبْعَثَنَّ اللهُ عليكم من لا يرحمُ صغيرَكُم، ولا يُوَقِّرُ كَبيرَكُم».

وفي «معجمِ الـطبـرانيِّ»[1] وغيره من حديثِ سعيدِ بنِ جُبيرٍ عن ابن عبَّاسٍ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما طَفَّفَ قومٌ كيلاً، ولا بَخَسُوا ميزاناً، إلَّا منعَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ القَطْرَ، وما ظَهَرَ فِي قومٍ الزِّنَا إلَّا ظَهَرَ فيهِمُ الموتُ، وما ظهرَ في قومٍ الرِّبَا إلَّا سلَّطَ اللهُ عليهِمُ الجُنُونَ، ولا ظهرَ في قومٍ القَتْلُ - يقتلُ بعضُهم بعضاً - إلَّا سلَّطَ اللهُ عليهم عدُوَّهُم، ولا ظَهَرَ في قومٍ عملُ قومِ لوطٍ إلَّا ظهرَ فيهمُ الخسفُ، ومـا تركَ قومٌ الأمـرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عَنِ المُنْكَرِ إلَّا لم تُرْفَعْ أعمالُهُم ولم يُسْمَعْ دُعاؤهُم».

ورواه ابنُ أبي الدنيا من حديثِ إبراهيمَ بنِ الأشعثِ عن عبدِ الرحمٰنِ بنِ

---

(١) لم أر الحديثَ مِن طريقِ سعيد عن ابن عباس في أيٍّ من «معاجم» الطبراني الثلاثة.
نَعَمْ؛ رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٩٢) من طريق مجاهد وطاوس عن ابن عباس بنحوه.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣ / ٦٥): «وفيه إسحاق بن عبد الله بن كَيْسان المروزي؛ ليَّنه الحاكم، وبقيَّة رجالِهِ موثَّقون، وفيهم كلام».

قلتُ: ويشهد له الحديث المتقدِّم؛ فهو به - إن شاء الله - حَسَنٌ.

لذا؛ قال المنذري في «الترغيب» (١ / ٢٧١): «وسنده قريب من الحسن، وله شواهد».

وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٧).

زيدٍ عن أبيه عن سعيدٍ به.

وفي «المسندِ»[1] وغيرِه من حديثِ عروةَ عن عائشةَ؛ قالَت: «دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وقد حَفَزَهُ النَّفَسُ، فعَرَفْتُ في وجهِهِ أنْ قَدْ حَفَزَهُ شيءٌ، فما تكلَّمَ حتَّى توضأ، وخرجَ، فَلَصِقْتُ بالحُجرةِ. فصَعِدَ المِنْبَرَ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثُمَّ قالَ: يا أيُّها النَّاسُ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لكم: مُرُوا بالمعروفِ وانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ قَبْلَ أن تَدْعُوني فَلاَ أُجِيبُكُم، وتَسْتَنْصِرُونِي فَلاَ أنصُرُكُم، وتسألُوني فَلاَ أُعْطِيكُم».

وقال العمريُّ الزاهدُ: إنَّ مِنْ غفلتِكَ عن نفسِكَ، وإعراضِكَ عن اللهِ؛ أنْ ترى ما يُسخطُ اللهَ فتتجاوزَهُ، ولا تأمرُ فيه، ولا تنهى عنه؛ خوفاً ممَّنْ لا يملِكُ لنفسهِ ضرّاً ولا نفعاً.

وقال: مَنْ تَرَكَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عَنِ المُنْكَرِ مَخافةً مِنَ المخلوقينَ؛ نُزِعَتْ منه الطاعةُ، ولو أمرَ ولدَه أو بعضَ مواليه لاستخفَّ بحقِّه.

وذكرَ الإمامُ أحمدُ في «مسندِهِ»[2] من حديثِ قيسِ بن أبي حازمٍ؛ قالَ: قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ: «أيها الناسُ! إنكم تتلونَ هٰذه الآيةَ، وإنَّكُم تضعونَهَا على

---

(1) (٦ / ١٥٩).

ورواه البزَّار (٣٣٠٤)، وابن حبان (٢٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٤) ـ مُختصراً ـ.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧ / ٢٦٦)، وأعلَّه بجهالة عاصم بن عُمر بن عُثمان.

وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢ / ٣٠٤): «وفي إسناده لينٌ».

(2) (١ / ٢ و٧).

ورواه الترمذي (٣٠٥٧)، وأبو داود (٤١٧١)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢ / ٦٢).

وقد صحَّحه الإمام النووي في «رياض الصالحين» (٢٠٢)، وانظر: «الصحيحة» (١٥٦٤).

غيرِ موضِعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أَنْفُسَكُم لاَ يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ النَّاسَ إذا رَأوا الظَّالِمَ فلم يأخُذُوا على يديهِ ـ وفي لفظ ـ: إذا رأوا المُنكرَ فلم يُغَيِّرُوهُ؛ يُوشك أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعِقَابٍ مِنْ عنده».

وذكر الأوزاعيُّ عن يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن أبي سلمةَ عن أبي هريرةَ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا خَفِيَتِ الخطيئةُ لم تَضُرَّ إلَّا صاحِبَهَا، وإذا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّتِ العامَّةَ»[1].

وذكر الإمامُ أحمدُ عن عمرَ بنِ الخطابِ: «توشكُ القرى أنْ تخربَ وهي عامرةٌ! قيل: وكيف تخربُ وهي عامرةٌ؟ قال: إذا علا فُجَّارُها أبرارَها، وسادَ القبيلَةَ منافِقُوها».

وذكر الأوزاعيُّ عن حسانَ بنِ عطيةَ[2] عن النبيِّ ﷺ؛ قالَ: «سيظهَرُ شِرَارُ أُمَّتِي على خِيَارِهَا، حَتَّى يستخفي المؤمنُ فيهم، كما يستخفي المُنافِقُ فينا اليومَ».

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٣٨٥ ـ مجمع البحرين).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧ / ٢١٦٨): «وفيه مروان بن سالم الغِفاري، وهو متروك».

قلت: وفيه ـ أيضاً ـ يحيى بن يزيد الأهوازي.

(٢) تابعيٌّ ثقةٌ؛ فالحديث مرسلٌ.

وقد وقفت عليه مُسْنَداً:

فرواه ابن عديّ في «الكامل» (٧ / ٢٦٤٧) من طريق يحيى بن أبي أُنيسة عن أبي الزبير المَكِّي؛ قال: سمعتُ جابراً. . . فَذَكَرَهُ.

ويحيى هذا تركه أحمد، وقال ابن حبان: كان يقلبُ الأسانيد، ويرفعُ المراسيل.

وانظر: «تهذيب التهذيب» (١١ / ١٨٣).

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا[1] مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ يرفعهُ؛ قالَ: «يأتي زمانٌ يذوبُ فيهِ قلبُ المؤمنِ كما يذوبُ المِلْحُ في الماءِ، قيلَ: مِمَّ ذاكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: فيما يَرَى مِنَ المُنْكَرِ لا يستطيعُ تغييرهُ».

وذكـرَ الإمامُ أحمدُ[2] من حديثِ جريرٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «ما مِنْ قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصِي، هُمْ أعزُّ وأكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لم يُغَيِّرُوهُ؛ إلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ».

وفي «صحيح البخاريِّ»[3] عن أسامةَ بن زيدٍ؛ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «يُجَاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامَةِ، فَيُلْقَى في النَّارِ، فتندَلِقُ أقتابُهُ في النَّارِ، فيدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ برحَاهُ، فيجْتَمِعُ عليهِ أهلُ النَّارِ، فيقولُونَ: أيْ فُلَانُ! ما شأنُكَ؟ ألسْتَ كُنْتَ تأمُرُنَا بالمعروفِ وتَنهانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قالَ: بَلَى، إنِّي كُنْتُ آمُرُكُم بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنهاكُم عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ».

وذكر الإمامُ أحمدُ[4] عن مالكِ بن دينارٍ؛ قالَ: «كانَ حَبْرٌ مِنْ أحبارِ بني إسرائيلَ يغشى منزلَهُ الرجالُ والنساءُ، فَيَعِظُهُم ويُذَكِّرُهُم بأيامِ اللهِ، فرأى بعضَ بنيهِ يوماً يَغْمِزُ النساءَ، فقالَ: مهلاً يا بُنَيَّ، مَهْلاً يا بُنَيَّ، فسقَطَ مِنْ سريرِهِ، فانقطَعَ نِخَاعُهُ، وأسقطت امرأتهُ، وقُتِلَ بَنُوهُ، فأوحى اللهُ إلى نبيِّهم: أنْ أخبِرْ

---

(١) في «كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، كما في «جـمع الجوامع» (٨٤٦٣ - ترتيبه).

ولم أقف على إسناد الحديثِ لمعرفة الحكم عليه، وإن كان يَقَعُ في القلبِ ضعفُه.

(٢) في «مسنده» (٤ / ٣٦٤).

ورواه أبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩)، وابن حبان (٣٠٠)، والطبراني (٢٣٨٢)، والبيهقي (١٠ / ٩١) بسند حَسَن.

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) في «الزهد» (١ / ١٨٠).

فلاناً الحَبْرَ: أنِّي لا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقاً أبداً، ما كانَ غَضَبُكَ لي إلَّا أن قُلتَ: مَهْلاً يا بُنَيَّ؟!..».

وذكرَ الإمامُ أحمدُ[1] من حديثِ عبدِ اللهِ بن مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إيَّاكُم ومُحَقَّراتِ الذُّنُوب؛ فإنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلاً، كَمَثَلِ قومٍ نَزَلُوا أرضَ فلاةٍ، فَحَضَرَ صنيعُ القومِ، فجعلَ الرَّجُلُ ينطلِقُ فيجيءُ بالعُودِ، والرَّجُلُ يجيءُ بالعُودِ، حتَّى جَمَعُوا سواداً وأجَّجُوا ناراً، وأنضَجُوا ما قذفُوا فيها».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[2] عن أنسِ بنِ مالكٍ؛ قال: «إنَّكُم لَتَعْمَلُونَ أعمَالاً هِيَ أدقُّ في أعْيُنِكُم مِنَ الشَّعْرِ، إنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ».

وفي «الصَّحيحين»[3] من حديثِ عبدِ اللهِ بن عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حتَّى ماتَتْ، فدَخَلَتِ النَّارَ، لا هِيَ أطعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا، وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأرضِ».

وفي «الحليةِ»[4] لأبي نُعَيْمٍ عن حذيفةَ أنَّه قيلَ له: في يومٍ واحدٍ ترك بنو إسرائيلَ دِينَهم؟ قال: لا، ولكنَّهم كانوا إذا أُمروا بشيءٍ تركُوهُ، وإذا نُهوا عن شيء ركِبُوه، حتى انسلخُوا مِنْ دِينِهم كما ينسلخُ الرجلُ مِنْ قميصهِ.

ومِنْ ها هنا قال بعضُ السلفِ: المعاصي بريدُ الكفرِ، كما أنَّ القُبلَةَ بريدُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) (برقم ٦١٢٧).

(٣) رواه البخاري (٣٢٩٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٤) (١ / ٢٧٩).

الجماعِ ، والغناءُ بريدُ الزنا، والنظرُ بريدُ العشقِ، والمرضُ بريدُ الموتِ[1].

وفي «الحليةِ»[2] أيضاً عن ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ: «يا صَاحِبَ الذنب! لا تأمنْ سـوءَ عاقبتِهِ، ولما يتبعُ الذنبَ أعظمُ مِنَ الذنبِ إذا عملتَهُ؛ قلَّةُ حيائِكَ مِمَّنْ على اليمين وعلى الشمال وأنتَ على الذنبِ أعظمُ مِنَ الذنبِ، وضحكُكَ وأنت لا تدري ما اللهُ صانعٌ بك أعظمُ مِنَ الذنبِ، وفرحُكَ بالذنبِ إذا ظفرْتَ به أعظمُ مِنَ الذنبِ، وحزنُكَ على الذنبِ إذا فاتَكَ أعظمُ مِنَ الذنبِ، وخوفُكَ مِنَ الرِّيحِ إذا حَرَّكَتْ سِتْرَ بابك وأنت على الذنبِ ولا يضطربُ فؤادُكَ مِنْ نظرِ اللهِ إليك أعظمُ مِنَ الذنبِ.

ويحـكَ؛ هل تدري ما كانَ ذنبُ أيوبَ فابتـلاهُ اللهُ بالبـلاءِ في جسدِهِ وذهابِ مالِه؟! استغاثَ به مسكينٌ على ظالمٍ يدرؤهُ عنه، فلم يُعِنْهُ، ولم يَنْهَ الظالمَ عن ظلمِهِ، فابتلاهُ اللهُ».

وَقـالَ الإمامُ أحمدُ[3]: حدَّثنا الوليدُ؛ قالَ: سمعتُ الأوزاعيَّ يقولُ: سمعتُ بلالَ بنَ سعدٍ يقولُ: «لا تنظرْ إلى صغرِ المعصية، ولكنْ انظُرْ مَنْ عَصَيْتَ».

وقال الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: بقدرِ ما يصغُرُ الذنبُ عندك يعظُمُ عندَ اللهِ، وبقَدْرِ ما يعظُمُ عندكَ يصغُرُ عندَ اللهِ.

وقـيل: أوحـى اللهُ إلى موسى: يا موسى! إنَّ أولَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إبليسُ، وذلك أنَّهُ عصاني، وإنما أَعُدُّ مَنْ عَصانِي مِنَ الأمواتِ.

وفي «المسنـدِ» و«جـامعِ الترمذيِّ»[4] من حديثِ أبي صالحٍ عن أبي

(١) والبدعةُ بريدُ الضلال.

(٢) (١ / ٣٢٤).

(٣) في «الزهد» (٤٦٠)، وفي السند اختلافٌ كبيرًا!

(٤) رواه أحمد (٢ / ٢٩٧)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٢ / =

هريرةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ المؤمِنَ إذا أذْنَبَ ذنباً نُكِتَ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ، فإذا تابَ ونَزَعَ واستغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وإن زادَ زادتْ، حتَّى تعلُوَ قَلْبَهُ، فذٰلِكَ الرَّانُ الَّذي ذكرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال الترمذيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقال حذيفةُ: «إذا أذنبَ العبدُ نُكِتَ في قلبِهِ نكتةٌ سوداءُ حتى يصيرَ قلبُهُ كالشاةِ الرَّبْدَاءِ»[(١)].

وقال الإمامُ أحمدُ[(٢)]: حدَّثنا يعقوبُ، حدَّثنا أبي عن صالحٍ عن ابن شهابٍ، حدَّثني عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بن عتبةَ عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أمَّا بعدُ يا معشرَ قُرَيْشٍ؛ فإنَّكُم أهلُ هٰذا الأمرِ ما لم تعصَوا اللهَ، فإذا عَصَيْتُمُوهُ؛ بَعَثَ إليكُم مَنْ يَلْحَاكُم كَمَا يُلْحَى هٰذا القَضِيبُ» - لِقضيبٍ في يدِهِ -، ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ فإذا هُوَ أبيضُ يَصْلِدُ.

وذكرَ الإمامُ أحمدُ[(٣)] عن وهبٍ: إنَّ الربَّ عزَّ وجلَّ قالَ في بعضِ ما

= ٥١٧)، والنَّسائي في «التفسير» (٦٧٨)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٤١٨)، وابن حبَّان في «صحيحه» (١٧٧١) بسند حسن.

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١ / ٢٧٣).

و(الشاة الربداء): هي السوداءُ المُنَقَّطةُ بحمرةٍ.

(٢) في «المسند» (١ / ٤٥٨).

ورواه أبو يعلى (٥٠٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥١٦ - مجمع البحرين) بسند صحيح.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥ / ١٩٢): «ورجال أحمد رجال الصحيح، ورجال أبي يعلى ثقات».

(٣) في «الزهد» (٥٢).

يقولُ لبني إسرائيلَ: «إنِّي إذا أُطِعْتُ رضيتُ، وإذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهايةٌ، وإذا عُصِيتُ غضبتُ، وإذا غضبتُ لَعَنْتُ، ولَعنتي تبلغ السابعَ مِنَ الولدِ».

وذكرَ أيضاً[1] عن وكيعٍ: حدَّثنا زكريا عن عامرٍ؛ قال: كَتَبَتْ عائشةُ إلى معاويةَ: «أما بعدُ؛ فإنَّ العبدَ إذا عملَ بمعصيةِ اللهِ عادَ حامِدُه مِنَ النَّاسِ ذامّاً».

وذكر أبو نُعَيمٍ[2] عن سالمِ بنِ أبي الجعدِ عن أبي الدرداءِ؛ قالَ: «ليحذرِ امرؤٌ أنْ تلعَنَهُ قلوبُ المؤمنينَ مِنْ حيثُ لا يشعرُ، ثم قالَ: تدري مِمَّ هٰذا؟ قلتُ: لا، قال: إنَّ العبدَ يخلو بمعاصي اللهِ، فيُلقي اللهُ بُغضَهُ في قلوبِ المؤمنينَ مِنْ حَيثُ لا يشعرُ».

وذكر عبدُاللهِ بنُ أحمدَ في «كتابِ الزهدِ»[3] لأبيه عن محمدِ بن سيرينَ: أنَّهُ لما ركبهُ الدَّيْنُ اغتمَّ لذلك، فقال: إنِّي لأعرفُ هٰذا الغمَّ بذنبٍ أصبتُهُ منذُ أربعينَ سنةً.

وها هنا نكتةٌ دقيقةٌ يغلطُ فيها الناسُ في أمرِ الذنبِ، وهي أنَّهم لا يَرَوْنَ تأثيرَهُ في الحالِ، وقد يتأخَّرُ تأثيرُهُ فيُنْسَى، فيظنُّ العبدُ أنه لا يُغَبِّرُ بعد ذٰلك، وأن الأمرَ كما قالَ القائِلُ:

إِذَا لَمْ يُغَبِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الوُقُوعِ غُبَارُ

وسبحانَ اللهِ! كم أهلكَتْ هٰذه البَلِيّةُ مِنَ الخلقِ؟ وكم أزالَتْ مِنْ نعمةٍ؟ وكم جلبَتْ مِنْ نقمةٍ؟

---

(١) في «الزهد» (١٦٥).

(٢) في «الحلية» (١ / ٢١٥).

(٣) (٢ / ٢٨٢).

ورواه ـ أيضاً ـ أبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٢٧١).

ومـا أكثرَ المغترِّينَ بها مِنَ العُلَماءِ والفضلاءِ، فضلاً عن الجهَّالِ! ولم يعلمِ المُغْتـرُّ أنّ الـذنبَ ينقضُ ولو بعدَ حينٍ كما ينقُضُ السمُّ، وكما ينقضُ الجرحُ المندملُ على الغشِّ والدَّغَلِ.

وقد ذكرَ الإمامُ أحمدُ[1] عن أبي الدرداءِ: «اعبدُوا اللهَ كأنَّكم تَرَوْنَهُ، وعدُّوا أنفسَكُم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلاً يُغنيكُم خيرٌ مِنْ كثيرٍ يُطغيكم، واعلموا أنَّ البِرَّ لا يبلى، وأنَ الإثمَ لا يُنسى».

ونَظَرَ بعضُ العُبَّادِ إلى صبيٍّ، فتأمَّلَ محاسنَهُ، فأُتِيَ في منامهِ وقيلَ له: لتجدنَّ غِبَّها[2] بعد أربعينَ سنة.

هٰذا مع أنَّ للذنب نَقْداً مُعَجَّلاً لا يتأخَّر عنه:

قال سُليمان التَّيْمي: إنَّ الرجلَ ليصيبُ الذنبَ في السرِّ فيصبحُ وعليه مذلَّتهُ.

وقال يحيى بنُ معاذٍ الرازيّ: عجبتُ مِنْ ذي عقلٍ يقولُ في دعائِهِ: اللهمَ لا تشمِّتْ بي الأعداءَ! ثم هو يُشمِّت بنفسهِ كلَّ عدوٍّ له، قيل: وكيفَ ذٰلك؟ قال: يعصِي اللهَ ويشمِّتْ به في القيامةِ كلَّ عدوٍّ.

وقال ذو النُّونِ: مَنْ خانَ اللهَ في السرِّ، هتكَ اللهُ سِتْرَهُ في العلانيةِ.

١٤ ـ فَصْلٌ [الآثار القبيحة للمعاصي]:

وللمعاصي مِنَ الآثارِ القبيحةِ المذمومةِ، وَالمُضِرَّةِ بالقلبِ والبدنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يعلمهُ إلَّا اللهُ.

---

(١) في «الزهد» (٢ / ٥٦).

(٢) أي: عاقبتَها.

١ ـ فمنهــا: حرمــانُ العلمِ ، فإنَّ العلمَ نورٌ يقـذفـهُ اللهُ في القلبِ، والمعصيةُ تطفىءُ ذلك النُّورَ.

ولمـا جلس الشـافعيُّ بين يديْ مالكٍ وقرأَ عليه أعجَبَهُ ما رأى منْ وفورِ فطنتهِ، وتوقُّدِ ذكائهِ، وكمالِ فهمهِ، فقال: إنِّي أرى اللهَ قد ألقى على قلبِكَ نوراً، فلا تطفئْهُ بظلمةِ المعصيةِ.

وقال الشافعيُّ رحمه الله:

شَكَـوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْـظِي ... فَأَرْشَـدَنِي إِلَـى تَرْكِ المَعَـاصِي
وَقَـالَ اعْـلَمْ بِأَنَّ الـعِـلْمَ فَضْـلٌ ... وَفَـضْـلُ الـلهِ لاَ يُؤتَـاهُ عَاصِ [١]

٢ ـ ومنهـا: حرمـانُ الـرزقِ. وفي «المسنـدِ»: «إنَّ العبدَ ليحرَمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُهُ». ـ وقد تقدم[٢] ـ وكما أنَّ تقوى اللهِ مجلبةٌ للرزقِ، فتركُ التقوى مجلبةٌ للفقرِ، فما استُجْلِبَ رزقُ الله بمثلِ تركِ المعاصي.

٣ ـ ومنها: وحشةٌ يجِدُهَا العاصِي في قلبهِ بينـه وبينَ اللهِ؛ لا توازِنُها ولا تقارِنُها لذةٌ أصلاً، ولو اجتمعتْ له لذَّاتُ الدنيا بأسرها لم تَفِ بتلك الوحشةِ.

وهٰذا أمرٌ لا يُحِسُّ به إلاَّ مَنْ في قلبِهِ حياةٌ.

. . . . وَمَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّتٍ إِيلاَمُ

فلو لم تُتْرَكِ الذنوبُ إلاَّ حذراً من وُقُوعِ تلكَ الوحشةِ، لكانَ العاقِلُ حرِيّاً بتركِها.

وشكا رجلٌ إلى بعضِ العارفينَ وحشةً يجدُها في نفسهِ، فقالَ له:

---

(١) انظر: «ديوان الشافعي» (٥٤)، و«الفوائد البهيَّة» (٢٢٣)، و«شرح ثلاثيات المسند» (١ / ٧٦٩).

(٢) انظر (ص ٦٨).

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ واسْتَأْنِسِ

وليس على القلبِ أَمَرُّ من وحشةِ الذنبِ على الذنبِ؛ فاللهُ المستعانُ.

٤ ـ ومنها: الوحشةُ التي تحصلُ بينه وبين الناس، ولا سيَّما أهلَ الخير منهم، فإنَّهُ يجدُ وحشةً بينه وبينهم، وكلَّما قويَتْ تلكَ الوحشةُ بَعُدَ منهم ومِنْ مُجالستِهم، وحُرِمَ بركةَ الانتفاعِ بهم، **وقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشيطانِ، بقدرِ ما بَعُدَ مِنْ حزبِ الرحمٰنِ**، وتَقْوَى هٰذه الوحشةُ حتى تستحكمَ، فتقعَ بينه وبين امرأتِهِ وولدِهِ وأقاربِهِ، وبينه وبين نفسِهِ، فتراهُ مستوحشاً بنفسِهِ.

وقال بعضُ السلفِ[1]: إنِّي لأعصي اللهَ، فأرى ذٰلك في خُلُقِ دابتي وامرأتي.

٥ ـ ومنها: تعسيرُ أمورِهِ عليه؛ فلا يتوجَّهُ لأمرٍ إلَّا يجدُهُ مُغْلَقاً دونَهُ أو مُتَعسِّراً عليه؛ وهٰذا كما أنَّ مَنِ اتَّقى اللهَ جعلَ لَهُ مِنْ أمرِهِ يُسراً؛ فَمَنْ عَطَّلَ التقوى جعلَ له مِنْ أمرِهِ عُسراً.

وياللهِ العَجَبُ! كيف يجدُ العبدُ أبوابَ الخيرِ وأبوابَ المصالحِ مسدودةً عنه وَطُرُقَهَا مُعْسِرَةً عليه، وهو لا يعلمُ مِنْ أينَ أُتِيَ؟

٦ ـ ومنها: ظلمةٌ يجدُها في قلبِهِ حقيقةً، يُحِسُّ بها كما يُحِسُّ بظلمةِ الليلِ البهيمِ إذا ادلَهَمَّ، فتصيرُ ظلمةُ المعصيةِ لقلبِهِ كالظلمةِ الحِسِّيَّةِ لبصرِهِ، فإنَّ الطاعةَ نورٌ والمعصيةَ ظُلمةٌ، وكلَّما قويتِ الظلمةُ ازدادتْ حيرتُهُ؛ حتى يقعَ في البدعِ والضَّلالاتِ والأمورِ المهلكةِ وهو لا يشعرُ، كأعمى خرجَ في ظلمةِ الليلِ يمشي وحدَه، وتَقْوىٰ هٰذه الظلمةُ حتى تظهرَ في العينِ، ثم تقوى حتى تعلو الوجهَ، وتصيرَ سواداً فيه يراهُ كلُّ أحدٍ.

---

(١) قارن بـ «حلية الأولياء» (٨ / ١٠٩).

قال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ[1]: «إنَّ للحسنةِ ضياءً في الوجهِ، ونوراً في القلبِ، وسعةً في الرزقِ، وقوةً في البدنِ، ومحبةً في قلوبِ الخلقِ، وإنَّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ، وظلمةً في القلبِ، ووهناً في البدنِ، ونقصاً في الرزقِ، وبغضةً في قلوبِ الخلقِ».

٧ ـ ومنها: أنَّ المعاصِي تُوهِنُ القلبَ والبدنَ، أما وَهَنُهَا للقلبِ فأمرٌ ظاهرٌ، بل لا تزالُ تُوهنهُ حتى تزيلَ حياتَهُ بالكليَّةِ.

وأما وَهَنُها للبدنِ، فإنَّ المؤمنَ قُوَّتُهُ من قلبِهِ، وكلَّما قويَ قلبُهُ قويَ بدنُهُ، وأمَّا الفاجرُ فإنَّهُ ـ وإن كان قويَّ البدنِ ـ؛ فهو أضعفُ شيءٍ عندَ الحاجةِ، فتخونُهُ قوتُه أحوجَ ما يكونُ إلى نفسهِ.

وتأمَّلْ قُوَّةَ أبدانِ فارس والروم كيف خانتهم، أحوجَ ما كانوا إليها، وقهرهم أهلُ الإيمانِ بقوة أبدانهم وقلوبهم[2]؟

٨ ـ ومنها: حرمانُ الطاعةِ؛ فلو لم يكن للذنبِ عقوبةٌ إلا أنَّه يصدُّ عن طاعةٍ تكونُ بَدَلَهُ، ويقطعُ طريقَ طاعةٍ أخرى، فينقطعُ عليه بالذنبِ طريقٌ ثالثةٌ، ثم رابعةٌ وهلمَّ جرّا، فتنقطعُ عنه بالذنبِ طاعاتٌ كثيرةٌ، كلُّ واحدةٍ منها خيرٌ له مِنَ الدُّنيا وما عليها، وهٰذا كرجل أكلَ أكلةً أوجبتْ له مرضةً طويلةً منعتهُ من عدَّةِ أكلاتٍ أطيبَ منها، واللهُ المستعانُ.

---

(١) لم أجد الأثر عن ابن عباس.

ولٰكنّي وجدته مقطوعاً مِن قول إبراهيم بن أدهم ـ بنحوه ـ؛ رواه البيهقي في «الشعب» (٦٨٢٨).

ورواه ـ أيضاً ـ أبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ١٦١) مرفوعاً عن أنس! وهو حديثٌ منكر كما قال أبو حاتم في «علل الحديث» (١٩٠٩).

(٢) واليومَ: العكسُ!!

٩ ـ ومنها: أنَّ المعاصي تُقَصِّرُ العمرَ وتمحقُ بركتَهُ ولا بُدَّ، فإنَّ البرَّ كما يزيدُ في العمرِ، فالفجورُ يقصرُ العمرَ.

وقد اختلفَ الناسُ في هٰذا الموضعِ:

فقالت طائفةٌ: نقصانُ عمرِ العاصِي هو ذهابُ بركةِ عمرهِ ومَحْقُها عليه. وهٰذا حقٌّ، وهو بعضُ تأثيرِ المعاصِي.

وقالت طائفةٌ: بل يَنْقُصُ حقيقةً، كما يَنْقُصُ الرزق، فجعلَ اللهُ سبحانَهُ للبركةِ في الرزقِ أسباباً كثيرةً تكثرهُ وتزيدهُ، وللبركةِ في العمرِ أسباباً تكثرهُ وتزيدهُ.

قالوا: ولا تمتنعُ زيادةُ العمرِ بأسبابٍ كما تنقصُ بأسبابٍ، فالأرزاقُ والآجالُ، والسعادةُ والشقاوةُ، والصحةُ والسُّقْمُ والمرضُ، والغنى والفقرُ، وإنْ كانت بقضاءِ الربِّ عزَّ وجلَّ، فهو يقضي ما يشاءُ بأسبابٍ جعلها مُوجِبةً لمسبباتِهَا مُقتضيةً لها.

وقالت طائفةٌ أخرى: تأثيرُ المعاصِي في مَحْقِ العمرِ إنَّما هو بأنْ حقيقةُ الحياةِ، وهي حياةُ القلب. ولهٰذا جعلَ اللهُ سبحانهُ الكافرَ ميِّتاً غيرَ حيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ١٢]؛ فالحياةُ في الحقيقةِ حياةُ القلبِ، وعمرُ الإنسانِ مدَّةُ حياتِهِ فليس عمرهُ إلَّا أوقاتِ حياتِهِ باللهِ، فتلك ساعاتُ عمرهِ، فالبرُّ والتقوى والطاعةُ تزيدُ في هٰذه الأوقاتِ التي هي حقيقةُ عمرهِ، ولا عمرَ له سواها.

وبالجملةِ؛ فالعبدُ إذا أعرضَ عنِ اللهِ واشتغلَ بالمعاصي ضاعتْ عليه أيامُ حياتِهِ الحقيقيةُ التي يجدُ غِبَّ[1] إضاعتِها يومَ يقولُ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]؛ فلا يخلو إمَّا أنْ يكونَ له مع ذٰلك تطلُّعٌ إلى مصالِحِهِ

(١) ثمرة.

الدنيويةِ والآخرويةِ أو لا؟ فإن لم يكنْ له تطلُّعٌ إلى ذٰلك فقد ضاعَ عليه عمرُهُ كلُّه، وذهبَتْ حياتُهُ باطلاً، وإنْ كانَ له تطلُّعٌ إلى ذٰلك طالتْ عليه الطريقُ بسببِ العوائقِ، وتعسَّرَتْ عليه أسبابُ الخيرِ بحسبِ اشتغالهِ بأضدادها، وذٰلك نقصانٌ حقيقيٌّ من عمره.

وسرُّ المسألةِ أنَّ عمرَ الإنسانِ مدةُ حياتِهِ، ولا حياةَ له إلَّا بإقبالِهِ على ربِّه، والتنعُّمِ بحبهِ وذكرِهِ، وإيثارِ مرضاتِهِ.

١٥ ـ فَصْلٌ [المعاصي يُوَلِّد بعضُها بعضاً]:

١٠ ـ ومنها: أنَّ المعاصِي تزرعُ أمثالَها، ويولِّد بعضُها بعضاً، حتى يَعُزَّ على العبدِ مفارقَتُها والخروجُ منها، كما قال بعضُ السلفِ: إنَّ مِنْ عقوبةِ السيئةِ السيئـةَ بعدَها، وإنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها، فالعبدُ إذا عملَ حسنةً قالَتْ أخرى إلى جنبها: اعمَلْنِي أيضاً، فإذا عمِلها قالتِ الثالثةُ كذٰلك وهلمَّ جرّا، فتضاعفَ الربحُ، وتزايدتِ الحسناتُ؛ وكذٰلكَ جانب السيئاتُ أيضاً، حتى تصيرَ الطاعاتُ والمعاصِي هيئاتٍ راسخةً، وصفاتٍ لازمةً، ومَلَكَاتٍ ثابتةً، فلو عطَّل المُحْسِنُ الطاعاتِ لضاقَتْ عليه نفسُهُ، وضاقَتْ عليه الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ، وأحسَّ من نفسهِ كأنَّهُ الحوتُ إذا فارَقَ الماءَ حتى يُعاوِدُها، فتسكنُ نفسهُ وتقرُّ عينُهُ.

ولو عطَّلَ المجرمُ المعصيةَ وأقبلَ على الطاعةِ لضاقَتْ عليهِ نفْسهُ، وضاقَ صدرُهُ، وأعيَتْ عليه مذاهِبُهُ، حتى يُعاوِدها، حتى إنَّ كثيراً مِنَ الفُسَّاقِ ليواقعُ المعصيةَ من غيرِ لذَّةٍ يجدُها، ولا داعيةٍ إليها، إلَّا لِمَا يجدُ من الألـمِ بمفارقتِها.

كما صرَّحَ بذٰلك شيخُ القومِ الحسنُ بنُ هانىءٍ[1] حيثُ يقولُ:

---

(١) هو أبو نُواس المتوفى سنة (١٩٨هـ)، ترجمتُه في «تاريخ بغداد» (٧ / ٤٣٦)، ومِن =

وكَــأْسٍ شَرِبْــتُ عَلَى لَذَّةٍ وأُخْــرَى تَدَاوَيْتُ مِنْــهَــا بِهَــا

وقال آخر:

فَكَــانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهــا كَمَـا يَتَداوَى شَارِبُ الخَمْرِ بالخَمْرِ

ولا يزالُ العبدُ يعاني الطاعةَ ويألفُها ويحبُّها ويُؤثِرُها حتى يُرسلَ اللهُ سبحانه وتعالى برحمتِهِ إليه الملائكةَ تَؤُزُّهُ إليها أزّاً، وتُحَرِّضُه عليها، وتُزعجهُ عن فراشِهِ ومجلسِهِ إليها.

ولا يزالُ يَألفُ المعاصِي ويُحبُّها ويؤثِرُها حتى يُرسِلَ اللهُ عليه الشياطينَ، فتؤزُّه إليها أزّاً.

فالأوَّل قوَّى جُنْدَ الطاعةِ بالمَدَدِ؛ فصارُوا مِنْ أكبرِ أعوانِه، وهٰذا قوَّى جندَ المعصيةِ بالمددِ؛ فكانوا أعواناً عليه.

١٦ ـ فَصْلٌ [المعاصي تُضْعِفُ القلبَ]:

١١ ـ ومنها: ـ وهو مِنْ أخوفِها على العبدِ ـ أنَّها تُضْعِفُ القلبَ عن إرادتِهِ، فَتَقْوى إرادةُ المعصيةِ، وتضعفُ إرادةُ التوبةِ شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخَ مِنْ قلبِهِ إرادةُ التوبةِ بالكليَّةِ، فلو ماتَ نصفُه لما تابَ إلى اللهِ، فيأتي مِنَ الاستغفارِ وتوبةِ الكذَّابينَ باللسانِ بشيءٍ كثيرٍ، وقلبهُ معقودٌ بالمعصيةِ، مُصِرٌّ عليها، عازمٌ على مواقعتِها متى أمكنهُ.

وهٰذا مِنْ أعظمِ الأمراضِ وأقربِها إلى الهلاكِ.

= مشهور شعرِه ـ في البابِ نفسه ـ قولهُ:

دَعْ عنــكَ لَوْمِــي فَإنَّ الــلَّوْمَ إغْــراءُ وَداوِنــي بالَّــتــي كانَــتْ هِيَ الــدَّاءُ

١٧ ـ فَصْلٌ [المعاصي تسلخ القلبَ عن استقباحها]:

١٢ ـ ومنها: أنَّهُ ينسلخُ منَ القلبِ استقباحُها، فتصيرُ له عادةً، فلا يستقبحُ من نفسهِ رؤيةَ الناسِ له كلِّهم، ولا كلامَهُم فيه.

وهٰذا عندَ أربابِ الفسوقِ هو غايةُ التهتُّكِ وتمامُ اللذةِ، حتى يفتخرَ أحدُهم بالمعصيةِ، ويُحَدِّثَ بها مَنْ لم يعلمْ أنَّهُ عملهَا، فيقولُ: يا فلانُ! عملتُ كذا وكذا!

وهٰذا الضربُ مِنَ الناسِ لا يُعافَوْنَ، ويُسَدُّ عليهم طريقُ التوبةِ، وتُغْلَقُ عليهم أبوابُها في الغالبِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلَّا المجاهِرينَ، وإنَّ مِنَ الإِجْهَارِ: أنْ يَسْتُرَ اللهُ على العبدِ ثمَّ يُصبحُ يَفْضَحُ نفسَهُ ويقولُ: يا فُلَانُ! عَمِلْتُ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيهتِكُ نَفْسَهُ، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ»[1].

١٣ ـ ومنها: أنَّ كلَّ معصيةٍ مِنَ المعاصي فهي ميراثٌ عن أمَّةٍ مِنَ الأممِ التي أهلكها اللهُ عزَّ وجلَّ:

فاللوطيةُ: ميراثٌ عن قومِ لوطٍ.

وأخذُ الحقِّ بالزائدِ ودفعهُ بالناقصِ: ميراثٌ من قوم شُعيبٍ.

والعلوُّ في الأرضِ والفسادُ: ميراثٌ عن قومِ فرعونَ.

والتكبُّرُ والتجبُّرُ: ميراثٌ عن قومِ هودٍ.

فالعاصي لابسٌ ثيابَ بعضِ هٰذه الأممِ، وهُمْ أعداءُ اللهِ.

وقد روى عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في «كتابِ الزهدِ»[2] لأبيه عن مالكِ بنِ دينارٍ؛

---

(١) رواه البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) (٢ / ١٨٠).

قال: «أوحى اللهُ إلى نبيٍّ منْ أنبياءِ بني إسرائيلَ أنْ قُلْ لقومِكَ: لا تدخلوا مداخلَ أعدائي، ولا تلبسوا ملابسَ أعدائي، ولا تركبوا مراكبَ أعدائي، ولا تَطْعَمُوا مطاعِمَ أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي».

وفي «مسندِ أحمدَ»[1] من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بينَ يَدَي السَّاعةِ، حتَّى يُعْبَدَ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وجُعِلَ رزقي تحتَ ظِلِّ رُمحي، وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغَارُ على مَنْ خَالَفَ أمري، ومَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فَهُوَ مِنهم».

١٨ - فَصْلٌ [المعاصي سببٌ لهوان العبد]:

١٤ - ومنها: أنَّ المعصيةَ سببٌ لهوانِ العبدِ على ربِّه وسقوطهِ من عينِه.

قال الحسنُ البصريُّ: هانُوا عليه فعصَوْهُ، ولو عزُّوا عليه لعَصَمَهُم.

وإذا هانَ العبدُ على اللهِ لم يُكْرِمْهُ أحدٌ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، **وإنْ عظَّمهم الناسُ في الظاهرِ لحاجتِهم إليهم أو خوفاً من شرِّهم؛ فهم في قلوبِهم أحقرُ شيءٍ وأهونُهُ.**

١٥ - ومنها أنَّ العبدَ لا يزالُ يرتكبُ الذنبَ حتى يهونَ عليه ويَصْغُرَ في قلبه؛ وذلك علامةُ الهلاكِ، فإنَّ الذنبَ كُلَّما صَغُرَ في عينِ العبدِ عَظُمَ عند اللهِ.

وقد ذكرَ البخاريُّ في «صحيحِهِ»[2] عن ابنِ مسعودٍ؛ قالَ: «إنَّ المؤمنَ

---

(١) (٢ / ٥٠، ٩٢).
وهو حديثٌ حسنٌ؛ تَتَبَّعْتُ طُرُقَهُ ورواياتِهِ في أوائل رسالة الحافظ ابن رجب في شرحِهِ.

(٢) (برقم ٥٩٤٩).
ورواه مسلم (٢٧٤٤) - أيضاً -.

يرى ذُنُوبَهُ كأنَّه في أصلِ جبلٍ يخافُ أن يَقَعَ عَلَيْهِ، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وقعَ على أنفِهِ، فقالَ به هٰكَذا، فطارَ».

١٩ ـ فَصْلٌ [شُؤم الذنوب]:

١٦ ـ ومنها: أنَّ غيرَهُ مِنَ الناسِ والدوابِّ يعودُ عليه شؤمُ ذنوبِهِ، فيحترقَ هو وغيرهُ بشؤمِ الذنوبِ والظُّلمِ.

قال أبو هُريرةَ: إنَّ الحُبارَى[1] لتموتُ في وكرِها مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ.

وقال مُجاهدٌ: إنَّ البهائمَ تلعنُ عصاةَ بني آدمَ إذا اشتدتِ السَّنَةُ، وأمسكَ المطرُ، وتقولُ: هٰذا بشؤمِ معصيةِ بني آدَمَ.

وقال عكرمةُ: دوابُّ الأرضِ وهوامُّها حتى الخنافسُ والعقاربُ يقولون: مُنِعْنا القَطْرَ بذنوبِ بني آدمَ.

فلا يكفيهِ عقابُ ذنبِهِ، حتى يبوءَ بلعنةِ مَنْ لا ذنبَ له.

٢٠ ـ فَصْلٌ [المعاصي تورثُ الذلَّ]:

١٧ ـ ومنها: أنَّ المعصيةَ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛ فإنَّ العِزَّ كلَّ العِزِّ في طاعةِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: فليطلُبها بطاعةِ اللهِ، فإنَّهُ لا يجدُها إلا في طاعتهِ.

وكانَ مِنْ دعاءِ بعضِ السَّلَفِ: اللهُمَّ أعِزَّني بطاعَتِكَ، ولا تُذِلَّني بمعصِيَتِكَ.

---

(١) هو طائرٌ طويل العُنُق.

قـال الحسـنُ البصـريُّ: إنَّهم وإن طقطقتْ بهم البغالُ وهَمْلَجَتْ بهم البراذينُ[1]، إنَّ ذلَّ المعصيةِ لا يُفارِقُ قلوبَهم، أبى اللهُ إلَّا أن يُذِلَّ مَنْ عَصاهُ.

قـال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوب ... وخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ... وأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

٢١ ـ فَصْلٌ [المعاصي تُفسد العقلَ]:

١٨ ـ ومنهـا: أنَّ المعاصي تُفْسِدُ العقلَ؛ فإنَّ للعقلِ نوراً، والمعصيةُ تطفىءُ نورَ العقلِ ولا بُدَّ، وإذا طُفىءَ نورُهُ ضَعُفَ ونَقَصَ.

وقال بعضُ السلفِ: ما عصى اللهَ أحدٌ حتى يغيبَ عقلُهُ.

وهٰذا ظاهرٌ، فإنَّه لو حضره عقلُهُ لحجزَهُ عن المعصيةِ وهو في قبضةِ الربِّ تعالى، وتحتَ قهرِهِ، وهو مُطَّلعٌ عليه، وفي دارِهِ وعلى بساطِهِ، وملائكتهُ شهودٌ عليه ناظرونَ إليه! وواعظُ القرآنِ ينهاه، وواعظُ الإيمانِ ينهاه، وواعظُ الموتِ ينهاه، وواعظُ النارِ ينهاه، والذي يفوتُه بالمعصيةِ مِنْ خيرِ الدنيا والآخرةِ أضعافُ أضعافِ ما يحصلُ له مِنَ السُّرُورِ واللذةِ بها، فهل يُقدمُ على الاستهانةِ بذٰلك كلِّه والاستخفافِ به ذو عقلٍ سليمٍ؟؟

٢٢ ـ فَصْلٌ [المعاصي تطبعُ على قلب صاحبها]:

١٩ ـ ومنها أنَّ الذنوبَ إذا تكاثَرتْ طُبِعَ على قلبِ صاحِبِها، فكانَ مِنَ الغَافِلِينَ؛ كما قالَ بعضُ السَّلَفِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا

(١) أي: إن صوَّتَتْ لهم البغالُ بحوافرها، وأشرعت بهم الخيولُ بخفَّةٍ؛ فإنَّهم...

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ قال: هو الذنبُ بعدَ الذنب.

وقال الحسنُ: هو الذنبُ على الذنب، حتى يعمى القلبُ[١].

وقال غيرُه: لمَّا كثرَتْ ذنوبُهم ومعاصيهم أحاطَتْ بقلوبهم.

وأصلُ هٰذا أنَّ القلبَ يصدأُ مِنَ المعصيةِ، فإنْ زادَت غلبَ الصدأُ حتى يصيرَ راناً، ثم يغلبُ حتى يصيرَ طبعاً وقُفلاً وختماً، فيصيرَ القلبُ في غشاوةٍ وغلافٍ، فإنْ حصلَ له ذٰلك بعدَ الهدى والبصيرةِ انتكسَ فصارَ أعلاهُ أسفلَهُ، فحينئذٍ يتولاَّهُ عدوُّهُ ويسوقُهُ حيثُ أرادَ.

٢٣ ـ فَصْلٌ [المعاصي مُوجِبةٌ للّعنةِ]:

٢٠ ـ ومنها: أنَّ الذنوبَ تُدخِلُ العبدَ تحتَ لعنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّهُ لعنَ على معاصٍ[٢]، وغيرُها أكبرُ منها، فهي أوْلى بدخولِ فاعِلها تحتَ اللعنةِ:

فَلَعَنَ الواشِمَةَ والمستوشمةَ، والواصِلَةَ والمُستوصِلةَ، والنامصةَ والمُتنمِّصةَ، والواشرةَ والمستوشرةَ.

ولعنَ آكِلَ الربا ومُؤكلَهُ، وكاتبَه وشاهديه.

ولعنَ المحلِّلَ والمحلَّلَ له.

وَلَعَنَ السارِقَ.

---

(١) رواه عنه عَبْد بن حُميد، كما في «الدر المنثور» (٨ / ٤٤٧).

(٢) وما سيوردهُ المصنِّف ـ هنا ـ منها كلُّه أحاديثُ صحيحةٌ، وجلُّها في «الصحيحين» أو أحدِهما، وما كان ضعيفاً بيَّنْتُهُ، ولولا خشيةُ الإطالة لخرَّجتها جميعاً.

ولأخينا الدكتور باسم فيصل الجوابرة كتاب «مرويَّات اللعن في السنة المطهَّرة»، وهو كتابٌ جامعٌ، وهو مطبوعٌ.

وَلَعَنَ شاربَ الخمـرِ وساقيها، وعاصرهَا ومعتصِرهَا، وبائعَها ومشتريها، وآكلَ ثمنهَا، وحاملهَا والمحمولةِ إليه.

ولعن مَنْ غيَّرَ مَنَارَ الأرضِ؛ وهي أعلامُها وحدُودُها.

ولعن مَنْ لَعَنَ والديهِ.

ولعن مَن اتخذَ شيئاً فيه الروحُ غرضاً يرميهِ بالسهامِ.

ولعن المخنثينَ مِنَ الرجالِ والمترجّلاتِ مِنَ النساءِ.

ولعن مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ.

ولعن مَنْ أحدثَ حدثاً أو آوى مُحدِثاً.

ولعن المصوِّرين.

ولعن مَنْ عَمِلَ عملَ قومِ لوطٍ.

ولعن مَنْ سَبَّ أباه، ولعنَ مَنْ سَبَّ أمَّه.

ولعن مَنْ كَمَّهَ أعمى عَنِ الطَّريقِ.

ولعن مَنْ أتى بهيمةً.

ولعن مَنْ وسَمَ دابةً في وجهِها.

ولعن مَنْ ضارَّ مسلماً أو مَكَرَ به.

ولعن زوَّاراتِ القبورِ، والمتَّخذينَ عليها المساجِدَ والسُّرُجِ [1].

ولعنَ مَنْ أفسدَ امرأةً على زوجِها، أو مملوكاً على سيِّده.

---

(١) زيادة (السُّرُج) ضعيفةٌ في هٰذا الحديث، كما حقَّقه بمزيدِ بيانٍ شيخُنا الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (رقم ٢٢٥)؛ فَلْيُنْظَرْ.

ولعنَ مَنْ أتى امرأةً في دبرِها.

وأخبرَ أنْ مَنْ باتَتْ مهاجرةً لفراشِ زوجِها لعنتها الملائكةُ حتى تصبحَ.

ولعنَ مَنْ انتسبَ إلى غيرِ أبيه.

وأخبرَ أنْ مَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدةٍ فإنَّ الملائكةَ تلعنهُ.

ولعنَ مَنْ سبَّ الصحابةَ.

٢١ ـ وقد لعنَ اللهُ في كتابهِ مَنْ أفسدَ في الأرضِ وقطَعَ رحمهُ، وآذاهُ وآذى رَسُولَهُ ﷺ.

ولعنَ مَنْ كَتَمَ ما أنزلَ اللهُ سبحانه منَ البيِّناتِ والهدى.

ولعنَ الذين يرمونَ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ بالفاحشةِ.

ولعنَ مَنْ جَعَلَ سبيلَ الكافر أهدى مِنْ سبيلِ المُؤمِن المُسْلِم.

ولعنَ رسولُ اللهِ ﷺ الرجلَ يلبسُ لُبْسَةَ المرأةِ، والمرأةَ تلبسُ لُبْسَ الرجلِ.

ولعنَ الرَّاشي والمرتشي والرائشَ[1] ـ وهو الواسطةُ في الرشوةِ ـ.

ولعن على أشياءَ أُخَرَ غيرِ هٰذه.

فلو لم يكنْ في ذٰلك إلّا رضاءُ فاعلِهِ بأنْ يكونَ ممَّنْ يعلنُهُ اللهُ ورسولُهُ

---

(١) زيادة (الرَّائش)؛ أخرجها أحمد (٥ / ٢٧٩)، والطبراني (١٤٩٥)، والحاكم (٤ / ١٠٣) عن ثوبان.

وفي إسناد الحديثِ ضعيفٌ ومجهولٌ.

وأمَّا لعنُ الراشي والمُرتشي؛ فالحديثُ في ذٰلك صحيحٌ ثابتٌ، تـرَى تخريجه في «إرواء الغليل» (٢٦٢٠) لشيخنا الألباني.

وملائكتهُ لكانَ في ذٰلك ما يدعو إلى تركهِ.

٢٤ ـ فَصْلٌ [المعاصي سببٌ لحرمان دعوة الرسول والملائكة]:

٢٢ ـ ومنها: حِرمانُ دعوةِ رسولِ اللهِ ﷺ ودعوةِ الملائكةِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانهُ أمرَ نبيَّهُ أن يستغفرَ للمؤمنين والمؤمناتِ، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

فهٰذا دعاءُ الملائكةِ للمؤمنين التائبينَ المتَّبعينَ لكتابهِ وسنَّةِ رسولِهِ الذين لا سبيلَ لهم غيرُهما، فلا يطمعُ غيرُ هٰؤلاءِ بإجابةِ هٰذه الدَّعوةِ إذ لا يتَّصفُ بصفاتِ المدعوِّ له بها، واللهُ المستعانُ.

٢٥ ـ فَصْلٌ [عقوبات المعاصي]:

٢٣ ـ ومنْ عقوباتِ المعاصي: ما رواهُ البخاريُّ في «صحيحِهِ»[1] منْ حديث سَمُرَة بنِ جُنْدُبٍ؛ قال: «كانَ النَّبيُّ ﷺ ممَّا يُكْثِرُ أن يَقُولَ لأصحابِهِ: هَلْ رأى أحدٌ منكم من رؤيا؟ قال: فيقُصُّ عليهِ من شاءَ اللهُ أنْ يَقُصَّ. وإنَّهُ قالَ لنا ذاتَ غداةٍ: إنَّه أتاني اللَّيلةَ آتيانِ، وإنَّهُمَا ابتعثاني، وإنَّهما قالا لي: انطَلِقْ، وإنِّي انطلقتُ معهما، وإنَّا أتَيْنا على رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرَةٍ،

---

(١) (برقم ٦٦٤٠).

ورواه ـ أيضاً ـ مسلمٌ (٢٢٧٥).

وإذا هُوَ يَهْوي بالصَّخْرَةِ لِرَأسِهِ، فَيَثْلَغُ[1] رأسه فَيَتَدَهْدَهُ[2] الحَجَرُ هاهُنا، فيتْبَعُ الحَجَرَ، فيأخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إليهِ حتَّى يصحَّ رأسُهُ كما كانَ، ثُمَّ يعودُ عليهِ، فيفْعَلُ بهِ مِثْلَ مَا فَعلَ المرَّةَ الأولى. قال: قُلتُ لَهُمَا: سُبحانَ اللهِ! مَا هـذا؟ قالا لي: انْطَلِقْ انْطلِقْ.

فانْطَلَقْنا؛ فأتينا على رجلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخَرُ قائمٌ عليهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَديدٍ، وإذا هُوَ يأتي أحدَ شِقَّي وجهِهِ فَيُشَرْشِرُ[3] شِدْقَهُ إلى قَفاهُ، ومِنْخَرَهُ إلى قَفـاهُ، وعَيْنَـهُ إلى قَفَاهُ، ثمَّ يتحوَّلُ إلى الجانبِ الآخَرِ، فيفعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذلكَ الجانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذلك الجانِبُ كما كانَ. ثُمَّ يعـودُ عليهِ فَيَعْمَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأولى. قالَ: قُلتُ: سُبحانَ اللهِ! ما هٰذانِ؟ فقالاَ لي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ.

فانطَلَقْنَا فأتينَا على مِثْلِ التَّنُّورِ ـ قال: وأحسب أنه كان يقول: ـ فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ، قال: فاطَّلَعْنَا فيه، فإذا فيهِ رجالٌ ونساءٌ عُرَاةٌ، وإذا هُم يأتيهِم لَهَبٌ مِنْ أسفَلَ مِنْهُم، فإذا أتاهُم ذٰلكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا[4] قالَ: قُلتُ: ما هٰؤلاءِ؟ قالاَ لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْطَلَقنا؛ فأتينا على نهرٍ ـ حسبت أنه كان يقول: ـ أحمرَ مِثْلَ الدَّمِ، وإذا في النَّهْرِ سابحٌ يَسْبَحُ، وإذا على شطِّ النَّهْرِ رجلٌ قد جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كثيرةً، وإذا ذٰلِكَ السَّابِحُ يسبحُ ما يسبحُ، ثُمَّ يأتي ذٰلك الَّذي جمعَ عِنْدَهُ الحِجارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فاهُ فَيُلْقِمُهُ حجراً، فينطلقُ فيسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إليهِ كُلَّما رَجَعَ إليهِ؛ فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فألْقَمَهُ حَجراً، قُلتُ لهما: ما هٰذانِ؟ قالا لي: انْطَلِق انْطَلِقْ.

---

(١) يشدخ.

(٢) يتدحرج.

(٣) يقطع.

(٤) صاحوا.

قال: فانْطَلَقْنا، فأتَيْنا على رجُلٍ كَرِيهِ المَرْآة[1]، أو كأكْرَهِ ما أنتَ راءٍ رجُلا مرأىً، وإذا هُوَ عِنْدَهُ نارٌ يَحُشُّها[2] ويَسْعَى حَوْلَهَا، قالَ: قُلتُ لَهُما: ما هٰذا؟ قالَ: قالاَ لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْطَلَقْنَا حَتَّى أتَيْنا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ[3] فيها مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبيعِ، وإذا بينَ ظَهْرَانَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طويلٌ، لا أكادُ أرى رأسَهُ طولاً في السماءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أكثرِ ولدانٍ رأيتُهُم قطُّ، قالَ: قُلتُ لهما: ما هٰذا؟ ما هٰؤلاءِ؟ قال: قالاَ لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْطَلَقْنَا، فانْتَهَيْنَا إلى روضةٍ عظيمةٍ لم أرَ روضةً قطُّ أعظَمَ منها ولا أحسنَ، قالَ: قالا لي: ارْقَ[4] فيها، فارتَقَيْنَا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ؛ قالَ: فأتَيْنا بابَ المدينةِ، فاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لنا، فدخلناها، فتلقّانا رجالٌ، شطرٌ مِن خَلْقِهِمْ كأحْسَنِ ما أنتَ راءٍ، وشطرٌ منهم كأقبحِ ما أنتَ راءٍ، قال: قالا لهم: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذٰلك النَّهرِ، قالَ: وإذا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ ماءَهُ المَحْضُ[5] في البَيَاضِ، فذهبُوا فوقعوا فيه، ثُمَّ رجعوا إلينا، قد ذهبَ ذٰلك السُّوءُ عنهم، قالَ: قالا لي: هٰذه جنَّةُ عدْنٍ، وهٰذاكَ مَنْزِلُكَ.

قال: فَسَمَا بَصَرِي صُعُداً[6]، فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ[7] البَيْضاءِ، قالَ: قالاَ

---

(١) أي: سيّئ المنظر.

(٢) يُوقدها.

(٣) أي: وافية النبات، كثيرة الخصب.

(٤) اصعد.

(٥) الخالص، والمراد هنا اللَّبَن.

(٦) أي: صعدتُ ببصري إلى فوق.

(٧) السحابة.

لي: هٰذا منزِلُكَ، قلتُ لهما: باركَ اللهُ فيكُما، فذرَاني[1] فأدخُلُهُ. قالاَ: أمَّا الآنَ فَلا، وأنتَ دَاخِلُهُ.

قال: قُلتُ لهما: فإنِّي قد رأيتُ منذُ اللَّيلَةِ عجباً، فما هٰذا الَّذي رأيتُ؟ قالَ: قالاَ لي: أما إنّا سَنُخْبِرُكَ.

أمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الَّذي أتيتَ عليهِ يُثْلَغُ رأسُهُ بالحَجَرِ، فإنّهُ الرَّجُلُ الذي يأخُذُ القُرآنَ، فيرفُضُهُ، وينامُ عن الصَّلاةِ المكتوبةِ.

وأمَّــاالرَّجلُ الَّذي أتيتَ عليهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قفاهُ، ومنْخرُهُ إلى قَفَاهُ، وعينُهُ إلى قفاهُ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو من بيتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأمَّا الرِّجالُ والنِّساءُ العُراةُ الَّذينَ في مثلِ بناءِ التَّنُّورِ؛ فإنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّواني.

وأمَّا الرَّجُلُ الذي أتيتَ عليهِ يسبحُ في النهرِ ويُلْقَمُ الحِجَارَةَ؛ فإنَّهُ آكِلُ الرِّبا.

وأمَّا الرَّجلُ الكريهُ المرآةِ الذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فإنَّهُ مَالِكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ.

وأمَّا الرَّجُلُ الطَّويلُ الَّذي في الرَّوضةِ: فإنَّهُ إبراهيمُ.

وأمَّــا الـوِلْـدَانُ الَّذينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ ماتَ على الفِطْرَةِ ـ وفي رواية البَـرْقـانيِّ: «وُلِـد على الفطرة ـ فقالَ بعضُ المسلمين: يا رسولَ اللهِ! وأولاَدُ المُشْركينَ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: وأولادُ المشركينَ.

وأمَّــا القومُ الَّذينَ كَانُوا شطر مِنهُم حَسَناً وَشَطْر مِنهُم قبيحاً، فإنّهُم قومٌ خلطُوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً تَجَاوَزَ اللهُ عنهم».

---

(١) اتركاني.

٢٦ ـ فَصْلٌ [المعاصي سببٌ للفساد]:

٢٤ ـ ومِنْ آثارِ الذنوبِ والمعاصي: أنَّها تُحْدِثُ في الأرضِ أنواعاً مِنَ الفَسادِ في المياهِ والهواءِ، والزروعِ والثمارِ، والمساكنِ. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال مُجاهدٌ: إذا وَلِيَ الظالمُ سعى بالظلمِ والفسادِ فيحبسُ اللهُ بذلك القَطْرَ، فيهلَكُ الحرثُ والنسلُ، واللهُ لا يحبُّ الفسادَ. ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ثم قال: أما واللهِ ما هو بَحْركم هٰذا، ولكنْ كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهو بحرٌ.

وقال عكرمةُ: ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحر، أما إني لا أقولُ لكم: بحرُكم هٰذا، ولكنْ كلُّ قريةٍ على ماءٍ.

وقال قتادةُ: أما البَرُّ فأهلُ العمودِ[1]، وأما البحرُ فأهلُ القرى والريفِ[2].

قلتُ: وقد سمَّى اللهُ تعالى الماءَ العذبَ بحراً فقال: ﴿ومَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هٰذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهٰذا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، وليس في العالَم بحرٌ حُلْوٌ واقفاً، وإنَّما هي الأنهارُ الجاريةُ، والبحرُ المالحُ هو الساكنُ، فسمَّى القرى التي عليها المياهُ الجاريةُ باسمِ تلك المياهِ.

وقال ابنُ زيدٍ: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]؛ قال: الذنوب.

---

(١) أي: أهل البوادي.

(٢) وانظر: «الدر المنثور» (٦ / ٤٩٦ ـ ٤٩٧).

قلت: أرادَ أنَّ الذنوبَ سببُ الفسادِ الذي ظهرَ، وإنْ أرادَ أنَّ الفسادَ الذي ظهرَ هو الذنوبُ نفسُها فيكونَ اللامُ في قولِهِ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١] لام العاقبةِ والتعليل.

وعلى الأوَّلِ؛ فالمرادُ بالفسادِ النقصُ والشرُّ والآلامُ التي يحدثُها اللهُ في الأرضِ عندَ معاصي العبادِ، فكلَّما أحدثُوا ذنباً أحدثَ اللهُ لهم عقوبةً، كما قال بعضُ السلفِ: كلَّما أحدثتُم ذنباً أحدثَ اللهُ لكم من سلطانِهِ عقوبةً.

والظاهرُ - واللهُ أعلم - أنَّ الفسادَ المرادُ بِهِ الذنوبُ وموجباتُها، ويدلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١]، **فهٰذا حالنا**، وإنما أذاقَنا الشيءَ اليسيرَ من أعمالِنا، فلو أذاقَنا كلَّ أعمالِنا لما تركَ على ظهرِها مِنْ دابةٍ.

٢٥ - ومن تأثيرِ المعاصي في الأرضِ: ما يَحِلُّ بها من الخَسفِ والزلازلِ ويمحقُ بركتَهَا، وقد مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ على ديارِ ثمودَ[١]، فمنعَهُم مِنْ دُخولِ ديارهم إلَّا وهم باكونَ، ومنْ شُربِ مياههم، ومنَ الاستقاءِ من آبارِهم، حتى أمرَ أن يُعْلَفَ العجينُ الذي عُجِنَ بمياهِمِ للنَّواضِحِ[٢]، لتأثيرِ شؤمِ المعصيةِ في الماءِ، وكذٰلك تأثيرُ شؤمِ الذنوبِ في نقصِ الثمارِ وما تُرمىٰ به منَ الآفاتِ.

وقد ذكرَ الإمامُ أحمدُ في «مسندِهِ»[٣] في ضمنِ حديثٍ؛ قالَ: «وُجِدَ في خزائنِ بني أُمَيَّةَ حنطةُ الحبَّةُ بقدرِ نواةِ التمرِ، وهي في صرَّةٍ مكتوبٍ عليها: هٰذا

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) هي الإبل.

(٣) (٢ / ٢٩٦) - بنحوه -.

وصاحب الخبر هو أبو قَحْذَم، وهو ضعيفٌ كما في «الميزان» (٤ / ٥٦٤) للذهبيّ.

وانظر: «مجمع الزوائد» (٥ / ١٩٧).

كانَ ينبتُ في زمنِ العدلِ».

وكثيرٌ مِنْ هٰذه الآفاتِ أحدثها اللهُ سبحانه وتعالى بما أحدثَ العبادُ مِنَ الذنوبِ.

وأخبرني جماعةٌ مِنْ شيوخِ الصحراءِ أنَّهم كانوا يعهدونَ الثمارَ أكبرَ مما هي الآنَ، وكثيرٌ مِنْ هٰذه الآفاتِ التي تصيبُها لم يكونوا يعرفونَها، وإنما حدثَتْ مِنْ قُرْبٍ.

٢٦ - وأما تأثيرُ الذنوبِ في الصورِ والخلقِ؛ فقد روى الترمذيُّ في «جامعهِ»[١] عنه ﷺ أنَّهُ قال: «خَلَقَ اللهُ آدمَ وطُولُهُ في السَّماءِ سِتُّونَ ذِراعاً، فلم يزلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ».

فإذا أرادَ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ الأرضَ مِنَ الظَّلَمَةِ والفجرَةِ والخَوَنَةِ؛ يُخرجُ عبداً من عبادهِ[٢] منْ أهلِ بيتِ نبيِّه ﷺ فيملأُ الأرضَ قسطاً كما مُلِئَتْ جَوْراً، ويقتلُ المسيحُ اليهودَ والنَّصارى، ويُقيمُ الدِّينَ الذي بعثَ اللهُ به رسولَهُ، وتُخرجُ الأرضُ بركَتَها، وتعودُ كما كانت، حتى إنَّ العِصَابَةَ[٣] مِنَ النَّاسِ ليأكلونَ الرمَّانَةَ ويستظلُّونَ بقحفِها[٤]، ويكونُ العنقودُ مِنَ العنبِ وَقْرَ[٥] بعيرٍ، وإنَّ اللَّقْحَةَ[٦]

---

(١) ليس هو في الترمذي أصلاً.

ولكنْ؛ أخرجه البخاري (٣١٤٨)، ومسلم (٢٨٤١) عن أبي هُريرة.

(٢) هو المهدي عليه السلام، وأحاديثُهُ صحيحةٌ رُغم أنوف بعض الجهلة المكابرين للعلمِ والحقِّ، الجاحدين لدلائل الصواب.

(٣) الجماعة.

(٤) قشرها.

(٥) حِمل.

(٦) الناقة قريبة العهد بالولادة.

الواحدةَ لتكفي الفئامَ(1) مِنَ النَّاسِ (2).

وهٰذا لأنَّ الأرضَ لما طَهُرَتْ مِنَ المعاصي ظهرتْ فيها آثارُ البركةِ مِنَ اللهِ التي محقَتْها الذنوبُ والكفرُ.

ولا ريبَ أنَّ العقوباتِ التي أنزلَها اللهُ في الأرضِ بقيَتْ آثارُها ساريةً في الأرضِ تطلبُ ما يُشاكِلُها مِنَ الذنوبِ التي هي آثارُ تلك الجرائِمِ التي عُذِّبتْ بها الأمَمُ.

فهٰذه الآثارُ التي في الأرضِ مِنْ آثارِ تلك العقوباتِ، كما أنّ هٰذه المعاصيَ مِنْ آثارِ تلك الجرائمِ، فتناسَبَتْ حِكمةُ اللهِ وحُكْمُهُ الكونيُّ أولاً وآخراً، وكانَ العظيمُ مِنَ العقوبةِ للعظيمِ مِنَ الجنايةِ، والأخفُّ للأخفِّ، وهٰكذا يحكمُ سبحانه بين خلقهِ في دارِ البرزخِ ودارِ الجزاءِ.

وتأمَّلْ مقارنَةَ الشيطانِ ومحلَّهُ ودارهُ، فإنَّهُ لمَّا قارنَ العبدَ واستولى عليه؛ نُزِعَتِ البركةُ مِنْ عمرِه، وعملِه، وقولِه، ورزقِه، ولما أثَّرتْ طاعتهُ في الأرضِ ما أثَّرَتْ؛ نُزِعَتِ البركةُ مِنْ كلِّ محلٍّ ظهرت فيه طاعتُه، وكذٰلك مسكنهُ لما كانَ الجحيمَ لم يكنْ هناك شيءٌ مِنَ الروحِ والرحمةِ والبركةِ.

٢٧ ـ فَصْلٌ [المعاصي تُطفىء غيرة القلب]:

٢٧ ـ ومنْ عقوباتِ الذنوبِ: أنَّها تُطفىءُ مِنَ القلبِ نارَ الغيرةِ التي هي لحياتِهِ وصلاحِهِ كالحرارةِ الغريزيَّةِ لحياةِ جميعِ البدنِ؛ فالغَيْرَةُ حرارتُهُ ونارهُ التي تُخرِجُ ما فيه مِنَ الخبثِ والصفاتِ المذمومةِ، كما يُخرجُ الكيرُ خَبَثَ الذهبِ والفضةِ والحديدِ، وأشرفُ الناسِ وأجدُّهم وأعلاهم همَّةً أشدُّهُم غيرةً على نفسه

---

(1) هي الجماعة الكثيرة من الناس.

(2) كما في «صحيح مسلم» (٢٩٣٧) عن النَّوَّاس بن سَمْعان.

وخـاصَّته وعمومِ الناسِ . ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ أغيرَ الخلقِ على الأمَّةِ، واللهُ سبحانهُ أشدُّ غيرةً منه، كما ثبتَ في «الصحيح»[1] عنه ﷺ أنّه قال: «أتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؛ لأنا أغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أغْيَرُ مِنِّي».

وفي «الصحيح»[2] أيضاً أنَّه قال في خُطبةِ الكسوفِ: «يا أُمَّةَ محمدٍ! ما أحدٌ أغيرُ مِنَ اللهِ أن يزني عبدُهُ أو تزني أمَتُهُ».

وفي «الصَّحيح»[3] أيضاً عنه أنَّه قالَ: «لا أحدَ أغيرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجلِ ذلك حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحدٌ أحبُّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجلِ ذلك أرسلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ، ولا أحدٌ أحبُّ إليه المَدْحُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجلِ ذلك أثنى على نفسهِ».

فَجَمَعَ في هذا الحديثِ بينَ الغيرةِ التي أصلُهَا كراهةُ القبائحِ وبغضُها، وبينَ محبَّةِ العُذْرِ الذي يُوجِبُ كَمالَ العدْلِ والرحمةِ والإحسانِ، وأنَّهُ سبحانه ـ مع شدَّةِ غيرتهِ ـ يُحِبُّ أنْ يعتذرَ إليه عبدُه، ويقبلَ عُذْرَ مَنِ اعْتَذَرَ إليه، وإنَّهُ لا يُؤاخِذُ عبيدَهُ بارتكابِ ما يغارُ من ارتكابهِ حتى يَعْذِرَ إليهـم، ولأجلِ ذلك أرسلَ رُسُلَهُ وأنزلَ كتبَهُ إعذاراً وإنذاراً.

وهذا غايةُ المجدِ والإحسانِ ونهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ كثيراً ممنْ تشتدُّ غيرتُهُ مِنَ المخلوقينَ تحملُهُ شدةُ الغيرةِ على سرعةِ الإيقاعِ والعقوبةِ مِنْ غيرِ إعذارٍ

---

(١) «صحيح البخاري» (برقم ٤٩٢٣).
ورواه مسلم (١٤٩٩).
(٢) «صحيح البخاري» (برقم ٤٩٢٣).
ورواه مسلم (٩٠١) ـ أيضاً ـ.
(٣) «صحيح البخاري» (برقم ٤٩٢٢).
ورواه مسلم (٢٧٦٠) ـ أيضاً ـ.

منه، ومِنْ غيرِ قَبُولٍ لِعُذرِ مَن اعتذرَ إليه، بل يكونُ له في نفسِ الأمرِ عذرٌ، ولا تدعهُ شدةُ الغيرةِ أن يقبلَ عذرَه، وكثيرٌ ممنْ يقبلُ المعاذيرَ يحملهُ على قبولها قلَّةُ الغيرةِ حتى يتوسَّعَ في طُرُقِ المعاذيرِ، ويرى عُذراً ما ليس بعُذرٍ، حتى يعتذرَ كثيرٌ منهم بالقَدَرِ[1]، وكلٌّ منهما غيرُ ممدوحٍ على الإطلاقِ.

وقد صحَّ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ مِنَ الغيرةِ ما يُحِبُّهَا اللهُ، ومنها ما يُبْغِضُها اللهُ؛ فالَّتي يُبْغِضُها اللهُ الغَيْرَةُ في غيرِ رِيبَةٍ». وذكر الحديث[2].

وإنَّما الممدوحُ اقترانُ الغيرةِ بالعذرِ؛ فيغارُ في محلِّ الغيرةِ، ويعذرُ في موضعِ العذرِ، ومَنْ كان هٰكذا فهو الممدوحُ حقّاً.

ولمَّا جمعَ اللهُ سبحانه صفاتِ الكمالِ كلَّها كانَ أحقَّ بالمدحِ مِنْ كُلِّ أحدٍ، ولا يبلغُ أحدٌ أنْ يمدحَهُ كما ينبغي له، بل هو كما مَدَحَ نفسَهُ وأثنى على نفسِهِ؛ فالغيُورُ قد وافَقَ ربَّهُ سبحانه في صفةٍ من صفاتِهِ، ومَنْ وافَقَ اللهَ في صفةٍ من صفاتِهِ قادَتْهُ تلك الصفةُ إليه بزمامِها، وأدخلَتْهُ على رَبِّه، وأدْنَتْهُ منه وقرَّبَتْهُ مِنْ رحمتِهِ، وصيَّرتـه محبوباً له، فإنَّهُ سبحانه رحيمٌ يحبُّ الرحماءَ، كريمٌ يحبُّ الكرماءَ، عليمٌ يحبُّ العلماءَ، قويٌّ يحبُّ المؤمنَ القويَّ، وهو أحبُّ إليه مِنَ المؤمِنِ الضَّعيفِ، حييٌّ يحبُّ أهلَ الحياءِ، جميلٌ يحبُّ أهلَ الجمالِ، وِتْرٌ

---

(١) أي: بما قدَّره اللهُ عليه.

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة رسالةُ «الاحتجاج بالقَدَر» فيها الردُّ على مَنْ يحتجُّون ـ أو يعتذرون ـ بالقَدَر مُطْلقاً، مُبيِّناً فيها وَجْهَ الصواب.

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٤٤٥ و٤٤٦)، وأبو داود (٢٦٥٩)، والنَّسائي (٥ / ٧٨)، والدارمي (٢ / ١٤٩)، والطبراني (١٧٧٥)، وابن حبان (٢٩٥) عن جابر بن عَتِيك، وسنده ضعيفٌ.

وله شاهدٌ:

رواه عبد الرزَّاق (١٩٥٢٢)، وأحمد (٤ / ١٥٤)، والحاكم (١ / ٤١٧ ـ ٤١٨) عن عُقبة ابن عامر بسند رجاله ثقات؛ فهو به حَسَنٌ.

يحبُّ الوترَ[1].

ولـو لم يكنْ في الذنوبِ والمعاصي إلَّا أنَّها تُوجبُ لصاحبِها ضدَّ هٰذه الصفاتِ وتمنعهُ منَ الاتِّصافِ بها لكفى بها عقوبةً؛ فإنَّ الخطرةَ تنقلبُ وسوسةً، والوسوسةَ تصيرُ إرادةً، والإرادةَ تقوى فتصيرُ عزيمةً، ثم تصيرُ فعلاً، ثم تصيرُ صفـةً لازمـةً وهيئةً ثابتةً راسخةً، وحينئذٍ يتعذرُ الخروجُ منها، كما يتعذرُ عليه الخروجُ منْ صفاتِهِ القائمةِ به.

والمقصودُ أنَّهُ كُلَّما اشتدتْ مُلابستُهُ للذنوبِ أخرجَتْ مِنْ قلبِهِ الغيرةَ على نفسهِ وأهلِهِ وعمومِ الناسِ، وقد تَضْعُفُ في القلبِ جدّاً حتى لا يستقبحَ بعدَ ذٰلك القبيحَ لا مِنْ نفسهِ ولا مِنْ غيرِه، وإذا وصلَ إلى هٰذا الحدِّ فقد دخلَ في بابِ الهلاكِ.

وكثيرٌ مِنْ هٰؤلاءِ لا يقتصرُ على عدمِ الاستقباحِ، بل يُحسِّنُ الفواحشَ والظلمَ لغيرِهِ، ويُزيِّنُهُ له، ويدعوهُ إليه، ويحثُّهُ عليه، ويسعى له في تحصيلِهِ؛ ولهٰذا كانَ الديّوثُ أخبثَ خلقِ اللهِ، والجنَّةُ حرامٌ عليهِ[2]، وكذٰلك محلِّلُ الظلمِ والبغيِ لغيرِهِ ومزيِّنه له!

فانظرْ ما الذي حملَتْ عليه قلَّةُ الغيرةِ.

وهٰذا يدلُّكَ على أنَّ أصلَ الدِّينِ الغيرةُ، ومَنْ لا غيرةَ له لا دِينَ له؛ فالغيرةُ تحمِي القلبَ فتحمِي له الجوارحَ؛ فتدفعُ السوءَ والفواحشَ، وعدمُ الغيرةِ تُميتُ

---

(١) وسائرُ هٰذه المعاني ورد ذِكْرُها في أحاديثَ صحيحةٍ عن النبيِّ ﷺ.

(٢) كمـا في قولِهِ ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّةَ، ولا ينظر اللهُ إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلة المتشبِّهة بالرجال، والديُّوث».

رواه أحمد (٢ / ٦٩)، والحاكم (١ / ٧٢)، والنسائي (٥ / ٨٠)، والبيهقي (١٠ / ٢٢٦) عن عبد الله بن عَمْرو بسند جيِّد.

القلبَ فتموتَ الجوارحُ؛ فلا يبقى عندها دَفْعُ ألبتةَ.

ومَثَلُ الغيرةِ في القلبِ مثلُ القوةِ التي تدفعُ المرضَ وتُقاومُهُ، فإذا ذهبتِ القوَّةُ وجدَ الداءُ المحلَّ قابلاً، ولم يجدْ دافعاً، فتمكَّنَ، فكان الهلاكُ، ومثلُها مثلُ صياصِي[1] الجاموسِ التي تدفعُ بها عن نفسهِ وولدِهِ، فإذا كُسِرَتْ طمعَ فيه عدوُّهُ.

٢٨ ـ فَصْلٌ [المعاصي تُذهِب الحياء]:

٢٨ ـ ومِنْ عقوباتِها: ذهابُ الحياءِ الذي هو مادةُ حياةِ القلبِ، وهو أصلُ كلِّ خيرٍ، وذهابُهُ ذهابُ الخيرِ أجمعهِ.

وفي «الصحيحِ»[2] عنه ﷺ أنه قال: «الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ».

وقال: «إنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأولى: إذا لَمْ تَسْتَحِ؛ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[3].

وفيه تفسيران:

أحدهُما: أنَّه على التهديدِ والوعيدِ، والمعنى: مَنْ لم يستحِ فإنه يصنعُ ما شاءَ مِنَ القبائحِ؛ إذ الحاملُ على تركها الحياءُ، فإذا لم يكنْ هناك حياءٌ يردعُهُ عنِ القبائحِ فإنه يواقِعُها. وهذا تفسيرُ أبي عُبيد[4].

---

(١) هي قرونُهُ.

(٢) هو في «صحيح مسلم» (٣٧).

(٣) رواه البخاري (٥٧٦٩).

(٤) في كتابه «غريب الحديث» (٣ / ٣١).

وانظر «الفائق» (١ / ٣١٦) للزمخشري، و«النهاية» (١ / ٣١١) لابن الأثير.

والثاني: أنَّ الفعلَ إذا لم تستحِ منه منَ اللهِ فافعله، وإنَّما الذي ينبغي تركُه هو ما يُسْتَحيى منه مِنَ اللهِ. وهٰذا تفسيرُ الإمامِ أحمدَ في روايةِ ابنِ هانيءٍ[1].

فعلى الأولِ يكونُ تهديداً، كقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُم﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلى الثاني يكونُ إذناً وإباحةً.

فإنْ قيلَ: فهلْ مِنْ سبيلٍ إلى حملهِ على المعنَيَيْنِ؟!

قلتُ: لا، ولا على قولِ مَنْ يحملُ المشتركَ على جميعِ معانيهِ؛ لما بينَ الإباحةِ والتَّهديدِ مِنَ المنافاةِ، ولٰكنَّ اعتبارَ أحدِ المعنيينِ يُوجبُ اعتبارَ الآخرِ.

والمقصودُ أنَّ الذنوبَ تُضعفُ الحياءَ مِنَ العبدِ، حتَّى رُبَّما انسلَخَ منه بالكليَّةِ، حتى إنَّهُ ربما لا يتأثرُ بعلمِ الناسِ بسوءِ حالِهِ ولا باطِّلاعِهِم عليه، بل كثيرٌ منهم يُخبرُ عن حاله وقُبحِ ما يفعلُ، والحاملُ له على ذٰلك انسلاخُهُ مِنَ الحياءِ، وإذا وصلَ العبدُ إلى هٰذه الحالِ لم يبقَ في صلاحِهِ مَطمعٌ.

وإذَا رَأَى إبْلِيسُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ   حَيَّا وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

والحياءُ: مُشتقٌّ مِنَ الحياةِ، والغيثُ يسمَّى حَيَا ـ بالقصرِ ـ لأنَّ به حياةَ الأرضِ والنباتِ والدوابِّ، وكذٰلك سُمِّيَتْ بالحياءِ حياةَ الدنيا والآخرةِ، فمن لا حياءَ فيه ميتٌ في الدنيا شقيٌّ في الآخرةُ.

وبينَ الذنوبِ وبينَ قلَّةِ الحياءِ وعدمِ الغيرة تلازمٌ مِنَ الطَّرفَيْنِ، وكلٌّ منهما يستدعي الآخَرَ ويطلبُهُ حثيثاً، ومَنْ استحيى مِنَ اللهِ عندَ معصيتِهِ، استحيى اللهُ مِن عقوبتِهِ يومَ يلقاهُ، ومَنْ لم يستحِ من معصيتِهِ لم يستحِ مِنْ عقوبتِهِ.

---

(١) لم أره في «مسائله» المطبوعة عنه.

٢٩ ـ فَصْلٌ [المعاصي تُضعِف تعظيمَ الربّ]:

٢٩ ـ ومِنْ عقوباتِ الذنوبِ: أنَّها تُضعِفُ في القلبِ تعظيمَ الربِّ جلَّ جلاله، وتُضعفُ وَقَارَهُ في قلبِ العبدِ ولا بُدَّ، شاءَ أم أبى.

ولو تمكَّن وَقارُ اللهِ وعظمتُهُ في قلبِ العبدِ لما تجرَّأ على معاصيهِ، وربَّما اغترَّ المغترُّ، وقال: إنَّما يحملُني على المعاصي حسنُ الرَّجاءِ، وطمعِي في عفوهِ، لا ضعفَ عظمتِهِ في قلبي!

وهٰذا مِنْ مغالطةِ النَّفسِ؛ فإنَّ عظمةَ اللهِ تعالى وجلالَهُ في قلبِ العبدِ تقتضي تعظيمَ حرماتِهِ، وتعظيمُ حرماتِهِ يحولُ بينه وبينَ الذنوبِ، والمُتَجَرِّئونَ على معاصيهِ ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ، وكيفَ يُقدِّره حقَّ قدرِهِ، أو يعظِّمهُ أو يُكَبِّرُهُ، ويرجو وقارَهُ ويُجِلّهُ مَنْ يهونُ عليه أمرهُ ونهيُهُ؟!

هٰذا مِنْ أمحلِ المحالِ، وأبْيَنِ الباطلِ.

وكفى بالعاصي عقوبةً أنْ يضمحلَّ من قلبهِ تعظيمُ اللهِ جلَّ جلالهُ، وتعظيمُ حرماتِهِ، ويهونَ عليه حقُّه.

ومِنْ بعضِ عقوبةِ هٰذا: أنْ يرفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ مهابَتَهُ مِنْ قلوبِ الخلقِ، ويهونَ عليهم، ويستخفُّونَ به، كما هانَ عليه أمرُه واستخفَّ به، فعلى قدرِ محبَّةِ العبدِ للهِ يحبُّهُ الناسُ، وعلى قدرِ خوفِهِ مِنَ اللهِ يخافُهُ الخلقُ، وعلى قدرِ تعظيمهِ للهِ وحُرُماتِهِ يُعَظِّمُ النَّاسُ حُرُماتِهِ.

وكيف ينتهكُ عبدٌ حُرُماتِ اللهِ ويطمعُ أن لا ينتهكَ الناسُ حرماتِهِ؟

أم كيفَ يهونُ عليه حقُّ اللهِ ولا يهوِّنُهُ اللهُ على النَّاسِ؟

أم كيفَ يستخفُّ بمعاصي اللهِ ولا يستخفُّ به الخلقُ؟

وقد أشارَ سبحانهُ إلى هٰذا في كتابهِ عندَ ذكرِ عقوباتِ الذُّنوبِ، وأنَّهُ أرْكَسَ أربابَها بما كسبوا[1]، وغطَّى على قلوبِهِم؛ فطبعَ عليها بذنوبِهِم[2]، وأنه نسيَهُم كما نسوهُ[3]، وأهانَهُم كما أهانُوا دينَهُ[4]، وضيَّعهم كما ضَيَّعُوا أمرَهُ.

ولهٰذا قالَ تعالى في آيةِ سجودِ المخلوقاتِ له: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فلمَّا هانَ عليهم السجودُ له واستخفُّوا به ولم يفعلوهُ أهانَهُم اللهُ؛ فلم يكنْ لهم مِنْ مُكْرِمٍ بعدَ أنْ أهانَهُم اللهُ، ومَنْ ذا يكرمُ مَنْ أهانَهُ اللهُ؟ أو يهينُ مَنْ أكرَمَهُ اللهُ؟

٣٠ - فَصْلٌ [المعاصي سببُ نسيان الله لعبده]:

٣٠ - ومِنْ عقوباتِها: أنَّها تستدعِي نسيانَ اللهِ لعبدِهِ وتركَهُ، وتخليتَهُ بينه وبينَ نفسهِ وشيطانِهِ، وهٰذا أهْلَكُ الهلاكِ الذي لا يُرْجَى منه نجاةٌ:

قال اللهُ تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨ و١٩]؛ فأمرَ بتقواه، ونهى أنْ يتشبَّهَ عبادُهُ المؤمنون بمَنْ نسيه بتركِ تقواهُ، وأخبرَ أنَّه عاقبَ مَنْ تركَ التقوى بأنْ أنساهُ نفسَه؛ أي: أنساه مصالِحَها، وما يُنَجِّيها منْ عذابِهِ، وما يوجِبُ له الحياةَ الأبديَّةَ، وكمالَ لذَّتها وسرورَها ونعيمَهَا، **فأنساه اللهُ ذٰلك كلَّهُ جزاءً لما نسيَهُ مِنْ عظمتهِ وخوفِهِ**، والقيامِ بأمرِهِ، فترى العاصِي مهملاً لمصالحِ نفسهِ مضيِّعاً لها، قد

---

(١) كما في سورة النساء: ٨٨.

(٢) كما في سورة الأعراف: ١٠١.

(٣) كما في سورة الأعراف: ٥١.

(٤) كما في سورة الدخان: ٤٩.

أغفلَ اللهُ قلبَهُ عن ذكرِه، واتَّبَعَ هواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطاً، قد انفرطَتْ عليه مصالحُ دنياهُ وآخرتِهِ، وقد فَرَّطَ في سعادتِهِ الأبديَّةِ، واستبدلَ بها أدنى ما يكونُ منْ لذَّةٍ؛ إنَّما هي سحابةُ صيفٍ أو خيالُ طيفٍ، كما قيل:

أَحْــلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِــلٍ إِنَّ الــلَّبِيبَ بِمِـثْـلِهَــا لَا يُخْــدَعُ

وأعـظَمُ العقـوبـاتِ نسيانُ العبـدِ لنفسهِ، وإهمالُهُ لها، وإضاعةُ حظِّها ونصيبِها منَ اللهِ، وبيْعُها ذٰلك بالغُبنِ[1] والهوانِ وأبخسِ الثمنِ، فضيَّعَ مَنْ لا غنى له عنه، ولا عِوَضَ له منه، واستبدلَ به مَنْ عنه كلُّ الغنـى ومنه كـلُّ العِوَضِ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْـتَــهُ عِوَضٌ وَمَــا مِنَ الـلهِ إِنْ ضَيَّعْـتَــهُ عِوَضُ

فالله سبحانه وتعالى يُعوِّضُ عن كلِّ ما سواهُ ولا يُعوِّضُ منه شيءٌ، ويُغني عن كلِّ شيءٍ ولا يُغني عنه شيءٌ، ويُجيرُ منْ كلِّ شيءٍ ولا يُجيرُ منه شيءٌ، ويمنعُ منْ كلِّ شيءٍ، ولا يَمنعُ منه شيءٌ؛ فكيفَ يستغني العبدُ عن طاعةِ مَنْ هٰذا شأنُهُ طرفَةَ عينٍ؟

وكيف ينسى ذكرَه ويضيعُ أمرَه حتى ينسيهِ نفسَه، فيخسرهَا ويظلمها أعظمَ الظلمِ؟

فما ظلَمَ العبدُ ربَّهُ ولكنْ ظلَمَ نفسَه، وما ظلَمَهُ ربُّهُ ولكنْ هو الذي ظلَمَ نفسَه.

٣١ ـ فَصْلٌ [المعاصي سببٌ للخروج من دائرة الإحسان]:

٣١ ـ ومن عقوباتِها: أنَّها تُخْرِجُ العبدَ من دائرةِ الإحسانِ[2]، وتمنعُهُ ثوابَ

---

(١) الخداع.

(٢) هو «أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنَّه يراك»، كما ورد شرحه في الحديث =

المُحْسنين، فإنَّ الإحسانَ إذا باشرَ القلبَ منعهُ منَ المعاصي، فإنَّ مَنْ عَبَدَ اللهَ كأنَّهُ يراهُ لم يكنْ ذلك إلَّا لاستيلاءِ ذكرِه ومحبَّتِهِ وخوفِهِ ورجائِهِ على قلبِه، بحيثُ يصيرُ كأنَّهُ يشاهدُهُ، وذلك يحولُ بينه وبين إرادةِ المعصيةِ، فضلاً عن مواقعتِهَا، فإذا خرجَ منْ دائـرةِ الإحسانِ فاتهُ صحبتُه وَرفقتهُ الخاصَّةُ، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التامِّ.

فإنْ أرادَ اللهُ به خيراً أقرَّهُ في دائرةِ عمومِ المؤمنين، فإنْ عصاه بالمعاصي التي تُخرجهُ من دائرةِ الإيمانِ كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشرَبُها وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السَّارقُ حينَ يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا ينتهبُ نُهبةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ إليه فيها النَّاسُ أبصارَهُم حين ينتهبها وهو مؤمنٌ؛ فإيَّاكُم إياكُم، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ»(1)؛ خروجٌ من دائرةِ الإيمانِ.

٣٢ ـ فَصْلٌ [المعاصي سببٌ في فوات الخير]:

٣٢ ـ ومنْ فاتهُ رفقةُ المؤمنين وحُسْنُ دفاعِ اللهِ عنهم ـ فإنَّ اللهَ يدافعُ عن الـذين آمنـوا ـ؛ فاتـهُ كلُّ خيرٍ رتَّبهُ اللهُ في كتابِهِ على الإيمانِ، وهو نحوُ مئةِ خَصلةٍ، كلُّ خَصلةٍ منها خيرٌ منَ الدنيا وما فيها:

١ ـ فمنها: الأجرُ العظيمُ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

٢ ـ ومنها: الدفعُ عنهم شرورَ الدنيا والآخرةِ: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

٣ ـ ومنها: استغفارُ الملائكـةِ وحملةِ العرشِ لهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

= المُتَّفق على صحَّته.

(1) رواه البخاري (٥ / ٨٦)، ومسلم (٥٧)، وقوله: «فإياكم إيَّاكم» زيادة عند مسلمٍ.

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

٤ ـ ومنها: موالاةُ اللهِ لهم، ولا يُذَلُّ مَنْ والاهُ اللهُ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٥ ـ ومنها: أمرهُ ملائكتَهُ بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي معَكُم فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

٦ ـ ومنها: أنَّ لهم الدرجاتِ عندَ ربِّهم والمغفرَةَ والرزقَ الكريمَ[1]: ﴿لهم دَرَجاتٌ عندَ ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

٧ ـ ومنها: العزة: ﴿ولِلهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤمِنِينَ وَلٰكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

٨ ـ ومنها: معيَّةُ اللهِ لأهلِ الإيمانِ: ﴿وأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

٩ ـ ومنها: الرفعةُ في الدنيا والآخرةِ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

١٠ ـ ومنها: إعطاؤهم كِفلينِ[2] من رحمتِهِ وإعطاؤهم نوراً يمشونَ به ومغفرةَ ذنوبهم.

١١ ـ ومنها: الودُّ الذي يجعلهُ اللهُ سبحانه لهم، وهو أنَّه يحبُّهم ويحبِّبُهم إلى ملائكتِهِ وأنبيائِهِ وعبادِهِ الصَّالحينَ[3].

١٢ ـ ومنها: أمانُهم منَ الخوفِ يوم يشتدُّ الخوفُ: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

(٢) نصيبَيْن. وقد جاء هٰذا المعنى في سورة الحديد: ٢٨.

(٣) كما في سورة مريم: ٩٦.

فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

١٣ ـ ومنها: أنَّهم المنعَمُ عليهم الذين أمرَنَا أنْ نسألَهُ أنْ يهدينا [إلى] صراطِهِم في كلِّ يومٍ وليلةٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً.

١٤ ـ ومنها: أنَّ القرآن إنما هو هدىً لهم وشفاءٌ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ والَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ فِي آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

١٥ ـ والمقصودُ أنَّ الإيمانَ سببٌ جالبٌ لكلِّ خيرٍ، وكلُّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ فسببهُ الإيمانُ، وكلُّ شرٍّ في الدنيا والآخرةِ فسببهُ عدمُ الإيمانِ، فكيفَ يهونُ على العبدِ أنْ يرتكبَ شيئاً يُخرجهُ عن دائرةِ الإيمانِ، ويحولُ بينَهُ وبينَهُ، ولكنْ لا يخرجُ مِنْ دائرةِ عمومِ المسلمين؟ فإنِ استمرَّ على الذنوبِ وأصرَّ عليها خيف عليه أن يرينَ على قلبهِ، فيخرجَهُ عَنِ الإسلامِ بالكليَّةِ، ومِنْ ها هنا اشتدَّ خوفُ السلفِ، كما قال بعضُهم: أنتم تخافونَ الذنوبَ، وأنا أخافُ الكفرَ.

٣٣ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب إضعاف سير القلب إلى الله]:

٣٣ ـ ومن عقوباتِها: أنها تُضعفُ سيرَ القلبِ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، أو تُعوِّقُهُ أو تُوقفُهُ وتقطعُهُ عنِ السيرِ، فلا تَدَعُهُ يخطو إلى اللهِ خطوةً، هذا إنْ لم تَرُدَّهُ عن وَجْهِهِ إلى ورائهِ، فالذنبُ يحجبُ الواصِلَ، ويقطعُ السائرَ، ويُنكسُ الطالِبَ، فالقلبُ إنما يسيرُ إلى اللهِ بقوَّتهِ، فإذا مرض بالذنوبِ ضعفتْ تلك القوَّةُ التي تُسَيِّرُهُ، فإنْ زالَتْ بالكليَّةِ انقطَعَ عنِ اللهِ انقطاعاً يصعبُ تداركُهُ، واللهُ المستعانُ.

فالذنبُ إمَّا أنْ يُميتَ القلبَ، أو يمرضَهُ مرضاً مخوفاً، أو يضعفَ قوَّتهُ، ولا بدَّ حتى ينتهيَ ضعفُهُ إلى الأشياءِ الثمانيةِ التي استعاذَ منها النبيُّ ﷺ وهي:

«الهَمُّ والحَـزَنُ، والعَجْزُ والكَسَـلُ، والجُبْنُ والبُخْـلُ، وضَلَعُ الـدَّيْنِ وَغَلَبَـة الرِّجالِ»[1]، وكلُّ اثنين منها قرينان.

فالهمُّ والحـزنُ قرينان؛ فإنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ إن كانَ منْ أمرٍ مستقبلٍ يتوقَّعُه؛ أحدثَ الهمَّ، وإنْ كانَ من أمرٍ ماضٍ قد وقعَ؛ أحدثَ الحزنَ.

والعجزُ والكسلُ قرينان: فإنْ تَخَلَّفَ العبدُ عن أسبابِ الخيرِ والفلاحِ، إنْ كانَ لعدمِ قدرتِهِ فهو العجزُ، وإنْ كانَ لعدمِ إرادتِهِ فهو الكسلُ.

والجُبنُ والبخلُ قرينانِ، فإنْ عدمَ النفعُ منه إنْ كانَ ببدنِهِ فهو الجبنُ، وإنْ كانَ بمالِهِ فهو البخلُ.

وضَلَعُ الدَّيْنِ وقهرُ الرجالِ قرينانِ، فإنَّ استعلاءَ الغيرِ عليه إنْ كانَ بحقٍّ فهو مِنْ ضلعِ الدَّيْنِ، وإنْ كانَ بباطلٍ فهو من قهرِ الرِّجالِ.

والمقصودُ أنَّ الذنوبَ منْ أقوى الأسبابِ الجالبةِ لهٰذه الأشياءِ الثمانيةِ، كما أنها من أقوى الأسبابِ الجالبةِ «لجَهْدِ البَلاَءِ، ودَرْكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ القَضَاءِ، وشَمَـاتَـةِ الأعْدَاءِ»[2]، ومنْ أقوى الأسبابِ الجالبةِ لزوالِ نِعَمِ اللهِ، وتحوُّلِ عافيته، وفجأةِ نقمتهِ، وجميعِ سخطهِ.

٣٤ ـ فَصْلٌ [المعاصي تزيلُ النّعم وتحل النّقم]:

٣٤ ـ ومنْ عقوباتِ الذنوبِ: أنَّها تُزيلُ النّعمَ وتحلُّ النّقمَ. فما زالتْ عنِ العبدِ نعمةٌ إلا بذنبٍ، ولا حلّتْ به نقمةٌ إلّا بذنبٍ، ولا رُفعَ بلاءٌ إلا بتوبةٍ؛ كما قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «ما نزلَ بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولا رُفعَ بلاءٌ إلَّا بتوبةٍ».

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٢٧٠٦). و(ضَلَع الدَّيْن): ثِقَله وشِدَّته.

(٢) وهو ما كان يستعيذ منه الرسولُ ﷺ، كما في «صحيح مسلم» (٢٧٠٧).

وقد قال تعالى: ﴿ومَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّهُ لا يُغَيِّرُ نعمَتَهُ التي أنعمَ بها على أحدٍ حتى يكونَ هو الذي يُغيِّرُ ما بنفسِهِ، فيغيِّرُ طاعةَ اللهِ بمعصيتِهِ، وشكرَهُ بكفرِهِ، وأسبابَ رضاهُ بأسبابِ سخطِهِ، **فإذا غيَّرَ غُيِّرَ عليه، جزاءً وِفاقاً، وما ربُّكَ بظلَّامٍ للعبيدِ**.

فإنْ غيَّرَ المعصيةَ بالطاعةِ غيَّرَ اللهُ عليه العقوبةَ بالعافيةِ، والذلَّ بالعزِّ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وفي بعضِ الآثارِ[١] الإلٰهيَّةِ، عن الربِّ تبارك وتعالى أنَّه قال: «وعزَّتي وجلالي، لا يكونُ عبدٌ من عبيدِي على ما أحبُّ، ثم ينتقلُ عنه إلى ما أكرهُ، إلا انتقلتُ له مما يحبُّ إلى ما يكره، ولا يكونُ عبدٌ مِنْ عبيدي على ما أكرهُ ثم ينتقلُ عنه إلى ما أحبُّ، إلَّا انتقلتُ له مما يكرهُ إلى ما يحبُّ».

ولقد أحسنَ القائلُ:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ العِبَادِ ... فَرَبُّ العِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ ... فَظُلْمُ العِبَادِ شَدِيدُ الوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الوَرَى ... لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُم بَعْدَهُمْ ... شُهُودٌ عَلَيْهِمْ وَلَا تَتَّهِمْ
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضَرَّ ... مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ

---

(١) واللهُ أعلمُ بصحَّتِهِ!

فَكَـمْ تَرَكُـوا مِنْ جِنَـانٍ وَمِـنْ قُصُـورٍ وأُخْـرَى عَلَيْهِـم أَطَـمْ
صَلُوا بِالـجَـحِـيمِ وَفَـاتَ الـنَّعِيمُ وَكَـانَ الَّـذي نَالَـهُـم كَالـحُـلُمْ

٣٥ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب الخوف والرّعب في القلب]:

٣٥ ـ ومنْ عقـوباتِها ما يُلقيه اللهُ سبحانه منَ الرعبِ والخوفِ في قلبِ العاصِي؛ فلا تراه إلَّا خائفاً مرعوباً.

فإنَّ الطاعةَ حِصْنُ اللهِ الأعظمُ الذي مَنْ دَخَلَهُ كانَ مِنَ الآمنِينَ مِنْ عقوبةِ الدنيا والآخرة، ومَنْ خرج عنه أحاطَتْ به المخاوفُ منْ كلِّ جانبٍ؛ فَمَنْ أطاعَ اللهَ انقلَبتِ المخـاوفُ في حقِّه أماناً، ومَنْ عصاه انقلبتْ مآمنهُ مخاوفَ؛ فلا تجدُ العاصِي إلا وقلبهُ كأنَّه بينَ جناحَي طائرٍ، إنْ حركتِ الريحُ البابَ قال: جاءَ الـطلبُ، وإنْ سمعَ وقعَ قدمٍ خافَ أن يكونَ نذيراً بالعطبِ، يحسبُ أنَّ كلَّ صيحةٍ عليه، وكلَّ مكروهٍ قاصداً إليه، فَمَنْ خافَ اللهَ آمنه مِنْ كلِّ شيءٍ، ومَنْ لم يخفِ اللهَ أخافهُ مِنْ كلِّ شيءٍ:

لقـدْ قَضَى اللهُ بَيْنَ النَّاسِ مُذْ خُلِقُوا أَنَّ المَخَـاوِفَ وَالإِجْـرَامَ فِي قَرَنِ

٣٦ ـ ومن عقـوبـاتهـا: أنهـا توقـعُ الوحشةَ العظيمةَ في القلبِ، فيجدُ المذنبُ نفسَهُ مستوحشاً، قد وقعتِ الوحشةُ بينه وبين ربِّه، وبينَه وبينَ الخلقِ، وبينَه وبينَ نفسهِ، وكلّما كثرتِ الذنوبُ اشتدتِ الوحشةُ.

وأمَـرُّ العيشِ عيشُ المُستـوحِشينَ الخـائفين، وأطيبُ العيشِ عيشُ المستأنسينَ، فلو فكَّرَ العاقلُ ووازنَ بين لذَّة المعصيةِ وما توقعهُ فيه منَ الخوفِ والـوحشـةِ، لعلِمَ سوءَ حالهِ وعظيمَ غُبنهِ، إذ باعَ أُنْسَ الطَّاعَةِ وأمنَهَا وحلاوَتَها بوحشةِ المعصيةِ؛ وما توجبهُ منَ الخوفِ والضَّررِ الداعِي له.

كما قيل:

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وسِرُّ المسألةِ: أنَّ الطاعةَ توجِبُ القربَ مِنَ الربِّ سبحانه، فكلَّما اشتدَّ القربُ قويَ الأُنْسُ، والمعصيةُ توجِبُ البُعدَ مِنَ الرَّبِّ، وكلَّما ازدادَ البعدُ قويتِ الوحشةُ.

ولهٰذا يجدُ العبدُ وحشةً بينه وبينَ عدوِّهِ للبُعدِ الذي بينهما، وإنْ كان مُلابساً له قريباً منه، ويجدُ أُنساً وقرباً بينه وبين مَنْ يُحِبُّ، وإنْ كانَ بعيداً عنه.

والوحشةُ سببُها الحجابُ، وكلَّما غلظَ الحجابُ زادتِ الوحشةُ، فالغفلةُ توجبُ الوحشةَ، وأشدُّ منها وحشةُ المعصيةِ، وأشدُّ منها وحشةُ الشركِ والكفرِ.

ولا تجدُ أحداً مُلابساً شيئاً من ذٰلك إلا ويعلوهُ مِنَ الوحشةِ بحسب ما لابَسَهُ منه؛ فتعلو الوحشةُ وجهَهُ وقلبَهُ، فَيَسْتَوْحِشُ ويُسْتَوْحَشُ منه.

٣٦ ـ فَصْلٌ [المعاصي تصرف القلب عن الاستقامة]:

٣٧ ـ ومنْ عقوباتِها: أنها تصرفُ القلبَ عن صحَّتِهِ واستقامَتِهِ إلى مرضِهِ وانحرافِهِ؛ فلا يزالُ مريضاً معلولاً لا ينتفعُ بالأغذيةِ التي بها حياتُهُ وصلاحُهُ، فإنَّ تأثيرَ الذنوبِ في القلوبِ كتأثيرِ الأمراضِ في الأبدانِ، بل الذنوبُ أمراضُ القلوبِ وداؤُها، ولا دواءَ لها إلا تركُها.

وقد أجمعَ السائرونَ إلى اللهِ أنَّ القلوبَ لا تُعطى مُنَاها حتى تصلَ إلى مولاها، ولا تصلُ إلى مولاها حتى تكونَ صحيحةً سليمةً، ولا تكونُ صحيحةً سليمةً حتى ينقلبَ داؤها فيصيرَ نفسَ دوائِها، ولا يصحُّ لها ذٰلك إلا بمخالفةِ هواها، **فهواها مرضُها، وشفاؤُها مخالفتُهُ، فإنِ استَحْكَمَ المرضُ قتلَ أو كادَ**.

وكما أنَّ مَنْ نهى نفسَهُ عن الهوى كانت الجنةُ مأواه، فكذا يكونُ قلبُهُ في

هٰذه الدارِ في جنةٍ عاجلةٍ، لا يشبهُ نعيمُ أهلها نعيماً ألبتةَ، بل التفاوتُ الذي بينَ النَّعيمين كالتفاوتِ الذي بينَ نعيمِ الدنيا والآخرةِ، وهٰذا أمرٌ لا يصدقُ به إلا مَنْ باشَرَ قلبُهُ هٰذا وهٰذا.

ولا تحسبْ أنَّ قولَـهُ تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ و١٤] مقصورٌ على نعيمِ الآخرةِ وجحيمها فقط، بل في دورِهم الثلاثةِ هم كذٰلك ـ أعني: دارَ الدنيا، ودارَ البرزخِ، ودارَ القرارِ ـ؛ فهٰؤلاءِ في نعيمٍ، وهٰؤلاءِ في جحيمٍ.

وهل النعيمُ إلا نعيمُ القلبِ؟

وهل العذابُ إلَّا عذابُ القلبِ؟

وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِنَ الخوفِ والهمِّ والحزنِ، وضيقِ الصدرِ، وإعراضِهِ عن اللهِ والدارِ الآخرةِ، وتعلُّقِه بغيرِ اللهِ، وانقطاعِهِ عن اللهِ، بكلِّ وادٍ منه شعبةٌ؟

وكلُّ شيءٍ تَعَلَّقَ بهِ وأحبَّهُ مِنْ دونِ اللهِ فإنَّهُ يسومُهُ سوءَ العذابِ.

فكلُّ مَنْ أحبَّ شيئاً غيرَ اللهِ عُذِّبَ به ثلاثَ مرَّاتٍ في هٰذه الدارِ؛ فهو يعذبُ به قبلَ حصولِهِ حتى يحصُلَ، فإذا حصلَ عُذِّبَ به حالَ حصولِهِ بالخوفِ مِنْ سلبِهِ وفواتِهِ، والتنغيصِ والتنكيدِ عليه، وأنواعٍ مِنَ العذابِ في هٰذه المعارضاتِ، فإذا سُلِبَهُ اشتدَّ عليه عذابُهُ؛ فهٰذه ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ العذابِ في هٰذه الدارِ.

وأما في البرزخِ؛ فعذابٌ يقارنُهُ ألمُ الفراقِ الذي لا يرجو عَوْدَه، وألمُ فواتِ ما فاته مِنَ النعيمِ العظيمِ باشتغالِهِ بضدِّه، وألمُ الحجابِ عن اللهِ، وألمُ الحسرةِ التي تقطعُ الأكبادَ، فالهمُّ والغمُّ والحسرةُ والحزنُ تعملُ في نفوسِهم نظيرَ ما تعملُ الهوامُّ والديدانُ في أبدانِهم، بل عملُها في النفوسِ دائمٌ مستمرٌّ،

حتى يردَّها اللهُ إلى أجسادِها، فحينئذٍ ينتقلُ العذابُ إلى نوعٍ هو أدهى وأمرُّ؛ فأينَ هٰذا مِنْ نعيمِ مَنْ يرقصُ قلبهُ طَرَباً وفرحاً وأُنساً بربِّه، واشتياقاً إليه، وارتياحاً بحبِّـه، وطمـأنينةً بذكرهِ؟ حتى يقولَ بعضُهم في حالِ نزعهِ: واطَرَبَاه! ويقولُ الآخرُ: إنْ كانَ أهلُ الجنةِ في مثلِ هٰذا الحالِ، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ! ويقولُ الآخرُ: مساكينُ أهلُ الدنيا، خرجُوا منها وما ذاقُوا لذيذَ العيشِ فيها، وما ذاقُوا أطيبَ ما فيها!

ويقولُ الآخرُ: لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالَدُونا عليه بالسُّيوفِ.

ويقولُ الآخرُ: إنَّ في الدنيا جنةً مَنْ لم يدخُلها لم يدخلْ جنَّةَ الآخرةِ.

فيا مَنْ باعَ حظَّهُ الغالي بأبخسِ الثمنِ ـ وغُبِنَ كلَّ الغَبْنِ في هٰذا العَقْدِ، وهو يرى أنَّه قد غُبِنَ ـ إذا لم يكنْ لك خبرةٌ بقيمةِ السلعةِ فَسَلِ المقوِّمين!

فيا عَجَبـاً مِنْ بضاعةٍ معك اللهُ مشتريها، وثمنُها جنةُ المأوى، والسفيرُ الذي جرى على يديهِ عقدُ التبايعِ وضَمِنَ الثمنَ عن المشتري هو الرسُولُ ﷺ، وقد بعتَها بغايةِ الهوانِ، كما قالَ القائِلُ:

إِذَا كَانَ هٰذا فِعْــلَ عَبْــدٍ بِنَفْسِــهِ ... فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْــدِ ذٰلِــكَ يُكْــرِمُ

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

٣٧ ـ فَصْلٌ [المعاصي تعمي بصيرة القلب]:

٣٨ ـ ومن عقوباتِها: أنَّها تعمي بصيرةَ القلبِ، وتطمسُ نورَهُ، وتسدُّ طرقَ العلمِ، وتحجبُ مواردَ الهدايةِ.

وقد قال مالكٌ للشافعيِّ لمَّا اجتمعَ به ورأى تلك المخايلَ: إنِّي أرى اللهَ تعالى قد ألقى عليك نوراً؛ فلا تطفئْهُ بظلمةِ المعصيةِ.

ولا يزالُ هذا النورُ يَضْعُفُ ويَضْمَحِلُّ، وظَلَامُ المعصيةِ يقوى حتى يصيرَ القلبُ في مثلِ الليلِ البهيمِ، فكم مِنْ مهلكٍ يسقطُ فيه وهو لا يبصرُهُ! كأعمى خرجَ بالليلِ في طريقٍ ذاتِ مهالِكَ ومعاطبَ، فيا عزَّةَ السلامةِ، ويا سرعةَ العطبِ!

ثم تقوى تلك الظُّلْمَةُ، وتفيضُ مِنَ القلبِ إلى الجوارحِ، فيغشى القلبَ منها سوادٌ، بحسبِ قوَّتها وتزايدِها، فإذا كانَ عند الموتِ ظهرتْ في البرزخِ؛ فامتلأ القبرُ ظلمةً، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هٰذهِ القُبُورَ مُمْتَلِئةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وإنَّ اللهَ مُنَوِّرُهَا بِصَلاتِي عليهم»(١).

فإذا كانَ يومُ المعادِ وحُشِرَ العبادُ عَلَتِ الوجوهَ علوّاً ظاهراً يراه كلُّ أحدٍ، حتى يصيرَ الوجهُ أسودَ مثلَ الحَمَمَةِ. فيا لها مِنْ عقوبةٍ لا تُوازِنُ لذَّاتِ الدنيا بأجمعِهَا من أوَّلِها إلى آخرِها؛ فكيفَ بقسطِ العبدِ المُنَغَّصِ المنكدِ المتعبِ في زمنٍ إنَّما هو ساعةٌ من حُلُمٍ! فاللهُ المستعانُ.

٣٨ ـ فَصْلٌ [المعاصي تصغِّرُ النَّفس وتحقِّرها]:

٣٩ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنها تُصَغِّرُ النفَس وتقمعُها، وتُدسِّيها وتُحَقِّرها، حتى تصيرَ أصغرَ شيءٍ وأحقرَهُ، كما أنَّ الطاعَةَ تُنَمِّيها وتزكِّيهَا وتكبِّرها؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ و١٠]:

والمعنى: قد أفلحَ مَنْ كَبَّرَهَا وأعلاها بطاعةِ اللهِ وأظهرهَا، وقد خسرَ مَنْ أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصيةِ اللهِ.

---

(١) رواه مسلم (٩٥٦) عن أبي هُريرة.

وأصلُ التدسيةِ: الإخفاءُ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النخل: ٥٩]؛ فالعاصي يدسُّ نفسَهُ في المعصيةِ، ويُخفي مكانَها، يتوارى مِنَ الخلقِ مِنْ سوءِ ما يأتي به، قد انقمعَ عند نفسهِ، وانقمعَ عندَ اللهِ، وانقمعَ عند الخلقِ؛ فالطاعةُ والبرُّ تُكبِّر النفسَ وتُعِزُّها وتُعليها، حتى تصيرَ أشرفَ شيءٍ وأكبَرَهُ وأزكاهُ وأعلاهُ، ومع ذلك فهي أذلُّ شيءٍ وأحقرُهُ وأصغرهُ للهِ تعالى، وبهذا الذلِّ حصلَ لها هذا العزُّ والشرفُ والنموُّ، فما صغَّرَ النفوسَ مثلُ معصيةِ اللهِ، وما كبَّرها وشرفَّها ورفعها مثلُ طاعةِ اللهِ.

٣٩ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب في أسر الشّيطان وسجن الشهوات]:

٤٠ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنَّ العاصِي دائماً في أسرِ شيطانِهِ وسجنِ شهواتِهِ، وقيودِ هواه؛ فهو أسيرٌ مسجونٌ مقيَّدٌ، ولا أسيرَ أسوأُ حالاً مِنْ أسيرٍ أسرَهُ أعدى عدوٍّ له، **ولا سجنَ أضيقُ مِنْ سجنِ الهوى**، ولا قيدَ أصعبُ مِنْ قيدِ الشهوةِ؛ فكيفَ يسيرُ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ قلبٌ مأسورٌ مسجونٌ مقيَّدٌ؟ وكيف يخطو خطوةً واحدةً؟

وإذا قُيِّدَ القلبُ طرقتهُ الآفاتُ مِنْ كلِّ جانبٍ بحسبِ قيودِهِ.

ومَثَلُ القلبِ مثلُ الطائرِ، كلَّما علا بَعُدَ عنِ الآفاتِ، وكلَّما نزلَ احْتَوَشَتْهُ الآفاتُ، وفي الحديثِ: «الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الإِنْسَانِ»(١).

---

(١) رواه أحمد (٥ / ٢٣٣، ٢٤٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠ / رقم ٣٤٤)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٢٤٧).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢ / ٢٣): «والعلاء بن زياد لم يسمع من مُعاذ».

ولفظُ هذا الحديث: «إن الشيطان ذئبُ الإنسانِ كذئب الغنم، يأخذ الشاةَ القاصيةَ والناحيةَ؛ فإيَّاكم والشِّعاب، وعليكم بالجماعة والمسجد».

ويُغني عنه ما رواه أحمد (٥ / ١٩٦) و(٦ / ٤٤٦)، وأبو داود (٥٤٧)، والنَّسائي (٢ / =

وكما أنَّ الشاةَ التي لا حافِظَ لها وهي بينَ الذئابِ سريعةُ العَطَبِ، فكذا العبدُ إذا لم يكنْ عليه حافظٌ من اللهِ فذئبُهُ مُفْتَرِسهُ ولا بُدَّ، وإنَّما يكونُ عليه حافظٌ مِنَ اللهِ بالتَّقوى؛ فهي وقايةٌ من الله وجُنَّةٌ حصينةٌ بينه وبينَ ذئبهِ؛ كما هي وقايةٌ بينه وبينَ عقوبةِ الدنيا والآخرة، وكلَّما كانتِ الشاةُ أقربَ من الراعي كانت أسلمَ مِنَ الذئبِ، وكلَّما بَعُدَتْ عن الرَّاعِي كانَتْ أقربَ إلى الهلاكِ؛ فأحمى ما تكونُ الشاةُ إذا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي، وإنما يأخذُ الذئبُ القاصيةَ مِنَ الغنمِ، وهي أبعدُ مِنَ الراعِي.

وأصلُ هٰذا كلِّه: أنَّ القلبَ كلَّما كان أبعدَ مِنَ اللهِ كانت الآفاتُ إليه أسرعَ، وكلما قَرُبَ مِنَ اللهِ بَعُدَتْ منه الآفاتُ.

والبُعْدُ مِنَ اللهِ مراتبُ، بعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ؛ فالغفلةُ تُبعِدُ القلبَ عن اللهِ، وبُعْدُ المعصيةِ أعظمُ مِنْ بُعْدِ الغفلةِ، **وبُعدُ البدعةِ أعظمُ مِنْ بُعْدِ المعصيةِ**[1]، وبُعْدُ النفاقِ والشركِ أعظمُ مِنْ ذٰلك كلِّه.

٤٠ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب في سقوط الجاه والمنزلة عند الله وعند خلقه]:

٤١ ـ ومن عقوباتِها: سقوطُ الجاهِ والمنزلةِ والكرامةِ عندَ اللهِ وعندَ خلقهِ؛ فإنَّ أكرمَ الخلقِ عندَ اللهِ أتقاهُم، وأقربَهم منه منزلةً أطوعهُم له، وعلى قَدْرِ طاعةِ العبدِ له تكونُ منزلتُهُ عنده؛ فإذا عصاهُ وخالفَ أمرَهُ سقطَ مِنْ عينِهِ؛ فأسقطَهُ مِنْ قلوبِ عبادِهِ، وإذا لم يبقَ له جاهٌ عندَ الخلقِ وهانَ عليهم عاملوهُ على حسبِ

= ١٠٦ ـ ١٠٧)، وابن خُزيمة (١٤٧٦)، وابن حبان (٢١٠١) بسند حَسَن عن أبي الدرداء أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِنْ ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقام فيهم الصلاةُ إلَّا استحوذَ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكل الذئبُ القاصيةَ».

(١) انظر كتابي: «علم أصول البدع» (ص ٢١٧) فصل: بين البدع والمعاصي.

ذلك؛ فعاشَ بينهم أسوأَ عيشٍ: خامِلَ الذكرِ، ساقِطَ القَدْرِ، زَرِيَّ الحالِ، لا حُرمةَ له، فلا فرحَ له ولا سرورَ؛ فإنَّ خُمُولَ الذكرِ وسقوطَ القَدْرِ والجاهِ جالبٌ كُلَّ غَمٍّ وهمٍّ وحزنٍ، ولا سرورَ معه ولا فرحَ، وأينَ هٰذا الألمُ مِنْ لذَّةِ المعصيةِ لولا سكرُ الشهوةِ؟

ومِنْ أعظمِ نعمِ اللهِ على العبدِ: أنْ يرفَعَ له بينَ العالَمِينَ ذِكْرَهُ، ويُعلِي له قَدْرهُ، ولهٰذا خَصَّ أنبياءَهُ ورسلَهُ مِنْ ذٰلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٥ و٤٦]؛ أي: خَصَصْنَاهُم بخصيصةٍ، وهي الذكرُ الجميلُ الذي يُذكرونَ به في هٰذه الدارِ، وهو لسانُ الصدقِ الذي سألهُ إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلامُ حيثُ قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه عنهم وعن بنيه: ﴿ووَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

فأتباعُ الرسلِ لهم نصيبٌ من ذٰلك بحسبِ ميراثِهم من طاعتِهم ومتابعتِهم، وكلُّ مَنْ خالَفَهُم فاتَهُ مِنْ ذٰلك بحسبِ مخالفتِهم ومعصيتهم.

٤١ ـ فَصْلٌ [المعاصي تَسْلُبُ صاحبها أسماء المدح وتكسوه أسماء الذّم]:

٤٢ ـ ومن عقوباتِها: أنها تسلبُ صاحبَها أسماءَ المدحِ والشرفِ، وتكسوهُ أسماءَ الذَّمِّ والصَّغارِ، فتسلبُهُ اسمَ المؤمِنِ، والبِرِّ، والمُحْسِنِ، والمُتَّقِي، والمُطِيعِ، والمُنِيبِ، والوليِّ، والورعِ، والصالحِ، والعابدِ، والخائِفِ، والأوَّابِ، والطَّيِّبِ، والمرضيِّ ونحوها.

وتكسوهُ اسمَ الفاجِرِ، والعاصِي، والمُخالفِ، والمسيءِ، والمفسدِ،

والخبيثِ، والسَّخُوطِ، والزَّاني، والسارقِ، والقاتِلِ، والكاذِبِ، والخائنِ، واللوطيِّ، وقاطعِ الرحِمِ، والغادرِ وأمثالها.

فهٰذه أسماءُ الفسوقِ و﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾ [الحجرات: ١١] الذي يُوجِبُ غضبَ الديّانِ، ودخولَ النيرانِ، وعيشَ الخِزْيِ والهوانِ.

وتلك أسماءٌ توجبُ رضى الرحمٰن، ودخولَ الجِنانِ، وتُوجِبُ شرفَ المسمَّى بها على سائرِ أنواعِ الإنسانِ، فلو لم يكنْ في عقوبةِ المعصيةِ إلا استحقاقُ تلك الأسماءِ ومُوجباتِها لكانَ في العقلِ ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثوابِ الطاعةِ إلَّا الفوزُ بتلك الأسماءِ وموجباتِها لكانَ في العقلِ آمرٌ بها، ولكن لا مانعَ لما أعطى، ولا معطيَ لما منعَ، ولا مقرِّبَ لما باعَدَ، ولا مُبعدَ لِمَنْ قرَّبَ؛ ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

٤٢ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب في نقصان العقل]:

٤٣ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنها تُؤثِّرُ بالخاصِّيَّةِ في نقصانِ العقلِ؛ فلا تجدُ عاقِلَيْنِ أحدُهما مطيعٌ للهِ والآخرُ عاصٍ، إلَّا وعقلُ المطيعِ منهما أوفرُ وأكملُ وفكرُهُ أصحُّ، ورأيهُ أسدُّ، والصوابُ قرينهُ.

ولهٰذا تجدُ خطابَ القرآنِ إنما هو مع أُولِي العقولِ والألبابِ كقوله: ﴿واتَّقُونِ يَا أُولِي الألْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الألْبَابِ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُوا الألْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ونظائر ذٰلك كثيرة.

وكيفَ يكونُ عاقلاً وافرَ العقلِ مَنْ يعصي مَنْ هُوَ في قبضتِهِ وفي دارِهِ، وهو يعلمُ أنَّهُ يراهُ ويُشاهدُهُ؟! فيعصيهِ وهو بعينهِ غيرُ متوارٍ عنه، ويستعينُ بنعمهِ على مساخطهِ، ويستدعِي كلَّ وقتٍ غضبَهُ عليه، ولَعْنَهُ له، وإبعادَه مِنْ قُرْبِهِ،

وطردَهُ عن بابِهِ، وإعراضَهُ عنه، وخِذلانَهُ له، والتخليةَ بينه وبين نفسِهِ وعدوِّهِ، وسقوطَه من عينِهِ، وحرمانَهُ روحَ رضاهُ وحبِّهِ، وقرَّةَ العينِ بقربِهِ، والفوزَ بجوارِهِ، والنظرَ إلى وجهِهِ في زمرةِ أوليائِهِ، إلى أضعافِ أضعافِ ذٰلك مِنْ كرامَةِ أهلِ الطاعةِ، وأضعافُ أضعافِ ذٰلك من عقوبةِ أهلِ المعصيةِ.

فأيُّ عقلٍ لِمَنْ آثَرَ لذةَ ساعةٍ أو يومٍ أو دهرٍ، ثم تنقضي كأنَّها حُلُمٌ لم يكن، على هٰذا النعيمِ المقيمِ والفوزِ العظيمِ؟ بل هو سعادةُ الدنيا والآخرةِ، ولولا العقلُ الذي تقومُ به عليه الحجَّةُ لكانَ بمنزلةِ المجانين، بل قد تكونُ المجانينُ أحسنَ حالاً منه، وأسلمَ عاقبةً، فهٰذا مِنْ هٰذا الوجهِ.

وأما تأثيرُها في نقصانِ العقلِ المعيشيِّ، فلولا الاشتراكُ في هٰذا النقصانِ؛ لظهرَ لِمُطيعِنا نقصانُ عقلِ عاصينا، ولكنَّ الجائحةَ عامَّةٌ، **والجنونَ فنونٌ**.

ويا عجباً لو صحَّتِ العقولُ لَعَلِمَتْ أنَّ طريقَ تحصيلِ اللذةِ والفرحةِ والسرورِ وطيبِ العيشِ إنما هو في رضاءِ مَن النعيمُ كلُّه في رضاهُ، والألَمُ والعذابُ كلُّه في سخطِهِ وغضبِهِ، ففي رضاهُ قرَّةُ العيونِ، وسرورُ النفوسِ، وحياةُ القلوبِ، ولذَّةُ الأرواحِ، وطيبُ الحياةِ، ولذَّةُ العيشِ، وأطيبُ النعيمِ، مما لو وزنَ منه مثقالُ ذرَّةٍ بنعيمِ الدنيا لم يَفِ به، بل إذا حصلَ للقلبِ مِنْ ذٰلك أيسرُ نصيبٍ لم يَرْضَ بالدنيا وما فيها عِوَضاً منه، ومع هٰذا فهو يتنعَّمُ بنصيبِهِ مِنَ الدنيا أعظمَ مِنْ تنعُّمِ المُتْرَفينَ فيها، ولا يشوبُ تنعُّمَهُ بذٰلك الحظِّ اليسيرِ ما يشوبُ تَنَعُّمَ المُتْرَفينَ مِنَ الهُمُومِ والغمومِ والأحزانِ والمعارضاتِ، بل قد حصلَ على النَّعيمين، وهو ينتظرُ نعيمين آخرينِ أعظمَ منهما، وما يحصلُ له في خلالِ ذٰلك مِنَ الآلامِ، فالأمرُ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُم يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فلا إله إلّا اللهُ! ما أنقصَ عقلَ مَنْ باعَ الدُّرَّ بالبَعْرِ، والمسكَ بالرَّجيعِ [1]، ومرافقةَ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، بمرافقةِ الذين غضبَ اللهُ عليهم ولعنهُم، وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءَتْ مَصيراً.

٤٣ ـ فَصْلٌ [المعاصي توجب القطيعة بين العبد وبين ربِّه]:

٤٤ ـ ومن أعظمِ عقوباتِها: أنها توجبُ القطيعَةَ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ تبارك وتعالى، وإذا وقعتِ القطيعةُ انقطعتْ عنه أسبابُ الخيرِ واتَّصَلَتْ به أسبابُ الشرِّ، فأيُّ فلاحٍ وأيُّ رخاءٍ وأيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطعتْ عنه أسبابُ الخيرِ، وقُطِعَ ما بينه وبين وليّه ومولاهُ الذي لا غنى له عنه طرفةَ عينٍ، ولا بُدَّ له منه، ولا عوضَ له عنه، واتَّصلت به أسبابُ الشرِّ، ووصلَ ما بينه وبين أعدى عدوٍّ له: فتولاه عدوُّهُ، وتخلّى عنه وليُّه؟ فلا تعلمُ نفسٌ ما في هٰذا الانقطاعِ والاتِّصالِ مِنْ أنواعِ الآلَامِ وأنواعِ العذابِ.

قال بعضُ السَّلَفِ: رأيتُ العبدَ مُلقى بينَ اللهِ سبحانه وبينَ الشيطانِ، فإنْ أعرضَ اللهُ عنه تولاَّهُ الشيطانُ، وإنْ تولاَّهُ اللهُ لم يقدرْ عليه الشَّيطانُ، وقد قالَ تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقولُ سبحانه لعبادِهِ: أنا كرَّمتُ أباكُم، ورفعتُ قَدْرَهُ، وفضَّلتُهُ على غيرِهِ، فأمرتُ ملائكتي كلَّهم أن يسجدوا له؛ تكريماً له وتشريفاً، فأطاعُوني وأبى عَدُوِّي وعدوُّهُ، فعصى أمري، وخرجَ عن طاعتِي؛ فكيفَ يَحْسُنُ بِكُم بعدَها

(١) هو الرَّوث.

أن تَتَّخِذُوهُ وذُرِّيَّتَهُ أولياءَ مِنْ دونِي، فتطيعونَهُ في معصيتي، وتوالونَهُ في خلافِ مرضاتِي، وهو أعـدى عدوٍّ لكم؟! فواليتُم عدوِّي وقد أمرتُكم بمعاداتِهِ.

ومَنْ والى أعداءَ الملكِ كانَ هُو وأعداؤه عنده سواءً، **فإنَّ المحبَّةَ والطَّاعَةَ لا تتمُّ إلَّا بمعاداةِ أعداءِ المطاعِ وموالاةِ أوليائه**، وأمَّا أنْ تُوالي أعداءَ الملكِ ثم تدَّعي أنك موالٍ له؛ فهٰذا مُحالٌ، هٰذا لو لم يكن عدوُّ الملكِ عدواً لكم؛ فكيفَ إذا كانَ عدوَّكم على الحقيقةِ، والعداوةُ التي بينكم وبينه أعظمُ منَ العداوةِ التي بين الشَّاةِ والذئبِ؟ فكيفَ يليقُ بالعاقِلِ أن يُواليَ عدوَّهُ وعدوَّ وليِّهِ ومولاهُ الذي لا مولى له سواه؟!

ونبَّه سبحانه على قُبْحِ هٰذه الموالاةِ بقولِهِ: ﴿وَهُمْ لَكُم عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، كما نبَّهَ على قُبْحِهما بقولِهِ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فتبينَ أنَّ عداوَتَهُ لربهِ وعداوتَه لنا، كلٌّ منهما سببٌ يدعو إلى معاداتِهِ؛ فما هٰذه الموالاةُ؟ وما هٰذا الاستبدالُ؟ بئسَ للظَّالمينَ بدلاً.

ويشبهُ أنْ يكونَ تحتَ هٰذا الخطابِ نوعٌ مِنَ العِتابِ لطيفٌ عجيبٌ، وهو أنِّي عاديتُ إبليسَ إذ لـم يسجدْ لأبيكُم آدمَ مع ملائكتي، فكـانتْ معـاداتـهُ لأجلِكم، ثم كانَ عاقبةَ هٰذه المعاداةِ أنْ عقدتُم بينه وبينكم عقدَ المصالحةِ؟!

٤٤ ـ فَصْلٌ [المعاصي تمحق بركة الدِّين والدّنيا]:

٤٥ ـ ومن عقـوبـاتِهـا: أنهـا تمحقُ بركـةَ العمرِ، وبركةَ الرزقِ، وبركةَ العلمِ، وبركةَ العملِ، وبركةَ الطَّاعةِ.

وبالجملةِ تمحقُ بركةَ الدِّينِ والدنيا، فلا تجدُ أقلَّ بركةٍ في عمرِهِ ودينهِ ودنياهُ مِمَّنْ عصى اللهَ، وما مُحِقَتِ البركةُ مِنَ الأرْضِ إلَّا بمعاصي الخلقِ.

قال اللهُ تبـارَكَ وتعالى: ﴿ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرْض﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُم فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ و١٧].

«وإنَّ العبدَ ليحرمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُه»(١).

وفي الحديثِ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نفسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فاتَّقُوا اللهَ وأجمِلُوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّهُ لا يُنالُ ما عِنْدَ اللهِ إلَّا بِطَاعَتِهِ، وإنَّ اللهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالفَرَحَ في الرِّضَى واليقينِ، وجعلَ الهَمَّ والحُزْنَ فِي الشَّكِّ والسُّخْطِ»(٢).

وقد تقدمَ الأثرُ الذي ذكرهُ أحمدُ في «كتابِ الزهدِ»(٣): «أنا اللهُ، إذا رَضِيتُ باركْتُ وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهى، وإذا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تُدْرِكُ السَّابِعَ مِنَ الوَلَدِ».

وليست سعةُ الرزقِ والعملِ بكثرتِهِ، ولا طولُ العمرِ بكثرةِ الشهورِ والأعوامِ، ولكن سعةُ الرزقِ بالبركةِ فيه.

وقد تقدمَ أنَّ عمرَ العبدِ هو مدَّةُ حياتِهِ، ولا حياةَ لمنْ أعرَضَ عنِ اللهِ واشتغلَ بغيرِهِ، بل حياةُ البهائمِ خيرٌ مِنْ حياتِهِ، فإنَّ حياةَ الإنسانِ بحياةِ قلبِهِ وروحِهِ، ولا حياةَ لقلبِهِ إلَّا بمعرفةِ فاطرِهِ ومحبَّتِهِ وعبادتِهِ وحدَه، والإنابةِ إليه، والطمأنينةِ بذكرِهِ، والأُنسِ بقُربِهِ، ومَنْ فقدَ هٰذه الحياةَ فقدَ الخيرَ كلَّه، ولو تُعُوِّضَ عنها بما تُعُوِّضَ في الدنيا، بل ليستِ الدُّنيا بأجمعِها عِوَضاً عن هٰذه

---

(١) وهٰذا لفظُ حديثٍ صحيحٍ، سبق تخريجه (ص ٦٨، ٨٦).

(٢) حديثٌ صحيحٌ له طُرُقٌ عدَّةٌ أشار إليها وخرَّجها شيخُنا الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (رقم ١٥).

(٣) تقدَّم (ص ٢٤).

الحياةِ، فَمِنْ كلِّ شيءٍ يفوتُ العبدَ عِوضٌ، وإذا فاتَهُ اللهُ لم يُعَوِّضْ عنه شيءٌ ألبتةَ.

وكيفَ يُعَوَّضُ الفقيرُ بالذَّاتِ عن الغنيِّ بالذاتِ، والعاجزُ بالذَّاتِ عن القادرِ بالذاتِ، والميتُ عن الحيِّ الذي لا يموتُ، والمخلوقُ عن الخالقِ، ومَنْ لا وجودَ له ولا شيءَ له مِنْ ذاتِهِ ألبتةَ عمَّنْ غناهُ وحياتُهُ وكمالُهُ وجودُهُ ورحمتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذاتِـهِ؟ وكيفَ يُعَوَّضُ مَنْ لا يملكُ مِثقالَ ذرَّةٍ عمَّنْ لَهُ ملكُ السمواتِ والأرضِ؟

وإنَّما كانت معصيةُ اللهِ سبباً لِمَحْقِ بركةِ الرزقِ والأجلِ، لأنَّ الشيطانَ مُوَكَّلٌ بها وبأصحابِها؛ فسلطانُهُ عليهم، وحوالتُهُ على هٰذا الديوانِ وأهلِهِ وأصحابِهِ، وكلُّ شيءٍ يتصلُ به الشيطانُ ويقارنُهُ فبركتُهُ ممحوقةٌ، ولهٰذا شُرِعَ ذكرُ اسمِ اللهِ تعالى عند الأكلِ والشربِ واللبسِ والركوبِ والجماعِ، لما في مقارنةِ اسمِ اللهِ مِنَ البركةِ، وذكرِ اسمِهِ يطردُ الشيطانَ فتحصلُ البركةُ، ولا معارضَ له، وكلُّ شيءٍ لا يكونُ للهِ فبركتُهُ منزوعةٌ، فإنَّ الربَّ هو الذي يُبارِكُ وحدَه، والبركةُ كلُّها منه، وكلُّ ما نُسِبَ إليه مُبارَكٌ، فكلامُهُ مُبارَكٌ، ورسولُهُ مباركٌ، وعبدُهُ المؤمنُ النافعُ لخلقِهِ مُباركٌ، وبيتُهُ الحرامُ مُبَارَكٌ، وكنانتُهُ[1] من أرضِهِ ـ وهي الشامُ ـ أرضُ البركةِ، وصفَها بالبركةِ في ستِّ آياتٍ مِنْ كتابِهِ[2]؛ فلا مُبارِكَ إلَّا هو وحدَه، ولا مُبارَكَ إلَّا ما نُسِبَ إليه، أعني إلى ألوهيَّته ومحبَّته ورضاه، وإلا؛ فالكونُ كلُّه منسوبٌ إلى ربوبيَّتِهِ وخلقِهِ، وكلُّ ما باعدَه من نفسِهِ من الأعيانِ والأقوالِ والأعمالِ فلا بركةَ فيه، ولا خيرَ فيه، وكلُّ ما كانَ قريباً مِنْ ذٰلك؛ ففيه من البركةِ على حسبِ قُرْبِهِ منه.

---

(١) قارن بـ «السلسلة الضعيفة» (١٥).

(٢) فُصِّلت: ١٠، الأعراف: ١٣٧، الإسراء: ١، الأنبياء: ٧١، الأنبياء: ٨١، سبأ: ١٨.

وضدُّ البركةِ اللعنةُ ؛ فأرضٌ لعنَها اللهُ أو شخصٌ لعنَهُ اللهُ أو عملٌ لعنه اللهُ أبعدُ شيءٍ مِنَ الخَيْرِ والبركةِ ، وكلُّ ما اتَّصَلَ بذلك وارتبطَ به وكانَ منه بسبيلٍ فلا بركةَ فيه ألبتةَ .

وقد لعنَ عدوَّهُ إبليسَ وجعلهُ أبعدَ خلقهِ منه ، فكلُّ ما كانَ من جهتِهِ فله من لعنةِ اللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ منه واتِّصالِهِ به .

فَمِنْ ها هنا كانَ للمعاصِي أعظمُ تأثيرٍ في محقِ بركةِ العمرِ والرزقِ والعلمِ والعملِ ، وكلُّ وقتٍ عُصِـيَ اللهُ فيـه ، أو مالٍ عُصِيَ اللهُ به ، أو بدنٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو عملٍ فهو على صاحِبه ، ليس له ؛ فليس له منْ عمرِهِ ومالِهِ وقوتِهِ وجاهِهِ وعلمِهِ وعملِهِ إلا ما أطاعَ اللهَ به .

ولهٰذا ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ في هٰذه الدارِ مئةَ سنةٍ أو نحوَها ، ويكونُ عمرهُ لا يبلغُ عشرَ سنينَ أو نحوَها ، كما أنَّ منهم مَنْ يملكُ القناطيرَ المقنطرةَ مِنَ الذهبِ والفضةِ ويكونُ مالُهُ في الحقيقةِ لا يبلغُ ألفَ درهمٍ أو نحوُها ، وهٰكذا الجاهُ والعلمُ .

وفي الترمذيِّ[1] عنه ﷺ : «الدُّنيا مَلْعُونةٌ ، مَلْعُونٌ ما فيها إلاَّ ذِكْرُ اللهِ ومَا وَالاَهُ ، وعَالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ» .

وفي أثرٍ آخَرَ : «الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلاَّ ما كانَ للهِ»[2] ؛ فهٰذا هو الذي فيه البركةُ خاصَّةً ، واللهُ المستعانُ ، وعليه التُّكلانُ .

---

(١) حديث حَسَنٌ ؛ انظر تخريجه وشرحه في الوجه التاسع والأربعين من وجوه تفضيل العلم في «مفتاح دار السعادة» (١ / ١٧٠) للإمام ابن القيِّم ـ بتحقيقي .

(٢) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (٣ / ١٥٧) ـ وقال : غريب ـ ، والضياء في «المختارة» ـ كما في «الجامع الصغير» (٣٠١٩) ـ عن جابر .

وسنده ضعيفٌ كما قال شيخنا في «ضعيف الجامع» (٣٠١٩) .

٤٥ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب الهوان والذّل والصغار]:

٤٦ ـ ومن عقوباتِها: أنها تجعلُ صاحبَها من السِّفْلَةِ بعدَ أن كانَ مهَيَّئاً لأنْ يكـونَ مِنَ العِلْيَةِ، فإنَّ اللهَ خلقَ خلقَهُ قسمين: عليةً، وسِفْلةً، وجعلَ عِلِّيِّينَ مستقـرَّ العِلْيَةِ، وأسفَلَ سافلينَ مستقرَّ السِّفْلَةِ، وجعلَ أهلَ طاعتِهِ الأعْلَيْنَ في الدنيا والآخرةِ، وأهلَ معصيتِهِ الأسفلينَ في الدنيا والآخرة، كما جعلَ أهلَ طاعتِهِ أكرمَ خلقِهِ عليه، وأهلَ معصيتِهِ أهونَ خلقِهِ عليه، وجعلَ العزَّةَ لهٰؤلاءِ، والذلَّةَ والصَّغَارَ لهٰؤلاء، كما في «مسندِ الإمامِ أحمد»[1] من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بَينَ يدي الساعةِ، وجُعِلَ رزقي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغارُ على مَنْ خالَفَ أمري».

فكلَّما عملَ العبدُ معصيةً نزلَ إلى أسفَلِ درجةٍ، ولا يزالُ في نزولٍ حتى يكـونَ منَ الأسفلينَ، وكلّما عملَ طاعةً ارتفَعَ درجةً، ولا يزالُ في ارتفاعٍ حتى يكونَ مِنَ الأعلين.

وقد يجتمعُ للعبدِ في أيامِ حياتِهِ الصعودُ مِنْ وجهٍ والنزولُ مِنْ وجهٍ، وأيُّهما كانَ أغلبَ عليه كانَ مِنْ أهلِهِ، فليسَ مَنْ صَعَدَ مئةَ درجةٍ ونزلَ درجةً واحدةً، كمَنْ كَانَ بالعَكْسِ.

ولكنْ يَعرِضُ ها هنا للنفـوسِ غلطٌ عظيمٌ، وهو أنَّ العبدَ قد ينزلُ نزولاً بعيداً أبعدَ مما بينَ المشرقِ والمغربِ، وممَّا بينَ السماءِ والأرضِ؛ فلا يفي صعودُه ألفَ درجةٍ بهٰذا النزولِ الواحدِ، كما في «الصَّحيحِ»[2] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ لا يُلْقِي لها بالاً يهوي بها في النَّارِ أبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمغربِ».

---

(١) حديثٌ حسن، سبقت الإشارة إليه (ص ٩٣).

(٢) رواه البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

فأيُّ صعـودٍ يوازي هٰذه النـزلـةَ؟ والنزولُ أمرٌ لازمٌ للإنسانِ، ولكنْ مِنَ الناسِ مَنْ يكونُ نزولهُ إلى غفلةٍ، فهٰذا إذا استيقظَ مِنْ غفلتِهِ عادَ إلى درجتِهِ، أو إلى أرفع منها بحسبِ يقظته.

ومنهم مَنْ يكونُ نزولهُ إلى مباحٍ لا ينوي به الاستعانةَ على الطَّاعةِ؛ فهٰذا متى رجعَ إلى الطاعةِ فقد يعودُ إلى درجتِهِ، وقد لا يصلُ إليها، وقد يرتفعُ عنها؛ فإنه قد يعودُ أعلى هِمَّةً ممَّا كانَ، وقد يكونُ أضعفَ همَّةً، وقد تعودُ هِمَّتُهُ كما كانت.

ومنهم من يكونُ نزولهُ إلى معصيةٍ، إمَّا صغيرةً أو كبيرةً؛ فهٰذا يحتاجُ في عَودِهِ إلى درجته إلى توبةٍ نصوحٍ، وإنابةٍ صادقةٍ.

واختلفَ النَّاسُ: هل يعودُ بعدَ التوبةِ إلى درجتِهِ التي كانَ فيها، بناءً على أنَّ التوبةَ تمحو أثرَ الذنبِ، وتجعلُ وجودَهُ كعدمِهِ، فكأنَّهُ لم يكنْ، أو لا يعودَ؟! بناءً على أنَّ التوبةَ تأثيرُها في إسقاطِ العقوبةِ، وأمَّـا الدرجةُ التي فاتتْهُ فإنَّه لا يصلُ إليها.

قالوا: وتقريرُ ذٰلك أنَّه كان مُستعدّاً باشتغالِهِ بالطَّاعَةِ في الزمنِ الذي عصى فيه لصعودٍ آخرَ، وارتقاءٍ بجملةِ أعمالِهِ السالِفَةِ؛ بمنزلـةِ كسبِ الرجلِ كلَّ يومٍ بجملةِ مالِهِ الذي يملكهُ، وكلَّما تضاعَفَ المالُ تضاعَفَ الربحُ، فقد راحَ عليه في زمنِ المعصيةِ ارتفـاعٌ وربـحٌ بجملةِ أعمالِهِ، فإذا استأنفَ العملَ استأنَفَ صعـوداً مِنْ نزولٍ، وكـانَ قبـلَ ذٰلـك صاعِـداً من علوٍّ، وبـينـهمـا بَوْنٌ عظيمٌ.

قالـوا: وَمَثَـلُ ذٰلك مَثَلُ رجلينِ يرتقيانِ في سُلَّمَيْنِ لا نهايةَ لهما، وهما سواءٌ، فنزلَ أحدُهما إلى أسفلَ، ولو درجةً واحدةً، ثم استأنفَ الصعودَ، فإنَّ الذي لم ينزلْ يعلو عليه ولا بُدَّ.

وحَكَمَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمهُ اللهُ بين الطائفتينِ حُكماً مقبولاً، فقال:

التحقيقُ أنَّ مِنَ التائبينَ مَنْ يعودُ إلى أرفَعَ من درجتِهِ، ومنهم مَنْ يعودُ إلى مثلِ درجتِهِ، ومنهم مَنْ لا يصلُ إلى درجتِهِ.

قلتُ: وهٰذا بحسبِ قوَّةِ التوبةِ وكمالِها، وما أحْدَثَتْهُ المعصيةُ للعبدِ مِنَ الذُّلِّ والخضوعِ والإنابةِ، والحذرِ والخوفِ مِنَ اللهِ، والبكاءِ مِنْ خشيةِ اللهِ، فقد تَقْوى هٰذه الأمورُ، حتى يعودَ التائبُ إلى أرفعَ مِنْ درجتِهِ، ويصيرَ بعدَ التوبةِ خيراً منه قبلَ الخطيئةِ؛ فهٰذا قد تكونُ الخطيئةُ في حقِّه رحمةً، فإنَّها نَفَتْ عنه داءَ العُجْبِ، وخلَّصتهُ مِنْ ثقتِهِ بنفسه وإدلالِهِ بأعمالِهِ، ووضَعَتْ خَدَّ ضراعتِهِ وذلِّهِ وانكسارِهِ على عتبةِ بابِ سيدِهِ ومولاه، وعرَّفتهُ قَدْرَهُ، وأشهَدَتْهُ فَقْرَهُ وضرورتَهُ إلى حفظِ سيِّدهِ ومولاهُ له، وإلى عفوِهِ عنه ومغفرتِهِ له، وأخرجَتْ مِنْ قلبِهِ صَوْلَةَ الطَّاعَةِ، وكَسَرَتْ أنْفَهُ أن يَشْمُخَ بها أو يتكبرَ بها، أو يرى نفسَهُ بها خيراً من غيرِهِ، وأوقفَتْهُ بينَ يديِّ ربه موقفَ الخطَّائينَ المذنبينَ، ناكسَ الرأسِ بينَ يدي ربِّه، مُستحيياً منه خائفاً وجِلاً، محتقراً لطاعتِهِ، مستعظماً لمعصيتِهِ، قد عرفَ نفسَهُ بالنقصِ والذمِّ، وربُّهُ متفردٌ بالكمالِ والحمدِ والوفاءِ.

كما قيل:

اسْتَأْثَرَ اللهُ بِالوَفَاءِ وَبِالْـ ... ـحَمْدِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلَا

فأيُّ نعمةٍ وصلَتْ مِنَ اللهِ إليه استكثرَهَا على نفسه، ورأى نفسَهُ دونَهَا، ولم يرهَا أهلاً لها؟

وأيُّ نقمةٍ أو بليَّةٍ وصلَتْ إليه رأى نفسَهُ أهلاً لما هو أكبرُ منها ورأى أنَّ مولاهُ قد أحسنَ إليه إذ لم يعاقبهُ على قَدْرِ جُرْمِهِ ولا شَطْرِهِ، ولا أدنى جزءٍ منه؟

فإنَّ ما يستحقُّه مِنَ العقوبةِ لا تحملهُ الجبالُ الراسياتُ، فضلاً عن هٰذا العبدِ الضعيفِ العاجزِ، فإنّ الذنبَ ـ وإن صَغُرَ ـ فإنّ مقابلَهُ العظيمُ الذي لا شيءَ أعظمُ منه، الكبير الذي لا شيءَ أكبرُ منه، الجليلُ الذي لا أجلَّ منه ولا أجملَ، المُنْعِمُ بجميعِ أصنافِ النِّعَمِ دقيقِها وجليلِها؛ منْ أقبحِ الأمورِ وأفظعها وأشنعِها، فإنَّ مقابلةَ العظماءِ والأجلاَّءِ وساداتِ الناسِ بمثلِ ذٰلك يستقبحهُ كلُّ أحدٍ مؤمنٌ وكافرٌ.

وأرذلُ الناسِ وأسقطهُم مروءةً مَنْ قابلهم بالرذائلِ؛ فكيفَ بعظيمِ السماواتِ والأرضِ، وملكِ السماواتِ والأرضِ، وإلٰهِ السماواتِ والأرضِ؟ ولولا أنَّ رحمتَهُ غلبَتْ غضبَهُ، ومغفرتَهُ سبقتْ عقوبتَهُ، لتدكدكتِ الأرضُ بمَنْ قابلَهُ بما لا يليقُ مقابَلَته به، ولولا حِلْمُهُ ومغفرتُهُ لَزُلْزِلَتِ السماواتُ والأرضُ مِنْ معاصِي العبادِ. فقالَ اللهُ تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ أنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [فاطر: ٤١].

فتأملْ ختمَ هٰذه الآيةِ باسمين مِنْ أسمائهِ وهما (الحليمُ) و (الغفورُ)، كيف تجدُ تحتَ ذٰلك أنَّه لولا حِلْمُهُ عنِ الجُنَاةِ ومغفرتُهُ للعصاةِ لما استقرَّتِ السماواتُ والأرْضُ؟

وقد أخبرَ سبحانه عن بعضِ كُفرِ عبادِهِ أنَّه: ﴿تَكَادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾ [مريم: ٩٠].

وقد أخرجَ اللهُ سبحانهُ الأبوينِ مِنَ الجنةِ بذنبٍ واحدٍ ارتكباهُ، وخالفا فيه نَهْيَهُ، ولعنَ إبليسَ وطردهُ وأخرجَهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ بذنبٍ واحدٍ ارتكَبَهُ، وخالفَ فيهِ أمرَه، ونحنُ ـ معاشرَ الحمقى ـ كما قيلَ:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ ونَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنَانِ لَدَى النَّعِيمِ الخَالِدِ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الأَبَوَيْنِ مِنْ ... مَلَكُوتِهِ الأعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدِ

والمقصود: أنَّ العبدَ قد يكونُ بعدَ التوبةِ خيراً مما كانَ قبلَ الخطيئةِ وأرفعَ درجةً، وقد تُضْعِفُ الخطيئةُ هِمَّتَهُ، وتوهِنُ عزمَهُ، وتمرضُ قلبَهُ، فلا يقوى دواءُ التوبةِ على إعادتِهِ إلى صحته الأولى، فلا يعودُ إلى درجتِهِ، وقد يزولُ المرضُ بحيثُ تعودُ الصحةُ كما كانت، ويعودُ إلى مثلِ عملِهِ، فيعودُ إلى درجتِهِ.

هٰذا كلُّه إذا كانَ نزولُهُ إلى معصيةٍ، فإذا كان نزولُهُ إلى أمرٍ يقدحُ في أصلِ إيمانِهِ، مثل الشكوكِ والرِّيَبِ والنِّفاقِ؛ فذاك نزولٌ لا يُرْجَى لصاحبِهِ صعودٌ إلاَّ بتجديد إسلامِهِ مِنْ رأسِهِ.

٤٦ ـ فَصْلٌ [المعاصي تجرىء على صاحبها أصناف المخلوقات]:

٤٧ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنَّها تُجَرِّىءُ على العبدِ مَنْ لم يكنْ يتجرَّأُ عليه مِنْ أصنافِ المخلوقاتِ، فتجترىءُ عليه الشياطينُ بالأذى والإغواءِ والوسوسةِ والتخويفِ والتَّحزينِ، وإنسائِهِ ما به مصلحتُهُ في ذكرِهِ ومضرَّتُهُ في نسيانِهِ؛ فتجترىءُ عليه الشياطينُ حتى تؤزَّهُ إلى معصيةِ اللهِ أزّاً.

وتجترىءُ عليه شياطينُ الإنسِ بما تقدرُ عليه مِنْ أذاه في غَيْبَتِهِ وحضورِهِ، ويجترىءُ عليه أهلُهُ وخدمُهُ وأولادُهُ وجيرانُهُ حتى الحيوانُ البهيمُ.

قال بعضُ السلفِ: إنِّي لأعصي اللهَ فأعرفُ ذٰلك في خُلُقِ امرأتي ودابَّتي.

وكذٰلك يجترىءُ عليه أولياءُ الأمرِ بالعقوبةِ التي إنْ عدلُوا فيها أقاموا عليه حدودَ اللهِ، وتجترىءُ عليه نفسُهُ فتتأسَّدُ عليه وتستصعبُ عليه، فلو أرادَها لخيرٍ لم تُطاوِعْهُ ولم تَنْقَدْ له، وتسوقُهُ إلى ما فيه هلاكُهُ؛ شاءَ أم أبى.

وذٰلك لأنَّ الطاعةَ حِصْنُ الربِّ تبارك وتعالى الذي مَنْ دخلَهُ كانَ مِنَ الآمنين.

فإذا فارقَ الحِصْنَ اجترأ عليه قُطَّاعُ الطريقِ وغيرهُم، وعلى حسب اجترائِهِ على معاصي اللهِ يكونُ اجتراءُ هٰذه الآفاتِ والنفوسِ عليهِ، وليس له شيءٌ يردُّ عنه، فإنَّ ذِكْرَ اللهِ وطاعَتِهِ، والصدقةَ، وإرشادَ الجاهلِ، والأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكرِ؛ وقايةٌ تردُّ عَنِ العبدِ، بمنزلةِ القوَّةِ التي تردُّ المرضَ وتقاومُهُ، فإذا سقطتِ القوَّةُ غلبَ وَارِدُ المرضِ فكانَ الهلاكُ، فلا بُدَّ للعبدِ مِنْ شيءٍ يردُّ عنه.

فإنَّ موجِبَ السيئاتِ والحسناتِ تتدافعُ، ويكون الحكمُ للغالبِ كما تقدمَ، وكلَّما قَوِيَ جانبُ الحسناتِ كانَ الردُّ أقوى كما تقدمَ، فإنَّ اللهَ يدافعُ عنِ الذينَ آمَنُوا، والإيمانُ قولٌ وعملٌ، فبحسبِ قوَّةِ الإيمانِ يكونُ الدفعُ، واللهُ المستعانُ.

٤٧ ـ فَصْلٌ [المعاصي تخون صاحبها عند الحاجة]:

٤٨ ـ ومنْ عقوباتِها: أنَّها تَخُونُ العبدَ أحوجَ ما يكونُ إلى نفسِهِ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يحتاجُ إلى معرفةِ ما ينفعهُ وما يضرُّهُ في معاشِهِ ومعادِهِ، وأعلمُ الناسِ أعرفُهُم بذٰلك على التفصيلِ.

وأقواهم وأكيسهُم مَنْ قَوِيَ على نفسِهِ وإرادتِهِ، فاستعمَلَهَا فيما ينفعهُ وكفَّها عمَّا يضرُّهُ.

وفي ذٰلك تفاوتتْ معارفُ الناسِ وهِمَمُهُم ومَنَازِلُهُم، فأعرفُهم مَنْ كانَ عارفاً بأسبابِ السعادةِ والشقاوة. وأرشدُهم مَنْ آثَرَ هٰذه على هٰذه، كما أنَّ أسفَهَهُم مَنْ عَكسَ الأمْرَ.

والمعاصِي تخونُ العبدَ أحوجَ ما كانَ إلى نفسِهِ في تحصيلِ هٰذا العلمِ، وإيثارِ الحظِّ الأشرفِ الغالِي الدائمِ على الحظِّ الخسيس الأدنى المنقطعِ؛ فتحجبُهُ الذنوبُ عن كمالِ هٰذا العلمِ، وعن الاشتغالِ بما هو أوْلَى به وأنفعُ له

في الدَّارَيْن.

فإذا وقعَ في مكروهٍ واحتاجَ إلى التخلُّص منه خانَهُ قلبُهُ ونفسُهُ وجوارِحُهُ، فكان بمنزلةِ رجلٍ معه سيفٌ قد غشيهُ الصدأُ ولَزِمَ قِرابَهُ[1] بحيثُ لا ينجذبُ مع صاحِبِهِ إذا جذَبَهُ، فعرضَ له عدوٌّ يريدُ قتلَهُ، فوضعَ يدَه على قائمِ سيفِهِ واجتهدَ لِيُخْرِجَهُ، فلم يخرجْ، فدهَمَهُ العدوُّ وَظَفِرَ به!

كذلك القلبُ يصدأُ بالذنوبِ ويصيرُ مُثْخَناً بالمرضِ؛ فإذا احتاجَ إلى محاربةِ العدوِّ به لم يجدْ معه شيئاً، والعبدُ إنما يُحاربُ ويُصاولُ ويُقْدِمُ بقلبِهِ، والجوارحُ تَبَعٌ للقلبِ، فإذا لم يكنْ عندَ مَلِكِها قوةٌ يدفعُ بها فما الظنُّ بها عند عَدَمِ مَلِكِها؟

وكذلك النفسُ فإنَّها تخبثُ بالشَّهواتِ والمعاصي وتضعفُ ـ أعني النفسَ المطمئنةَ ـ وإنْ كانتِ الأمَّارةُ تقوى وتتأسدُ، وكلَّما قويَتْ هذه ضَعُفَتْ تلك؛ فيبقى الحكمُ والتصرُّفُ للأمَّارةِ.

وربمـا ماتتْ نفسُـهُ المُـطمئنَّةُ موتاً لا يُرتجى معه حياةٌ، فهذا مَيْتٌ في البرزخِ غيرُ حيٍّ في الآخرةِ حياةً ينتفعُ بها، بل حياتُهُ حياةٌ يدركُ بها الألمَ فقط.

والمقصودُ: أنّ العبدَ إذا وقعَ في شدَّةٍ أو كُربةٍ أو بليَّةٍ خانَهُ قلبُه ولسانُه وجوارحُهُ عمَّا هو أنفعُ شيءٍ له، فلا ينجذبُ قلبُهُ للتوكُّلِ على اللهِ تعالى ولا الإنابةِ إليه والجمعيَّةِ عليه، والتضرُّعِ والتذلُّلِ والانكسارِ بين يديه، ولا يُطاوِعُهُ لسانُهُ لذكرِهِ، وإنْ ذكرَهُ بلسانِهِ لم يجمعْ بين قلبِهِ ولسانِهِ، فينحبسُ القلبُ على اللسانِ بحيثُ يُؤثِرُ الذكرَ، ولا ينحبسُ القلبُ واللسانُ على المذكورِ، بل إنْ ذَكَرَ أو دعا ذَكَرَ بقلبٍ لاهٍ ساهٍ غافلٍ، ولو أرادَ مِنْ جوارحِهِ أنْ تُعِينَهُ بطاعةٍ تدفعُ عنه؛ لم تنقدْ له ولم تُطاوِعْهُ.

---

(١) وهو غِلاف السيف.

وهٰـذا كلُّه أثرُ الذنوبِ والمعاصِي، كَمَنْ له جُنْدٌ يدفعونَ عنه الأعداءَ، فأهملَ جُندَهُ وضيَّعَهُم وأضعفهُم، وقطعَ أخبارَهُم، ثم أرادَ منهم عندَ هجومِ العدوِّ عليه أن يستفرِغُوا وُسْعَهُم في الدفعِ عنه بغيرِ قوَّةٍ.

هٰذا؛ وثَمَّ أمرٌ أخوفُ مِنْ ذٰلك وأدهى منه وأَمَرُّ، وهو أنْ يَخُونَهُ قلبُهُ ولسانُهُ عندَ الاحتضارِ والانتقالِ إلى اللهِ، فرُبَّما تعذَّرَ عليه النُّطقُ بالشهادةِ، كما شاهَدَ الناسُ كثيراً مِنَ المحتضرينَ أصابَهُم ذٰلك، حتى قيل لبعضهم:

قل: «لا إلٰه إلا الله» فقال: آه آه، لا أستطيعُ أنْ أقولَهَا!

وقيل لآخرَ: قل: «لا إلٰه إلا الله»، فقال: شاه، رِخّ[1]، غلبتُك... ثم قضىٰ!

وقيل لآخر: قل: «لا إلٰه إلا الله»، فقال:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْماً وَقَدْ تَعِبَتْ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

ثم قضىٰ!

وقيل لآخرَ: قل: «لا إلٰه إلا الله»؛ فجعل يَهْذي بالغناءِ، ويقولُ: تاتنا، تنتنا... حتى مات.

وقيل لآخرَ ذٰلك، فقال: ما ينفعني ما تقولُ، ولم أدَعْ معصيةً إلَّا ركبْتُها؟! ثم مات؛ ولم يقلْها!

وقيل لآخرَ ذٰلك، فقال: وما يُغني عنِّي، وما أعرفُ أنِّي صليتُ للهِ صلاةً؟ ولم يقلْها!

وقيل لآخرَ ذٰلك، فقال: أنا كافرٌ بما تقولُ، ولم يقلْها وقضىٰ!

---

(١) هي أسماءٌ لأحجار الشِّطْرنج!

وقيل لآخرَ ذٰلك، فقال: كلما أردتُ أنْ أقولَها ولساني يُمْسِكُ عنها!

وأخبرني مَنْ حضرَ بعضَ الشحَّاذينَ عند موتِهِ، فجعلَ يقولُ: للهِ، فَلْسٌ للهِ، فَلْسٌ للهِ، حتى قضىٰ!

وأخبرني بعضُ التجارِ عن قرابةٍ له أنَّه احتضرَ وهو عنده، وجعلوا يلقِّنونه «لا إلٰه إلَّا الله» وهو يقولُ: هٰذه القطعةُ رخيصةٌ، هٰذا مُشْتَرَى جيدٌ، هٰذا كذا. . . حتى قضىٰ!

وَسبحانَ اللهِ! كم شاهدَ النَّاسُ مِنْ هٰذا عِبَراً؟ والذي يخفىٰ عليهم مِنْ أحوالِ المُحْتَضرينَ أعظمُ وأعظمُ.

فإذا كانَ العبدُ في حالِ حضورِ ذهنِهِ وقوَّتِهِ وكمالِ إدراكِهِ قد تمكَّنَ منه الشيطانُ، واستعملهُ فيما يريدهُ مِنْ معاصي اللهِ، وقد أغفلَ قلبَهُ عن ذكرِ اللهِ، وعطَّلَ لسانَهُ عن ذكرِهِ، وجوارحَهُ عن طاعتِهِ؛ فكيفَ الظنُّ به عندَ سقوطِ قواهُ، واشتغالِ قلبِهِ ونفسِهِ بما هو فيه مِنْ ألمِ النَّزْعِ؟ وقد جمعَ الشيطانُ له كلَّ قوتِهِ وهِمَّتِهِ، وحشَدَهُ عليه بجميعِ ما يقدرُ عليه لينالَ منه فُرصَتَهُ، فإنَّ ذٰلك آخرُ العملِ، فأقوى ما يكونُ عليه شيطانُهُ ذٰلك الوقتَ، وأضعفُ ما يكونُ هو في تلك الحالِ؛ فَمَنْ تُرىٰ يَسْلَمُ على ذٰلك؟!

فهناك: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيفَ يُوَفَّقُ لحسنِ الخاتمةِ مَنْ أغفلَ اللهُ سبحانهُ قلبَهُ عن ذكرِهِ واتَّبَعَ هواه، وكانَ أمرهُ فُرُطاً؟!! فبعيدٌ مَنْ قلبهُ بعيدٌ مِنَ اللهِ تعالى، غافلٌ عنه مُتَعبّدٌ لهواه، أسيرٌ لشهواتِهِ، ولسانهُ يابسٌ عن ذكرِهِ، وجوارحهُ مُعطَّلةٌ عن طاعتِهِ، مشتغلةٌ بمعصيتِهِ؛ بعيد عن هٰذا أنْ يوفَّقَ للخاتمة بالحسنى؟

ولقد قطعَ خوفُ الخاتمةِ ظهورَ المتّقينَ، وكأنَّ المسيئينَ الظَّالِمينَ قد أخذوا توقيعاً بالأمانِ!!

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٩ و٤٠].

كما قيل:

يَا آمِنَاً مَعَ قُبْحِ الفِعْلِ مِنْهُ أَهَلْ	أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ
جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْنَاً واتِّبَاعَ هَوَىً	هٰذا وإِحْدَاهُمَا فِي المَرْءِ تُهْلِكُهُ
والمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ المَخَاوِفِ قَدْ	سَارُوا وذٰلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ	فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ
هٰذا وأَعْجَبُ شَيْءٍ فِيكَ زُهْدُكَ فِي	دَارِ البَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
مَنِ السَّفِيهُ إِذَاً بِاللهِ أَنْتَ أَمِ الْـ	مَغْبُونُ فِي البَيْعِ غُبْناً سَوْفَ يُدْرِكُهُ

٤٨ ـ فَصْلٌ [المعاصي تعمي القلب وتضعف بصيرته]:

٤٩ ـ ومنْ عقوباتِها: أنَّها تُعمي القلبَ، فإنْ لم تَعْمِهِ أضعفَتْ بصيرتَهُ ولا بدَّ، وقد تقدَّمَ بيانُ أنَّها تُضعفهُ ولا بدَّ، فإذا عميَ القلبُ وضَعُفَ فاتَهُ مِنْ معرفةِ الهدى وقوَّتِهِ على تنفيذِهِ في نفسهِ، وفي غيرِهِ بحسبِ ضعفِ بصيرتِهِ وقوَّتِهِ.

فإنَّ الكمالَ الإنسانيَّ مدارهُ على أصلَيْنِ: معرفةُ الحقِّ مِنَ الباطِلِ، وإيثارُهُ عليه.

وما تفاوتَتْ منازلُ الخلقِ عندَ اللهِ تعالى في الدنيا والآخرةِ إلَّا بقَدْرِ تفاوتِ منازلِهِم في هٰذينِ الأمرينِ، وهما اللذانِ أثنى اللهُ سبحانه على أنبيائهِ بهما في قوله تعالى:

﴿واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي والأَبْصَارِ﴾

[صٓ: ٤٥].

﴿فالأَيْدِي﴾: القويُّ في تنفيذِ الحقِّ، ﴿والأبصَارِ﴾: البصائرُ في الدِّينِ؛ فوصفَهم بكمالِ إدراكِ الحقِّ وكمالِ تنفيذِه.

وانقسمَ الناسُ في هٰذا المقامِ أربعةَ أقسامٍ:

فهٰؤلاءَ أشرفُ الأقسامِ مِنَ الخلقِ وأكرمُهُم على اللهِ.

القسم الثاني: عكسُ هٰؤلاءِ؛ مَنْ لا بصيرةَ لهم في الدِّين، ولا قوَّةَ على تنفيذِ الحقِّ، وهم أكثرُ هٰذا الخَلْقِ، الذينَ رؤيتهُم قذى العيونِ وحُمَّى الأرواحِ، وسقمُ القلوبِ، يُضَيِّقُونَ الدِّيارَ، ويُغْلونَ الأسعارَ، ولا يُستفادُ بصحبتِهم إلَّا العارُ والشَّنَارُ.

القسم الثالث: مَنْ له بصيرةٌ بالحقِّ ومعرفةٌ به، لٰكنه ضعيفٌ لا قوَّةَ له على تنفيذهِ ولا الدَّعوةَ إليه، وهٰذا حالُ المؤمنِ الضَّعيفِ، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ منهُ(١).

القسم الرابع: مَنْ له قوَّةٌ وهمةٌ وعزيمةٌ، لكنه ضعيفُ البصيرةِ في الدِّين، لا يكادُ يميزُ بين أولياءِ الرحمٰنِ وأولياءِ الشيطانِ، بل يحسبُ كلَّ سوداءَ تمرةً، وكلَّ بيضاءَ شحمةً، يحسبُ الوَرَمَ شحماً، والدواءَ النافعَ سُمّاً.

وليس من هٰؤلاءِ مَنْ يصلحُ للإمامةِ في الدِّينِ، ولا هو موضعاً لها سوى القسمِ الأولِ.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبرَ سبحانه أنَّ **بالصبرِ واليقينِ نالوا الإمامةَ في الدِّينِ**، وهٰؤلاءِ هم الذين استثناهُم اللهُ سبحانهُ مِنْ جُملةِ الخاسرين، وأقسمَ

---

(١) وقد صحَّ هٰذا المعنى في حديثٍ رواه مسلمٌ (برقم ١٨٤٠ ـ مُختصره) عن أبي هُريرة.

بالعصرِ ـ الذي هو زمنُ سعيِ الخاسِرينَ والرَّابحينَ ـ على أن مَنْ عداهم فهو مِنَ الخاسرينَ.

فقال تعالى: ﴿والعَصْرِ. إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ. ألَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] فلم يكتفِ منهم بمعرفةِ الحقِّ والصبرِ عليه؛ حتَّى يُوصِي بعضُهم بعضاً به، ويرشدهُ إليه، ويحضُّه عليه.

وإذا كانَ مَنْ عدا هٰؤلاءِ خاسراً؛ فمعلومٌ أنَّ المعاصِيَ والذنوبَ تُعْمِي بصيرةَ القلبِ فلا يدركُ الحقَّ كما ينبغي، وتضعفُ قوَّتَهُ وعزيمتَهُ فلا يصبرُ عليه، بل قد يتواردُ على القلبِ حتى ينعكسَ إدراكُهُ كما ينعكسَ سيرُه، فيدركُ الباطلَ حقّاً والحقَّ باطلاً، والمعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً؛ فينتكسَ في سيره، ويرجعَ عن سفرِه إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، إلى سفرهِ إلى مستقرِّ النفوسِ المبطلةِ، التي رضِيَتْ بالحياةِ الدنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلَتْ عن اللهِ وآياتِهِ، وتركتِ الاستعدادَ للقائهِ.

ولو لم يكنْ في عقوبةِ الذنوبِ إلَّا هٰذه العقوبةُ وحدَها؛ لكانت داعيةً إلى تركِها والبُعْدِ منها، واللهُ المستعانُ.

وهٰـذا كما أنَّ الطاعَةَ تُنَوِّرُ القلبَ وتجلوهُ وتصقلهُ، وتُقَوِّيهِ وتُثَبِّتُهُ، حتى يصيرَ كالمِرْآةِ المصقولةِ في جلائِها وصفائِها فيمتلىءَ نوراً، فإذا دنا الشيطانُ منه أصابَهُ مِنْ نورهِ ما يصيبُ مسترقَ السمعِ مِنَ الشهبِ الثواقِبِ، فالشيطانُ يَفْرُقُ مِنْ هٰذا القلبِ أشدَّ مِنْ فَرَقِ الذئبِ مِنَ الأسَدِ، حتى إنَّ صاحِبَهُ ليصرعُ الشيطانَ فيخرُّ صريعاً، فتجتمعُ عليه الشياطينُ، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: ما شأنُهُ؟ فيقال: أصابهُ إنسيٌّ، وبه نظرةٌ مِنَ الإِنْسِ!

فَيَا نَظْرَةً مِنْ قَلْبِ حُرٍّ مُنَـوَّرٍ   يَكَـادُ لَهَـا الشَّيْطَانُ بِالنُّـورِ يُحْـرَقُ

أفيستوي هٰذا القلبُ وقلبٌ مظلمةٌ أرجاؤُه، مختلفةٌ أهواؤُه، قد اتَّخذَهُ الشيطانُ وطنَهُ، وأعدَّهُ مسكنَهُ، إذا تصبَّح بطلعتِهِ حيَّاه، وقال: فُديتَ مِنْ قرينٍ لا يفلحُ في دنياهُ ولا في أُخراهُ؟

قَرِينُــكَ فِي الــدُّنْــيَا وَفِــي الـحَـشْــرِ بَعْــدَهَــا
فَأَنْــتَ قَرِينٌ لِي بِكُــلِّ مَكَــانِ
فَإِنْ كُنْــتَ فِي دَارِ الــشَّــقَــاءِ فَإِنَّــنِــي
وأَنْــتَ جَمِــيعــاً فِي شَقَــا وَهَــوَانِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُم عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُم فِي العذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

فأخبرَ سبحانه أنَّ مَنْ عَشَا عن ذكره، وهو كتابُهُ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ، فأعرضَ عنه، وعميَ عنه، وعشَتْ بصيرَتُهُ عن فهمِهِ وتدبُّرِهِ ومعرفةِ مرادِ اللهِ منه؛ قيَّضَ اللهُ له شيطاناً؛ عقوبةً له بإعراضِهِ عن كتابِهِ، فهو قرينُهُ الذي لا يفارقُهُ في الإقامةِ ولا في المسيرِ، ومولاهُ وعشيرُهُ الذي هو بئسَ المولى وبئسَ العشيرُ.

رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لاَ نَتَفَرَّقُ[1]

ثم أخبرَ أنَّ الشيطانَ يصدُّ قرينَهُ ووليَّهُ عن سبيلِهِ الموصلِ إليه وإلى جنَّتِهِ، ويحسبُ هٰذا الضالُّ المصدودُ أنَّه على طريقِ هدىً، حتى إذا جاءَ القرينانِ يومَ القيامةِ يقولُ أحدُهُما للآخرِ: يا ليتَ بيني وبينَكَ بُعدَ المشرقين؛ فبئسَ القرينُ أنتَ لي في الدُّنيا، أضللتَني عَنِ الهدى بعدَ إذ جاءني، وصدَدْتَني عن الحقِّ وأغويتَنِي، حتى هلَكْتُ، وبئسَ القرينُ أنت لي اليوم.

ولما كانَ المصابُ إذا شاركَهُ غيرُهُ في مصيبتِهِ، حصلَ بالتأسِّي نوعُ

---

(١) هو في «ديوان الأعشى» (١٥٠)، وانظر له «خزانة الأدب» (٧ / ١٣٨).

تخفيفٍ وتسليةٍ؛ أخبـرَ سبحـانـهُ أنَّ هٰذا غيرُ موجـودٍ وغيرُ حاصـلٍ في حقِّ المشتركينَ في العذابِ، وأنَّ القرينَ لا يجدُ راحةً ولا أدنى فرحٍ بعذابِ قرينهِ معـه، وإنْ كانتِ المصـائِبُ في الـدنيا إذا عمَّتْ صارتْ مَسْـلاةً، كما قالتِ الخنساءُ في أخيها صخرٍ:

فَلَوْلَا كَثْـرَةُ الـبَـاكِـينَ حَوْلِـي ... عَلَى إِخْـوَانِـهِـمْ لَقَـتَـلْتُ نَفْـسِـي
وَمَـا يَبْـكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلٰـكِنْ ... أُعَـزِّي الـنَّـفْسَ عَنْـهُ بالـتَّـأَسِي
أَلَا يَا صَخْـرُ لَا أَنْـسَـاكَ حَتَّـى ... أُفَـارِقَ عِيشَـتِـي وَوُرُودَ رَمْـسِـي

فمنـعَ اللهُ سبحـانه هٰذا القَدْرَ مِنَ الراحةِ على أهلِ النَّارِ فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٤٩ ـ فَصْلٌ [المعاصي مدد من الإنسان لعدّوه عليه]:

٥٠ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنَّها مَدَدٌ مِنَ الإنسانِ يمدُّ به عدوَّهُ عليه، وجيشٌ يُقَوِّيهِ به على حربهِ، وذٰلك أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى ابتلىٰ هٰذا الإنسانَ بعـدوٍّ لا يُفارِقُهُ طرفةَ عينٍ، وصاحبٍ لا ينامُ عنه، ولا يغفلُ عنه، يراهُ هو وقبيلُهُ مِنْ حيثُ لا يراهُ، يبذلُ جُهدَهُ في معاداتِهِ في كلِّ حالٍ، ولا يدعُ أمراً يكيدُهُ به يقدرُ على إيصالِهِ إليه إلا أوصلَهُ إليه، ويستعينُ عليه ببني أبيهِ مِنْ شياطينِ الجنِّ، وغيرِهم مِنْ شياطينِ الإنسِ؛ فقـد نصبَ له الحبـائـلَ، وبغى له الغوائلَ، ومدَّ حوله الأشراكَ، ونصبَ له الفِخَاخَ والشِّبَاكَ، وقال لأعوانِهِ: دونَكُم عدوَّكُم وعدوَّ أبيكُم لا يَفُوتَنَّكم! ولا يكُن حظُّهُ الجنَّةَ وحظُّكُم النارَ، ونصيبُهُ الرحمَةَ ونصيبُكُم اللعنةَ، وقد علمتُم أنَّ ما جرى عليَّ وعليكم مِنَ الخِزْيِ واللَّعْنِ والإبعادِ مِنْ رحمةِ اللهِ فبسببهِ ومِنْ أجلهِ؛ فابذلُوا جهدَكُم أنْ يكونوا شركاءنا في هٰذه البلية؛ إذ قد فاتَنا شركةُ صالحيهِم في الجنَّة.

وقد أعْلَمَنَا اللهُ سبحانهُ بذٰلك كلِّه مِنْ عدوِّنا، وأمرَنا أنْ نأخذَ له أهبتَهُ، ونعدَّ له عدَّته.

ولمَّا علمَ سبحانهُ أنَّ آدمَ وبنيهِ قد بُلوا بهٰذا العدوِّ وأنَّه قد سُلِّطَ عليهم أمدَّهم بعساكِرَ وجُنْدٍ يلقَوْنَهُ بها، وأمدَّ عدوَّهم أيضاً بجندٍ وعساكرَ يلقاهم بها، وأقامَ سوقَ الجهادِ في هٰذه الدارِ في مدَّةِ العمرِ، التي هي بالإضافةِ إلى الآخرةِ كنَفَسٍ واحدٍ مِنْ أنفاسِهَا، واشترى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجنةَ، يقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وأخبرَ أنَّ ذٰلك وعدٌ مؤكَّدٌ عليه في أشرفِ كتبهِ، وهي التوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ، وأخبر أنَّه لا أوفى بعهدهِ منه سبحانهُ! ثم أمرَهُم أنْ يستبشرُوا بهٰذه الصفقةِ التي مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ قدرَهَا فَلْيَنْظُرْ إلى المشتري مَنْ هو؟ وإلى الثمن المبذولِ في هٰذه السِّلْعَةِ، وإلى مَنْ جرى على يديه هٰذا العَقْدُ؛ فأيُّ فوزٍ أعظمُ مِنْ هٰذا؟ وأيُّ تجارةٍ أربحُ منه؟

ثم أكَّدَ سبحانه معهم هٰذا الأمرُ بقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عذابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُم ذٰلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ . يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ . وأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [الصَّف: ١٠ ـ ١٣].

ولم يُسلِّطْ سبحانه هٰذا العدوَّ على عبدِهِ المؤمن ـ الذي هو أحبُّ أنواع المخلوقاتِ إليه ـ إلَّا لأنَّ الجهادَ أحبُّ شيءٍ إليه، وأهلَه أرفعُ الخلقِ عنده دَرَجاتٍ، وأقربُهُم إليه وسيلةً، فعقدَ سبحانه لواء هٰذا الحربِ لخلاصةِ مخلوقاتهِ؛ وهو القلبُ الذي هو محلُّ معرفتهِ، ومحبَّتِهِ، وعبوديَّتِهِ، والإخلاصِ له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولَّاه أمرَ هٰذا الحربِ، وأيَّدَهُ بجندٍ مِنَ الملائكةِ

لَا يُفارِقُونَهُ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١]، يعقبُ بعضهُم بعضاً، كلما ذهبَ بدلٌ جاءَ بدلٌ آخرُ، يُثبِّتونَهُ، ويأمرونَهُ بالخيرِ، ويَحُضُّونَهُ عليه، ويَعِدُونَهُ بكرامةِ اللهِ ويُنَصِّرُونَهُ، ويقولون: إنَّما هو صبرُ ساعةٍ، وقد اسْتَرَحْتَ راحةَ الأبدِ.

ثم أمدَّه اللهُ سبحانه بجُنْدٍ أُخَرَ مِنْ وحيِهِ وكلامِهِ، فأرسلَ إليه رسولَهُ، وأنزلَ إليه كتابَه، فازداد قوةً إلى قوَّتِهِ ومَدَداً إلى مددِهِ وأعواناً إلى أعوانه وعُدَّةً إلى عدَّتِهِ، وأيَّدَهُ مع ذلك بالعقلِ وزيراً له ومدبِّراً، وبالمعرفةِ مُشيرةً عليه ناصحةً له، وبالإيمانِ مُثَبِّتاً له ومؤيِّداً وناصِراً، وباليقينِ كاشِفاً له عن حقيقةِ الأمرِ، حتى كأنَّهُ يُعاينُ ما وعدَ اللهُ تعالى به أولياءَهُ وحزبَهُ على جهادِ أعدائهِ؛ فالعقلُ يُدَبِّرُ أمرَ جيشِهِ، والمعرفةُ تصنعُ له أمورَ الحربِ وأسبابَهَا ومواضِعها اللائقةَ بها، والإيمانُ يُثَبِّتُهُ ويُقوِّيه ويُصبِّره، واليقينُ يقدمُ به ويحملُ به الحملاتِ الصادقةَ.

ثم أمدَّ سبحانَهُ القائمَ بهٰذا الحرب بالقوى الظاهرةِ والباطنةِ، فجعلَ العينَ طليعتَهُ، والأُذُنَ صاحِبَ خبرِهِ، واللسانَ ترجمانَهُ، واليدينِ والرجلين أعوانَهُ، وأقامَ ملائكتَهُ وحملةَ عرشِهِ يستغفرونَ له، ويسألونَ له أنْ يقيهُ السيئاتِ ويُدخلَهُ الجنَّاتِ، وتولَّى سبحانه الدفعَ والدفاعَ عنه بنفسِهِ، وقال: هٰؤلاء حزبي وحزبُ اللهِ هم المفلحونَ، قال الله تعالى: ﴿أُولٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهٰؤلاء جندي ﴿وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وعلَّم سبحانه عبادَه كيفيةَ هٰذا الحربِ والجهادِ، فجمعهَا لهم في أربعِ كلماتٍ فقال: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. ولا يتمُّ أمرُ هٰذا الجهادِ إلَّا بهٰذه الأمورِ الأربعةِ؛ فلا يتمُّ له الصبرُ إلَّا بمصابرةِ العدوِّ، وهي ـ القلبُ وحراستهُ؛ لئلَّا يدخُلَ منه

العـدوِّ ـ ولزومِ ثغر مقاومتهُ ومنازلَتهُ، فإذا صابرَ عدوَّهُ احتاجَ إلى أمرٍ آخَرَ وهو المـرابـطةُ، وهي لزومُ ثغر العينِ والأذنِ واللسانِ والبطنِ واليدِ والرِّجلِ ؛ فهٰذه الثغورُ منها يدخلُ العدوُّ فيجوسُ خلالَ الديارِ ويُفسدُ ما قَدرَ عليه، فالمرابطةُ لزومُ هٰذه الثغورِ، ولا يخلِّي مكانَها فيصادفَ العدوُّ الثغرَ خالياً فيدخلَ منه.

فهٰؤلاءِ أصحـابُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ خيرُ الخلق بعدَ النبيِّينَ والمُرسَلينَ، وأعظمُهُم حمايةً وحراسةً مِنَ الشيطانِ، وقد أَخْلَوُا المكانَ الذي أُمِرُوا بلزومِهِ يوم أُحُدٍ، فدخلَ منه العدوُّ؛ فكانَ ما كانَ.

وجماعُ هٰذه الثلاثةِ وعمودُها الذي تقومُ به هو تقوى اللهِ تعالى، فلا ينفعُ الصبرُ ولا المصابرةُ ولا المرابطةُ إلا بالتَّقوى، ولا تقومُ التَّقوى إلا على ساقِ الصبرِ.

فانظرِ الآنَ فيك إلى التقاءِ الجيشين، واصطفافِ العسكرين، وكيف يُدالُ لك مرَّةً، ويُدالُ عليك مرَّةً أخرى؟ أقبلَ مَلِكُ الكَفَرَةِ بجنودِهِ وعساكرِهِ، فوجَدَ القلبَ في حِصْنِهِ جالساً على كُرْسِيِّ مملكتهِ، أمرُهُ نافذٌ في أعوانِهِ، وجُنْدُهُ قد حَفُّـوا به، يقاتِلُونَ عنه ويدافِعُونَ عن حَوْزَتِهِ، فلم يُمكنهُ الهجومُ إلا بمخامرةِ بعضِ أمرائهِ وجندهِ عليه، فسألَ: مَن أخصُّ الجندِ به وأقربهم منه منزلةً؟ فقيل له: هي النفسُ، فقال لأعوانِهِ: ادخُلُوا عليها مِنْ مُرَادِها، وانظرُوا مواقعَ محبَّتِها ومـا هو محبـوبها، فعِدُوها به، ومنُّوها إياه، وانقشوا صورةَ المحبوبِ فيها في يقظتها ومنامِها، فإذا اطمأَنَّتْ إليه وسكنتْ عندَهُ فاطرحُوا عليها كلاليبَ الشهوةِ وخطاطيفها، ثـم جُرُّوها بها إليكم، فإذا خامَرَتْ على القلبِ، وصارَتْ معكم عليه مَلَكْتُم ثغورَ العينِ والأذنِ واللِّسانِ والفمِ واليدِ والرِّجْلِ ؛ فرابطُوا على هٰذه الثغورِ كُلَّ المرابطةِ، فمتى دخلتُم منها إلى القلبِ فهو قتيلٌ أو أسيرٌ، أو جريحٌ مُثْخَنٌ بالجـراحـاتِ، ولا تُخلوا هٰذه الثغورَ، ولا تُمكِّنُوا سَرِيَّةً تدخلُ مِنها إلى

القلبِ فَتُخْرِجَكُم منها، وإن غُلِبْتُم فاجتَهِدُوا في إضعافِ السَّرِيَّةِ ووَهْنِهَا، حتى لا تصلَ إلى القلبِ، وإن وصلتْ إليه وصلتْ ضعيفةً لا تُغني شيئاً.

فإذا استوليتُم على هٰذه الثُّغورِ فامنعُوا ثغرَ العينِ أنْ يكونَ نظرهُ اعتباراً، بل اجعلُوا نظرهُ تَفرُّجاً واستحساناً وتَلَهِّياً، فإنِ استرقَ نظرةَ عِبْرَةٍ فأفسدُوها عليه بنظرة الغفلةِ والاستحسانِ والشهوةِ، فإنَّه أقربُ إليه وأعلقُ بنفسه، وأخفُّ عليه، ودونَكُم ثغرَ العينِ، فإنَّ منه تنالونَ بُغيَتَكُم، فإنِّي ما أفسدتُ بني آدمَ بشيءٍ مثلَ النظرِ؛ فإنِّي أبذرُ به في القلبِ بذرَ الشهوةِ، ثم أسقيهِ بماءِ الأُمْنِيّةِ، ثم لا أزالُ أعِدُهُ وأُمَنِّيه حتى أُقوِّيَ عزيمَتَهُ، وأقودَهُ بزمامِ الشهوةِ إلى الانخلاعِ مِنَ العصمةِ؛ فلا تهملُوا أمرَ هٰذا الثغرِ، وأفسدوهُ بحسبِ استطاعتكم، وهوِّنُوا عليه أمرَهُ وقولُوا له: ما مِقدارُ نظرةٍ تدعوكَ إلى تسبيحِ الخالقِ، والتأمُّل لبديعِ صنيعهِ، وحُسنِ هٰذه الصورةِ التي إنَّما خُلِقَتْ ليستدلَّ بها الناظرُ عليه. وما خلقَ اللهُ لك العينينِ سدىً. وما خلق هٰذه الصورةَ لِيَحْجُبَهَا عنِ النظر! وإنْ ظفرتُم به قليلَ العلمِ فاسدَ العقلِ، فقولُوا له: هٰذه الصورةُ مظهرٌ من مظاهرِ الحقِّ ومَجْلى مِنْ مجاليهِ، فادعُوهُ إلى القولِ بالاتِّحادِ[1]! فإنْ لم يقبلْ فالقولُ بالحلولِ العامِّ أو الخاصِّ[2]. ولا تقنَعُوا منه بدونِ ذٰلك، فإنَّه يصيرُ به مِنْ إخوانِ النَّصارى، فمُروهُ حينئذٍ بالعِفَّةِ والصيانةِ، والعبادةِ والزُّهدِ في الدنيا، واصطادُوا عليه وبه الجُهَّالَ، فهٰذا من أقربِ خُلفائِي، وأكبرِ جُندي، بل أنا مِنْ جُندهِ وأعوانه.

---

(١) هو ما يدَّعيه غُلاةُ الصوفيَّةِ الضُّلَّال الذين يزعُمون اتِّحاد الخالق بالمخلوق؛ تعالى اللهُ عمَّا يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً.

(٢) هو زَعْمٌ آخر، وفِرْيةٌ ثانية من فرى كَيْد الشيطان على قلوب الصوفيَّة الذين يزعمون ـ في حينٍ ما ـ حلولَ الخالق بالمخلوق!! جلَّ شأنُهُ.

٥٠ ـ فَصْلٌ [حفظ الأذن عن سماع المحرّمات]:

ثم امنعُوا ثغرَ الأذنِ أنْ يدخلَ منه ما يفسدُ عليكم الأمرُ، فاجتهدوُا أنْ لا يدخلَ منه إلا الباطلُ، فإنَّهُ خفيفٌ على النفسِ، تستحليه وتستجملهُ، وتخيَّروا أعذبَ الألفاظِ وأسحرَها للألبابِ، وامزجُوهُ بما تهوى النفوسُ مزجاً.

وألقوا الكلمةَ: فإنْ رأيتُم منه إصغاءً إليها فزجُّوهُ بأخواتِها، وكُلَّما صادفتُم منه استحسانَ شيءٍ فالْهَجُوا له بذكرِهِ، وإيَّاكُم أنْ يدخلَ مِن هٰذا الثغرِ شيءٌ مِنْ كلامِ اللهِ أو كلامِ رسولِهِ ﷺ أو كلامِ النُّصحاءِ، فإن غُلبتُم على ذٰلك ودخلَ مِنْ ذٰلك شيءٌ فَحُولُوا بينه وبين فهمِهِ وتدبُّرِهِ وتَفْكُّرِهِ فيه والعِظَةِ به، إمَّا بإدخالِ ضدِّه عليه، وإما بتهويلِ ذٰلك وتعظيمِهِ، وإفهامِهِ أنَّ هٰذا أمرٌ قد حِيلَ بينَ النفوسِ وبينه فلا سبيلَ لها إليه، وهو حِمْلٌ ثقيلٌ عليها لا تشتغلَ به، ونحوُ ذٰلك، وإما بإرخاصِهِ على النفوسِ وأنَّ الاشتغالَ ينبغي أنْ يكونَ بما هو أعلى عندَ الناسِ، وأعزُّ عليهم، وأغربُ عندَهم، وزبونُهُ ـ القابلُونَ له ـ أكثرُ[1]، وأما الحقُّ فهو مهجورٌ، وقائلهُ مُعَرِّضٌ نفسَهُ للعداوةِ، والرابحُ بينَ الناس أولى بالإيثارِ، ونحوُ ذٰلك، فتُدخِلُونَ الباطلَ عليه في كلِّ قالبٍ يقبلهُ ويَخِفُّ عليه، وتُخرجُونَ له الحقَّ في كُلِّ قالبٍ يكرهُهُ ويثقلُ عليه.

وإذا شئتَ أن تعرفَ ذٰلك فانظرْ إلى إخوانهم من شياطينِ الإنسِ، كيفَ يُخْرِجُونَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ في قالبِ كثرةِ الفضولِ، وتتبُّعِ عثَراتِ الناسِ، والتعرُّضِ مِنَ البلاءِ لما لا يطيقُ، وإلقاءِ الفتنِ بين الناسِ، ونحوَ ذٰلك، ويُخرجونَ اتِّباعَ السُّنَّةِ ووصفَ الربِّ تعالى بما وصفَ به نفسَهُ

---

(١) هٰذه بضاعةُ الفارغين، الكثرةُ والتكثُّر، ولو بكلام كثير العَدد قليل العُدد!
أمَّا طُلَّابُ العلمِ وأهلُ الحقِّ؛ فلا ينظرون إلَّا إلى الحقِّ بأبهى صُورِهِ، دون النظر إلى قلَّةٍ أو كثرةٍ؛ فليس ذٰلك معياراً بأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

ووصفهُ به رسولُهُ ﷺ في قالبِ التَّجسيمِ والتَّشبيهِ والتكييفِ! ويسمُّون علوَّ الله على خلقـه واستواءَه على عرشِهِ ومباينته لمخلوقاته تحيُّزاً، ويُسَمُّونَ نزولَهُ إلى سماءِ الدُّنيا وقولَه: «مَنْ يَسْأَلْنِي فأُعْطِيه»[1] تحرُّكاً وانتقالاً! ويسمُّونَ ما وصفَ به نفسَهُ مِنَ اليدِ والوجهِ أعضاءً وجوارحَ! ويُسَمُّونَ ما يقومُ به من أفعالِهِ حوادثَ! وما يقومُ به من صفاتِهِ أعراضاً! ثم يتوصَّلونَ إلى نفيِ ما وصفَ به نفسَهُ بنفي هٰذه الأمورِ، ويُوهمونَ الأغمارَ[2] وضعفاءَ البصائرِ، أنَّ إثباتَ الصفاتِ التي نطقَ بها كتابُ اللهِ وسنَّةُ رسولِهِ ﷺ تستلزمُ هٰذه الأمورَ، ويُخرجونَ هٰذا التَّعطيلَ في قالبِ التنزيهِ والتَّعظيمِ! وأكثرُ النَّاسِ ـ ضعفاءِ العقولِ ـ يقبلونَ الشيءَ بلفظٍ، ويَرُدُّونَهُ بعينِهِ بلفظٍ آخرَ:

قال تعالى: ﴿وكذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ فسمَّاهُ زُخْرُفاً، وهو باطلٌ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُزخرفُهُ ويُزَيِّنُهُ ما استطاعَ، ويُلقيهِ إلى سمعِ المغرورِ؛ فيغترُّ به.

والمقصودُ: أنَّ الشيطانَ قد لزمَ ثغرَ الأذنِ يُدْخِلُ فيها ما يضرُّ العبدَ ولا ينفعُهُ، ويمنعَ أن يدخلَ إليها ما ينفعُهُ، وإنْ دخلَ بغيرِ اختيارِهِ أفسدَ عليه.

٥١ ـ فَصْلٌ [حفظ اللسان عن الكلام في المحرّمات]:

ثم يقول: قوموا على ثغرِ اللسانِ؛ فإنَّه الثغرُ الأعظمُ، وهو قِبَالَةُ الملكِ؛ فأَجْرُوا عليه مِنَ الكلامِ ما يضرُّهُ ولا ينفعهُ، وامنعوهُ أنْ يجري عليه شيءٌ مما

---

(١) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) نَعَم؛ تمويهُهُم كلُّه وتلبيسُهُم جميعهُ على هٰذا الصِّنْفِ من الناس الجهلةِ، والأغمار، والذين لا يُمَيِّزُونَ ـ بالحقِّ ـ بين ليلٍ أو نهار...

فالمُخلصـون منهم عَرَفوا الحقَّ ـ أو سيعرفون ـ، وبالتالي هجروا ذاك التلبيس، وفارقوا ذيَّاك التدليس!!

ينفعـهُ: مِنْ ذكرِ اللهِ تعالى، واستغفارِهِ، وتلاوةِ كتابِهِ، ونصيحةِ عبادِهِ، والتكلّمِ بالعلمِ النافعِ، ويكونُ لكم في هٰذا الثغرِ أمرانِ عظيمانِ، لا تبالونَ بأيِّهما ظفرتُم:

أحدهما: التكلُّمُ بالباطلِ؛ فإنَّ المتكلِّمَ بالباطلِ أخٌ مِنْ إخوانِكم ومن أكبرِ جُندِكُم وأعوانِكُم.

والثاني: السكوتُ عن الحقِّ، **فإنَّ الساكتَ عن الحقِّ أخٌ لكم أخرسُ**، كما أنَّ الأولَ أخٌ ناطقٌ، وربَّما كانَ الأخُ الثاني أنفعَ أخوتِكُم لكم، أما سمعتُم قولَ النَّاصِحِ [1]: «المتكلمُ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ، والساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسٌ».

فالـربـاطَ الرباطَ على هٰذا الثغرِ أنْ يتكلم بحقٍّ أو يمسكَ عن باطلٍ، وزيِّنوا له التكلمَ بالباطِلِ بكلِّ طريقٍ، وخوِّفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بالحقِّ بِكُلِّ طريقٍ.

واعلمُوا يا بَنِيَّ أنَّ ثغرَ اللسانِ هو الذي أَهلِكُ منه بني آدَمَ، وأكِبُّهم منه على مناخرِهم في النارِ، فكم لي من قتيلٍ أو أسيرٍ وجريحٍ أخذتهُ مِنْ هٰذا الثغرِ؟!

وأُوصيكُم بوصيةٍ؛ فاحْفَظُوهَا: لِيَنْطِقْ أحدُكم على لِسانِ أخيهِ مِنَ الإنسِ بالكلمـةِ، ويكـونُ الآخـرُ على لسـانِ السَّامعِ، فينطقُ باستحسانِهَا وتعظيمِها والتعجُّبِ منها، ويطلبُ مِنْ أخيهِ إعادَتَها.

وكـونـوا أعواناً على الإنسِ بكلِّ طريقٍ، وادْخُلُوا عليهم مِنْ كلِّ بابٍ، واقعُدُوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ، أما سمعتُم قَسَمي الذي أقسمتُ به لربِّهم حيثُ قلتُ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

---

(1) هو أبو عليٍّ الدَّقَّاق المتوفى سنة (412هـ)، ترجمته في «البداية والنهاية» (12 / 13). ونصُّ كلامهِ في «الرسالة القُشيرية» (ص 57).

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ و١٧].

أَوَمَا تَرَوْني قد قعدتُ لابنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كلِّها، فلا يفوتُني من طريقٍ إلَّا قعدتُ له بطريقٍ غيره، حتى أصيبَ منه حاجتي أو بعضَها؟ وقد حذَّرهم ذٰلك رسولُهم وقال لهم: «إنَّ الشيطانَ قَدْ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ كُلِّهَا؛ فقَعَدَ لَهُ بِطريقِ الإِسلامِ، فقالَ: أَتُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائكَ؟ فخالَفَهُ وأسلمَ، فَقَعَدَ لَهُ بطريقِ الهجرةِ، فقالَ: أَتُهاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَخالَفَهُ وهَاجَرَ، فقعدَ له بطريقِ الجهادِ، فقالَ: أَتُجاهِدُ فَتُقْتَلَ فيُقْسَمَ المالُ وَتُنْكَحَ الزَّوجةُ؟»(١).

فهٰكذا فاقعُدُوا لهم بكلِّ طُرُقِ الخيرِ، فإذا أرادَ أحدُهم أنْ يتصدَّقَ فاقعُدُوا له على طريقِ الصَّدقةِ، وقولوا له في نفسهِ: أَتُخْرِجُ المالَ فتبقى مثلَ هٰذا السائلِ، وتصيرُ بمنزلتِهِ أنتَ وهو سواءٌ؟ أوما سمعتمْ ما أُلقيتُ على لسانِ رجلٍ سألَهُ آخَرُ أن يتصدَّقَ عليه، فقالَ: هي أموالُنا إنْ أعطيناكُمُوهَا صِرْنَا مثلكُم.

واقعُدُوا لهم بطريقِ الحجِّ، فقولوا: طريقهُ مَخُوفةٌ مُشِقَّةٌ، يتعرَّضُ سالِكُهَا لِتَلَفِ النفسِ والمالِ، وهٰكذا فاقعدُوا على سائرِ طُرُقِ الخيرِ بالتنفيرِ منها وذِكْرِ صعوبَتِها وآفاتِهَا، ثم اقعدُوا لهم على طرقِ المعاصِي فحسِّنوها في أعينِ بني آدَمَ، وزيِّنُوهَا في قلوبِهِمْ، واجعَلُوا أكبَرَ أعوانِكُم على ذٰلك النساءَ، فمنْ أبوابِهِنَّ فادخُلُوا عليهم؛ فَنِعْمَ القومُ هُنَّ لكم.

ثم الزمُوا ثغرَ اليدينِ والرِّجلينِ، فامنعُوها أن تبطشَ بما يضرُّكُم أو تمشي فيه.

واعلمُوا أنَّ أكبرَ أعوانِكُم على لزومِ هٰذه الثغورِ مُصالحةُ النفسِ الأمَّارةِ،

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٨٣)، والنسائي (٦ / ٢١)، وابن حبان (٤٥٩٣)، والطبراني (٦٥٥٨) بسند حسن عن سَبْرة بن أبي الفاكِه.

فأعينُوها واستعينُوا بها، وأمِدُّوهَا واستمِدُّوا منها، وكونُوا معها على حربِ النَّفسِ المُـطمئنَّةِ، فاجتهدُوا في كسرِها وإبطالِ قُواهَا، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بقطع موادِّهـا عنها؛ فإذا انقطَعَتْ موادُّها وقويتْ موادُّ النفسِ الأمَّارةِ، وانطاعَتْ لكم أعـوانُهَـا فاستنـزلُوا القلبَ مِنْ حِصْنِهِ واعزلُوهُ عن مملَكتهِ، وولُّوا مكانَهُ النفسَ الأمَّارةَ، فإنَّها تأمرُ بما تَهْوَوْنَهُ وَتُحِبُّونَهُ، ولا تجيئكُم بما تكرهونَ البتَّةَ، مع أنَّها لا تُخـالِفُكم في شيءٍ تُشيرونَ به عليهـا، بل إذا أشرتُم عليها بشيءٍ بادرَتْ إلى فعلِهِ، فإنْ أحْسَسْتُم مِنَ القلبِ مُنـازعـةً إلى مملكتهِ، وأردتُم الأمنَ مَنْ ذلك فاعقدُوا بينه وبينَ النفسِ عَقْدَ النِّكاحِ؛ فزيِّنوها وجمِّلوها، وأروُها إياه في أحسنِ صورةِ عروسٍ توجَـدُ، وقـولـوا له: ذُقْ طعمَ هذا الـوصـالِ، والتمتُّعِ بهذه العروسِ، كما ذقتَ طعمَ الحربِ، وباشَرْتَ مرارةَ الطعنِ والضَّرْبِ! ثم وازِنْ بينَ لذَّةِ هذه المسـالمـةِ ومـرارةِ تلك المحاربةِ؛ فدَعِ الحربَ تضعْ أوزارَها، فليستْ بيومٍ وينقضي، وإنَّمـا هو حربٌ متَّصـلٌ بالموتِ، وقواك تضعفُ عن حربٍ دائمٍ.

واستعينُوا يا بنيَّ بِجُندين عظيمينِ لن تُغْلَبُوا معهما:

أحـدهمـا: جنـدُ الغفلةِ؛ فَأَغْفِلُوا قلوبَ بني آدَمَ عنِ اللهِ تعالى والدارِ الآخرةِ بكلِّ طريقٍ، فليس لكم شيءٌ أبلغُ في تحصيلِ غرضكم من ذلك؛ فإنَّ القلبَ إذا غفلَ عنِ اللهِ تعالى تمكنتُم منه ومِنْ إغوائِهِ.

والثـاني: جنـدُ الشهواتِ؛ فزيِّنوها في قلوبهم؛ وحسِّنُوها في أعينِهم، وصُولُوا عليهم بهذينِ العسكرينِ؛ فليسَ لكم في بني آدَمَ أبلغُ منهما، واستعينُوا على الغفلةِ بالشَّهـواتِ، وعلى الشهـواتِ بالغفلةِ، واقـرنُوا بين الغافلينَ، ثم استعينُوا بهما على الذَّاكِرِ، ولا يغلبُ واحدٌ خمسةً؛ فإنَّ مع الغافِلِين شيطانَيْنِ صاروا أربعـةً، وشيطانُ الـذَّاكِرِ معهم، وإذا رأيـتُم جماعةً مجتمِعِينَ على ما يضرُّكُم ـ مِنْ ذكرِ اللهِ أو مذاكرةِ أمرِهِ ونهيهِ ودينهِ، ولم تقدِرُوا على تفريقِهم ـ؛

فاستعينُوا عليهم ببني جنسِهم مِنَ الإنسِ البطَّالينَ، فقرِّبُوهُم منهم، وشَوِّشُوا عليهم بهم.

وبالجُملةِ؛ فأعدُّوا للأمورِ أقرانَها، وادخُلُوا على كلِّ واحدٍ مِنْ بني آدَمَ مِنْ بابِ إرادتِهِ وشهوتِهِ، فساعدُوهُ عليها، وكونُوا أعواناً له على تحصيلِها، وإذا كانَ اللهُ قد أمرهُم أن يصبِرُوا لكم ويُصابِرُوكُم، ويُرابِطُوا عليكم بالثغورِ، فاصبرُوا أنتم وصابِرُوا ورابطوا عليه بالثغورِ، وانتهزُوا فُرَصَكُم فيهم عندَ الشهوةِ والغضبِ، فلا تصطادونَ بني آدَمَ في أعظمِ من هٰذَيْنِ الموطِنَيْنِ.

واعلموا أنَّ منهم مَنْ يكونُ سلطانُ الشهوةِ عليه أغلبَ، وسلطانُ غضبِهِ ضعيفٌ مقهورٌ؛ فخذُوا عليه طريقَ الشهوةِ، ودَعُوا طريقَ الغضبِ، ومنهم مَنْ يكونُ سلطانُ الغضبِ عليه أغلبَ فلا تُخْلوا طريقَ الشهوةِ عليه، ولا تُعَطِّلُوا ثغرَها، فإنَّ مَنْ لم يملكْ نفسَهُ عندَ الغضبِ فإنَّهُ بالحريِّ أنْ لا يملِكَها عندَ الغضبِ مِنْ طريقِ الشهوةِ؛ فزَوِّجُوا بينَ غضبِهِ وشهوتِهِ، وامزُجُوا أحدهُما بالآخرِ، وادعُوهُ إلى الشهوةِ مِنْ بابِ الغضبِ، وإلى الغضبِ مِنْ طَريقِ الشهوةِ.

واعلَمُوا أنَّه ليس لكم من بني آدَمَ سلاحٌ أبلغُ مِنْ هٰذين السلاحين، وإنَّما أخرجْتُ أبويهم مِنَ الجنَّةِ بالشَّهْوَةِ، وإنَّما ألقيتُ العدواةَ بينَ أولادِهم بالغضبِ؛ فبه قطعتُ أرحامَهم، وسفكتُ دماءَهم، وبه قتلَ أحدُ ابْنَيْ آدَمَ أخاه.

واعلَمُوا أنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلبِ ابنِ آدَمَ، والشهوةُ نارٌ تثورُ مِنْ قلبِهِ، وإنما تُطفأُ النَّار بالماءِ والصلاةِ والذكرِ والتكبير[1]؛ فإياكم أنْ تُمكِّنُوا بني آدَمَ عندَ غضبِهِ وشهوتِهِ مِنْ قُربانِ الوضوءِ والصلاةِ، فإنَّ ذٰلك يُطفىءُ عنهم نارَ الغضبِ

---

(١) وحديثُ: «إذا رأيتم الحريق؛ فَكَبِّروا، فإنَّ النار تُطْفئه»؛ رواه ابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٢٩٤)، وابن عدي في «الكامل» (٥ / ١٧٦٥) بسند شديدِ الضعف، فيه القاسم العُمري، وهو متروكٌ.

والشهوةِ، وقد أمرَهُم نبيُّهم بذلك، فقال: «إنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قلبِ ابنِ آدَمَ، أَمَا رأيْتُم مِن احْمِرَارِ عينيهِ وانتفاخِ أوداجِهِ، فمنْ أَحَسَّ ذلك؛ فَلْيَتَوَضَّأْ»[1]، وقال لهم: «إنَّما تُطْفَأُ النَّارُ بالماءِ»[2].

وقد أوصاهم اللهُ أن يستعينُوا عليكم بالصبرِ والصلاةِ؛ فحُولُوا بينهم وبين ذلك، وأنسُوهم إياه، واستعينُوا عليكم بالصبرِ والصلاةِ؛ فَحُولُوا بَينهم وبينَ ذلك، وأنسُوهُم إياه، واستعينُوا عليهم بالشهوةِ والغضبِ، وأبلغُ أسلحتِكم فيهم وأنكاها: الغفلةُ، واتِّباعُ الهوى.

وأعظمُ أسلحتهم فيكم، وأمنعُ حصونِهِمْ: ذكرُ اللهِ، ومخالفةُ الهوى، **فإذا رأيتُم الرجلَ مخالفاً لهواه فاهربُوا مِنْ ظلِّهِ، ولا تدنُوا منه.**

والمقصود أنَّ الذنوبَ والمعاصِي سلاحٌ وَمَدَدٌ يَمُدُّ بها العبدُ أعداءَهُ، ويُعِينُهُم على نفسهِ، فيقاتلونَهُ بسلاحِهِ، ويكونُ معهم على نفسهِ، وهٰذا غايةُ الجهلِ.

مَا يَبْلُغُ الأعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ　　　مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

---

(١) قطعةٌ من حديثٍ رواه أحمد (٣ / ١٩، ٦١)، والترمذي (٢٣٢٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» (٢ / ٣٦)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٨٢٨٩)، والحاكم (٤ / ٥٠٥)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٥٦)، والحُميدي (٧٥٢) عن أبي سعيد الخدريِّ.

وفي إسناده عليّ بن زيد بن جُدعان؛ وهو سَيِّء الحفظ.

وقد رُويت هٰذه القطعة بإسناد مرسل:

رواه عبد الرزَّاق (٢٠٢٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٢٨٩) عن الحسن مُرسلاً.

(٢) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤٧٨٤)، وأحمد (٤ / ٢٢٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤ / ١ / ٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / رقم ٤٤٣) عن عطيَّة السَّعدي، وفي إسناده مجهولان.

ومِنَ العجَائِبِ أنَّ العبدَ يسعى بجهدِهِ في هوانِ نفسهِ، وهو يزعُمُ أنَّهُ لها مُكـرمٌ، ويجتهـدُ في حرمانِها أعلى حظوظها وأشرفَها وهو يزعُمُ أنَّه يسعى في حظِّهـا، ويبـذلُ جهدَه في تحقيرِها وتصغيرِها وتدسيتها، وهو يزعمُ أنَّه يُعليهَا ويرفعُها ويكبرُها.

وكان بعضُ السلفِ يقولُ في خطبتِهِ: ألا رُبَّ مهين لنفسهِ وهو يزعُمُ أنَّه لها مكرمٌ، ومُذِلٍّ لنفسهِ وهو يزعُمُ أنَّهُ لها مُعِزٌّ، ومُصَغِّرٍ لنفسهِ وهو يزعُمُ أنَّهُ لها مكبِّرٌ، ومُضَيِّعٌ لنفسهِ وهو يزعمُ أنَّه مُـراعٍ لحقِّهـا؟ وكفى بالمرءِ جهلاً أن يكونَ مع عدوِّهِ على نفسهِ، يبلغُ منها بفعلهِ ما لم يبلغْ منه عدوُّهُ.

واللهُ المستعانُ.

٥٢ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب نسيان النفس وإهمالها]:

٥١ ـ ومن عقـوبـاتِها: أنها تُنسي العبدَ نفسَهُ، وإذا نسيَ نفسَهُ أهمَلَهَا وأفسدَها وأهلَكَهَا.

فإن قيلَ: كيفَ ينسى العبدُ نفسَهُ؟ وإذا نسي نفسَهُ فأيُّ شيءٍ يذكرُ؟ وما معنى نسيانِهِ نفسَهُ؟

قيل: نعم ينسىٰ نفسـهُ أعـظمَ نسيانٍ، قال اللهُ العـظيمُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُم أُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

فلما نسُوا ربَّهم سبحانه نسيَهُم وأنساهم أنفسَهم، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم﴾ [التوبة: ٦٧]، فعاقَبَ سبحانَهُ مَنْ نسيهُ عقوبتين:

إحداهُما: أنَّهُ سبحانه نسِيه.

والثانية: أنَّه أنساه نفسَه.

ونسيانُهُ سبحانه للعبدِ إهمالُهُ وتركُهُ وتخلِّيه عنه وإضاعتُهُ[1]؛ فالهلاكُ أدنى إليه مِنَ اليدِ للفمِ، وأمَّا إنساؤهُ نفسَهُ فهو إنساؤهُ لحظوظِها العاليةِ، وأسباب سعادتِها وفلاحِهَا وصلاحِهَا وما تكملُ به نفسُهُ، يُنسيهِ ذٰلك جميعَهُ، فلا يُخطِرْهُ ببالِهِ، ولا يجعلهُ على ذكرِهِ، ولا يصرفُ إليه همَّتَهُ فيرغَبَ فيه، فإنه لا يمرُّ بباله حتى يقصدَهُ ويؤْثِرَهُ.

وأيضاً فَيُنسيه عيوبَ نفسِهِ ونقصَهَا وآفَاتِها؛ فلا يخطرُ ببالِهِ إزالتُها وإصلاحُهَا.

وأيضاً يُنسيهِ أمراضَ نفسِهِ وقلبِهِ وآلامَها؛ فلا يخطرُ بقلبِهِ مُداواتُها، ولا السَّعيُ في إزالةِ عِلَلِها وأمراضِها التي تؤولُ به إلى الفسادِ والهلاكِ، فهو مريضٌ مُثْخَنٌ بالمرضِ، ومرضُهُ مُترامٍ به إلى التَّلَفِ، ولا يشعرُ بمرضِهِ، ولا يخطرُ ببالِهِ مداواتُهُ، وهٰذا مِنْ أعظمِ العقوبةِ العامةِ والخاصةِ.

فأيُّ عقوبةٍ أعظمُ مِنْ عقوبةِ مَنْ أهملَ نفسَهُ وضيَّعَها، ونَسِيَ مصالِحَها وداءَهَا ودواءَها، وأسبابَ سعادَتِهَا وفلاحِهَا وصلاحِها وحياتِها الأبديَّةِ في النعيمِ المقيمِ!

ومَنْ تأمَّلَ هٰذا الموضِعَ تبيَّنَ له أنَّ أكثرَ هٰذا الخلقِ قد نسوُا أنفُسَهُم حقيقةً وضيَّعُوهَا وأضاعُوا حَظَّها مِنَ اللهِ، وباعُوها رخيصةً بثمنٍ بخسٍ بيعَ الغُبنِ، وإنَّما يظهرُ لهم هٰذا عندَ الموتِ، ويظهرُ هٰذا كلَّ الظهورِ يومَ التغابُنِ[2]، يومَ يظهرُ للعبدِ أنَّه غُبِنَ في العَقْدِ الذي عقدَهُ لنفسِهِ في هٰذه الدارِ، والتجارة التي اتَّجَرَ فيها لمعادِهِ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتَّجِرُ في هٰذه الدُّنيا لآخرتِه.

---

(١) وما يتوهَّمه بعضُ المؤوِّلة لصفاتِ الباري سبحانه مِن أنَّ هٰذا التفسيرَ نوعٌ مِن التأويل: خطأٌ محضٌ؛ فهٰذا تفسيرٌ لُغويٌّ للنسيانِ جارٍ على أصول منهج السَّلَف وقواعد لُغة العَرَب.

(٢) يوم القيامة.

فالخاسِرُونَ الذين يعتقدونَ أنَّهم أهلُ الربحِ والكسبِ اشتروا الحياةَ الدُّنيا وحظَّهم فيها ولذَّاتِهم بالآخرةِ وحظِّهم فيها، فأذهَبُوا طيباتِهم في حياتِهم الدُّنيا، واستمتعُوا بهـا، ورضُوا بها، واطمأنّوا إليها، وكانَ سعيُهم لتحصيلِها، فباعُوا واشترُوا واتَّجَرُوا وباعُوا آجلًا بعاجلٍ، ونسيئةً بنقدٍ، وغائباً بناجزٍ[1]، وقالوا: هٰذا هو الحزمُ، ويقولُ أحدهم:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... ...

وكيف أبيعُ حاضِراً نقداً مُشاهَداً في هٰذه الدار بغائبٍ نسيئةً في دارٍ أخرى غير هٰذه؟! وينضمُّ إلى ذٰلك ضعفُ الإيمانِ، وقوةُ داعي الشهوةِ، ومحبَّةُ العاجلَةِ والتَّشبُّهُ ببني الجنسِ، فأكثرُ الخلق في هٰذه التجارةِ الخاسرةِ التي قال اللهُ سبحانه في أهلها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

فإذا كانَ يومُ التغابنِ ظهرَ لهم الغُبْنُ في هٰذه التجارةِ، فتتقطعُ عليها النفوسُ حَسَراتٍ.

وأمَّا الرابحونَ فإنَّهم باعوُا فانياً بباقٍ، وخسيساً بنفيسٍ، وحقيراً بعظيمٍ، وقالوا: ما مِقْدارُ هٰذه الدنيا مِنْ أوَّلِها إلى آخِرها، حتى نبيعَ حظَّنا مِنَ اللهِ تعالى والدارِ الآخرةِ بها؟ فكيفَ بما ينالُ العبدُ منها في هٰذا الزمنِ القصيرِ الذي هو في الحقيقةِ كِغفوةِ حُلُمٍ، لا نسبةَ له إلى دارِ القرارِ ألبتَّةَ:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُم﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) بحاضرٍ.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُم إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُم كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُم إِلَّا عَشْراً . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤].

فهٰذه حقيقةُ الدنيا عندَ مُوافاةِ يومِ القيامةِ، فلمَّا علموا قلَّة لُبثهم فيها، وأنَّ لهم داراً غيرَ هٰذه الدارِ، هي دارُ الحيوانِ ودارُ البقاءِ؛ رأوا منْ أعظمِ الغُبْنِ بيعَ دارِ البقاءِ بدارِ الفناءِ؛ فاتَّجروا تجارةَ الأكياسِ، ولم يغترُّوا بتجارةِ السفهاءِ مِنَ النَّاسِ، فظهرَ لهم يومَ التغابنِ ربحُ تجارتِهم ومقدارُ ما اشتروهُ، وكلُّ أحدٍ في هٰذه الدارِ الدُّنيا بائعٌ مُشترٍ مُتَّجِرٌ، و«كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبائعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُها»[1].

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عليهِ حَقّاً فِي التَّوراةِ والإِنْجِيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالكٍ الأشعريِّ.

[التوبة: ١١١].

فهٰذا أولُ نقدٍ مِنْ ثمن هٰذه التجارةِ، فتاجِرُوا أيُّها المفلِسُونَ، ويا مَنْ لا يقدرُ على هٰذا الثمنِ ها هنا ثمنٌ آخرُ، فإنْ كنتَ مِنْ أهلِ هٰذه التجارةِ فأعطِ هٰذا الثمنَ.

﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُم ذٰلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ و١١].

والمقصودُ: أنَّ الذنوبَ تُنسي العبدَ حظَّه مِنْ هٰذه التِّجارةِ الرابحةِ، وتَشْغَلُهُ بأسباب بالتجارةِ الخاسرةِ، وكفى بذلك عقوبةً، واللهُ المستعانُ.

٥٣ ـ فَصْلٌ [المعاصي تزيل النِّعم الحاضرة والواصلة]:

٥٢ ـ ومِنْ عقوباتِها: أنَّها تزيلُ النِّعَمَ الحاضرةَ، وتقطعُ النِّعَمَ الواصِلَةَ، فَتُزِيلُ الحاصلَ، وتقطعُ الواصلَ، فإنَّ نعمَ اللهِ ما حُفِظَ موجودُها بمثلِ طاعتِهِ، ولا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بمثلِ طاعتِهِ، فإنَّ ما عندَه لا يُنالُ إلَّا بطاعتِهِ، وقد جعَلَ اللهُ سبحانه لكلِّ شيءٍ سبباً وآفةً؛ سبباً يجلِبُه، وآفةً تُبطلُهُ، فجعلَ أسبابَ نعمِهِ الجالبةَ لها طاعتَه، وآفاتِها المانعَةَ منها معصيتَهُ، فإذا أرادَ اللهُ حفظَ نعمتِهِ على عبدِهِ ألهمَهُ رعايتَها بطاعَتِهِ فيها، وإذا أرادَ زوالَها عنه خَذَلَهُ حتى عصاه بها.

ومِنَ العجبِ علمُ العبدِ بذلك مُشاهدةً في نفسِهِ وغيرِهِ، وسماعاً لما غابَ عنه مِنْ أخبارِ مَنْ أزيلَتْ نعمُ اللهِ عنهم بمعاصيهِ، وهو مُقيمٌ على معصيةِ اللهِ،

كأنَّهُ مستثنىً مِنْ هٰذه الجملةِ أو مخصوصٌ مِنْ هٰذا العمومِ، وكأنَّ هٰذا أمرٌ جارٍ على النَّاسِ لا عليه، وواصلٌ إلى الخلق لا إليه.

فأيُّ جهلٍ أبلغُ مِنْ هٰذا؟! وأيُّ ظلمٍ للنفسِ فوقَ هٰذا؟!

فالحكمُ للهِ العليِّ الكبيرِ.

٥٤ ـ فَصْلٌ [المعاصي تبعد عن العبد الملائكة]:

٥٣ ـ ومن عقوباتِها: أنَّها تُباعِدُ عن العبدِ وليَّهُ، وأنفعَ الخلقِ له، وأنصحهم له، ومَنْ سعادتُهُ في قُرْبِهِ منه، وهو المَلَكُ المَوَكَّلُ به، وتُدْنِي منه عدوَّهُ، وأغشَّ الخلقِ له، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطانُ، فإنَّ العبدَ إذا عصى اللهَ تباعَدَ منه الملَكُ بقدرِ تلك المعصيةِ، حتى إنَّهُ ليتباعدُ عنه بالكذبةِ الواحدةِ مسافةً بعيدةً.

وفي بعض الآثارِ: «إذا كَذَبَ العبدُ تَباعَدَ منه المَلَكُ ميلاً مِنْ نَتَنِ ريحهِ»[1]، فإذا كانَ هٰذا تباعُدُ المَلَكِ منهُ مِنْ كذبةٍ واحدةٍ؛ فماذا يكونُ مقدارُ بعدِهِ منه فيما هو أكبرُ من ذٰلك، وأفحشُ منه؟

وقال بعضُ السلفِ: إذا ركبَ الذَّكَرُ الذَّكَرَ عَجَّتِ الأرضُ إلى اللهِ، وهربتِ الملائكةُ إلى ربِّها، وشَكَتْ إليه عظيمَ ما رأتْ.

وقال بعضُ السلفِ: إذا أصبحَ العبدُ ابتدرهُ المَلَكُ والشيطانُ، فإذا ذكرَ اللهَ وكبَّرَهُ وحمدَهُ وَهَلَّلَهُ طردَ الملكُ الشيطانَ وتولاَّهُ، وإنِ افتتحَ بغيرِ ذٰلك ذهبَ المَلَكُ عنه وتولاَّهُ الشيطانُ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٩)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٨ / ١٩٧)، وابن حبان في «المجروحين» (٢ / ١٣٧)، وابن عدي في «الكامل» (٥ / ١٩٢١) عن ابن عُمر.

وفي إسناده عبد الرحيم بن هارون، وهو ضعيفٌ، بل تركه بعضُ الحُفَّاظ.

ولا يزالُ المَلَكُ يقرُبُ مِنَ العبدِ حتى يصيرَ الحكمُ والغلبةُ والطاعةُ له، فتتولاَّهُ الملائكةُ في حياتِهِ وعندَ موتِهِ وعندَ بَعْثِهِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠ و٣١].

وإذا تَولاَّهُ المَلَكُ تَولاَّهُ أنصحُ الخلقِ وأنفعُهم وأبرُّهُم، فثبَّتَهُ وعلَّمه، وقوَّى جنانَه، وأيَّدَه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. فيقولُ له الملكُ عندَ الموتِ: «لا تخفْ ولا تحزنْ وأبشِرْ بالذي يسرُّك»[١]، ويُثبِّتُهُ بالقولِ الثابتِ أحوجَ ما يكونُ إليه في الحياةِ الدنيا، وعندَ الموتِ، وفي القبرِ عندَ المسألةِ.

فليس أحدٌ أنفعَ للعبدِ مِنْ صُحْبةِ المَلَكِ له، وهو وليُّهُ في يقظتِهِ ومنامِهِ، وحياتِهِ وعندَ موتِهِ وفي قبرِهِ، ومُؤنسُهُ في وحشتِهِ، وصاحبُهُ في خلوتِهِ، ومُحَدِّثُهُ في سرِّهِ، يُحاربُ عنه عدوَّهُ، ويدافعُ عنه ويُعينُهُ عليه، ويَعِدُهُ بالخيرِ ويُبشِّرُهُ به، ويَحُثُّهُ على التَّصْديقِ بالحقِّ، كما جاءَ في الأثرِ الذي يُروى مرفوعاً وموقوفاً: «إنَّ لِلْمَلَكِ بِقَلْبِ ابنِ آدَمَ لَمَّةً وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فلَمَّةُ المَلَكِ إيعادٌ بالخَيْرِ وتصديقٌ بالوَعْدِ، ولَمَّةُ الشَّيْطَانِ إيعادٌ بالشَّرِ وتكذيبٌ بالحقِّ»[٢].

---

(١) قطعة من حديثٍ صحيحٍ، تقدَّم تخريجه (ص ٤٠ ـ ٤٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٨)، والنَّسائي في «التفسير» (رقم ٧١)، والطبري (٣ / ٥٩)، وابن حبان (٩٩٧)، وأبو يعلى (٤٩٩٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٨٧).

وفي إسناده عطاء بن السائب، وهو مختلط، والراوي عنه ـ أبو الأحوص ـ روى عنه بعد الاختلاط.

وقد روي الحديثُ موقوفاً:

فرواه الطبري (٣ / ٥٩ ـ ٦٠)، وعبد الرزَّاق (١ / ١٠٩)، وابن مردويه ـ كما في «تفسير =

وإذا اشتـدَّ قُرْبُ المَلَكِ مِنَ العبدِ تَكَلَّمَ على لسانِهِ، وألقى على لسانِهِ القولَ السديدَ، وإذا بَعُدَ منه وَقَرُبَ منه الشيطانُ تكَلَّمَ على لسانِهِ، وألقى عليه الزُّورِ والفُحْشِ، حتى يُرى الرجلُ يتكلَّمُ على لسانِهِ المَلَكُ، والرجلُ يتكلمُ على لسانِهِ الشيطانُ.

وفي الحديثِ: «إنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»[1] رضي الله عنه.

وكـانَ أحـدُهم يسمعُ الكلمةَ الصالحةَ مِنَ الرجلِ الصالحِ فيقولُ: ما ألقاها على لسانِكَ إلا الملَكُ، ويسمعُ ضدَّها فيقولُ: ما ألقاها على لسانِكَ إلا الشيطانُ، فالمَلَكُ يلقِي في القلبِ الحقَّ، ويلقيهِ على اللسانِ، والشيطانُ يُلقي الباطلَ في القلبِ، ويُجريهِ على اللسانِ.

فمن عقـوبةِ المعاصِي: أنَّها تبعدُ مِنَ العبدِ وليَّه الذي سعادتُهُ في قربِهِ ومجـاورتِـهِ ومـوالاتِـهِ، وتُـدْنِي منه عدوَّهُ الذي شقاؤهُ وهلاكُهُ وفسادهُ في قربِهِ وموالاتِهِ، حيثُ إنَّ المَلَكَ لَيُنَافِحُ عن العبدِ، ويَرُدُّ عنه إذا سَفِهَ عليه السفيهُ وسبَّهُ، كمـا «اختَصَمَ بينَ يدي النَّبيِّ ﷺ رَجُلانِ، فَجَعَلَ أحدُهُمَا يَسُبُّ الآخَرَ، وهُوَ ساكِتٌ، فتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَرُدُّ بِهَا عَلَى صَاحِبِهِ، فقامَ النَّبيُّ ﷺ؛ فقال: يا رسولَ

= ابن كثير» (١ / ٣٢٢) - مِن طرق موقوفةٍ - ضعيفةٍ - يُقَوِّي بعضُها بعضاً.

وهـو ما رجَّحه أبو زُرعة الرازي - كما في «علل ابن أبي حاتم» (٢ / ٢٤٤) - بقوله عن الموقوف: «وهو الصحيحُ».

(١) هو موقوفٌ، مرويٌّ عن عدد من الصحابة بأسانيد بعضُها صحيحٌ؛ فانظر: «المسند» (١ / ١٠٦)، و«فضائل الصحابة» (رقم ٣١٠ و٤٧٠ و٥٢٢ و٥٢٣ و٦٠١ و٦١٤ و٦٣٤ و٧٠٧ و٧١١) لأحمد، و«المعجم الأوسط» (٣٦٦٤ - مجمع البحرين)، و«المعجم الكبير» (٩ / ١٨٤) للطبـراني، و«مصنَّف ابن أبي شيبة» (١٢ / ٢٣)، و«مصنَّف عبد الرزّاق» (١١ / ٢٢٢)، و«الحلية» (١ / ٤٢) و(٨ / ٢١١)، و«المعرفة والتاريخ» (١ / ٤٦١) للفسوي.

وانظر - أيضاً -: «مجمع الزوائد» (٩ / ٦٧)، و«المطالب العالية» (٣ / ٢٥٣).

اللهِ! لَمَّا رَدَدْتُ عليهِ بعْضَ قولِه قُمْتَ؟! فقال: كانَ المَلَكُ يُنافحُ عنكَ، فلَمَّا رَدَدْتَ عليهِ جاءَ الشَّيطانُ فَلَمْ أَكُنْ لأجْلِسَ معَ الشَّيطانِ»[1].

وإذا دعا العبدُ المسلمُ لأخيه بظهرِ الغيبِ أمَّنَ المَلَكُ على دعائهِ، وقال: «لَكَ بِمِثْلِه»[2].

وإذا فرغَ مِنْ قراءةِ الفاتحةِ أمَّنتِ الملائكةُ على دعائه[3].

وإذا أذنبَ العبدُ المؤمنُ الموحِّدُ المتَّبِعُ لسبيلِه وَسنَّةِ رسولِهِ ﷺ استغفرَ له حملةُ العرشِ ومَنْ حولَهُ[4].

وإذا نامَ على وضوءٍ باتَ في شعارِهِ[5] مَلَكٌ[6]؛ فكلما استيقظَ منَ الليلِ استغفرَ لهُ.

فمَلَكُ المؤمنِ يردُّ عنه ويُحاربُ ويدافعُ عنه، ويُعلِّمُهُ وَيُثَبِّتُهُ ويُشَجِّعُهُ، فلا يليقُ به أن يُسيءَ جوارهُ ويُبالغَ في أذاهُ وطردِهِ عنه وإبعادِهِ، فإنَّهُ ضيفُهُ وجارُهُ، وإذا كانَ إكرامُ الضيفِ مِنَ الآدميِّينَ والإحسانُ إلى الجارِ مِنْ لوازمِ الإيمانِ ومُوجباتِهِ[7]، فما الظنُّ بإكرامِ أكرمِ الأضيافِ، وخيرِ الجيرانِ وأبرِّهم؟ وإذا آذى

---

(١) حديثٌ صحيحٌ، انظر تخريجه في رسالتي «الأربعون حديثاً في الدعوة والدعاة» (رقم ٣٣)، ويُضافُ عليه أنّ العجلونيَّ صحَّحه في «كشف الخفاء» (١ / ٨٨).

(٢) كما رواه مسلم (٢٧٣٢) عن أبي الدرداءِ.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٠).

(٤) انظر: «الحبائك في أخبار الملائك» (ص ٤٩ و١٥٤) للسيوطي.

(٥) هو ما يلي الجسم من الثياب.

(٦) رواه ابن حبان (١٠٥١)، والبزَّار (٢٨٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢٤٤) ـ ووقع فيه عن أبي هُريرة ـ عن ابن عُمر.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١ / ٢٢٦): «أرجو أنَّه حسن الإسناد».

وانظر: «فتح الباري» (١١ / ١٠٩).

(٧) وفي رسالتي «حقّ الجار في صحيح السُّنَّة والآثار» بيانُ ذلك.

العبدُ المَلَكَ بأنواعِ المعاصِي والظلمِ والفواحشِ دعا عليه ربَّه، وقال: «لا جزاكَ اللهُ خيراً»[1] كما يدعو له إذا أكرَمَهُ بالطاعةِ والإحسانِ.

قال بعضُ الصحابةِ رضي الله عنهم: «إنَّ معكم مَنْ لا يفارِقُكم؛ فاسْتَحْيُوا منهم وأكرِمُوهُم».

ولا أَلأمَ مِمَّنْ لا يستحِي مِنَ الكريمِ العظيمِ القَدْرِ، ولا يُجِلُّهُ ولا يُوَقِّرُهُ.

وقد نبَّهَ الله سُبحانَهُ على هٰذا المعنى بقولِهِ:

﴿وإِنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِينَ . كِراماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]؛ أي: استحيُوا مِنْ هٰؤلاءِ الحافظينَ الكرامِ وأكرِمُوهُم، وأَجِلُّوهُم أن يَرَوْا منكم ما تستحيونَ أنْ يراكم عليه مَنْ هو مثلُكم، والملائكةُ تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدَمَ، فإذا كَانَ ابنُ آدمَ يتأذَّى مِمَّنْ يفجُرُ ويعصي بين يديهِ، وإنْ كانَ قد يعملِ مثلَ عملهِ؛ فما الظنُّ بأذى الملائكةِ الكرامِ الكاتبينَ؟ واللهُ المستعانُ.

٥٥ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب الهلاك في الدنيا والآخرة]:

٥٤ ـ ومن عقوباتِها: أنَّها تستجلبُ موادَّ هلاكِ العبدِ في دنياهُ وآخرتِهِ، فإنَّ الذنوبَ هي أمراضٌ متى استحكمَتْ قتلَتْ ولا بُدَّ، وكما أنَّ البدنَ لا يكونُ صحيحاً إلا بغذاءٍ يحفظُ قوَّتَهُ واستفراغٍ يستفرغُ الموادَّ الفاسدةَ والأخلاطَ الرديئةَ التي متى غلبَتْ عليه أفسدَتْهُ، وحميةٍ يمتنعُ بها من تناول ما يُؤذِيهِ ويخشى ضررَهُ، فكذلك القلبُ لا تتمُّ حياتُهُ إلَّا بغذاءٍ مِنَ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ تحفظُ قوَّتَهُ، واستفراغٍ بالتوبةِ النَّصُوحِ يستفرغُ بها الموادَّ الفاسدةَ والأخلاطَ الرديئةَ منه، وحِمْيَةٍ توجبُ له حفظَ الصحَّةِ وتجنُّبَ ما يضادُّها، وهي عبارةٌ عن تركِ استعمالِ ما يضادُّ الصحَّة.

---

(١) لم أقف على حديثٍ يدلُّ على ذلك.

والتقوى: اسمٌ مُتناولٌ لهٰذه الأمورِ الثلاثةِ، فما فاتَ منها؛ فاتَ مِنَ التقوى بِقَدْرِهِ.

وإذا تَبيَّنَ هٰذا فالذنوبُ مُضادَّةٌ لهٰذه الأمورِ الثلاثةِ، فإنَّها تستجلبُ الموادَّ المؤذيةَ، وتوجبُ التخليطَ المضادَّ للحميةِ، وتمنعُ الاستفراغَ بالتوبةِ النصوحِ.

فانظرْ إلى بدنٍ عليلٍ تراكَمَتْ عليه الأخلاطُ الرديئة وموادُّ المرضِ، وهو لا يستفرغُها، ولا يحتمي لها، كيف تكونُ صحَّتُهُ وبقاؤهُ؟ ولقد أحسنَ القائِلُ:

جِسْمُكَ بالحِمْيَّةِ حَصَّنْتَهُ مَخَافَةً مِنْ أَلَمٍ طَارِي
وَكَانَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَحْتَمِي مِنَ المَعَاصِي خَشْيَةَ النَّارِ

فَمَنْ حفظَ القوَّةَ بامتثالِ الأوامِرِ، واستعملَ الحميةَ باجتِنابِ النَّواهي، واستفرغَ التَّخليطَ بالتوبةِ النصوحِ؛ لم يدعْ للخيرِ مطلباً، ولا مِنَ الشرِّ مهرباً، واللهُ المستعانُ.

٥٦ ـ فَصْلٌ [المعاصي سبب في العقوبات الشّرعيّة]:

فإنْ لم تَرْدَعْكَ هٰذه العقوباتُ، ولم تجدْ لها تأثيراً في قلبِكَ؛ فأَحْضِرْهُ العقوباتِ الشرعيةَ التي شرعَها اللهُ ورسولُهُ على الجرائِمِ، كما قطعَ اليدَ في سرقةِ ثلاثةِ دراهمَ، وقطعَ اليدَ والرجلَ في قطعِ الطريقِ على معصومِ المالِ والنفسِ، وشقَّ الجلدَ بالسوطِ على كلمةٍ قذفَ بها المحصنَ، أو قطرةِ خمرٍ يُدْخِلُها جوفَهُ، وقتلَ بالحجارةِ أشنعَ قتلةٍ في إيلاجِ الحشفةِ في فرجٍ حرامٍ، وخفَّفَ هٰذه العقوبةَ عمَّنْ لم تتمَّ عليه نعمةُ الإحصانِ بمئةِ جلدة، ونفي سَنَةٍ عن وطنِهِ وبلدهِ إلى بلادِ الغُربةِ، وفرَّقَ بينَ رأسِ العبدِ وبدنِهِ إذا وقعَ على ذاتِ رحمٍ مُحَرَّمٍ منه، أو تَرَكَ الصلاةَ المفروضَةَ، أو تكلَّمَ بكلمةِ كفرٍ، وأمرَ بقتلِ مَنْ وطىءَ ذكراً مثلَهُ، وقتلَ المفعولَ به، وأمرَ بقتلِ مَنْ أتى بهيمةً، وقتلِ البهيمةِ

معه، وعزمَ على تحريقِ بيوتِ المتخلِّفينَ عن الصلاةِ في الجماعةِ[1]، وغير ذلك منَ العقوباتِ الّتي رتّبها على الجرائمِ، وجعلها بحكمتهِ على حسبِ الدَّواعِي إلى تلك الجرائمِ، وحسبِ الوازعِ عنها.

فما كانَ الوازعُ عنه طَبْعيّاً وليس في الطِّباعِ داعٍ إليه اكتفىٰ فيه بالتَّحريمِ مع التعزيرِ، ولم يرتّبْ عليه حدّاً، كأكلِ الرجيعِ، وشربِ الدمِ، وأكلِ الميتةِ.

وما كانَ في الطِّباعِ داعٍ إليه رتَّبَ عليه مِنَ العقوبَةِ بقدرِ مفسدتِهِ، وبقدرِ داعي الطَّبعِ إليهِ.

ولهٰذا لمَّا كانَ داعي الطِّباعِ إلى الزنى مِنْ أقوى الدَّواعِي كانت عقوبَتُهُ العظمى مِنْ أشنعِ القتلاتِ وأعظمِها، وعقوبَتُهُ السهلةُ أعلى أنواعِ الجلدِ مع زيادةِ التغريبِ.

ولما كانت جريمةُ اللّواطِ فيها الأمران كانَ حدُّه القتلَ بكلِّ حالٍ.

ولما كانَ داعِي السرقةِ قويّاً ومفسدتُها كذٰلك قُطِعَ فيها اليدُ.

وتأمَّلْ حكمَتَهُ في إفسادِ العضوِ الذي باشرَ العبدُ به الجنايَةَ، كما أفسدَ على قاطعِ الطريقِ يدهُ ورجلَهُ اللتينِ هما آلةُ قطعِهِ، ولم يُفسدْ على القاذفِ لسانَهُ الذي جنى به؛ إذ مفسدةُ قطعة تزيدُ على مفسدةِ الجنايةِ ولا تبلغُها، فاكتفى من ذٰلك بإيلامِ جميعِ بدنِهِ بالجلدِ.

فإنْ قيلَ: فهلَّا أفسَد على الزاني فرجَهُ الذي باشرَ به المعصيةَ؟

قيل: لا؛ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ مفسدَةَ ذٰلك تزيدُ على مفسدةِ الجنايةِ إذ فيه قطعُ النَّسلِ،

---

(١) انظر تخريج هٰذه النصوص وأحكامها في كلامٍ طويلٍ للمؤلِّف رحمه الله في «أعلام الموقِّعين» (٤ / ٢٦٦ ـ ٤٠٧).

وتعريضُهُ للهلاكِ.

الثاني: أنَّ الفرجَ عضوٌ مستورٌ لا يحصلُ بقطعِهِ مقصودُ الحدِّ مِنَ الردعِ والزجرِ لأمثالِهِ مِنَ الجناةِ، بخلافِ قطعِ اليدِ.

الثالث: أنَّه إذا قطعَ يدهُ أبقى له يداً أخرى تُعَوِّضُ عنها، بخلافِ الفرجِ.

الرابع: أنَّ لذةَ الزنى عَمَّتْ جميعَ البدنِ، فكانَ الأحسنُ أنْ تعمَّ العقوبةُ جميعَ البدنِ، وذٰلك أوْلَى مِنْ تخصيصِها ببضعةٍ منه.

فعقوباتُ الشارعِ جاءت على أتمِّ الوجوهِ، وأوفقِها للعقلِ، وأقومِها بالمصلحةِ.

والمقصودُ: أنَّ الذنوبَ إمَّا أن تترتبُ عليها العقوباتُ الشرعيَّةُ أو القَدَرِيَّةُ أو يجمعهُما اللهُ للعبدِ، وقد يرفعها عَمَّنْ تَابَ وأحسنَ.

٥٧ ـ فَصْلٌ [العقوبات شرعيّة وقدريّة]:

وعقـوبـاتُ الذنوبِ نوعانِ: شرعيةٌ وقَدَرِيَّةٌ، فإذا أُقيمتِ الشرعيةُ رَفَعَتِ العقـوبـاتِ القـدريَّةَ أو خَفَّفَتْهَـا، ولا يكـادُ الربُّ تعالى يجمعُ على عبدِهِ بين العقـوبتينِ إلَّا إذا لم يَفِ أحدُهُما برفعِ موجِبِ الذنبِ، ولم يكفِ في زوالِ دائـهِ. وإذا عُطِّلَتِ العقوباتُ الشرعيَّةُ استحالَتْ قَدَرِيَّةً، وربَّما كانت أشدَّ مِنَ الشرعيةِ، وربَّما كانَتْ دونَها، ولكنها تعمُّ، والشرعيةُ تخصُّ، فإنَّ الربَّ تبارك وتعالى لا يُعاقبُ شرعاً إلَّا مَنْ باشَرَ الجنايَةَ أو تَسَبَّبَ إليها.

وأمـا العقوبةُ القَدَرِيَّةُ؛ فإنّها تقعُ عامةً وخاصَّةً، فإنَّ المعصيةَ إذا خفيتْ لا تَضُرَّ إلَّا صاحبَها، وإذا أُعْلِنَتْ ضرَّتِ الخاصَّةَ والعامةَ، **وإذا رأى الناسُ المنكرَ فاشتركُوا في تركِ إنكارِهِ أوشكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابِهِ**.

وقد تقدَّمَ أنَّ العقوبَةَ الشرعيةَ شرعَها اللهُ سبحانهُ على قَدْرِ مفسدةِ الذنب، وتقاضي الطَّبْعِ لها، وجعلَها سبحانَهُ ثلاثةَ أنواعٍ: القتلَ، والقطعَ، والجلدَ، وجعلَ القتلَ بإزاءِ الكفرِ وما يليهِ ويَقْرُبُ منه، وهو الزِّنى واللواطُ، فإنَّ هٰذا يُفسدُ الأديانَ، وهٰذا يفسدُ الأنسابَ ونوعَ الإنسانِ.

قال الإمامُ أحمدُ: «لا أعلمْ بعدَ القتلِ ذنباً أعظمَ مِنَ الزِّنى»؛ واحتجَّ بحديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أنَّه قالَ: «يا رسولَ اللهِ! أيُّ الذنبِ أَعْظَمُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ؟ قالَ: قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أن يَطْعَمَ مَعَكَ، قالَ: قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: أن تُزانِي بحَلِيلةِ جارِكَ»[1]، فأنزلَ اللهُ سبحانه تصديقها: ﴿والَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والنبيُّ ﷺ ذكرَ مِنْ كلِّ نوعٍ أعلاهُ ليطابقَ جوابُهُ سؤالَ السائلِ، فإنَّه سألهُ عن أعظمِ الذَّنبِ، فأجابهُ بما تضَمَّنَ ذكرَ أعظمِ أنواعِها، وما هو أعظمُ كلِّ نوعٍ.

فأعظمُ أنواعِ الشركِ: أنْ يجعلَ العبدُ للهِ ندّاً.

وأعظمُ أنواعِ القتلِ: أن يقتلَ ولدَه خشيةَ أن يُشارِكَهُ في طعامِهِ وشرابِهِ.

وأعظمُ أنواعِ الزِّنى: أنْ يزنيَ بحليلةِ جارِهِ؛ فإنَّ مفسدةَ الزنى تتضاعفُ بتضاعُفِ ما انتهكهُ مِنَ الحقِّ.

فالزِّنى بالمرأةِ التي لها زوجٌ أعظمُ إثماً وعقوبةً مِنَ التي لا زوجَ لها؛ إذ فيه انتهاكُ حُرمةِ الزوجِ وإفسادُ فراشِهِ، وتعليقُ نسبٍ عليه لم يكنْ منه، وغيرُ ذٰلك من أنواعِ أذاه؛ فهو أعظمُ إثماً وجُرماً مِنَ الزنى بغيرِ ذاتِ البعلِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (٨٦).

فإن كانَ زوجُها جاراً له انضافَ إلى ذلك سوءُ الجوارِ وأذى جارِه بأعلى أنواعِ الأذى، وذلك أعظمُ البوائقِ.

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(١)، ولا بائقةٌ أعظمَ مِنَ الزنى بامرأةِ الجارِ.

فالزِّنى بمئةِ امرأةٍ لا زوجَ لها أيسرُ عندَ اللهِ مِنَ الزِّنى بامرأة الجارِ.

فإنْ كانَ الجارُ أخاً له أو قريباً من أقاربه انضمَّ إلى ذلك قطيعةُ الرحمِ، فيتضاعفُ الإثمُ له.

فإنْ كانَ الجارُ غائباً في طاعةِ اللهِ كالصَّلاةِ وطلبِ العلمِ والجهادِ تضاعَفَ الإثمُ، حتى إنَّ الزاني بامرأةِ الغازي في سبيلِ اللهِ يوقَفُ له يومَ القيامةِ؛ ويقالُ له: خُذْ مِنْ حسناتِهِ ما شِئْتَ، قال النبيُّ ﷺ: «فَمَا ظَنُّكُم؟»(٢)؛ أي: ما ظنُّكم أنَّه يَتْرُكُ له مِنْ حسناتٍ قد حُكِّمَ في أنْ يأخذَ منها ما شاءَ؟ على شدَّةِ الحاجةِ إلى حسنةٍ واحدةٍ حيثُ لا يتركُ الأبُ لابنهِ والصاحبُ والصاحبه ولا الصديقُ لصديقِهِ حقّاً يجبُ عليه؟

فإنِ اتَّفَقَ أنْ تَكُونَ المرأةُ رَحِماً منه انضافَ إلى ذلك قطيعةُ رحمِها، فإنِ اتفقَ أن يكونَ الزاني مُحْصَناً كان الإثمُ أعظمَ؛ فإنْ كانَ شيخاً كانَ أعظمَ إثماً، وهو أحدُ الثلاثةِ الذين لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ وَلَا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ(٣).

فإن اقترنَ بذلك أن يكونَ في شهرٍ حرامٍ، أو بلدٍ حرامٍ؛ أو وقتٍ معظَّمٍ عندَ اللهِ، كأوقاتِ الصلاةِ وأوقاتِ الإجابةِ تضاعَفَ الإثمُ.

---

(١) رواه مسلم (٤٦) عن أبي هُريرة.

وفي الباب عن عدد من الصحابة.

(٢) رواه مسلم (١٨٩٧) عن بُريدة.

(٣) كما رواه مسلم (١٠٧).

وعلى هٰذا؛ فاعْتَبِرْ مفاسدَ الذنوبِ وتضاعُفَ دَرَجَاتِها في الإثم والعقوبةِ، واللهُ المستعانُ.

٥٨ ـ فَصْلٌ [السَّرقة سبب إفساد الأموال]:

وجعلَ سبحانهُ القَطْعَ بإزاءِ إفسادِ الأموالِ؛ فإنَّ السارقَ لا يمكنُ الاحترازُ منه؛ لأنه يأخذُ الأموالَ في الاختفاءِ، ويَنْقُبُ[1] الدورَ، ويتسوَّرُ مِنْ غيرِ الأبواب فهو كالسِّنَّوْرِ والحيَّةِ التي تدخلُ عليك مِنْ حيثُ لا تعلمُ، فلم ترتفعْ مفسدةُ سرقتِهِ إلى القتلِ؛ ولا تندفعُ بالجَلْدِ؛ فأحسنُ ما دُفِعَتْ بِهِ مفسدتُهُ إبانةُ العضوِ الذي يتسلَّطُ به على الجنايةِ.

وجَعَلَ الجلدَ بإزاءِ إفسادِ العقولِ وتمزيقِ الأعراضِ بالقذفِ.

فدارَتْ عقوباتُهُ سبحانهُ الشرعيَّةُ على هٰذه الأنواعِ الثلاثةِ، كما دارت الكفاراتُ على ثلاثةِ أنواعٍ: العتقِ، وهو أعلاها، والإطعامِ، والصيامِ.

ثم إنه سبحانه جعلَ الذنوبَ ثلاثةَ أقسامٍ:

قسماً فيه الحدُّ، فهٰذا لم يشرعْ فيه كفارةً اكتفاءً بالحدِّ.

وقسماً لم يُرَتِّبْ عليه حدّاً، فشرعَ فيه الكفَّارةَ، كالوطءِ في نهارِ رمضانَ، والوطءِ في الإحرامِ، والظِّهارِ، وقتلِ الخطأ، والحنثِ في اليمينِ، وغيرِ ذٰلك.

وقسماً لم يُرَتِّبْ عليه حدّاً ولا كفارةً، وهو نوعان:

أحدهُما: ما كانَ الوازعُ عنه طبيعيّاً، كأكلِ العَذِرةِ[2]، وشربِ البولِ والدمِ.

---

(١) يخرقُها.

(٢) هي القاذورات.

والثاني: ما كانتْ مفسدتُهُ أدنى مِنْ مفسدةِ ما رتَّبَ عليه الحدَّ، كالنظرِ والقُبلةِ واللمسِ والمحادثةِ، وسرقةِ فِلْسٍ، ونحو ذٰلك.

وشرعَ الكفَّاراتِ في ثلاثةِ أنواعٍ:

أحدها: ما كان مباحَ الأصلِ، ثم عرض تحريمُهُ فباشَرَهُ في الحالةِ التي عرضَ فيها التَّحريمُ، كالوطءِ في الإحرامِ والصيامِ، وطَرْدُهُ[1]: الوطءُ في الحيضِ والنِّفاسِ، بخلافِ الوَطْءِ في الدُّبُرِ، ولهٰذا كانَ إلحاقُ بعضِ الفقهاءِ له بالوطءِ في الحيضِ لا يَصِحُّ؛ فإنَّه لا يُبَاحُ في وقتٍ دونَ وقتٍ، فهو بمنزلةِ التلوُّطِ، وشربِ المسكرِ.

النوع الثاني: ما عقدهُ للهِ مِنْ نَذْرٍ أو حَلْفٍ باللهِ من يمينٍ، أو حرَّمَهُ للهِ ثم أرادَ حِلَّهُ، فشرعَ اللهُ سبحانهُ حِلَّهُ بالكفَّارةِ وسمَّاها تَحِلَّةً، وليستْ هٰذه الكفارةُ ماحيةً لهتكِ حُرمةِ الاسمِ بالحِنْثِ، كما ظَنَّهُ بعضُ الفقهاءِ، فإنَّ الحِنْثَ قد يكونُ واجباً، وقد يكونُ مستحبّاً، وقد يكونُ مباحاً، وإنَّما الكفارةُ حِلٌّ لما عقدَه.

النوع الثالث: ما تكونُ فيه جابرةً لما فاتَ، ككفَّارةِ قتلِ الخطأ، وإنْ لم يكنْ هناك إثمٌ، وكفارةِ قتلِ الصيدِ خطأً، فإنَّ ذٰلك مِنْ بابِ الجوابرِ، والنوعُ الأولُ مِنْ بابِ الزواجرِ، والنوعُ الأوسطُ مِنْ بابِ التَّحِلَّةِ لِمَا مَنَعَهُ العقدُ.

ولا يجتمعُ الحدُّ والتعزيرُ في معصيةٍ، بل إنْ كانَ فيها حدٌّ اكتُفِي به وإلا اكْتُفي بالتَّعزيرِ، ولا يجتمعُ الحدُّ والكفارةُ في معصيةٍ، بل كلُّ معصيةٍ فيها حدٌّ فلا كفَّارةَ فيها، وما فيه كفارةٌ فلا حدَّ فيه.

وهل يجتمعُ التعزيرُ والكفارةُ في المعصيةِ التي لا حدَّ فيها؟

---

(١) أي: مِثلهُ.

فيه وجهان: وهٰذا كالوطءِ في الإحرامِ والصِّيامِ، ووطءِ الحائضِ، إذا أوجبنا فيه الكفَّارةَ. فقيل: يجبُ التعزيرُ لما انتهكَ مِنَ الحرمةِ بركوبِ الجنايةِ، وقيل: لا تعزيرَ في ذٰلك؛ اكتفاءً بالكفارةِ، لأنَّها جابرةٌ وماحيةٌ.

٥٩ ـ فَصْلٌ [العقوبات القدريّة: قلبيّة وبدنيّة]:

وأما العقوباتُ القدريَّةُ؛ فهي نوعانِ: نوعٌ على القلوبِ والنُّفوسِ، ونوعٌ على الأبدانِ والأموالِ.

والتي على القلوبِ نوعانِ:

أحدهما: آلامٌ وجوديَّةٌ يُضْرَبُ بها القلبُ.

والثاني: قطعُ الموادِّ التي بها حياتُهُ وصلاحُهُ عنه.

وإذا قُطِعَتْ عنه حصلَ له أضدادُها، وعقوبةُ القلبِ أشدُّ العقوبتينِ، وهي أصلُ عقوبةِ الأبدانِ.

وهٰـذه العقـوبةُ تقوى وتتزايدُ، حتى تَسْري مِنَ القلبِ إلى البدنِ، كما يسري ألمُ البدنِ إلى القلبِ؛ فإذا فارقتِ النفسُ البدنَ صارَ الحكمُ مُتعلِّقاً بها، فظهَـرَتْ عقـوبةُ القلبِ حينئذٍ، وصارتْ علانيةً ظاهرةً، وهي المسمَّاةُ بعذابِ القبرِ، ونسبتهُ إلى البرزخِ كنسبةِ عذابِ الأبدانِ إلى هٰذه الدارِ.

٦٠ ـ فَصْلٌ [العقوبات البدنية: دنيوية وأخرويّة]:

والتي على الأبدانِ أيضاً نوعان:

نوعٌ في الدنيا.

ونوعٌ في الآخرة.

وشدَّتُها ودوامُها بحسبِ مفاسدِ ما رُتِّبَتْ عليه في الشدَّةِ والخفَّةِ، فليسَ

في الـدُّنيا والآخـرةِ شرٌّ أصلاً إلاَّ الذنوبُ وعقوباتُها، فالشرُّ اسمٌ لذٰلك كلِّه، وأصلهُ مِنْ شرِّ النفسِ وسيئاتِ الأعمالِ، وهما الأصلانِ اللذانِ كانَ النبيُّ ﷺ يستعيذُ منهمـا في خطبتِـه بقولِه: «وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، ومِنْ سَيِّئاتِ أَعْمَـالِنـا»(1)، وسيئـاتُ الأعمـالِ مِنْ شرورِ النفسِ، فعـادَ الشرُّ كلُّه إلى شرِّ النفسِ، فإنَّ سيئاتِ الأعمالِ مِنْ فروعِهِ وثمراتِه.

وقـد اختُلِفَ في معنى قولِهِ «ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا»؛ هل معناهُ السَّيِّىءُ مِنْ أعمالِنا، فيكونُ مِنْ بابِ إضافةِ النوعِ إلى جنسهِ ويكونُ بمعنى مِنْ؟ [أو تكونُ «مِنْ» بيانيَّةً] وقيل: معناهُ مِنْ عقوباتِها التي تسوءُ، فيكونُ التقديرُ: ومِنْ عقوباتِ أعمالِنا التي تسوؤنا!

ويُرَجِّـحُ هٰذا القـولَ: أنَّ الاستعاذَةَ تكونُ قد تضمَّنَتْ جميعَ الشرِّ، فإنَّ شرورَ الأنفسِ تستلزمُ الأعمالَ السيئةَ وهي تستلزمُ العقوباتِ السيئةَ، فنبَّه بشرورِ الأنفسِ على ما تقتضيهِ مِنْ قُبْحِ الأعمالِ، واكتفى بذكرِها منه؛ إذ هو أصلهُ، ثم ذكرَ غايةَ الشرِّ ومنتهاهُ وهي السيئاتُ التي تسوءُ العبـدَ مِنْ عملِه، مِنَ العقوباتِ والآلآمِ. فتضمنَتْ هٰذه الاستعاذةُ أصلَ الشرِّ وفرعَهُ وغايَتَهُ ومقتضاهُ.

ومِنْ دعاءِ الملائكةِ للمؤمنين قولهُم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩]؛ فهٰذا يتضمَّنُ طلبَ وقايتِهم من سيئاتِ الأعمالِ وعقـوباتِها التي تسوءُ صاحبَها؛ فإنَّهُ سبحانه متى وقاهُم العملَ السَّيِّىء وقاهم

(1) قطعـة من حديث خُطبـة الحـاجـة التي أوّلُهـا: «إنّ الحمـدَ لله نحمـدُه ونستعينـه ونستغفره...»؛ رواه أحمد (١ / ٤٣٢)، وأبو داود (٢١١٨)، والبيهقي (٧ / ١٤٦)، وأبو يعلى (٥٢٣٤)، وابن ماجه (١٨٩٢) عن ابن مسعود بسند صحيح.

وأمّـا زيادة «ونستهـديه» في أوّلهـا، فلا أصل لها؛ كما نبّه على ذٰلك شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥ / ١).

وقد تمّ الوَهَم في زيادتها على مؤلّف هٰذا الكتاب ـ رحمه الله ـ في كتابه «إغاثة اللهفان» (١ / ٧٤)، وتابَعَه كاتبُ هٰذا التعليق (!) في مُختصره «موارد الأمان» (١٤١)؛ فاللهمّ غُفراً.

جزاءَه السَّيِّىء، وإن كانَ قولُه: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أظهرَ في عقوباتِ الأعمالِ المطلوبِ وقايتُها يومئذٍ.

فإنْ قيلَ: فقد سألوه سبحانه أنْ يقيَهم عذابَ الجحيم، وهٰذا هو وقايةُ العقوباتِ السيئةِ! فدلَّ على أنَّ المرادَ بالسيئاتِ التي سألوا وقايَتَها: الأعمالُ السيئةُ، ويكونُ الذي سأله الملائكةُ نظيرَ ما استعاذَ منه النبيُّ ﷺ؟!

ولا يَرِدُ على هٰذا قولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ فإنَّ المطلوبَ وقايةُ شرورِ سيئاتِ الأعمالِ ذٰلك اليوم، وهي سيئاتٌ في أنفسِها!!

قيل: وقايةُ السيئاتِ نوعانِ:

أحدهما: وقايةُ فعلِها بالتوفيقِ فلا تصدرُ منه.

والثاني: وقايةُ جزائِها بالمغفرةِ، فلا يعاقبُ عليها، فتضمَّنَتِ الآيةُ سؤالَ الأمرين، والظرفُ تقييدٌ للجملةِ الشَّرْطيَّةِ لا للجملةِ الطَّلَبيَّةِ.

وتأمَّلْ ما تضمَّنهُ هٰذا الخبرُ عنِ الملائكةِ مِنْ مدحِهم بالإيمانِ، والعملِ الصالحِ، والإحسانِ إلى المؤمنينَ بالاستغفارِ لهم، وقدَّموا بين يدي استغفارِهِمْ توسُّلَهُم إلى اللهِ سبحانه بسعةِ علمِهِ، وسعةِ رحمتِه، فسعةُ علمِهِ تتضمَّنُ علمَهُ بذنوبِهِم وأسبابِها وضعفِهِم عنِ العصمةِ، واستيلاءِ عدوِّهِم وأنفسِهِم، وهواهم وطباعِهِم، وما زُيِّنَ لهم مِنْ الدنيا وزينتها، وعلمِهِ بهم؛ إذ أنشأهم مِنَ الأرضِ، وإذ هم أجِنَّةٌ في بُطُونِ أُمَّهاتِهِم، وعلمَهُ السابقَ بأنَّهم لا بدَّ أنْ يَعصُوهُ، وأنَّه يحبُّ العفوَ والمغفرَةَ؛ وغيرَ ذٰلك مِنْ سعةِ علمِهِ الذي لا يُحيطُ به أحدٌ سواهُ.

وسعةُ رحمتِهِ تتضمَّنُ أنَّه لا يهلكُ عليه أحدٌ مِنَ المؤمنينَ من أهلِ توحيدِهِ ومحبَّتِهِ، فإنَّهُ واسعُ الرحمةِ لا يخرجُ عن دائرةِ رحمتِهِ إلا الأشقياءُ ولا أشقى مِمَّنْ لم تَسَعْهُ رحمتُهُ التي وسعَتْ كُلَّ شيءٍ، ثم سألوهُ أنْ يغفرَ للتائبينَ الذين اتَّبَعوا سبيلَهُ، وهو صراطُهُ المُوْصِلُ إليه الذي هو معرفتُهُ ومحبَّتُهُ وطاعتُهُ؛ فتابُوا مما

يكـرهُ، واتَّبعوا السبيلَ التي يُحبُّها؛ ثـم سألوه أنْ يقيَهُم عذابَ الجحيمِ ، وأنْ يُدخِلَهُم والمؤمنين ـ مِنْ أصولِهِم وفروعِهِم وأزواجِهِم ـ جناتِ عدنٍ التي وعدَهم بها.

وهو سبحانه ـ وإن كانَ لا يخلفُ الميعادَ ـ؛ فإنَّ وعدَهُم بها بأسبابٍ، من جُملتِهـا: دعـاءُ ملائكتِـهِ لهم أنْ يُدخِلَهُم إياهَـا برحمَتِـهِ التي منهـا أنْ وَفَّقهم لأعمالِهِم، وأقامَ ملائكتَهُ يدعونَ لهم بدخولها.

ثم أخبرَ سبحانه عن ملائكتِهِ أنَّهم قالوا عَقِيبَ هٰذه الدعوةِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَـزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ أي: مصدرُ ذٰلك وسببهُ وغايتُهُ صادرٌ عن كمالِ قُدرتِكَ وكمالِ علمِكَ؛ فإنَّ العزَّةَ كمالُ القدرةِ، والحكمةَ كمالُ العلمِ، وبهاتينِ الصفتينِ يقضي سبحانه وتعالى ما شاءَ ويأمرُ وينهىٰ ويثيبُ ويُعاقِبُ؛ فهاتانِ الصفتانِ مصدرُ الخلقِ والأمرِ.

والمقصودُ: أنَّ عقوباتِ السيئاتِ تتنوَّعُ إلى:

عقوباتٍ شرعيةٍ.

وعقوباتٍ قَدَرِيَّةٍ: وهي إمَّا في القلبِ، وإمَّا في البدنِ، وإمَّا فيهما.

وعقوباتٍ في دارِ البرزخِ بعدَ الموتِ.

وعقوباتٍ يومَ حشرِ الأجسادِ.

فالذنبُ لا يخلو من عقوبةٍ ألبتَّةَ؛ ولكنْ لجهلِ العبدِ لا يشعرُ بما هو فيه مِنَ العقوباتِ؛ لأنَّهُ بمنزلةِ السكرانِ والمُخَدَّرِ والنائمِ الذي لا يشعرُ بالألمِ؛ فإذا استيقظَ وصحـا أحسَّ بالألمِ؛ فَتَرَتُّبُ العقوبَاتِ على الذنوبِ كَتَرَتُّبِ الإِحراقَ على النـارِ، والكسـرِ على الانكسـارِ، والغرقِ على الماءِ، وفسادِ البدنِ على السمومِ، والأمراضِ على الأسبابِ الجالبةِ لها.

وقد تُقارِنُ المضرَّةُ الذنبَ، وقد تتأخرُ عنه، إما يسيراً وإما مدَّةً كما يتأخَّرُ المرضُ عن سببِهِ أو يقارنُهُ، وكثيراً ما يقعُ الغلطُ للعبدِ في هذا المقامِ، ويُذنبُ الذنبَ فلا يرى أثرهُ عَقِبَيْهِ، ولا يدري أنَّه يعملُ عملَهُ على التدريجِ شيئاً فشيئاً، كما تعملُ السمومُ والأشياءُ الضارَّةُ حذوَ القُذَّةِ بالقذَّةِ، فإنْ تداركَ العبدُ بالأدويةِ والاستفراغِ والحميةِ، وإلَّا فهو صائرٌ إلى الهلاكِ، هذا إذا كانَ ذنباً واحداً لم يتداركهُ بما يزيلُ أثرَهُ؛ فكيف بالذنبِ على الذنبِ كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ؟! واللهُ المستعانُ.

٦١ ـ فَصْلٌ [العقوبات الّتي رتّبها الله على الذنوب]:

فاسْتَحْضِرْ بعضَ العقوباتِ التي رَتَّبَها اللهُ سبحانه وتعالى على الذنوبِ، وجوِّزْ وصولَ بعضِها إليك، واجعلْ ذلك داعياً للنفسِ إلى هجرانِها، وأنا أسوقُ لك منها طرفاً يكفي العاقلَ مع التَّصديقِ ببعضِهِ:

١ ـ فمنها: الختمُ على القلوبِ والأسماعِ، والغشاوةُ على الأبصارِ، والإقفالُ على القلوبِ، وجعلُ الأكنَّةِ عليها، والرَّيْنُ عليها والطبْعُ، وتقليبُ الأفئدةِ والأبصارِ، والحيلولةُ بينَ المرءِ وقلبِهِ، وإغفالُ القلبِ عن ذكرِ الربِّ، وإنساءُ الإنسانِ نفسَهُ، وتركُ إرادةِ اللهِ تطهيرَ القلبِ، وجعلُ الصدرِ ضيقاً حرجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السماءِ، وصرفُ القلوبِ عن الحقِّ، وزيادتُها مرضاً على مرضِها، وإركاسُها ونكسُها، بحيثُ تبقى منكوسةً كما ذكر الإمامُ أحمدُ[1] عن حذيفةَ بن اليمانِ رضي اللهُ عنه أنَّه قال: «القلوبُ أربعةٌ: فقلبٌ أجردُ فيهِ سراجٌ يُزْهِرُ؛ فذلِكَ قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلَفُ، فذلك قلبُ الكافرِ، وقلبٌ منكوسٌ؛

(١) أثرٌ صحيحٌ؛ انظر تخريجه في رسالة «اتِّباع الرسول بصحيح المنقول وصريح المعقول» (ص ٣٥) لابن تيميَّة، و«موارد الأمان» (ص ٤٠) لابن القيِّم.

فذلك قلبُ المنافِقِ، وقلبٌ تمدُّهُ مادتانِ: مادةُ إيمانٍ، ومادةُ نفاقٍ؛ وهو لما غلبَ عليه منهما».

٢ ـ ومنهاالتثبيطُ عنِ الطاعةِ، والإقعادُ عنها.

٣ ـ ومنها: جعلُ القلبِ أصمَّ لا يسمعُ الحقَّ، أبكمَ لا ينطقُ به، أعمى لا يراهُ، فتصيرُ النسبةُ بينَ القلبِ وبينَ الحقِّ الذي لا ينفعهُ غيرُهُ كالنسبةِ بينَ أذنِ الأصمِّ والأصواتِ، وعينِ الأعمى والألوانِ، ولسانِ الأخرس والكلام.

وبهٰـذا يُعلمُ أنَّ العمىٰ والصممَ والبكمَ للقلبِ بالـذَّاتِ والحقيقـةِ، وللجوارحِ بالعَرَضِ والتَّبَعِيَّةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وليسَ المرادُ نفيَ العمى الحِسِّيِّ عن البَصَرِ، كيفَ وقـد قال تعـالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النـور: ٦١]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ [عبس: ١ و٢]، وإنما المرادُ أنَّ العمى التامَّ في الحقيقةِ عمى القلبِ، حتى إنَّ عمى البصرِ بالنِّسبةِ إليه كالعمىٰ، حتى إنه يصحُّ نفيهُ بالنسبةِ إلى كمالِهِ وقوَّتِهِ، كما قال ﷺ: «ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ ولٰكنَّهُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]. وقوله ﷺ: «ليسَ المِسكينُ بالطَّوَّافِ الَّذي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، ولٰكنَّ المسكينَ الذي لا يسأَلُ النَّاسَ، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقَ عليه»[2].

ونظائرُهُ كثيرةٌ.

والمقصودُ: أنَّ مِنْ عقوباتِ المعاصي جعلَ القلبِ أعمى أصمَّ أبكمَ.

٤ ـ ومنها الخسفُ بالقلبِ كما يُخْسَفُ بالمكانِ وما فيه، فَيُخْسَفُ به إلى

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (١٠٣٩).

أسفلِ السَّافِلِينَ، وصاحبُهُ لا يشعرُ، وعلامةُ الخسفِ به أنَّه لا يزالُ جوَّالًا حولَ السُّفْليات والقاذوراتِ والرذائِلِ ، كما أنَّ القلبَ الذي رفعهُ اللهُ وقرَّبه إليه لا يزالُ جوَّالًا حولَ العرشِ .

٥ ـ ومنها: البُعدُ عن البرِّ والخيرِ ومعالي الأعمالِ والأقوالِ والأخلاقِ.

قال بعضُ السلفِ: «إنَّ هٰذه القلوبَ جوالــةٌ، فمنهـا ما يجـولُ حولَ العرشِ ، ومنا ما يجولُ حولَ الحُشِّ[1]».

٦ ـ ومنها: مسخُ القلبِ، فَيُمْسَخُ كما تُمسخُ الصورةُ، فيصيرُ القلبُ على قلبِ الحيوانِ الذي شابههُ في أخلاقهِ وأعمالهِ وطبيعتِهِ، فمِنَ القلوبِ ما يُمْسَخُ على خُلُقِ خنزيرٍ لشدَّة شَبَهِ صاحبِهِ به، ومنها ما يُمسخُ على خُلُقِ قلبِ كلبٍ أو حمارٍ أو حيَّةٍ أو عقربٍ أو غير ذٰلك؛ وهٰذا تأويلُ سفيانَ بن عيينَةَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال: منهم مَنْ يكونُ على أخلاقِ السباعِ العاديةِ، ومنهم من يكونُ على أخلاقِ الكلابِ وأخلاقِ الخنازيرِ وأخلاقِ الحميرِ، ومنهم من يتطوَّسُ في ثيابِهِ كما يتطوَّسُ الطاووس في ريشِهِ، ومنهم مَنْ يكونُ بليداً كالحمارِ، ومِنهم مَنْ يُؤثِرُ على نفســهِ كالــدِّيكِ، ومنهم مَنْ يألفُ وَيُؤلَفُ كالحَمَــامِ ، ومنهم الحقــودُ كالجملِ ، ومنهم الذي هو خيرٌ كلّه كالغنمِ ، ومنهم أشباه الذئاب، ومنهم أشباه الثعالِبِ التي تروغُ كروغانِها.

وقـد شبَّـهَ اللهُ تعـالى أهـلَ الجهلِ والغيِّ بالحُمرِ تارةً، وبالكلبِ تارةً وبـالأنعـامِ تارةً، وتقوى هٰذه المشابهةُ باطناً حتى تظهرَ في الصورةِ الظاهرةِ ظهوراً خفيّاً، يراه المُتفَرِّسُونَ، وتظهرُ في الأعمالِ ظهوراً يراهُ كلُّ أحدٍ، ولا يزالُ يقوى حتى تُسْتَشْنَعَ الصورةُ، فتنقلبُ له الصورةُ بإذنِ اللهِ، وهو المسخُ التَّامُّ،

(١) هو مكان قضاءِ الحاجة.

فَيُقَلِّبُ اللهُ سبحانه وتعالى الصورةَ الظاهرةَ على صورةِ ذٰلك الحيوانِ، كما فعلَ باليهودِ وأشباههم، ويفعلُ بقومٍ مِنْ هٰذه الأمةِ يمسخهم قردةً وخنازيرَ.

فسبحانَ اللهِ! كم مِن قلبٍ منكوسٍ وصاحبهُ لا يشعرُ؟ وقلبٍ ممسوخٍ، وقلبٍ مخسوفٍ به؟ وكم مِنْ مفتونٍ بثناءِ الناسِ عليه؟ ومغرورٍ بسترِ اللهِ عليه؟ ومستدرجٍ بنعَمِ اللهِ عليه؟

وكُلُّ هٰذه عقوباتٌ وإهاناتٌ، ويظنُّ الجاهلُ أنَّها كرامةٌ!!

٧ ـ ومنها: مكرُ اللهِ بالماكرِ، ومخادعتُهُ للمخادعِ واستهزاؤهُ بالمستهزىءِ، وإزاغتُهُ لقلبِ الزائغِ عن الحقِّ.

ومنها: نكسُ القلبِ حتى يرى الباطلَ حقّاً، والحقَّ باطلاً، والمعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً، ويُفسدُ ويرى أنَّهُ يُصلحُ، ويَصُدُّ عن سبيلِ اللهِ وهو يرى أنّه يدعو إليها، ويشتري الضلالةَ بالهدى، ويرى أنّه على الهدى، ويتّبِعُ هواه وهو يزعُمُ أنَّه مطيعٌ لمولاهُ.

وكلُّ هٰذا مِنْ عقوباتِ الذنوبِ الجاريةِ على القلوب.

ومنها: حجابُ القلبِ عن الربِّ في الدنيا، والحجابُ الأكبرُ يومَ القيامةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . كَلَّا إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤ و١٥]؛ فمنعتهُم الذنوبُ أنْ يقطعُوا المسافةَ بينهم وبينَ قلوبِهم، فيصِلُوا إليها فيرَوْا ما يُصلحُها ويُزكِّيها، وما يُفْسِدُها ويُشقيهَا، وأنْ يقطعُوا المسافةَ بين قلوبِهم وبينَ ربِّهم، فتصلَ القلوبُ إليه فتفوزَ بقُرْبِهِ وكرامَتِهِ، وتقرَّ به عيناً وتطيبَ به نفساً، بل كانتِ الذنوبُ حِجاباً بينهم وبين قلوبهم، وحجاباً بينهم وبين ربِّهم وخالِقِهم.

ومنها: المعيشةُ الضَّنْكُ في الدُّنيا وفي البرزخِ والعذابِ في الآخرةِ، قال

تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وفُسِّرتِ المعيشةُ الضنكُ بعذابِ القبرِ[1]، ولا ريبَ أنَّه مِنَ المعيشةِ الضَّنْكِ، والآيةُ تتناوَلُ ما هو أعمُّ منه، وإنْ كانت نكرةً في سياقِ الإثباتِ، فإنَّ عمومَها من حيثُ المعنى؛ فإنَّه سبحانه رَتَّبَ المعيشةَ الضَّنْكَ على الإعراضِ عن ذكرِه، فالمُعْرِضُ عنه له مِنْ ضَنْكِ المعيشةِ بحسبِ إعراضِه، وإنْ تَنَعَّمَ في الدنيا بأصنافِ النِّعَمِ، ففي قلبِه مِنَ الوحشةِ والذُّلِّ والحسراتِ التي تقطعُ القلوبَ، والأمانيِّ الباطلةِ والعذابِ الحاضرِ ما فيه، وإنَّما يُواريهِ عنه سكرُ الشهواتِ والعشقُ وحبُّ الدنيا والرياسةُ، وإنْ لم ينضمَّ إلى ذٰلك سكرُ الخمرِ، فسكرُ هٰذه الأمورِ أعظمُ مِنْ سكرِ الخمرِ، فإنَّهُ يفيقُ صاحبُهُ ويصحو، وسكرُ الهوى وحُبُّ الدنيا لا يصحو صاحبهُ إلَّا إذا كانَ صاحِبُهُ في عسكرِ الأمواتِ.

فالمعيشةُ الضَّنْكُ لازمةٌ لمَنْ أعرضَ عن ذكرِ اللهِ الذي أنزَلَهُ على رسولِهِ ﷺ في دنياهُ وفي البرزخِ ويومِ معادِهِ.

ولا تقرُّ العينُ، ولا يهدأُ القلبُ، ولا تطمئنُ النفسُ إلَّا بإلٰهها ومعبودِها الذي هو حقٌّ، وكلُّ معبودٍ سواهُ باطلٌ، فمَنْ قرَّتْ عينُهُ باللهِ قرَّتْ به كلُّ عينٍ، ومَنْ لم تقرَّ عينهُ باللهِ تقطَّعَتْ نفسهُ على الدنيا حسراتٍ، والله تعالى إنَّما جعلَ الحياةَ الطيبةَ لمَنْ آمَنَ به وعملَ صالحاً كما قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) وقد صحَّ هٰذا مرفوعاً؛ فرواه ابن حبان (٣١١٩)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٥٧)، والحاكم (١ / ٣٨١) عن أبي هُريرة بسند حَسَن.

وانظر: «الدر المنثور» (٥ / ٦٠٨).

فَضَمِنَ لأهلِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ الجزاءَ في الدّنيا بالحياةِ الطَّيبة وبالحسنى يومَ القيامة، فلهم أطيبُ الحياتين؛ وهم أحياءٌ في الدَّارين.

ونظيرُ هٰذا قولهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ونظيرُها قولهُ تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

ففازَ المتَّقونَ المُحسِنونَ بنعيمِ الدّنيا والآخرةِ، وحصلُوا على الحياةِ الطَّيبةِ في الدَّارينِ؛ فإنَّ طيبَ النفسِ وسرورَ القلبِ وفرحَه ولذَّاتهُ وابتهاجَه وطمأنينَتَهُ وانشراحهُ ونورَه وسعتَه وعافيتَه مِنَ الشهواتِ المُحَرَّمةِ والشبهاتِ الباطلةِ هو النعيمُ على الحقيقةِ، ولا نسبةَ لنعيمِ البدنِ إليه، فقد كانَ يقولُ بعضُ مَنْ ذاقَ هٰذه اللذةَ: لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالَدُونا عليه بالسُّيوفِ.

وقال آخر: إنَّه لَيمرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول: إنْ كان أهلُ الجنَّة في مثل هٰذا، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ.

وقال آخرُ: إنَّ في الدنيا جنَّةً هي كالجنَّةِ في الآخرةِ، فَمَنْ دخلَها دخلَ تلك الجنَّةَ، ومَنْ لم يدخُلها لم يدخلْ جنَّةَ الآخرةِ.

وقد أشارَ النبيُّ ﷺ إلى هٰذه الجنَّةِ بقولِه: «إذا مَرَرْتُم برِيَاضِ الجنَّةِ فارْتَعُوا، قالوا: وما رياضُ الجنةِ؟ قالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ[1]».

---

(١) حديث حسنٌ لغيرِه، له طرقٌ وشواهدُ تُثَبِّتُهُ؛ فانظر تعليقَ شيخنا الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣ / ٢٩١).

ولأخينا الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف رسالةٌ في جمع طرق هٰذا الحديث، انْفَصَلَ فيها إلى حُسْنِه.

وقال: «ما بينَ بيتي ومِنْبَري روضةٌ من رياضِ الجنَّةِ»[1].

ولا تظنَّ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وإِنَّ الفُجَّـارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] مُختَصٌّ بيومِ المعادِ فقط، بل هٰؤلاءِ في نعيمٍ في دورِهم الثلاثةِ، وهٰؤلاءِ في جحيمٍ في دورهم الثلاثةِ، وأيُّ لذَّةٍ ونعيمٍ في الدنيا أطيبُ مِنْ برِّ القلبِ، **وسلامةِ الصدرِ**، ومعرفةِ الربِّ تعالى ومحبته، والعملِ على موافقته؟

وهل العيشُ في الحقيقةِ إلاَّ عيشُ القلبِ السليمِ؟ وقد أثنى اللهُ تعالى على خليلِهِ عليه السلام بسلامةِ قلبهِ فقالَ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ و٨٤].

وقال حاكِياً عنه أنَّه قالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ و٨٩]. والقلبُ السليمُ هو الذي سلمَ مِنَ الشركِ والغلِّ والحقد والحسدِ والشُّحِّ والكبرِ، وحُبِّ الدنيا والرياسةِ؛ فسلمَ مِنْ كُلِّ آفةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللهِ، وسَلِمَ مِنْ كلِّ شبهةٍ تعارِضُ خبرَه، ومِنْ كلِّ شهوةٍ تعارِضُ أمرَهُ، وسلِمَ مِنْ كُلِّ إرادةٍ تُزاحِمُ مرادَهُ، وسلمَ مِنْ كلِّ قاطعٍ يقطعُ عنِ اللهِ؛ فهٰذا القلبُ السليمُ في جنَّةٍ مُعَجَّلةٍ في الدنيا، وفي جنَّةٍ في البرزخِ، وفي جنةٍ يومَ المعادِ.

ولا تتمُّ له سلامتُهُ مُطْلقاً حتى يسلمَ مِنْ خمسةِ أشياءَ:

مِنْ شركٍ يناقضُ التوحيدَ. وبدعةٍ تخالِفُ السنةَ. وشهوةٍ تخالفُ الأمرَ. وغفلةٍ تناقِضُ الذكرَ. وهوىً يناقِضُ التجريدَ والإخلاصَ.

---

(١) رواه البخاري (١١٣٧)، ومسلم (١٣٩٠).

وهٰـذه الخمسـةُ حُجُبٌ عنِ اللهِ، وتحتَ كلِّ واحـدٍ منهـا أنواعٌ كثيرةٌ، تتضمَّنُ أفراداً لا تنحصرُ.

ولـذٰلك اشتدَّتْ حاجةُ العبدِ بل ضرورتُهُ، إلى أنْ يسألَ اللهَ أنْ يهديَهُ الصراطَ المستقيمَ؛ فليس العبدُ أحوجَ منه إلى هٰذه الدعوةِ، وليس شيءٌ أنفعَ له منها.

فإنَّ الصـراطَ المستقيمَ يتضَمَّنُ علومـاً وإراداتٍ وأعمـالاً وتُـروكاً ظاهرةً وباطنةً تجري عليه كلَّ وقتٍ؛ فتفاصيلُ الصراطِ المستقيمِ قد يعلمُها العبدُ، وقد لا يعلمُها، وقد يكونُ ما لا يعلمُهُ أكثرَ مما يعلمُهُ، وما يعلمُهُ قد يقدرُ عليه وقد لا يقدرُ عليه، وهو الصراطُ المستقيمُ وإنْ عجزَ عنه، وما يقدرُ عليه قد تُريدُهُ نفسهُ وقد لا تُريدهُ، كَسَلاً وتهاوُناً، ولقيـامِ مـانعٍ وغيرِ ذٰلك، وما تُريدهُ قد يفعلهُ وقد لا يفعلهُ، وما يفعلهُ قد يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ وقد لا يقومُ، وما يقومُ فيه بشـروطِ الإخـلاصِ قد يقـومُ فيه بكمـالِ المتابعةِ وقد لا يقومُ، وما يقومُ فيه بالمتابعةِ قد يثبتُ عليه وقد يصرفُ قلبَهُ عنه.

وهٰذا كلُّه واقعٌ سارٍ في الخلقِ؛ فمستقلٌّ ومستكثرٌ.

وليس في طِباعِ العبدِ الهدايةُ إلى ذٰلك، بل متى وُكِلَ إلى طباعِهِ حِيلَ بينه وبينَ ذٰلك كلِّه، وهٰذا هو الإركاسُ الذي أركسَ اللهُ به المنافقينَ بذنوبِهم، فأعادَهُم إلى طِباعِهم وما خُلِقَتْ عليه نفوسُهُم مِنَ الجهلِ والظلمِ.

والربُّ تبارك وتعالى على صراطٍ مستقيمٍ في قضائِهِ وقدرِهِ ونهيِهِ وأمرِهِ؛ فيهـدي مَنْ يشـاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ بفضلِهِ ورحمتِـهِ، وجعلِهِ الهدايةَ حيثُ تصلحُ، ويصرفُ مَنْ يشاءُ عن صراطِهِ المستقيمِ بعدلِهِ وحكمتِهِ، لعدمِ صلاحيَّةِ المحلِّ، وذٰلك موجبُ صراطِهِ المستقيمِ الذي هو عليه، فإذا كانَ يومُ القيامةِ نصبَ لخلقهِ صراطاً مستقيماً يُوصلُهُم إليه، فهو على صراطٍ مستقيمٍ.

ونصبَ لعبادِهِ مِنْ أمرِه صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حُجَّةً منه وعدلاً، وهدى مَنْ يشاءُ منهم إلى سلوكِه نعمةً منه وفضلاً، ولم يَخْرُجْ بهٰذا العدلِ وهٰذا القصدِ عن صراطِهِ المستقيمِ الذي هو عليه؛ فإذا كانَ يومُ لقائه نصبَ لخلقهِ صراطاً مستقيماً يُوصِلُهم إلى جنَّتِه، ثم صرفَ عنه مَنْ صُرِفَ عنه في الدنيا، وأقامَ عليه مَنْ أقامَهُ عليه في الدنيا، وجعلَ نورَ المؤمنينَ به وبرسولِه وبما جاءَ به الذي كانَ في قلوبِهم في الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بينَ أيديهم وبأيمانِهم في ظُلمةِ الحشرِ، وحَفِظَ عليهم نورَهُم حتى قطعوهُ، كما حفظَ عليهم الإيمانَ حتى لَقَوْهُ، وأطفأَ نورَ المنافقينَ أحوجَ ما كانوا إليه، كما أطفأه في قلوبِهم في الدنيا.

وأقامَ أعمالَ العصاةِ بجنبتيِّ الصراطِ كلاليبَ وحَسكاً تخطِفُهم كما خطفتهُم في الدنيا عنِ الاستقامةِ عليه[1]، وجعلَ قوَّةَ سيرِهم وسرعتِهم عليهِ على قَدْرِ قوَّةِ سيرِهم وسرعتِهم إليه في الدنيا، ونصبَ للمؤمنينَ حوضاً[2] يشربُونَ منه بإزاءِ شربهم مِنْ شرعهِ في الدنيا، وحُرِمَ مِنَ الشربِ منه هناكَ مَنْ حُرِمَ مِنَ الشربِ مِنْ شرعهِ ودينه ها هنا.

فانظرْ إلى الآخرةِ كأنَّها رأيُ عينٍ، وتأمَّلْ حكمةَ اللهِ سبحانهُ في الدَّارين، تعلمْ حينئذٍ علماً يقيناً لا شكَّ فيه: أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ[3] وعنوانُها وأنْموذَجُها، وأنَّ منازلَ الناسِ فيها مِنَ السعادةِ والشقاوةِ على حسبِ منازلهم في هٰذه الدارِ في الإيمانِ والعملِ الصالحِ وضدِّهما، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) تقدَّم الحديثُ في ذٰلك (ص ٤٩).

(٢) أحاديث الحوضِ النبويِّ مُتواترةٌ، قد أفردها بالجمع والتصنيف جماعةٌ من العُلماء، منهم الإمام الحافظ بقيُّ بن مَخْلَد الأندلسي، وجزؤه فيه مطبوعٌ.

(٣) قارن بـ «تخريج الإحياء» (٤ / ١٩)، و«كشف الخفاء» (١ / ٤٩١)، و«الأسرار المرفوعة» (١٩٩).

فمِنْ أعظمِ عقوباتِ الذنوبِ؛ الخروجُ عنِ الصراطِ المستقيمِ في الدنيا والآخرةِ.

٦٢ ـ فَصْلٌ [تفاوت العقوبات بتفاوت الذنوب]:

ولمَّا كانتِ الذنوبُ مُتفاوتةً في درجاتِها ومفاسِدها تفاوتَتْ عقوبَاتُها في الدنيا والآخرة بحسبِ تفاوتها.

ونحن نَذكُرُ فيها بعونِ اللهِ وحُسنِ توفيقِهِ فصلاً وجيزاً جامعاً؛ فنقولُ:

أصلُها نوعان: تركُ مأمورٍ، وفعلُ محظورٍ، وهما الذَّنبانِ اللَّذانِ ابتلى اللهُ سبحانه بهما أبويِ الجنِّ والإنسِ.

وكلاهما ينقسمُ باعتبارِ محلّه إلى ظاهرٍ على الجوارحِ، وباطنٍ في القلوبِ.

وباعتبارِ مُتَعَلَّقِهِ إلى حقِّ اللهِ، وحقِّ خلقِهِ.

وإنْ كانَ كلُّ حقٍّ لخلقِهِ فهو مُتَضمِّنٌ لحقِّه، لكنْ سُمِّيَ حقّاً للخَلْقِ، لأنه [يجبُ] بمطالبتِهم، ويسقطُ بإسقاطِهم.

ثم هٰذه الذنوبُ تنقسمُ إلى أربعةِ أقسامٍ: مَلَكِيَّةٍ، وشيطانيَّةٍ، وسَبْعِيَّةٍ، وبهيميَّةٍ، ولا تخرجُ عن ذٰلك.

فالذنوبُ المَلَكِيَّةُ: أنْ يتعاطى ما لا يَصْلُح له مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ، كالعظمةِ، والكبرياءِ، والجبروتِ، والقهرِ، والعُلُوِّ، واستعبادِ الخلقِ، ونحوِ ذٰلك.

ويدخلُ في هٰذا الشركُ بالربِّ تعالى، وهو نوعان:

شركٌ به في أسمائِهِ وصفاتِهِ وجعلُ آلهةٍ أخرى معه.

وشركٌ به في معاملتِه: وهٰذا الثاني قد لا يُوجِبُ دخولَ النارِ، وإنْ أحبطَ العملَ الذي أشركَ فيه مع اللهِ غيرَه.

وهٰذا القسمُ أعظمُ أنواعِ الذنوبِ، ويدخلُ فيه القولُ على اللهِ بلا علمٍ في خلقِه وأمرِه؛ فَمَنْ كانَ مِنْ أهلِ هٰذه الذنوبِ، فقد نازعَ اللهُ سبحانه في ربوبيَّتِه وملكِه، وجعلَ له نِدّاً.

وهٰذا أعظمُ الذنوبِ عندَ اللهِ، ولا ينفعُ معه عملٌ.

٦٣ ـ فَصْلٌ [الذنوب الشيطانيّة]:

وأمَّا الشيطانيةُ؛ فالتشبُّهُ بالشيطانِ في الحسدِ، والبغيِ، والغِشِّ، والغِلِّ، والخداعِ، والمكرِ، والأمرِ بمعاصِي اللهِ، وتحسينِها، والنهي عن طاعتِهِ، وتهجينِها، **والابتداعِ في دينِه، والدعوةِ إلى البدعِ والضَّلالِ**.

وهٰذا النوعُ يلي النوعَ الأولَ في المفسدةِ، وإنْ كانت مفسدتُهُ دونَهُ.

٦٤ ـ فَصْلٌ [الذنوب السَّبعيّة]:

وأما السَّبْعيَّةُ: فذنوبُ العدوانِ، والغَضَبِ، وسفكِ الدماءِ، والتوثُّبِ على الضُّعفاءِ والعاجزينَ، ويتولَّدُ منها أنواعُ أذى النَّوعِ الإنسانيّ، والجُرأةِ على الظُّلمِ والعدوانِ.

وأما الذنوبُ البهيميَّةُ فمثلُ الشَّرَهِ، والحرصِ على قضاءِ شهوةِ البطنِ والفَرْجِ؛ ومنها يتولَّدُ الزنى، والسرقةُ، وأكلُ أموالِ اليتامى، والبُخْلُ، والشُّحُّ، والجُبْنُ، والهَلَعُ، والجَزَعُ، وغيرُ ذٰلك.

وهٰذا القسمُ أكثرُ ذنوبِ الخَلْقِ لعجزِهم عن الذنوبِ السبعيَّةِ والمَلَكيةِ، ومنه يدخلونَ إلى سائرِ الأقسامِ، فهو يجرُّهم إليها بالزِّمامِ، فيدخلونَ منه إلى

الذنوبِ السبعيَّةِ، ثم إلى الشيطانيَّةِ، ثم إلى منازعةِ الربوبيَّةِ، والشِّرْكِ في الوحدانيَّةِ.

ومَنْ تأمَّلَ هٰذا حقَّ التأملِ؛ تَبَيَّنَ له أنَّ الذنوبَ دهليزُ الشِّركِ والكفرِ، ومنازعةِ اللهِ في ربوبيَّتِهِ.

٦٥ ـ فَصْلٌ [الذّنوب كبائر وصغائر]:

وقد دلَّ القرآنُ والسنةُ وإجماعُ الصَّحابةِ والتَّابعينَ بعدَهم والأئمةِ، على أنَّ مِنَ الذنوبِ كبائرَ وصغائرَ، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلًا كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١].

وقالَ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وفي «الصحيح»[١] عنه ﷺ أنَّه قالَ: «الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعَةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ: مُكَفِّراتٌ لِمَا بينهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكَبائرُ».

وهٰذه الأعمالُ المُكَفِّرَةُ لها ثلاثُ درجاتٍ:

إحداها: أنْ تَقْصُرَ عن تكفيرِ الصَّغائرِ لضعفِها وضعفِ الإخلاصِ فيها والقيامِ بحقوقِها، بمنزلةِ الدواءِ الضعيفِ الذي ينقصُ عن مقاومةِ الداءِ كميَّةً وكيفيَّةً.

الثانية: أنْ تقاومَ الصغائرَ، ولا ترتقي إلى تكفيرِ شيءٍ مِنَ الكبائرِ.

الثالثة: أنْ تقوى على تكفيرِ الصَّغائرِ، وتبقى فيها قوةٌ تُكَفِّرُ بها بعضَ الكبائرِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) عن أبي هُريرة.

فتأمَّلْ هٰذا؛ فإنه يُزيلُ عنك إشكالاتٍ كثيرةً.

وفي «الصَّحيحين»[1] عنه ﷺ أنَّه قالَ: «ألا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ؟ قلنا: بلى يا رسولَ اللهِ؛ فقالَ: الإشراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ، وشهادةُ الزُّورِ».

وفي «الصَّحيحين»[2] عنه ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قيلَ: وَمَا هُنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الإشراكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبَا، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحصناتِ الغافِلَاتِ المُؤمِنَاتِ».

وفي «الصَّحيحين»[3] عنه ﷺ: «أنَّهُ سُئِلَ: أيُّ الذَّنب أعظمُ عندَ اللهِ؟ قالَ: أنْ تَدْعُوَ للهِ نِدّاً وَهُوَ خلَقَكَ، قيلَ: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أن يطعمَ معـك، قيلَ: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: أنْ تُزاني حَلِيلةَ جارِكَ»، فأنزلَ اللهُ تعالى تصديقها: ﴿والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

واختلفَ الناسُ في الكبائرِ ـ هل لها عددٌ يَحْصُرُهَا؟ ـ على قَوْلَيْنِ:

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددِها:

فقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: هي أربعٌ.

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرَ: هي سبعٌ.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ العاصِ: هي تسعٌ.

وقال غيرهُ: هي إحدى عشرةَ.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٨٩).

(٣) تقدَّم تخريجه (ص ١٧٣).

وقال آخرُ: هي سبعونَ.

وقال أبو طالبٍ المكيّ(1): جمعتُها مِنْ أقوالِ الصَّحابةِ، فوجدتُّها أربعةً في القلبِ، وهي الشركُ باللهِ، والإصرارُ على المعصيةِ، والقنوطُ مِنْ رحمةِ اللهِ، والأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ. وأربعةٌ في اللسانِ: وهي: شهادةُ الزُّورِ، وقذفُ المحصناتِ، واليمينُ الغَموسُ، والسحرُ. وثلاثة في البطنِ: شربُ الخمرِ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا. واثنتان في الفرجِ وهما: الزِّنى واللواطُ، واثنتانِ في اليدين وهما: القتلُ والسرقةُ. وواحدةٌ في الرّجلينِ، وهي الفرارُ مِنَ الزحْفِ. وواحدةٌ تتعلَّقُ بجميعِ الجسدِ، وهي عقوقُ الوالدين.

والذين لم يحصروهَا بعددٍ؛ منهم مَنْ قالَ: كلُّ ما نهى اللهُ عنه في القرآنِ فهو كبيرةٌ، وما نهى عنه الرسولُ ﷺ فهو صغيرةٌ.

وقالتْ طائفةٌ: ما اقترنَ بالنَّهي عنه وعيدٌ مِنْ لعنٍ أو غضبٍ أو عقوبةٍ فهو كبيرةٌ، وما لم يقترنْ به شيءٌ من ذٰلك فهو صغيرةٌ.

وقيل: كلُّ ما ترتَّبَ عليه حدٌّ في الدنيا أو وعيدٌ في الآخرةِ فهو كبيرةٌ، وما لم يُرَتَّبْ عليه لا هٰذا ولا هٰذا؛ فهو صغيرةٌ.

وقيل: كلُّ ما اتَّفقتِ الشرائعُ على تحريمِهِ فهو مِنَ الكبائرِ، وما كانَ تحريمُهُ في شريعةٍ دونَ شريعةٍ فهو صغيرةٌ.

وقيل: كلُّ ما لَعَنَ اللهُ ورسولُهُ فاعلَهُ فهو كبيرةٌ.

وقيل: هي كلُّ ما ذُكِرَ مِنْ أوَّلِ سورةِ النساءِ إلى قولِهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم﴾ [النساء: ٣١].

والذينَ لم يقَسِّمُوها إلى كبائرَ وصغائرَ قالوا: الذنوبُ كلُّها ـ بالنسبةِ إلى الجراءةِ على اللهِ ومعصيتِهِ ومخالفةِ أمرِهِ ـ كبائرُ؛ فالنظرُ إلى مَنْ عصى

---

(1) قارن بـ «قوت القلوب» (٢ / ١٤٧) له.

أمرَهُ وانتهكَ محارِمَهُ يُوجِبُ أن تكونَ الذنوبُ كلُّها كبائرَ، وهي مستويةٌ في هٰذه المفسدةِ.

قالوا: ويُوَضِّحُ هٰذا أنَّ اللهَ سبحانه لا تَضُرُّهُ الذنوبُ ولا يتأثَّرُ بها، فلا يكونُ بعضُها بالنسبةِ إليه أكبرَ مِنْ بعضٍ، فلم يبقَ إلا مجرَّدَ معصيتِهِ ومخالفتِهِ، ولا فرقَ في ذٰلك بين ذنبٍ وذنبٍ.

قالوا: ويدلُّ عليه أنَّ مفسدَةَ الذنوبِ إنَّما هي تابعةٌ للجراءةِ والتوثُّبِ على حقِّ الربِ تبارك وتعالى، ولهٰذا لو شربَ رجلٌ خمراً أو وطىءَ فرجاً حراماً، وهو لا يعتقدُ تحريمَهُ؛ لكانَ قد جمعَ بينَ الجهلِ وبينَ مفسدةِ ارتكابِ الحرامِ، ولو فعلَ ذٰلك مَنْ يعتقدُ تحريمَهُ لكان آتياً بإحدى المفسدَتَيْنِ، وهو الذي يستحِقُّ العقوبَةَ دونَ الأوَّلِ، فدلَّ على أنَّ مفسدَةَ الذنبِ تابعةٌ للجراءةِ والتوثُّبِ.

قالوا: ويدلُّ على هٰذا أنَّ المعصيةَ تتضَمَّنَ الاستهانَةَ بأمرِ المُطَاعِ ونهيِهِ وانتهاكِ حرمتهِ، وهٰذا لا فرقَ فيه بين ذنبٍ وذنبٍ.

قالوا: فلا ينظرُ العبدُ إلى كبرِ الذنبِ وصغرِهِ في نفسهِ، ولكنْ ينظرُ إلى قَدْرِ مَنْ عصاهُ، وعظمتِهِ، وانتهاكِ حرمتِهِ بالمعصيةِ، وهٰذا لا يفترقُ فيه الحالُ بينَ معصيةٍ ومعصيةٍ، فإنَّ مَلِكاً مُطاعاً عظيماً لو أمرَ أحدَ مملوكيهِ أن يذهبَ في مُهِمَّـةٍ له إلى بلدٍ بعيدٍ، وأمـرَ آخرَ أنْ يذهَبَ في شُغلٍ له إلى جانِبِ الدارِ، فَعَصَيَاهُ وخالَفَا أمرهُ؛ لكانا في مقتِهِ والسقوطِ مِنْ عينِهِ سواءً.

قالوا: ولهٰذا كانت معصيةُ مَنْ تركَ الحجَّ مِنْ مكَّةَ وَمَنْ تَركَ الجمعةَ وهو جارُ المسجدِ، أقبحَ عند اللهِ مِنْ معصيةِ مَنْ تَركَهُ مِنَ المكانِ البعيدِ، والواجبُ على هٰذا أكثرُ مِنَ الواجبِ على هٰذا، ولو كانَ مع رجلٍ مئتا درهمٍ فمنعَ زكاتَها، ومع آخرَ مئتا ألفِ ألفٍ فمنعَ زكاتَها لاستويا في منعِ ما وجبَ على كلِّ واحدٍ منهما، ولا يبعدُ استواؤهما في العقوبةِ، إذا كانَ كلٌّ منهما مُصِرّاً على منعِ زكاةِ

ماله؛ قليلاً كانَ المالُ أو كثيراً.

٦٦ ـ فَصْلٌ [خلق اللهُ الخلقَ لتوحيدِه وعبادتِه وحدَه]:

وكشفُ الغطاءِ عن هذه المسألةِ أنْ يقالَ:

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرسلَ رسلَهُ، وأنزلَ كتبَهُ، وخلقَ السماواتِ والأرضَ لِيُعْرَفَ ويُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ ويكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ، والطاعةُ كلُّها له، والدعوةُ له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ومَا خَلَقْنَا السَّماوَاتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالحقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ والقَلائِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فأخبرَ سبحانه أنَّ القصدَ بالخلقِ والأمرِ أن يُعرفَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ويُعبَد وحْدَهُ لا يُشركَ به، وأنْ يقومَ الناسُ بالقسطِ، وهو العدلُ الذي قامَتْ به السَّماواتُ والأرضُ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فأخبرَ سبحانه أنَّه أرسلَ رسلَهُ وأنزلَ كتبَهُ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وهو العدلُ، ومِنْ أعظمِ القسطِ التوحيدُ، وهو رأسُ العدلِ وقوامُهُ، وإنَّ الشركَ ظلمٌ،

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فالشركُ أعظمُ الظلمِ، والتوحيدُ أعدلُ العدلِ، فما كانَ أشدَّ منافاةً لهٰذا المقصودِ فهو أكبرُ الكبائرِ، وتفاوتُها في درجاتها بحسبِ منافاتِها له، وما كانَ أشدَّ موافقةً لهٰذا المقصودِ فهو أوجبُ الواجباتِ وأفرضُ الطاعاتِ.

فتأمَّلْ هٰذا الأصلَ حقَّ التأملِ، واعتَبِرْ به تفاصيلَهُ تعرفْ به حكمةَ أحكمِ الحاكمينَ، وأعلمِ العالمينَ، فيما فرضَهُ على عبادِهِ، وحرَّمَهُ عليهم، وتفاوُتَ مراتبِ الطَّاعَاتِ والمعاصِي.

فلما كانَ الشركُ باللهِ مُنافياً بالذاتِ لهٰذا المقصودِ كانَ أكبرَ الكبائرِ على الإطلاقِ، وحرَّمَ اللهُ الجنَّةَ على كلِّ مشركٍ، وأباحَ دمَهُ ومالَهُ وأهلَهُ لأهلِ التَّوحِيدِ، وأنْ يتَّخذوهم عبيداً لهم، لمَّا تركُوا القيامَ بعبوديَّتِهِ، وأبى اللهُ سبحانه أنْ يقبلَ مِنْ مُشركٍ عملاً، أو يقبلَ فيه شفاعةً، أو يستجيبَ له في الآخرةِ دعوةً، أو يُقيلَ له فيها عثرةً، فإنَّ المشركَ أجهلُ الجاهلينَ، حيثُ جعلَ له مِنْ خلقهِ نِدّاً، وذٰلك غايةُ الجهلِ به، كما أنَّه غايةُ الظلمِ منه، وإنْ كانَ المشركُ لم يظلمْ رَبَّهُ، وإنما ظلمَ نفسَهُ.

٦٧ - فَصْلٌ [الوسائط والشفعاء سبب سخط الرّب وغضبه]:

ووقعتْ مسألةٌ، وهي: أنَّ المشركَ إنما قصدُهُ تعظيمُ جنابِ الربِّ تبارك وتعالى، وأنَّه لعظمتِهِ لا ينبغي الدخولُ عليه إلا بالوسائطِ والشُّفعاءِ، كحالِ الملوكِ؛ فالمشركُ لم يقصدِ الاستهانةَ بجنابِ الربوبيَّةِ، وإنَّما قصدَ تعظيمَهُ! وقال: إنما أعبدُ هٰذه الوسائطَ لتقرِّبَني إليه وتدُلَّني وتُدخِلَني عليه؛ فهو المقصودُ، وهٰذه وسائلُ وشفعاءُ، فَلِمَ كانَ هٰذا القدرُ موجباً لسخطِهِ وغضبِهِ تبارك وتعالى، ومُخَلِّداً في النارِ، وموجباً لسفكِ دماءِ أصحابِهِ، واستباحةِ حريمهم وأموالِهم؟!

ويَتَـرَتَّبُ على هٰذا سؤالٌ آخرُ، وهو أنَّهُ: هل يجوزُ أنْ يشرعَ اللهُ سبحانه لعبـادِهِ التقـرُّبَ إليه بالشفعـاءِ والـوسائِطِ، فيكونَ تحريمُ هٰذا إنما استُفيدَ مِنَ الشَّرْعِ؟ أم ذٰلك قبيحٌ من الفِطَرِ والعقولِ يمتنعُ أنْ تأتيَ به شريعةٌ؟ بل جاءتِ الشرائعُ بتقريرِ ما في الفطرِ والعقولِ مِنْ قبحِهِ الذي هو أقبحُ مِنْ كُلِّ قبيحٍ، وما السرُّ في كونِهِ لا يغفرُهُ مِنْ بينِ سائرِ الذنوبِ؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فتأمَّلْ هٰذا السؤالَ، واجمَعْ قلبَكَ وذهنَكَ على جوابِهِ ولا تستهونْهُ؛ فإنَّ به يحصلُ الفرقُ بينَ المشركينَ والمُوَحِّدينَ، والعالِمينَ باللهِ والجاهلينَ به، وأهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ.

فنقـولُ وباللهِ التوفيقُ والتأييدُ، ومنه نستمدُّ المعونةَ والتسديدُ، فإنَّه مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَاديَ له، ولا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطِيَ لما مَنَعَ:

الشرك شركان:

شركٌ يتعلَّقُ بذاتِ المعبودِ، وأسمائه، وصفاتِه وأفعالِهِ.

وشركٌ في عبادتِهِ ومعاملتِهِ، وإنْ كان صاحبُهُ يعتقدُ أنَّه سبحانه لا شريكَ له في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ.

والشركُ الأوَّلُ نوعان:

أحدُهما شركُ التَّعطيلِ: وهو أقبحُ أنواعِ الشركِ، كشركِ فرعونَ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال تعالى مُخْبِراً عنه أنَّه قالَ لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابن لي صرحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّماوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلٰهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر: ٣٦ و٣٧].

والشـركُ والتعطيلُ متلازِمانِ؛ فكلُّ مشركٍ مُعَطِّلٌ، وكلُّ معطِّلٍ مشركٌ،

لكنَّ الشركَ لا يستلزمُ أصلَ التَّعطيلِ ، بل قد يكونُ المشركُ مقرّاً بالخالقِ سبحانه وصفاته، ولكنَّهُ عطَّلَ حقَّ التوحيدِ.

وأصلُ الشركِ وقاعدتُهُ التي يرجعُ إليها، هو التعطيلُ، وهو ثلاثةُ أقسامٍ :

تعطيلُ المصنوعِ عن صانِعِهِ وخالِقِهِ.

وتعطيلُ الصَّانعِ سبحانه عن كمالِهِ المقدَّسِ بتعطيلِ أسمائِهِ وأوصافِهِ وأفعالِهِ.

وتعطيلُ مُعاملتهِ عما يجبُ على العبدِ مِن حقيقةِ التوحيدِ.

ومِنْ هٰذا شركُ طائفةَ أهلِ وحدةِ الوجودِ الذين يقولون: ما ثَمَّ خالقٌ ومخلوقٌ ولا ها هنا شيئانِ، بل الحقُّ المنزَّهُ هو عَيْنُ الخَلْقِ المُشبَّهِ.

ومنه شركُ الملاحدةِ القائلينَ بقدَمِ العالمِ [1] وأبديَّتِهِ، وأنَّهُ لم يكنْ معدوماً أصلاً، بل لم يزلْ ولا يزالُ، والحوادثُ بأسرِها مستندةٌ عندهم إلى أسبابٍ ووسائطَ اقتضتْ إيجادَهَا، ويسمُّونها بالعقولِ والنفوسِ.

ومِنْ هٰذا شركُ مَنْ عَطَّلَ أسماءَ الربِّ تعالى وأوصافَهُ وأفعالَهُ مِنْ غُلاةِ الجهميَّةِ والقرامطةِ، فلم يُثبِتُوا له اسماً ولا صفةً، بل جعلوُا المخلوقَ أكملَ منه؛ إذ كمالُ الذَّاتِ بأسمائِها وصفاتِها.

٦٨ ـ فَصْلٌ [شرك النَّصارى الّذين جعلوا الله ثالثَ ثلاثة]:

النوع الثاني: شركُ مَنْ جعلَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولم يُعَطِّلْ أسماءَهُ وصفاتِهِ وَرُبوبيَّتِهِ؛ كشركِ النَّصارى الذين جعلوه ثالثَ ثلاثةٍ، فجعلوا المسيحَ إلٰهاً، وأمَّهُ

(١) وفي هٰذا ردٌّ على بعض ضُلَّالِ العصر المُتَّهمين شيخَ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ـ المصنِّف ـ ابن القيِّم أنهما يقولان بقدم العالَم.

سبحانك ربِّي هٰذا بهتانٌ عظيمٌ.

إلٰهاً.

ومِنْ هٰذا شركُ المجوسِ القائلينَ بإسنادِ حوادثِ الخيرِ إلى النورِ، وحوادثِ الشرِّ إلى الظلمةِ!

ومِنْ هٰذا شركُ القدريَّةِ القائلينَ بأنَّ الحيوانَ هو الذي يخلقُ أفعالَ نفسِهِ، وأنها تحدثُ بدونِ مشيئةِ اللهِ وقدرتِهِ وإرادتِهِ، ولهٰذا كانوا أشباهَ المجوسِ (1).

ومِنْ هٰذا شركُ الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذي يُحيي ويُميتُ قال أنا أُحيي وأُميت﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ فهٰذا جعلَ نفسَهُ نِدّاً للهِ تعالى، يُحيي ويُميتُ بزعمِهِ، كما يُحيي اللهُ ويُميتُ، فألزَمَهُ إبراهيمُ أنَّ طَرْدَ قولِهِ أنْ يقدِرَ على الإتيانِ بالشمسِ من غيرِ الجهةِ التي يأتي بها اللهُ منها، وليسَ هٰذا انتقالاً كما زعمَ بعضُ أهلِ الجَدَلِ، بل إلزاماً على طردِ الدَّليلِ إنْ كانَ حقّاً.

ومِنْ هٰذا شركُ كثيرٍ مِمَّنْ يُشركُ بالكواكِبِ العُلويَّاتِ، ويجعلُها أرباباً مُدَبِّرَةً لأمرِ هٰذا العالمِ، كما هو مذهبُ مُشركي الصابئةِ وغيرِهم.

ومِنْ هٰذا شركُ عُبَّادِ الشمسِ وعُبَّادِ النارِ وغيرِهم.

ومِنْ هٰؤلاءِ مَنْ يزعُمُ أنّ معبودَهُ هو الإلٰهُ على الحقيقةِ! ومِنهم مَنْ يزعُمُ أنّه أكبرُ الآلهةِ! ومنهم مَنْ يزعُمُ أنَّهُ إلٰهٌ مِنْ جُملَةِ الآلهةِ! وأنّه إذا خصَّهُ بعبادَتِهِ والتَّبتُّلِ إليه والانقطاعِ إليه أقبلَ عليه واعتنىٰ به! ومنهم مَنْ يزعُمُ أنَّ معبودَهُ الأدنى يُقَرِّبُهُ إلى المعبودِ الذي هو فوقَهُ! والفوقانيُّ يقرِّبُهُ إلى مَنْ هو فوقَهُ، حتى تُقَرِّبَهُ تلك الآلهةُ إلى اللهِ سبحانه، فتارةً تكثرُ الآلهةُ والوسائطُ وتارةً تقلُّ!!

---

(1) وصحَّ فيهم قولُ النبيِّ ﷺ: «القَدَريَّة مجوس هٰذه الأمَّة»، وهو حديثٌ صحيحٌ بطرقِهِ وشواهدِهِ؛ فانظر: «ظلال الجنّة» (٣٢٨ و٣٢٩)، و«تخريج الطحاوية» (٢٨٤ و٨٠٩)، كلاهما لشيخنا الألباني.

٦٩ - فَصْلٌ [الشرك في العبادة]:

وأمَّا الشركُ في العبادةِ: فهو أسهلُ مِنْ هٰذا الشركِ، وأخفُّ أمراً، فإنه يصدرُ مِمَّنْ يعتقدُ أنَّه لا إله إلا اللهُ، وأنه لا يضرُّ ولا ينفعُ ولا يعطي ولا يمنعُ إلا اللهُ، وأنَّه لا إله غيرُهُ ولا ربَّ سواهُ، ولكن لا يخصُّ اللهَ في معاملتِهِ وعبوديَّتِهِ، بل يعملُ لحظِّ نفسهِ تارةً، ولطلبِ الدُّنيا تارةً، ولطلبِ الرِّفعةِ والمنزلةِ والجاهِ عندَ الخلقِ تارةً؛ فللهِ مِنْ عملِهِ وسعيِهِ نصيبٌ، ولنفسِهِ وحظِّهِ وهواهُ نصيبٌ، وللشيطانِ نصيبٌ، وللخلقِ نصيبٌ!

وهٰذا حالُ أكثر الناس، وهو الشركُ الذي قال فيه النبيُّ ﷺ فيما رواهُ ابنُ حِبَّانَ في «صحيحهِ»[1]: «الشِّرْكُ في هٰذه الأمَّةِ أخفى مِنْ دبيب النَّمْلَةِ، قالوا: كيفَ ننجُو منهُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قُلِ: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأنا

---

(١) لم أره في «صحيح ابن حبان»، ولم أر مَن عزاه إليه.

نعم؛ رواه ابن حبان في «المجروحين» (٣ / ١٣٠)، وأعلَّه يحيى بن كثير.

ورواه بالإسناد نفسه الضياء في «المختارة» (٦٢) و(٦٣)، وابن عدي في «الكامل» (٧ / ٢٦٩٥)، وأبو القاسم البغوي ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٣٤٤) ـ.

وله طريقٌ آخر:

رواه أبو يعلى في «مسنده» (٥٨)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٤ / ٥٤) ـ بسند فيه ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيفٌ.

وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٤٤).

وله شاهدٌ:

فرواه أحمد (٤ / ٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٤٠)، و«الكبير» ـ كما في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٢٣) ـ بإسناد رجاله ثقات؛ إلَّا أنَّ فيه مَن انفرد ابنُ حبَّان بتوثيقه.

وفي الباب عن عائشة وابن عباس كما في «الحلية» (٣ / ٣٦) و(٨ / ٣٦٨) لأبي نُعيم.

وانظر: «علل الدارقطني» (١ / ١٨٩ ـ ١٩١)، و«العلل المتناهية» (٢ / ٤٤٠).

أعلمُ، وأستَغْفِرُكَ لِمَا لَا أعلمُ».

فالـرياءُ كلُّه شركٌ، قال تعـالـى: ﴿قُـلْ إِنَّـمـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْـلُكُـم يُوحَـى إِلَـيَّ أَنَّـمَـا إِلَـهُـكُـم إِلَـهٌ واحِـدٌ فَمَـنْ كَانَ يَرْجُـو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: كما أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا إلـه سواهُ، فكذلك ينبغي أنْ تكونَ العبادةُ له وحده، فكما تَفَرَّدَ بالإلهيةِ يجبُ أنْ يتفرّد بالعبوديَّةِ.

فالعمل الصالحُ هو الخالي مِنَ الرياءِ المقيَّدُ بالسنَّةِ[١].

وكانَ مِنْ دعاءِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه: «اللهمَّ اجعَلْ عملي كلَّه صالحاً، واجعَلْهُ لوجهِكَ خالصاً، ولا تجعلْ لأحدٍ فيه شيئاً»[٢].

وهـذا الشركُ في العبادةِ يُبْطِلُ ثوابَ العملِ، وقد يُعاقبُ عليه إذا كانَ العملُ واجباً، فإنَّهُ ينزلهُ منزلةَ مَنْ لم يعمل؛ فيعاقِبُ على تركِ الأمرِ، فإنَّ اللهَ سبحانه إنما أمرَ بعبادتِهِ عبادةً خالصةً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البيِّنة: ٥].

فَمَنْ لم يُخْلِصْ للهِ في عبادتِهِ لم يفعلْ ما أُمِرَ به، بل الذي أَتى به شيءٌ غيرُ الذي أُمِرَ به؛ فلا يصحُّ، ولا يُقْبَلُ منه، ويقولُ اللهُ: «أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ، فمنْ عَمِلَ عملاً أشركَ معي فيه غيري؛ فهُوَ للَّذي أُشْرَكَ به، وأنا منه بريءٌ»[٣].

---

(١) وعلى ذلك قام كتابُ «العبوديَّة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ فانظره بتحقيقي.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هُريرة.

وهٰذا الشركُ ينقسمُ إلى مغفورٍ وغيرِ مغفورٍ، وأكبرَ وأصغرَ، والنوعُ الأولُ: ينقسمُ إلى كبيرٍ وأكبرَ، وليس شيءٌ منه مغفوراً، فمنه الشركُ باللهِ في المحبَّةِ والتعظيمِ؛ فأنْ يُحِبَّ مخلوقاً كما يحبُّ اللهَ؛ فهٰذا مِنَ الشركِ الذي لا يغفرهُ اللهُ، وهو الشركُ الذي قالَ سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ والَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال أصحابُ هٰذا الشرك لآلهتهم وقد جمعَهم الجحيمُ: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ و٩٨].

ومعلومٌ أنَّهم ما سَوَّوْهُم به سبحانه في الخَلْقِ، والرزْقِ، والإماتةِ والإحياءِ، والمُلْكِ، والقدرةِ، وإنَّما سَوَّوْهُم به في الحُبِّ والتألُّهِ والخضوعِ والتذلُّلِ لهم، وهٰذا غايةُ الجهلِ والظلم؛ فكيف يُسوَّىٰ الترابُ بربِّ الأربابِ؟ وكيف يُسَوَّى العبيدُ بمالكِ الرقابِ؟ وكيفَ يُسَوَّى الفقيرُ بالذاتِ، الضَّعيفُ بالذَّاتِ، والعاجزُ بالذَّاتِ، المُحتاجُ بالذَّاتِ، الذي ليس له مِنْ ذاتِهِ إلا العدمُ، بالغنيِّ بالذَّاتِ، القادرِ بالذاتِ، الذي غناه وقدرتُهُ وملكُهُ وجودُه وإحسانُهُ وعلمهُ ورحمتُهُ وكمالُهُ المطلقُ التامُّ منْ لوازِمِ ذاتِهِ؟!

فأيُّ ظلمٍ أقبحُ مِنْ هٰذا؟ وأيُّ حُكمٍ أشدُّ جَوْراً منه؟ حيثُ عَدَلَ مَنْ لا عَدْلَ له بخلقِهِ، كما قال تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. فعدلَ المشركُ مَنْ خلقَ السماواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ، بمَن لا يملكُ لنفسهِ ولا لغيرِهِ مثقالَ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ؛ فيا له مِنْ عدلٍ تضَمَّنَ أكبرَ الظلمِ وأقْبحَهُ[١]!!

---

(١) انظر: «تجريد التوحيد المُفيد» (ص ٢٦ ـ ٢٨) للمقريزي ـ بتحقيقي.

٧٠ ـ فَصْلٌ [الشرك بالله في الأفعال والأقوال]:

ويَتْبَعُ هٰذا الشركَ الشركُ به سبحانه في الأفعالِ ، والأقوالِ ، والإراداتِ ، والنيَّاتِ :

فالشركُ في الأفعالِ كالسجودِ لغيره ، والطوافِ بغيرِ بيتِه ، وحَلْقِ الرأسِ عبوديَّةً وخضوعاً لغيرِه ، وتقبيلِ الأحجارِ غيرِ الحجرِ الأسودِ الذي هو يمينُهُ في الأرضِ[١] ، وتقبيلِ القبورِ واستلامها ، والسُّجودِ لها .

ولقد لعنَ النبيُّ ﷺ مَنِ اتَّخَذَ قبورَ الأنبياءِ والصَّالِحِينَ مساجِدَ يصلِّى للهِ فيها ؛ فكيفَ بمَنِ اتَّخَذَ القبورَ أوثاناً يعبدُها مِنْ دونِ اللهِ؟ .

ففي «الصَّحيحين»[٢] عنه أنَّه قالَ : «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى ، اتَّخَذُوا مِنْ قُبُورِ أنبيائهم مساجِدَ» .

وفي «الصحيح»[٣] أيضاً عنه : «إنَّ مِنْ شرارِ النَّاسِ من تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وهم أحياءٌ ، والَّذينَ يَتَّخِذُونَ القبورَ مَساجِدَ» .

وفي «الصَّحِيحِ»[٤] أيضاً عنه : «إنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُم كانوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ

---

(١) والحديث في هذا المعنى لا يصحُّ ، رواه الخطيبُ في «تاريخه» (٦ / ٣٢٨) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩٤٤) ، وابن عدي في «الكامل» (١ / ٣٣٦) عن جابر بسند فيه إسحاق بن بشر الكاهليّ ، وهو متروكٌ .

وله بعضُ الطرق الأخرى ـ موقوفةً ومرفوعةً ـ ضعيفةٌ أيضاً ، كما تراها ـ ونَقْدَها ـ في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٢٣) لشيخنا الألباني .

(٢) رواه البخاري (١٢٦٥) ، ومسلم (٥٢٩) .

(٣) هو مِن مُعَلَّقات البخاري (١٣ / ١٤) مختصراً .

وصله ـ بتمامه ـ أحمد (١ / ٤٣٥) ، وابن أبي شيبة (٣ / ٣٤٥) ، وابن خزيمة (٧٨٩) ، وابن حبان (٣٤٠) عن ابن مسعود بسند حسن .

(٤) «صحيح مسلم» (٥٣٢) .

مَسَاجِدَ، ألا فَلاَ تَتَّخِذُوا القبورَ مَسَاجِدَ، فإنِّي أنهاكُم عن ذٰلك».

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» و«صحيحِ ابنِ حِبَّانَ»[1] عنه ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ زوَّاراتِ القبورِ، والمُتَّخِذينَ عَليها المساجِدَ والسُّرُجَ».

وقال: «اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على قومٍ اتَّخذُوا قُبُورَ أنبيائِهم مساجِدَ»[2].

وقال: «إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُم كانَ إذا ماتَ فيهمُ الرجلُ الصَّالحُ بنوْا على قبرِهِ مسجداً، وصَوَّرُوا فيه تلكَ الصُّوَرَ، أُولٰئكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يومَ القِيَامَةِ»[3].

فهٰذا حالُ مَنْ سجدَ للهِ في مسجدٍ على قبرٍ؛ فكيفَ حالُ مَنْ سَجَدَ للقبرِ نفسِهِ؟!

وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «اللهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَناً يُعبَدُ»[4].

وقد حمى ﷺ جانبَ التوحيدِ أعظم حمايةٍ، حتى نهى عن صلاةِ التطوُّعِ لله سبحانه عند طلوعِ الشَّمس وعندَ غروبِها، لئلا يكونَ ذريعةً إلى التشبُّهِ بعُبَّادِ الشمسِ الذين يسجدونَ لها في هاتين الحالتين، وسدَّ الذريعةَ بأنْ منعَ منَ الصلاةِ بعدَ العصرِ والصبحِ؛ لاتِّصالِ هٰذينِ الوقتينِ بالوقتينِ اللذينِ يسجد

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه عبد الرزاق (١٥٨٧)، وابن أبي شيبة (٣ / ٣٤٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

ورواه مالكٌ (٤١٤)، وابن سعد (٢ / ٢٤٠) عن زيد عن عطاء بن يسار مرسلاً.

ووصله البزَّار، ومِن طريقه ابن عبد البرّ في «التمهيد» (٥ / ٤٣) عن أبي سعيد الخدري وصحَّحه.

ورواه ـ بنحوه ـ أحمد (٢ / ٢٤٦)، والحميدي (١٠٢٥)، وأبو نُعيم (٦ / ٢٨٣) و(٧ / ٣١٧) عن أبي هُريرة بسند حسن.

وانظر: «تحذير السَّاجد» (ص ٢٥ ـ ٢٦) لشيخنا الألباني، و«شرح الزُّرقاني» (١ / ٣٥١).

(3) رواه البخاري (١ / ٥٢٣)، ومسلم (١ / ٣٧٥) عن عائشة بنحوه.

(4) هي قطعة مِن حديث: «لعن اللهُ اليهود والنصارى...» المتقدّم في الصفحة السابقة.

المشركونَ فيهما للشمسِ .

وأما السجودُ لغيرِ اللهِ ؛ فقال : «لا ينبغِي لأحدٍ أن يسجُدَ لأحدٍ إلّا للهِ»[1] .

وإنَّما تجيءُ «لا ينبغي» في كلامِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ للَّذي هو في غايةِ الامتناعِ شرعاً، كقولهِ تعالى : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ [مريم : ٩٢]، وقولـه : ﴿وما علَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس : ٦٩]، وقوله : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ [الشعراء : ٢١٠]، وقوله عن الملائكة : ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ﴾ [الفرقان : ١٨] .

٧١ ـ فَصْلٌ [الشرك باللّه في اللّفظ]:

ومِنَ الشركِ به سبحانه : الشركُ به في اللفظِ، كالحلفِ بغيرِهِ، كما رواهُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ عنه ﷺ أنّه قال : «مَنْ حَلَفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشركَ» . وَصحَّحه الحاكمُ وابنُ حِبَّانَ[2] .

ومِنْ ذلك قولُ القائلِ للمخلوقِ : ما شاءَ اللهُ وشئتَ، كما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ له رجلٌ : «ما شاءَ اللهُ وشئتَ، فقالَ : أجَعَلْتَنِي للهِ نِدّاً؟ قُلْ : ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[3] .

---

(١) رواه الترمذي (١١٥٩)، وابن حبان (٤١٦٢)، وابن عدي (٣ / ١١٢٦)، والبيهقي (٧ / ٢٩١)، والحاكم (٤ / ١٧١)، والبزَّار (٤٦٦) من طريقين عن أبي هريرة، أحدهما صحيحُ الإسناد.

وفي البـاب عن أنس؛ رواه أحمد (٣ / ١٥٨)، والبزَّار (٢٤٥٤)، والنسائي في «عشرة النساء» (٢٦٦). وسنده جيّد.

وانظر: «إرواء الغليل» (١٩٩٨) لشيخنا الألباني .

(٢) رواه الحاكم (١ / ١٨) و(٤ / ٢٩٧)، وابن حبان (١١٧٧)، والطيالسي (١٨٩٦)، وأحمد (٢ / ٣٤، ٨٦)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) بسند صحيح .

(٣) رواه أحمد (١ / ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، =

وَهٰـذا مع أنَّ اللهَ قد أثبتَ للعبـدِ مشيئـةً كقولِهِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]؛ فكيفَ بِمَنْ يقولُ: أنا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ وعليك، وأنا في حسبِ اللهِ وحسبِكَ، ومالي إلا اللهُ وأنتَ، وهٰذا مِنَ اللهِ ومنك، وهٰذا مِنْ بركاتِ اللهِ وبركاتِكَ، واللهُ لي في السماءِ وأنتَ لي في الأرضِ، أو يقولُ: واللهِ وحياةِ فلانٍ، أو يقولُ: نذراً للهِ ولفلانٍ، أو أنا تائبٌ للهِ ولفلانٍ، أو أرجو اللهَ وفلاناً، ونحو ذٰلك؟

فوازِنْ بينَ هٰذه الألفاظِ وبينَ قولِ القائِلِ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ، ثم انظرْ أيُّهما أفحشُ! يتبيَّنْ لك أنَّ قائِلَهَا أولى بجوابِ النبيِّ ﷺ لقائِلِ تلكَ الكلمةِ، وأنَّه إذا كانَ قد جَعَلَهُ للهِ نِدّاً بها؛ فهٰذا قد جعلَ مَنْ لا يُداني رسولَ اللهِ ﷺ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ ـ بل لعلَّهُ أنْ يكونَ من أعدائِهِ ـ نِدّاً لربِّ العالمينَ.

فالسجـودُ، والعبادةُ، والتوكُّلُ، والإِنابةُ، والتَّقوى، والخشيةُ، والتحسُّب، والتـوبـةُ، والنـذرُ، والحلفُ، والتسبيحُ، والتكبيرُ، والتهليلُ، والتحميدُ، والاستغفارُ، وحَلْقُ الرأسِ خضوعاً وتَعبُّداً، والطوافُ بالبيتِ، والدعاءُ، كلُّ ذٰلك محضُ حقٍّ للهِ، لا يصلحُ ولا ينبغي لسواهُ مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[1] «أنَّ رجُلاً أُتِيَ به إلى النَّبيِّ ﷺ قدْ أذنبَ ذنباً، فلمَّا وقفَ بينَ يَدَيْهِ قالَ: اللهُمَّ إنِّي أتوبُ إليكَ ولا أتوبُ إلى مُحمدٍ،

= وابن ماجه (٢١١٧)، والبيهقي (٣ / ٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٥)، والنَّسائي في «عمل اليوم» (٩٩٥) بسند حسن عن ابن عباس.

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٣٥)، والحاكم (٤ / ٢٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٣٩) و(٨٤٠) عن الأسود بن سريع.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٩٩): «فيه محمد بن مصعب؛ وثَّقه أحمد، وضعَّفه غيره، وبقيَّة رجاله رجال الصحيح».

قلتُ: والحسنُ البصري مُدَلِّس، وقد عنعنه.

فقال: عَرَفَ الحقَّ لأهلِه».

٧٢ ـ فَصْلٌ [الشّرك في الإرادات والنيّات]:

وأمَّا الشركُ في الإراداتِ والنيَّاتِ فذٰلك البحرُ الذي لا ساحِلَ له، وقلَّ من ينجـو منه، فَمَنْ أرادَ بعملِه غيرَ وجهِ اللهِ أو نوى شيئاً غيرَ التقرُّبِ إليه وطلبَ الجزاءَ منه؛ فقد أشركَ في نيَّتِه وإرادتِه.

والإخلاصُ: أنْ يُخلصَ للهِ في أقوالِه وأفعالِه وإرادتِه ونيَّتِه، وهٰذه هي الحنيفيةُ مِلَّةُ إبراهيمَ التي أمرَ اللهُ بها عبادهُ كلَّهم، ولا يَقْبَلُ مِنْ أحدٍ غيرَها، وهي حقيقةُ الإسلامِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي مِلَّةُ إبراهيمَ التي مَنْ رَغِبَ عنها فهو مِنْ أسفهِ السُّفَهَاءِ.

٧٣ ـ فَصْلٌ [حقيقة الشرك]:

وَإذا عَرَفْتَ هٰذه المقـدمـةَ انفتـحَ لك الجـوابُ عنِ السؤالِ المذكورِ؛ فنقولُ، ومِنَ اللهِ وحدَهُ نستمدُّ الصوابَ:

حقيقةُ الشركِ: هو التشبُّهُ بالخالِقِ وتشبيهُ المخلوقِ به، هٰذا هو التشبيهُ في الحقيقةِ، لا إثباتَ صفاتِ الكمالِ التي وصفَ اللهُ بها نفسَهُ ووصفَهُ بها رسولُ اللهِ؛ فعكسَ مَنْ نَكَسَ اللهُ قلبَهُ، وأعمى عينَ بصيرَتِه، وأركَسَهُ بِلَبْسِ الأمْرِ، وجعَلَ التوحيدَ تشبيهاً، والتشبيهَ تعظيماً وطاعةً، فالمشركُ مُشبِّهٌ للمخلوقِ بالخالِقِ في خصائصِ الإلٰهيةِ.

فإنَّ مِنْ خصـائص الإلٰهيةِ التفرُّدَ بمُلكِ الضُّرِّ والنفعِ والعطاءِ والمنعِ، وذٰلك يُوجبُ تعليقَ الدُّعاءِ والخوفِ والرجاءِ والتوكُّلِ به وحدَهُ، فَمَنْ عَلَّقَ ذٰلك

بمخلوقٍ فقد شبَّهه بالخالقِ، وجعلَ ما لا يملكُ لنفسِهِ ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ـ فضلاً عن غيرِهِ ـ شبيهاً لِمَنْ له الأمرُ كلُّهُ، فأزِمَّةُ الأمورِ كُلِّهَا بيديهِ، ومرجِعُهَا إليه، فما شاءَ كانَ وما لم يشأ لم يكن، لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطيَ لِمَا مَنَعَ، بل إذا فتحَ لعبدِهِ بابَ رحمتِهِ لم يُمسِكْهَا أحدٌ، وإنْ أمسَكَهَا عنه لم يرسِلْها إليه أحدٌ.

فمِنْ أقبحِ التَّشبيهِ تشبيهُ هٰذا العاجزِ الفقيرِ بالذَّاتِ بالقادرِ الغنيِّ بالذاتِ.

ومِنْ خصائص الإلٰهيةِ: الكمالُ المطلقُ مِنْ جَميعِ الوجوهِ، الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وذٰلك يُوجبُ أنْ تكونَ العبادةُ كلُّها له وحده، والتعظيمُ والإجلالُ والخشيةُ والدعاءُ والرجاءُ والإنابةُ والتوبةُ والتوكُّلُ والاستعانةُ، وغايةُ الذلِّ مع غايةِ الحبِّ، كلُّ ذٰلك يجبُ عقلاً وشرعاً وفطرةً أنْ يكونَ له وحده، ويمتنعُ عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكونَ لغيرِهِ، فمَنْ جعلَ شيئاً مِنْ ذٰلكَ لغيرِهِ فقد شَبَّهَ ذٰلك الغيرَ بِمَنْ لا شبيهَ له ولا مثيلَ له ولا نِدَّ له، وذٰلك أقبحُ التشبيهِ وأبطلُهُ، ولشدَّةِ قُبحِهِ وتضمُّنِهِ غايةَ الظلمِ أخبرَ سبحانه عبادهُ أنَّه لا يغفرهُ، مع أنه كتبَ على نفسهِ الرحمةَ.

ومِنْ خصائصِ الإلٰهيةِ: العبوديةُ التي قامَتْ على ساقينِ لا قِوامَ لها بدونهما: غايةِ الحبِّ، مع غايةِ الذُّلِّ، هٰذا تمامُ العبوديَّةِ، وتفاوُتُ منازلِ الخلقِ فيها بحسبِ تفاوتِهِم في هٰذين الأصلينِ.

فَمَنْ أعطى حُبَّهُ وذُلَّهُ وخُضوعَهُ لغيرِهِ فقدْ شَبَّهَهُ به في خالصِ حقِّه، وهٰذا مِنَ المُحالِ أنْ تجيءَ به شريعةٌ مِنَ الشرائعِ، وقُبْحُهُ مستقرٌّ في كلِّ فطرةٍ وعقلٍ، ولكن غيَّرتِ الشياطينُ فِطرَ أكثرِ الخلقِ وعقولَهُم وأفسدَتْها عليهم واجتالَتْهم عنها، ومضى على الفطرةِ الأولى مَنْ سبقَتْ له مِنَ اللهِ الحُسنى، فأرسَلَ إليهم رُسُلَهُ، وأنزلَ عليهم كتبَهُ بما يوافِقُ فطرَهُم وعقولَهُم، فازدادوا بذٰلك

نوراً على نورٍ: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

إذا عُرِفَ هٰذا فَمِنْ خَصَائِصِ الإلٰهيةِ السجودُ، فَمَنْ سجدَ لغيرِهِ فقد شَبَّهَ المخلوقَ به.

ومنها: التوكُّلُ، فَمَنْ تَوكَّلَ على غيرِهِ فقد شبَّهَهُ به.

ومنها: التوبةُ، فمنْ تابَ لغيرِهِ فقدْ شَبَّهه به.

ومنها: الحَلِفُ باسمِهِ تعظيماً وإجلالاً له، فَمَنْ حَلَفَ باسمه فقد شبَّهَهُ به، هٰذا في جانبِ التشبيهِ.

وأمـا في جانبِ التشبيهِ به: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ وَدَعا النَّاسَ إلى إطرائِهِ في المـدحِ والتعـظيمِ والخضـوعِ والرجاءِ وتعليقِ القلبِ به خوفاً ورجاءً والتجاءً واستعانةً؛ فقد تَشَبَّهَ باللهِ ونازَعَهُ في ربوبيَّتِهِ وإلٰهيتِهِ، وهو حقيقٌ بأنْ يُهْينَهُ اللهُ غايةَ الهوانِ، ويُذِلَّهُ غايةَ الذلِّ، ويجعلَهُ تحتَ أقدامِ خَلْقِهِ.

وفي «الصَّحيحِ»[1] عنه ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: العَظَمَةُ إزارِي، والكِبْرِيَاءُ رِدَائي، فَمَنْ نَازَعَنِي واحِداً منهما عذَّبتُهُ».

وإذا كانَ المُصَـوِّرُ الـذي يصنعُ الصورةَ بيدِهِ مِنْ أشدِّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامـةِ لتشبُّهـهِ باللهِ في مجرَّدِ الصَّنعةِ، فما الظنُّ بالتشبيهِ باللهِ في الربوبيَّةِ والإلٰهيةِ؟ كما قال النبيُّ ﷺ: «أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامَةِ المُصَوِّرُونَ، يُقالُ لَهُـم: أحيوا ما خَلَقْتُم»[2].

وفي «الصحيحِ»[3]عنـه ﷺ أنه قالَ: «قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) رواه البخاري (٥٦٠٧)، ومسلم (٢١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٧١٢٠)، ومسلم (٢١١١).

ذَهَبَ يَخْلُقُ خلقاً كخَلْقِي؛ فليَخْلُقُوا ذرَّةً، أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أو لِيَخْلُقُوا شَعِيرةً»؛ فنبَّه بالذَّرَّةِ والشعيرةِ على ما هو أعظم منها وأكبرُ.

والمقصود: أنّ هٰذا حالُ مَنْ تَشَبَّهَ به في صنعهِ صورةً؛ فكيفَ حالُ مَنْ تَشَبَّهَ به في خواصِّ ربوبيَّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ؟ وكذٰلك مَنْ تشبَّهَ في الاسمِ الذي لا ينبغي إلّا له وحده، كملكِ الأملاكِ، وحاكِمِ الحكّامِ، ونحوِه.

وقد ثبتَ في «الصَّحيحِ»[1] عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «إنَّ أخنَعَ الأسماءِ عِنْدَ اللهِ رجلٌ يُسَمَّى بشاهَانِ شاهٍ - أي: مَلِكِ المُلُوكِ - لا مَلِكَ إلَّا اللهُ».

وفي لفظٍ[2]: «أغْيَظُ رَجُلٍ على اللهِ؛ رجلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الأملاكِ».

فهٰذا مقتُ اللهِ وغضبهُ على مَنْ تَشَبَّهَ في الاسمِ الذي لا ينبغي إلَّا له، **فهو سُبحانَهُ ملكُ الملوكِ وحده، وهو حاكمُ الحكَّامِ وحده، فهو الذي يحكمُ على الحكَّامِ كلِّهم، ويقضي عليهم، لا غيرُه.**

٧٤ - فَصْلٌ [إساءة الظن بالله من أعظم الذنوب]:

إذا تَبيَّنَ هٰذا فهـا هنـا أصلٌ عظيمٌ يكشفُ سرَّ المسألةِ، وهو أنَّ أعظمَ الذنوبِ عندَ اللهِ إساءةُ الظنِّ به، فإنَّ المسيءَ به الظنَّ قد ظنَّ به خلافَ كمالهِ المقدَّسِ، وظنَّ به ما يناقِضُ أسماءَه وصفاتِهِ، ولهٰذا تَوَعَّدَ اللهُ سبحانه الظانِّينَ به ظنَّ السَّـوْءِ بما لم يتوَعَّدْ به غيرَهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى لِمَنْ أنكرَ صفةً مِنْ صفاتِهِ: ﴿وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُم الَّذِي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُم فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٥٣)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٤٣).

وقال تعالى عن خليلِهِ إبراهيمَ أنَّه قال لقومِهِ: ﴿مَاذا تَعْبُدُونَ . أَإفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]؛ أي: فما ظنُّكم أنْ يُجازيكم به إذا لقيتموهُ وقد عبدتُم غيرَه؟ وماذا ظننتُم به حتى عبدتُم معه غيرَه؟ وما ظننتُم بأسمائِهِ وصفاتِهِ وربوبيَّتِهِ مِنَ النقصِ حتى أحوَجَكُم ذلك إلى عبوديَّةِ غيرِهِ؟ فلو ظننتُم به ما هو أهلهُ مِنْ أنّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه غنيٌّ عن كلِّ ما سواهُ، وكلُّ ما سواهُ فقيرٌ إليه، وأنّه قائمٌ بالقسطِ على خلقـهِ، وأنَّـه المُنْفَـرِدُ بتدبيرِ خلقِهِ لا يَشْرَكُهُ فيه غيرُهُ، والعالمُ بتفاصيلِ الأمورِ، فلا يخفى عليه خافيةٌ مِنْ خلقِهِ، والكافي لهم وحدَه، فلا يَحْتَاجُ إلى معينٍ، والرحمٰنُ بذاتِهِ، فلا يحتاجُ في رحمَتِهِ إلى مَنْ يستعطِفُهُ، وهٰذا بخلافِ الملوكِ وغيرِهِم مِنَ الـرؤساءِ، فإنَّهم مُحتاجُونَ إلى مَنْ يُعَرِّفُهُم أحوالَ الرَّعِيَّةِ وحَـوَائِجَهُم، وإلى من يُعينُهُم على قضـاءِ حوائِجِهِم، وإلى مَنْ يَسْتَـرْحِمُهُم ويستعـطِفُهُم بالشَّفـاعَـةِ، فاحتـاجُوا إلى الوسائطِ ضرورةً لحاجتِهِم وضعفِهِم وعجزِهِم وقصورِ علمِهِم.

فأمَّا القادرُ على كلِّ شيءٍ، الغنيُّ بذاتِهِ عن كلِّ شيءٍ، العالمُ بكلِّ شيءٍ، الرحمٰنُ الرحيمُ الذي وَسِعَتْ رحمَتُهُ كُلَّ شيءٍ؛ فإدخالُ الوسائِطِ بينه وبينَ خلقِهِ نَقْصٌ بحقِّ ربـوبيَّتِـهِ وإلٰهيَّتِهِ وتوحيدِهِ، وظَنٌّ به ظنَّ السوءِ، وهٰذا يستحيلُ أنْ يشـرعَـهُ لعبادِهِ، ويمتنعُ في العقولِ والفِطَرِ جوازُهُ، وقبحُهُ مستقرٌّ في العقولِ السليمةِ فوقَ كلِّ قبيحٍ.

يُوضِّـحُ هٰذا أنَّ العابدَ مُعَظِّمٌ لمعبودِهِ، مُتألِّهٌ، خاضعٌ ذليلٌ له، والربُّ تعـالى وحـدَه هو الـذي يستحقُّ كمالَ التعظيمِ والإجلالِ والتألُّهِ والخضوعِ والذُّلِّ، وهٰذا خالصُ حقِّه، فَمِنْ أقبحِ الظلمِ أنْ يعطي حقَّه لغيرِهِ، أو يُشْرِكَ بينَهُ وبينهُ فيه، ولا سيَّما إذا كان الذي جعلَ شريكَهُ في حقِّه هو عبدُهُ ومملوكُهُ كما قال تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُم هَلْ لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أَنْفُسَكُم كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي: إذا كانَ أحدُكم يأنفُ أن يكونَ مملوكُهُ شريكَهُ في رزقِهِ؛ فكيفَ تجعلونَ لي مِنْ عبيدي شركاءَ فيما أنا منفردٌ به وهو الإلٰهيَّةُ، التي لا تنبغي لغيري، ولا تصحُّ لسواي؟

فَمَنْ زَعمَ ذٰلك فما قَدَرَني حقَّ قدرِي، ولا عظَّمني حقَّ تعظيمي، ولا أفرَدنِي بما أنا منفردٌ به وحدي دون خلقي، فما قَدَرَ اللهَ حَقَّ قدرِهِ مَنْ عبدَ معه غيرَهُ، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ و٧٤].

فما قَدَرَ اللهَ حقَّ قدرِهِ مَنْ عبدَ معه غيرَهُ مِمَّنْ لا يقدرُ على خلقِ أضعفِ حيوانٍ وأصغرِه، وإنْ سلبَهُ الذبابُ شيئاً مِمَّا عليه لم يقدرْ على استنقاذِهِ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ فما قَدَرَ مَنْ هٰذا شأنُهُ وعظمتُهُ حقَّ قدرِهِ مَنْ أشركَ معه في عبادتِهِ مَنْ ليس له شيءٌ من ذٰلك ألبتةَ، بل هو أعجزُ شيءٍ وأضعفهُ، فما قَدَرَ القويَّ العزيزَ حقَّ قدرِهِ مَنْ أشركَ مَعَهُ الضعيفَ الذليلَ.

وكذٰلك ما قَدَرَهُ حَقَّ قدرِهِ مَنْ قالَ: إنَّه لم يُرسِلْ إلى خلقِهِ رسولاً، ولا أنزلَ كتاباً، بل نسبهُ إلى ما لا يليقُ به ولا يَحْسُنُ منه من إهمالِ خلقهِ وتضييعِهم

وتَرْكِهم سُدىً، وخلقِهم باطلاً وعَبَثاً.

ولا قَدَرَهُ حَقَّ قدرِهِ مَنْ نَفَى حقائِقَ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العلى، فنفى سمعَه وبصرَه وإرادتَه واختيارَه وعلوَّه فوقَ خلقِهِ، وكلامَه وتكليمَه لمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِـهِ بِمَـا يريدُ، أو نفى عُمـومَ قدرَتِـهِ وتعلُّقهـا بأفعـالِ عبـادِهِ من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجَها عن قُدرَتِهِ ومشيئتِهِ وخلقِهِ، وجعلهم يخلقونَ لأنفسِهِم ما يشـاؤونَ بدونِ مشيئةِ الربِّ، فيكونُ في مُلكِهِ ما لا يشاءُ، ويشاءُ ما لا يكونُ! تعالى اللهُ عن قولِ أشباهِ المجوسِ علوّاً كبيراً.

وكـذلـك ما قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ مَنْ قالَ: إنَّهُ يعاقِبُ عبدَهُ على ما لا يفعلهُ العبدُ، ولا له عليه قدْرةٌ ولا تأثيرٌ له فيه ألبتَّةَ، بل هو نفسُ فعلِ الربِّ جل جلاله، فيعاقبُ عبدَه على فعلِهِ هو سبحانه الذي جَبَرَ العبدَ عليه، وجبرُهُ على الفعلِ أعظمُ مِنْ إكراهِ المخلوقِ للمخلوقِ.

وإذا كانَ مِنَ المُستقرِّ في الفِطَرِ والعقولِ أنَّ السيدَ لو أكرهَ عبدَه على فعلٍ أو ألجأهُ إليه ثم عاقَبَهُ عليه لكان قبيحاً؛ فأعدلُ العادِلينَ وأحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحِمِينَ كيفَ يُجبرُ العبدَ على فعلٍ لا يكون للعبد فيه صنعٌ ولا تأثيرٌ ولا هو واقعٌ بإرادته ولا هو فعلهُ البتّةَ، ثم يعاقِبُهُ عليه عقوبةَ الأبدِ؟!

تعـالى اللهُ عن ذلـك عُلُوّاً كبيراً، وقـولُ هؤلاءِ شرٌّ مِنْ أقـوالِ أشبـاهِ المجوسِ، والطائفتانِ ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ.

وكذلكَ ما قَدَرَ اللهَ حَقَّ قدرِهِ مَنْ لم يَصُنْهُ عن نتنٍ ولا حُشٍّ، ولا مكانٍ يرغبُ عن ذكره بل جعلَهُ في كلِّ مكانٍ، وصانَهُ عن عرشِهِ أن يكونَ مستوياً عليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وتَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه، وتنزلُ مِنْ عنده و﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليهِ﴾ [السجدة: ٥].

فصـانَـهُ عن استـوائِهِ على سريرِ المُلكِ، ثم جعلَهُ في كُلِّ مكانٍ يأنفُ

الإنسانُ ـ بل غيرُه مِنَ الحيوانِ ـ أنْ يكونَ فيه.

وما قَدَرَ اللهَ حَقَّ قدرِهِ مَنْ نفى حقيقةَ مَحَبَّتِهِ ورحمَتِهِ ورأفتِهِ ورضاه وغضبِهِ ومَقْتِهِ، ولا مَنْ نفى حقيقةَ حِكْمَتِهِ التي هي الغاياتُ المحمودةُ المقصودةُ بفعلِهِ، ولا مَنْ نفى حقيقةَ فعلِهِ، ولم يجعلْ له فعلاً اختيارياً يقومُ به، بل جَعَلَ أفعالَهُ مفعولاتٍ منفصلةً عنه؛ فنفى حقيقةَ مجيئِهِ وإتيانِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ، وتكليمِهِ موسى مِنْ جانبِ الطُّورِ، ومجيئِهِ يومَ القيامةِ لفصلِ القضاءِ بينَ عبادِهِ بنفسِهِ، إلى غيرِ ذٰلك مِنْ أفعالِهِ وأوصافِ كمالِهِ، التي نَفَوْهَا وزعمُوا أنَّهم بنفيها قد قدَّروه حقَّ قدرِهِ.

وكذٰلك لم يَقْدُرْهُ حقَّ قدرِهِ مَنْ جَعَلَ له صاحبةً وولداً، أو جعَلَهُ سبحانه يَحِلُّ في مخلوقاتِهِ، أو جعلهُ عينَ هٰذا الوجودِ.

وكذٰلك لم يَقْدُرْهُ حقَّ قدرِهِ مَنْ قالَ: إنه رفعَ أعداءَ رسولِ اللهِ ﷺ وأهلَ بيتِهِ وأعلى ذِكْرَهُم، وجَعَلَ فيهم المُلْكَ والخلافَةَ والعِزَّ، ووضعَ أولياءَ رسولِهِ وأهلَ بيتِهِ، وأهانَهُم وأذلَّهُم وضربَ عليهم الذلَّةَ أينما ثُقِفُوا، وهٰذا يتضمَّنُ غايةَ القدحِ في الربِّ، تعالى عن قولِ الرافضةِ علوّاً كبيراً.

وهٰذا القولُ مشتقٌّ مِنْ قولِ اليهودِ والنصارَى في ربِّ العالمينَ: أنَّهُ أرسلَ مَلِكاً ظالماً، فادَّعى النبوَّةَ لنفسِهِ، وكَذَبَ على اللهِ، ومَكَثَ زمناً طويلاً يكذبُ عليه كلَّ وقتٍ، ويقـولُ: قال اللهُ كذا وأمرَ بكذا ونهى عن كذا وينسخُ شرائعَ أنبيائِهِ ورسلِهِ، ويستبيحُ دماءَ أتباعِهِم وأموالِهم وحريمهم، ويقولُ: اللهُ أباحَ لي ذٰلك! والربُّ تبارك وتعالى يؤيِّدُهُ ويُظهرُهُ ويُعليه، ويُعزُّه ويُجيبُ دعواتِهِ، ويُمَكِّنُهُ مِمَّنْ خالفَهُ، ويُقيمُ الأدلَّةَ على صدقِهِ، ولا يُعادِيه أحدٌ إلَّا ظفرَ به، فَيُصَدِّقُهُ بقولِهِ وفعلِهِ وتقريرِهِ، ويُحْدِثُ له أدلَّةَ تصديقِهِ شيئاً بعدَ شيءٍ.

ومعلومٌ أنَّ هٰذا يتضمَّنُ أعظمَ القدحِ والطعنِ في الربِّ سبحانه وتعالى

وعلمهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ وربوبيَّته، تعالى اللهُ عن قولِ الجاحدينَ علواً كبيراً.

فوازِنْ بينَ قولِ هٰؤلاءِ، وقولِ إخوانهم مِنَ الرَّافضةِ تجدِ القولَيْنِ كما قال الشاعر:

رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أمٍّ تَقَاسَمَا … بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ[1]

وكذٰلك لم يَقْدُرْهُ حَقَّ قدرِهِ مَنْ قالَ: إنه يجوزُ أن يُعَذِّبَ أولياءَهُ وَمَنْ لم يَعْصِهِ طرفةَ عينٍ ويدخلَهم دارَ الجحيمِ، ويُنَعِّمَ أعداءَهُ ومَنْ لم يُؤمِنْ به طرفةَ عينٍ، ويُدخِلَهُم دار النعيمِ، وأنَّ كِلَا الأمرينِ بالنسبةِ إليه سواءٌ، وإنَّما الخبرُ المحضُ جاء عنه بخلافِ ذٰلك، فمعناه للخبرِ لا لمخالفةِ حكْمَتِهِ وعدلِهِ.

وقد أنكرَ سبحانه في كتابه على مَنْ جوَّزَ عليه ذٰلك غايةَ الإنكارِ، وجعلَ الحكمَ به مِنْ أسوأ الأحكامِ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ و٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سواءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَخَلَقَ اللهُ السَّماوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ وِلتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١ و٢٢].

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمينَ كَالمُجْرِمِينَ. مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ و٣٦].

وكذٰلك لم يَقْدُرْهُ حَقَّ قدرِهِ مَنْ زَعمَ أنَّه لا يُحيي الموتى، ولا يبعثُ مَنْ في القبورِ، ولا يجمعُ خلقَهُ ليومٍ يُجازي فيه المحسنَ بإحسانِهِ والمسيءَ بإساءتِهِ، ويأخذُ للمظلومِ فيه حقَّهُ مِنْ ظالِمِهِ، ويُكرِمُ المُتَحَمِّلينَ للمشاقِّ في

---

(١) انظر ما سبق.

هٰذه الدارِ مِنْ أجلِهِ وفي مرضاتِهِ بأفضلِ كرامتِهِ، ويُبَيِّنَ لخلقِهِ الذي يختلفونَ فيه، ويعلمُ الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبينَ.

وكـذٰلك لم يَقْدُرْهُ حقَّ قدرِهِ مَنْ هانَ عليه أمرُهُ فعصاهُ، ونهيُهُ فارتَكَبَهُ، وحقُّـهُ فَضَيَّعَهُ، وذِكْرُهُ فأهمَلَهُ، وغفلَ قلبُه عنه، وكان هواهُ آثَرَ عنده مِنْ طلبِ رضاهُ، وطاعةُ المخلوقِ أهمَّ عندهُ مِنْ طاعتِهِ؛ فللهِ الفَضْلَةُ مِنْ قلبِهِ وقولِهِ وعملِهِ، وسواه المقدَّمُ في ذٰلك لأنَّهُ المهمُّ عندَه، يستخفُّ بنظرِ اللهِ إليه واطِّلاعِهِ عليه وهو في قبضتِهِ، وناصيَتُهُ بيدِهِ، ويُعَظِّمُ نظرَ المخلوقِ إليه، واطِّلاعَهُ عليه بكلِّ قلبِهِ وجوارِحِهِ، يستحيي مِنَ النَّاسِ ولا يستحيي مِنَ اللهِ، ويخشى النَّاسَ ولا يخشى اللهَ، ويعاملُ الخلقَ بأفضلَ ما يقدرُ عليه، وإنْ عاملَ اللهَ عامَلَهُ بأهونِ ما عنده وأحقَرِه، وإنْ قامَ في خدمةِ مَنْ يحبُّهُ مِنَ البشرِ قامَ بالجدِّ والاجتِهَادِ وبَذْلِ النصيحةِ، وقد فرَّغَ له قلبَهُ وجوارِحَهُ، وقدَّمَهُ على كثيرٍ مِنْ مصالحِهِ، حتى إذا قَامَ في حقِّ ربهِ ـ إنْ ساعَدَهُ القَدَرُ ـ قامَ قياماً لا يرضاهُ مخلوقٌ مِنْ مخلوقٍ مثلِهِ، وبذَلَ له مِنْ مالِهِ ما يستحيي أن يُواجِهَ به مخلوقاً لمثلِهِ؛ فهل قَدَرَ اللهَ حَقَّ قدرِهِ مَنْ هٰذا وصفُهُ؟

وهــلْ قَدَرَهُ حَقَّ قدرِهِ مَنْ شاركَ بينـه وبينَ عدوِّه في مَحْضِ حقِّـه مِنَ الإجلالِ والتعظيمِ والطاعةِ والذلِّ والخضوعِ والخوفِ والرجاءِ؟ فلو جعلَ له مِنْ أقـربِ الخلقِ شريكـاً في ذٰلـك لكـانَ ذٰلكَ جراءةً وتوثُّباً على مَحْضِ حقِّهِ، واستهانةً به، وتشريكاً بينه وبينَ غيرِه، فيما لا ينبغي ولا يصلحُ إلَّا له سبحانه؛ فكيفَ وإنما يُشرِكُ بينه وبينَ أبغضِ الخلقِ إليه، وأهونِهم عليه وأمقتِهم عنده وهو عدوُّه على الحقيقةِ؟ فإنَّه ما عَبَدَ مَن عَبَدَ مِنْ دونِ اللهِ إلَّا الشيطانُ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مبينٌ. وأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ و٦١].

ولمـا عبـدَ المُشركون الملائكةَ بزعمِهِم وقعَتْ عبادتُهم في نفسِ الأمرِ

للشياطينِ، وهم يَظُنُّونَ أنَّهم يعبدونَ الملائكةَ.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِم مُؤمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ و٤١].

فالشيطانُ يدعو المشركَ إلى عبادتِهِ ويوهمهُ أنَّه مَلَكٌ، وكذٰلك عُبَّادُ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ يزعمونَ أنَّهم يعبدونَ روحانيَّاتِ هٰذه الكواكبِ وهي التي تُخاطبهُم، وتقضِي لهم الحوائجَ، ولهٰذا إذا طلعتِ الشمسُ قارنها الشيطانُ فيسجدَ لها الكفَّارُ، فيقعَ سجودُهم له وكذٰلك عندَ غروبها، وكذٰلك مَنْ عبدَ المسيحَ وأُمَّه لم يعبدْهما وإنما عبدَ الشيطانَ؛ فإنَّه يزعمُ أنَّه يعبدُ مَنْ أمرهُ بعبادتِهِ وعبادةِ أُمِّهِ، ورضيها لهم، وأمرَهم بها، وهٰذا هو الشيطانُ الرجيمُ، لا عبدَ اللهِ ورسولَهُ، فنزلَ هٰذا كلُّه على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّمُبِينٌ . وأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ و٦١].

فما عَبَدَ أحدٌ مِنْ بني آدَمَ غيرَ اللهِ كائناً مَنْ كانَ إلاَّ وقعتْ عبادتُه للشيطانِ، فيستمتعُ العابدُ بالمعبودِ في حصولِ غرضِهِ، ويستمتعُ المعبودُ بالعابدِ في تعظيمِهِ له وإشراكِهِ مع اللهِ الذي هو غايةُ رضى الشيطانِ، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ أي: مِنْ إغوائهم وإضلالهم، ﴿وقَالَ أَوْلِياؤهُم مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجلَنَا الَّذي أَجَّلْتَ لَنَا قالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِينَ فِيها إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ علِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهٰذه إشارةٌ لطيفةٌ إلى السرِّ الذي لأجلِهِ كانَ الشركُ أكبرَ الكبائرِ عندَ اللهِ، وأنَّه لا يُغفرُ بغيرِ التوبةِ منه، وأنَّه يوجبُ الخلودَ في العذابِ، وأنَّه ليس تحريمُهُ

وقُبْحُهُ بمجرَّدِ النهي عنه، بل يستحيلُ على اللهِ سبحانه أن يَشْرَعَ لعبادهِ عبادةَ إلٰهٍ غيره، كما يستحيلُ عليه ما يُناقِضُ أوصافَ كمالِه ونعوتَ جلالِه، وكيف يُظَنُّ بالمنفردِ بالربوبيَّةِ والإلٰهيَّةِ والعظمةِ والجلالِ أنْ يأذَنَ في مشاركتهِ في ذٰلك، أو يرضى به؟ تعالى اللهُ عن ذٰلك علواً كبيراً.

٧٥ ـ فَصْلٌ [الشّرك والكبر ينافيان طاعة اللّه وحده]:

فلمَّا كانَ الشِّرْكُ أكبرَ شيءٍ مُنافاةً للأمرِ الذي خلقَ اللهُ له الخلقَ، وأمرَ لأجلِهِ بالأمرِ، كانَ أكبرَ الكبائرِ عندَ اللهِ.

وكـذٰلك الكبرُ وتوابعهُ كما تقدَّمَ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه خلقَ الخلقَ، وأنزلَ الكُتبَ لتكـونَ الطاعةُ له وحدَه، والشركُ والكِبْرُ ينافيانِ ذٰلك.

ولذٰلك حـرَّم اللهُ الجنَّةَ على أهلِ الشركِ والكبرِ، فلا يدخُلها مَنْ في قلبهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبرٍ.

٧٦ ـ فَصْلٌ [القول على اللّه بِلا علمٍ في أسمائِه وصفاتِه وأفعاله]:

ويلي ذٰلك في كِبَرِ المفسدةِ: القولُ على اللهِ بلا علمٍ في أسمائِه وصفاتِهِ وأفعالِهِ، ووصفُهُ بِضِدِّ ما وصفَ به نفسَهُ ووصفَهُ به رسولُهُ ﷺ، فهو أشدُّ شيءٍ مُنـاقضـةً ومُنافاةً لحكمةِ مَنْ له كمالُ الخلقِ والأمرِ، وقَدْحٌ في نفسِ الربوبيَّةِ وخصائِصِ الربِّ، فإنْ صدَرَ ذٰلك عن علمٍ فهو عنادٌ أقبحُ مِنَ الشركِ وأعظمُ إثماً عندَ اللهِ.

فإنَّ المشـركَ المقـرَّ بصفـاتِ الربِّ خيرٌ مِنَ المُعَطِّلِ الجاحدِ لصفاتِ كمالهِ! كما أنَّ مَنْ أقرَّ لَملِكٍ بالمُلْكِ، ولم يجحدْ مُلكَهُ ولا الصِّفاتِ التي استحقَّ بها المُلْكَ، لكنْ جَعَلَ معه شريكاً في بعضِ الأمورِ يُقرِّبُهُ إليه، خيرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صفاتِ المَلِكِ، وما يكونُ به مَلِكاً.

هٰذا أمرٌ مستقرٌ في سائرِ الفِطَرِ والعقولِ.

فأينَ القَدْحُ في صفاتِ الكمالِ والجَحْدُ لها مِنْ عبادةِ واسطةٍ بين المعبودِ الحقِّ وبينَ العابدِ، يتقرَّبُ إليه بعبادةِ تلك الواسطةِ إعظاماً له وإجلالاً؟

فداءُ التَّعطيلِ هو الداءُ العُضالُ الذي لا دواءَ له.

ولهٰذا حكى اللهُ عنْ إمامِ المعطِّلةِ فرعونَ أنَّه أنكرَ على موسى ما أخبرهُ به مِنْ أنَّ ربَّهُ فوقَ السماواتِ، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسبابَ . أَسْبَابَ السَّماواتِ فأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر: ٣٦ و٣٧].

واحتجَّ الشيخُ أبو الحسنِ [الأشعري][1] في كتبِهِ على المعطِّلةِ بهٰذه الآية.

وقد ذكرنا لفظَهُ في غيرِ هٰذا الموضِعِ[2].

والقولُ على اللهِ بلا علمٍ والشركُ متلازِمانِ.

ولمَّا كانتِ البدعُ المُضِلَّةُ جهلاً بصفاتِ اللهِ وتكذيباً بما أخبَرَ به عن نفسهِ وأخبرَ به عن رسولِهِ عناداً وجهلاً؛ كانَتْ مِنْ أكبرِ الكبائرِ ـ وإنْ قَصُرَتْ عنِ الكفرِ ـ وكانَتْ أحبَّ إلى إبليسَ مِنْ كبائرِ الذنوبِ، كما قالَ بعضُ السلفِ: «البدعةُ أحبُّ إلى إبليسَ مِنَ المعصيةِ، لأنَّ المعصيةَ يُتابُ منها والبدعةُ لا يُتابُ منها»[3]. وقال إبليسُ: «أهْلَكتُ بني آدمَ بالذنوبِ، وأهلكوني بالاستغفارِ وبلا

---

(١) انظر: «الإبانة عن أصول الديانة» (ص ٧ ـ ٨) له.

(٢) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص ٢٨٦ ـ ٢٩٩) للمصنِّف.

(٣) رواه عن الحسن البصريِّ ابنُ الجَعْد في «مسنده» (رقم ١٨٨٥).
وانظر كتابي «علم أصول البدع» (ص ٢١٨).

إلٰه إلا اللهُ، فلما رأيتُ ذٰلك بَثَثْتُ فيهم الأهواءَ، فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ؛ لأنَّهم يحسبونَ أنَّهم يُحسنونَ صُنعاً».

ومعلومٌ أنَّ المذنبَ إنَّما ضررُهُ على نفسهِ، وأمَّا المبتدعُ فضررُهُ على النوعِ.

وفتنةُ المبتدعِ في أصلِ الدِّينِ، وفتنةُ المذنبِ في الشهوةِ.

والمبتدعُ قد قعدَ للنَّاسِ على صراطِ اللهِ المستقيمِ يصدُّهم عنه، والمذنبُ ليس كذٰلك.

والمبتدعُ قادحٌ في أوصافِ الربِّ وكمالِهِ، والمذنبُ ليس كذٰلك.

والمبتدعُ مناقِضٌ لما جاءَ به الرسولُ، والعاصِي ليس كذٰلك.

والمبتدعُ يقطعُ على الناسِ طريقَ الآخرةِ، والعاصي بطيءُ السيرِ بسببِ ذنوبِهِ.

٧٧ ـ فَصْلٌ [الظلم من أكبر الكبائر عند الله]:

ثُمَّ لمَّا كانَ الظلمُ والعدوانُ منافييْنِ للعدلِ الذي به قامَتِ السماواتُ والأرضُ، وأرسلَ اللهُ سبحانه رسلَهُ عليهم الصلاةُ والسلامُ وأنزلَ كتبَه ليقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ، كانَ ـ أي: الظلم ـ مِنْ أكبرِ الكبائرِ عندَ اللهِ، وكانتْ درجتُهُ في العظمةِ بحسبِ مفسدتِهِ في نفسهِ، وكان قتلُ الإنسانِ ولدَه الطفلَ الصغيرَ الذي لا ذنبَ له ـ وقد جَبَلَ اللهُ سُبحانهُ القلوبَ على محبَّتِهِ ورحمتِهِ وعَطْفِها عليه، وخصَّ الوالدينِ مِنْ ذٰلك بمزيَّةٍ ظاهرةٍ؛ فقَتَلَهُ خشيةَ أن يُشارِكَهُ في مطعمِهِ ومشربِهِ ومالِهِ ـ مِنْ أقبحِ الظلمِ وأشدِّه، وكذٰلك قتلهُ أبويهِ اللذينَ كانَا سببَ وجودِهِ، وكذٰلك قتلهُ ذا رَحِمِهِ.

وتتفـاوتُ درجـاتُ القتلِ بحسبِ قُبحِهِ واستحقاقِ مَنْ قَتَلَهُ للسَّعيِ في إبقائِهِ ونصيحتِهِ.

ولهٰذا كانَ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ مَـنْ قتلَ نبيّاً أو قتلهُ نبيٌّ[1].

ويليهِ مَنْ قتـلَ إمـامـاً أو عالمـاً يأمـرُ الناسَ بالقسطِ ويدعوهم إلى اللهِ وينصحُهُم في دينِهم.

وقد جعلَ اللهُ سبحانه جزاءَ قتلِ النفسِ المؤمنةِ عمداً الخلودَ في النارِ، وغضبَ الجبارِ، ولعنَتَهُ وإعدادَ العذابِ العظيمِ له.

هٰذا مُوجِبُ قتلِ المؤمنِ عمداً ما لم يمنعْ منه مانعٌ.

ولا خلافَ أنَّ الإسلامَ الواقعَ بعدَ القتلِ طوعاً واختياراً مانعٌ مِنْ نفوذِ ذٰلك الجزاءِ.

وهل تمنعُ توبةُ المسلمِ منه بعدَ وقوعِهِ؟

فيه قولانِ للسلفِ والخلفِ، وهما روايتانِ عن الإمامِ أحمدَ.

والذين قالوا: لا تَمْنَعُ التوبةُ مِنْ نفوذِهِ؛ رأوا أنَّه حقٌّ لآدميٍّ لم يستوفِهِ في دارِ الدنيا، وخرج منها بظلامتِهِ، فلا بُدَّ أن يستوفى له في دار العدل.

قالوا: وما استوفاهُ الوارثُ فإنَّما استوفى مَحْضَ حقِّهِ الذي خيَّرهُ اللهُ بينَ استيفائِهِ والعَفْوِ عنه، وما ينفعُ المقتولُ مِنْ استيفاءِ وارثِهِ؟ وأيُّ استدراكٍ لظلامتِهِ حصلَ له باستيفاءِ وارثِهِ؟

وهٰذا هو أصحُّ القولين في المسألةِ: أنَّ حقَّ المقتولِ لا يسقطُ باستيفاءِ الوارثِ، وهما وجهانِ لأصحابِ أحمدَ والشافعيِّ وغيرِهم.

---

(١) انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٨١).

ورأتْ طائفـةٌ أنَّـه يسقطُ بالتـوبـةِ واستيفاءِ الوارثِ، فإنَّ التوبةَ تهدمُ ما قبلَها[1]، والذنبُ الذي قد جناه قد أُقيمَ عليه حدُّه.

قالـوا: وإذا كانتِ التوبةُ تمحو أثرَ الكفرِ والسحرِ، وهما أعظمُ إثماً مِنَ القتلِ؛ فكيفَ تَقْصُرُ عن محوِ أثرِ القتلِ؟ وقد قبلَ اللهُ توبةَ الكفارِ الذين قتلوا أولياءَهُ، وجعلَهم مِنْ خِيارِ عبادهِ، ودعا الذينَ أحرقُوا أولياءَهُ وفتنوهُم عن دينهم إلى التوبةِ وقال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

فهٰذه في حقِّ التائبِ، وهي تتناولُ الكفرَ فما دونه.

قالوا: وكيفَ يتوبُ العبدُ مِنَ الذنوبِ ويُعاقَبُ عليه بعدَ التوبةِ؟ هٰذا معلومٌ انتفاؤهُ في شرعِ اللهِ وجزائه.

قالوا: وتوبةُ هٰذا المُذنبِ تسليمُ نفسهِ، ولا يُمكنُ تسليمُها إلى المقتـولِ، فأقـامَ الشارعُ وليَّهُ مقامَهُ، وجعلَ تسليمَ النفسِ إليـه وتسليمها إلى المقتـول بمنزلةِ تسليمِ المالِ الذي عليه لوارثِهِ؛ فإنَّه يقومُ مقامَ تسليمِهِ للموروثِ.

والتحقيقُ في المسألةِ: أنَّ القتلَ يتعلَّقُ به ثلاثَةَ حُقوقٍ: حقٌّ للهِ، وحقٌّ للمقتولِ، وحقٌّ للوليِّ، فإذا سلَّمَ القاتلُ نفسَهُ طوعاً واختياراً إلى الوليِّ نَدَماً على ما فَعَـلَ، وخـوفـاً مِنَ اللهِ، وتـوبةً نصوحاً؛ سقطَ حقُّ اللهِ بالتوبةِ وحقُّ الوليِّ بالاستيفاءِ أو الصُّلحِ أو العفوِ، وبقي حقُّ المقتولِ يعوِّضُه اللهُ عنه يوم القيامةِ مِنْ عبدهِ التائبِ المحسنِ، ويُصْلِحُ بينَهُ وبينَهُ، فلا يَبْطُلُ حقُّ هٰذا، ولا تَبْطُلُ توبةُ هٰذا.

---

(١) قارن بـ «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٠٣٩).

وأمَّا مسألةُ المالِ فقدِ اخْتُلِفَ فيها، فقالَتْ طائفةٌ: إذا أدَّى ما عليه مِنَ المالِ إلى الوارثِ فقد برىءَ مِنْ عُهدتِهِ في الآخرةِ، كما برىءَ منها في الدُّنيا.

وقالت طائفةٌ: بل المطالبةُ لِمَنْ ظلَمَهُ بأخذهِ باقيةٌ عليه يومَ القيامةِ، وهو لم يستدركْ ظلامَتَهُ بأخذِ وارثِهِ له، فإنَّهُ مَنَعَهُ من انتفاعِهِ به طولَ حياتِهِ، وماتَ ولم ينتفعْ به، وهٰذا ظلمٌ لم يستدرِكْهُ هو، وإنما انتفعَ غيرُهُ باستدراكِهِ.

وبَنَوْا على هٰذا أنَّه لو انتقلَ المالُ مِنْ واحدٍ إلى واحدٍ وتعدَّدَ الوَرَثَةُ، كانتِ المطالبةُ به للجميعِ، لأنَّه حقٌّ كانَ يجبُ عليه دفعُهُ إلى كلِّ واحدٍ منهم عند كونِهِ هو الوارثَ، وهٰذا قولُ طائفةٍ مِنْ أصحابِ مالكٍ وأحمدَ.

وفَصَلَ شيخُنا(1) ـ رحمه اللهُ ـ بينَ الطائفتينِ، فقال: إن تمكَّنَ الموروثُ مِنْ أخذِ مالهِ والمطالبةِ به فلم يأخذْهُ حتى ماتَ؛ صارتِ المطالبةُ به للوارثِ في الآخرةِ، كما هي كذٰلك في الدُّنيا، وإنْ لم يتمكَّنْ مِنْ طَلَبِهِ وأخْذِهِ، بل حالَ بينه وبينه ظلماً وعدواناً؛ فالطلبُ له في الآخرةِ.

وهٰذا التفصيلُ مِنْ أحسنِ ما يُقالُ؛ فإنَّ المالَ إذا استهلكَهُ الظالمُ على المُوَرِّثِ وتعذَّرَ عليه أخذهُ منه صارَ بمنزلةِ عبدِهِ الذي قَتَلَهُ قاتلٌ، ودارِهِ التي أحرقَها غيرُه، وطعامِه وشرابِهِ الذي أكلهُ وشربَهُ غيرُه، ومثلُ هٰذا إنَّما تَلِفَ على المُوَرِّثِ لا على الوارثِ، فحقُّ المطالبةِ لِمَنْ تلفَ على مُلْكِهِ.

يبقى أن يُقالَ: إنْ كانَ المالُ عِقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمةً باقيةً بعد الموتِ؛ فهي مُلكٌ للوارثِ يجبُ على الغاصبِ دفعُها إليه في كلِّ وقتٍ، فإذا لم يَدْفَعْ إليه أعيانَ مالِهِ استحقَّ المطالبَةَ بها عندَ اللهِ كما يستحقُّ المطالبةَ بها في الدُّنيا.

---

(1) هو شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله.

وهٰذا سؤالٌ قويٌّ لا مَخْلَصَ منه إلَّا بأنْ يقالَ: المطالبةُ بهما جميعاً، كما لو غَصَبَ مالاً مشتركاً بين جماعةٍ استحقَّ كلُّ منهم المطالبةَ بحقِّه منه، وكما لو استولى على وقفٍ مُرتَّبٍ على بُطونٍ فأبطلَ حقَّ البُطونِ كلِّهم منه كانت المطالبةُ يومَ القيامةِ لجميعِهم، ولم يكنْ بعضُهم أولى بها منْ بعضٍ، واللهُ أعلمُ.

٧٨ ـ فَصْلٌ [مفسدة القتل وإثم فاعله]:

ولما كانتْ مفسدةُ القتلِ هٰذه المفسدةَ قالَ اللهُ تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نفساً بغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قتلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٥].

وقد أشكلَ فَهْمُ هٰذا على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ، وقالوا: معلومٌ أنَّ إثمَ قاتلِ مئةٍ أعظمُ عندَ اللهِ مِنْ إثمِ قاتلِ نفسٍ واحدةٍ، وإنَّما أُتُو مِنْ ظنِّهم أنَّ التشبيهَ في مقدارِ الإثمِ والعقوبةِ، واللفظُ لم يدلَّ على هٰذا، **ولا يلزمُ مِنْ تشبيهِ الشيءِ بالشيءِ أخذهُ بجميعِ أحكامِهِ.**

وقد قال تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال:

﴿كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وذٰلك لا يُوجِبُ أنَّ لُبثهم في الدنيا إنما كانَ هٰذا المِقدار.

وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ صلَّى العِشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ نِصْفَ الليلِ،

ومَنْ صلَّى الفجرَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ الليلَ كلَّهُ»[1]؛ أي: مع العشاءِ، كما جاءَ في لفظٍ آخرَ[2].

وأصرحُ مِنْ هٰذا قولُهُ: «مَنْ صامَ رمضانَ وأتْبَعَهُ بِستٍّ مِنْ شوَّالَ فَكأنَّما صامَ الدَّهْرَ»[3]، وقولُهُ ﷺ: «مَنْ قرأ قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ فكأنَّما قرأ ثُلُثَ القرآنِ»[4].

ومعلومٌ أنَّ ثوابَ فاعِلِ هٰذه الأشياءِ لا يَبْلُغُ ثوابَ المُشَبَّهِ به، فيكونُ قَدْرُهُما سواءً، ولو كانَ قَدْرُ الثوابِ سواءً لم يكنْ لمصلِّي العشاءِ والفجرِ جماعةً في قيامِ الليلِ منفعةٌ غيرَ التعبِ والنَّصبِ.

وما أُوتي أحَدٌ ـ بعدَ الإيمانِ ـ أفضلَ مِنَ الفهمِ عنِ اللهِ، ورسولِهِ ﷺ، وذٰلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ.

فإنْ قيلَ: ففي أيِّ شيءٍ وقعَ التشبيهُ بينَ قاتِلِ نفسٍ واحدةٍ، وقاتلِ الناسِ جميعاً؟

قيل: في وجوهٍ متعددةٍ:

أحدها: أنَّ كلاً منهما عاصٍ للهِ ورسولِهِ ﷺ مُخالفٌ لأمره، مُتَعَرِّضٌ لعقوبَتِهِ، وكلٌّ منهما قد باءَ بغضبِ اللهِ ولعنتِهِ، واستحقاقِ الخلودِ في نارِ جهنمَ،

---

(١) رواه مسلم (٦٥٦) عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) عند ابن حبان (٢٠٥٨)، وأحمد (١ / ٥٨)، والترمذي (٢٢١)، والبيهقي (٣ / ٦١) بسند صحيح عنه رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٠٤) عن أبي أيُّوب الأنصاري.

(٤) رواه ـ بهٰذا اللفظ ـ الترمذي (٢٨٩٨) عن أبي أيوب الأنصاري، وأحمد (٥ / ١٤١) عن أُبَيِّ بن كعب.

ورواه ـ بنحوه ـ البخاري (٩ / ٥٣) عن أبي سعيد الخدري، ومسلمٌ (٨١٢) عن أبي هُريرة.

وأعدَّ له عذاباً عظيماً، وإنَّما التفاوتُ في دَرَكَاتِ العذابِ، فليسَ إثمُ مَنْ قَتَلَ نبيّاً أو إماماً عادِلاً أو عالماً يأمرُ الناسَ بالقسطِ كإثمِ مَنْ قَتَلَ مَنْ لاَ يُؤبَهُ له مِنْ آحادِ النَّاسِ.

الثاني: أنَّهما سواءٌ في استحقاقِ إزهاقِ النفسِ.

الثالث: أنَّهما سواءٌ في الجراءةِ على سفكِ الدمِ الحرامِ، فإنَّ مَنْ قتلَ نفساً بغيرِ استحقاقٍ، بل لمجرَّدِ الفسادِ في الأرضِ أو لأخذِ مالِهِ، فإنَّهُ يجترىءُ على قتلِ كلِّ مَنْ ظفرَ به وأمكنَهُ قتلُهُ، فهو مُعادٍ للنوعِ الإنسانيِّ.

ومنها: أنَّهُ يسمَّى قاتلاً أو فاسِقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتلهِ واحِداً، كما يسمَّى كذلك بقتلهِ النَّاسِ جميعاً.

ومنها: أنَّ اللهَ سبحانه جعلَ: «المؤمنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَراحُمِهِم وتواصُلِهِمْ كالجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ»[1]؛ فإذا أتلفَ القاتلُ مِنْ هذا الجسدِ عُضواً فكأنَّما أتلفَ سائرَ الجسدِ وآلَمَ جميعَ أعضائهِ، فَمَنْ آذى مؤمناً واحداً فكأنَّما آذى جميعَ المؤمنين، وفي أذى جميعِ المؤمنينَ أذى جميعِ الناسِ، فإنَّ اللهَ إنما يدفعُ عن الناسِ بالمؤمنينَ الذينَ بينهم، فإيذاءُ الخفيرِ إيذاءُ المخفورِ، وقد قال ﷺ: «لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلماً بغيرِ حقٍّ إلاَّ كانَ على ابنِ آدمَ الأوَلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[2]، ولم يَجِيءُ هذا الوعيدُ في أوَّلِ زانٍ ولا أوَّلِ سارقٍ ولا أولِ شاربِ مسكرٍ، وإنْ كانَ أوَّلُ المشركينَ قد يكونُ أولى بذلك مِنْ أولِ قاتلٍ؛ لأنَّه أولُ مَنْ سنَّ الشركَ، ولهذا رأى النبيُّ ﷺ عمروَ بن لُحَيٍّ الخُزاعِيَّ يُعَذَّبُ بأعظمِ العذابِ في النارِ[3]؛

(١) كما رواه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٥٨٦) عن النُّعمان بن بشير.

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة.

لأنّه أولُ مَنْ غيَّرَ دينِ إبراهيمَ عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١].

أي: فيقتدي بكم مَن بعدكم فيكونَ إثمُ كفرهِ عليكم، وكذلك حُكْمُ مَنْ سَنَّ سنّةً سيئةً فاتُّبِعَ عليها.

وفي «جامع الترمذيِّ»[١] عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يَجيءُ المَقْتُولُ بالقاتِلِ يومَ القيامةِ، ناصِيَتُهُ ورأسُهُ بيَدِهِ، وأَوْدَاجُهُ تَشْخُبُ دماً، يقولُ: يا ربِّ! سَلْ هٰذا: فِيمَ قَتَلَني؟ فذكروا لابنِ عبَّاسٍ التَّوبَةَ، فتلا هٰذه الآيةَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها﴾ [النساء: ٩٣].

ثُمَّ قالَ: مَا نُسِخَتْ هٰذه الآيةُ ولا بُدِّلتْ وأَنَّى لَهُ التَّوْبةُ؟».

قال الترمذيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ.

وفيه[٢] أيضاً عن نافعٍ قالَ: «نَظَرَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ يوماً إلى الكعبةِ، فقال: ما أعظمكِ وأعظمَ حُرْمَتَكِ، والمؤمنُ عِندَ اللهِ أعظمُ حُرمةً مِنكِ».

قال: هٰذا حديثٌ حسنٌ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[٣] عن جندبٍ قالَ: «أوَّلُ ما يَنْتُنُ مِنَ الإنسانِ بطنُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنكم أن لا يأكُلَ إلاّ طيِّباً؛ فَلْيَفْعَلْ، ومَنِ استطاعَ أن لا يَحُولَ بينَهُ وبَيْنَ الجنّةِ مِلْءُ كَفٍّ مِنْ دمٍ أهراقَهُ؛ فَلْيَفْعَلْ».

---

(١) (برقم: ٣٠٢٩).

ورواه ابن ماجه (٢٦٢١)، والنّسائي (٨ / ٦٣) بسند صحيح.

(٢) (برقم ٢٠٣٢).

ورواه ـ أيضاً ـ البغوي (١٣ / ١٠٤)، وسنده حسنٌ.

(٣) (برقم ٦٧٣٣)، وانظر: «فتح الباري» (١٣ / ١٣٠).

وفي «صحيحهِ»[1] أيضاً عن ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يزالُ المُؤمنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دماً حراماً».

وذكر البخاريُّ[2] أيضاً عن ابنِ عمرَ قال: «مِنْ وَرْطَاتِ الأمورِ الَّتي لا مَخْرَجَ لِمَنْ أوقعَ نَفْسَهُ فيها سَفْكُ الدَّمِ الحرامِ بغيرِ حلِّه».

وفي «الصَّحيحينِ»[3] عن أبي هُريرة يرفعه: «سِبَابُ المُسلمِ فُسُوقٌ، وقِتَالُهُ كُفْرٌ».

وفيهما[4] أيضاً عنه ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بعدي كُفَّاراً يَضْرِبُ بعضُكُم رقابَ بعضٍ».

وفي «صحيح البخاريِّ»[5] عنه ﷺ: «مَنْ قتلَ مُعاهَداً لَمْ يُرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ ريحَهَا ليُوجَدُ مِنْ مسيرةِ أربعينَ عاماً».

هٰذه عقوبةُ قاتلِ عدوِّ اللهِ إذا كانَ في عهدِهِ وأمانِهِ؛ فكيفَ عقوبةُ قاتلِ عبدِهِ المؤمنِ؟ وإذا كانتِ امرأةٌ قد دخلتِ النَّارَ في هرَّةٍ حَبَسَتْها حتى ماتَتْ جوعاً وعطشاً، فرآها النبيُّ[6] ﷺ في النارِ، والهرَّةُ تخدِشُها في وجهها وصدرها؛ **فكيفَ عقوبةُ مَنْ حَبَسَ مُؤمناً حتى ماتَ بغيرِ جُرمٍ**[7]؟.

---

(1) (برقم ٦٤٦٩).

(2) (برقم ٦٤٧٠).

(3) رواه البخاري (٥٦٩٧)، ومسلم (٦٤).

(4) رواه البخاري (٦٦٦٦)، ومسلم (٦٥) عن ابن مسعود.

(5) (برقم ٦٥١٦).

(6) سبق تخريجُ الحديث الوارد في هٰذا.

(7) فَلْيَتَّقِ اللهَ سُبحانه أولٰئك الظلمةُ الذين يحكمون بعضَ بلاد المسلمين بالحديد والنار، قَهْراً وتنكيلاً، وتشريداً وتنديداً.

﴿ومَا نَقَمُوا مِنْهُم إلَّا أَنْ يُؤمِنُوا باللهِ العَزيزِ الحَمِيدِ﴾.

وفي بعضِ «السننِ»[1] عنه ﷺ: «لزوالُ الدُّنيا أهوَنُ عندَ اللهِ مِنْ قتلِ مُؤمنٍ بغيرِ حقٍّ».

٧٩ ـ فَصْلٌ [مفسدة الزِّنى من أعظم المفاسد]:

ولمَّا كانَتْ مفسدةُ الزِّنى مِنْ أعظمِ المفاسِدِ ـ وهي منافيةٌ لمصلحةِ نظامِ العالمِ في حفظِ الأنسابِ، وحمايةِ الفروجِ، وصيانةِ الحُرُماتِ، وتوقِّي ما يُوقِعُ أعظَمَ العداوةِ والبغضاءِ بينَ النَّاسِ، مِنْ إفسادِ كُلٍّ منهم امرأةَ صاحبِهِ وابنتَه وأختَهُ وأمَّهُ، وفي ذٰلك خرابُ العالمِ ـ كانَتْ تلي مفسدةَ القتلِ في الكِبَرِ، ولهٰذا قرنَها اللهُ سبحانهُ بها في كتابه، ورسولُهُ ﷺ في سُنَّتِهِ كما تقدَّمَ.

قال الإمامُ أحمدُ: لا أعلمُ بعدَ قتلِ النفسِ شيئاً أعظمَ مِنَ الزِّنى.

وقد أكَّدَ اللهُ سبحانهُ حُرمتَهُ، بقولِهِ: ﴿والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلك يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فيهِ مُهَاناً . إلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فقَرَنَ الزِّنى بالشركِ وقتلِ النفسِ، وجعلَ جزاءَ ذٰلك الخُلُودَ في العذابِ المُضاعَفِ، ما لم يرفعِ العبدُ مُوجِبَ ذٰلك بالتَّوبَةِ والإيمانِ والعملِ الصالحِ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

فأخبرَ عن فُحْشِهِ في نفسهِ، وهو القبيحُ الذي قد تناهىٰ قُبْحُه حتى استقرَّ

---

(١) رواه الترمذي (١٣٤٥)، والنَّسائي (٧ / ٨٢ و٨٣) عن عبد الله بن عَمْرو مرفوعاً.
قال الترمذي: «وقد رُوِي موقوفاً عليه، وهو أصحُّ».
قلتُ: وله شاهدٌ عن بُريدة، رواه النَّسائي (٧ / ٨٣)؛ فهو به صحيحٌ.
ولا يُعارِضُ الوقفَ الرَّفْعُ كما هو معلومٌ في أصول الحديثِ.

فُحْشُهُ في العقولِ حتى عندَ كثيرٍ مِنَ الحيوانِ، كما ذكرَ البخاريُّ في «صحيحه»[1] عن عمرِو بنِ ميمونٍ الأوْديّ قالَ: «رأيتُ في الجاهليةِ قرداً زنى بقردةٍ، فاجتمعَ القرودُ عليهما فرجمُوهُما حتى ماتا».

ثمَّ أخبرَ جل جلاله عن غايتِهِ أنَّه ساءَ سبيلاً، فإنَّه سبيلُ هَلَكَةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدنيا، وسبيلُ عَذَابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرةِ.

ولمَّا كانَ نِكَاحُ أزواجِ الآباءِ مِنْ أقبحِهِ خصَّهُ بمزيدِ ذمٍّ، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢].

وعلَّق سبحانه فلاحَ العبدِ على حفظِ فرجِهِ منه؛ فلا سبيلَ له إلى الفلاحِ بدونه، فقال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ . والَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . والَّذينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . والَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلَّا على أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فأُولٰئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

وهٰذا يتضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: أنَّ مَنْ لم يحفظْ فَرجَهُ لم يكنْ مِنَ المُفْلِحِينَ، وأنَّه مِنَ المَلُومينَ، ومِنَ العادينَ، ففاتَهُ الفلاحُ، واستحقَّ اسمَ العُدوانِ، ووقعَ في اللَّوْمِ، فَمُقاساةُ ألمِ الشهوةِ ومعاناتِها أيسرُ مِنْ بَعْضِ ذٰلك.

ونظيرُ هٰذا: أنَّه سبحانَهُ ذمَّ الإنسانَ وأنَّه خُلِقَ هَلُوعاً لا يصبرُ على سرّاءَ ولا على ضرّاءَ، بل إذا مسَّهُ الخيرُ مَنَعَ وبَخِلَ، وإذا مسَّهُ الشرُّ جَزِعَ، إلّا مَن استثناهُ بعدَ ذٰلك مِنَ النَّاجِينَ مِنْ خَلْقِهِ، فذكَرَ منهم: ﴿والَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩ ـ ٣١].

---

(١) (برقم: ٣٨٤٩).

فأمـرَ اللهُ تعـالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يأمـرَ المؤمنينَ بغضِّ أبصـارِهم وحفظِ فورجِهِم، وأن يُعْلِمَهُم أنّه مُشاهِدٌ لأعمَالِهم، مُطّلعٌ عليها: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ولمَّا كانَ مبدأُ ذٰلك مِنْ قِبَلِ البصرِ جعلَ الأمرَ بغضِّه مقدَّماً على حفظِ الفـرجِ، فإنَّ الحـوادثَ مبـدؤها مِنَ النظرِ، كما أنَّ مُعْظَمَ النارِ مِنْ مُسْتَصْغرِ الشررِ، فتكونُ نظرةً، ثم خَطْرَةً، ثم خُطْوةً، ثم خطيئةً.

ولهٰذا قيل: مَنْ حفظَ هٰذه الأربعةَ أحرز دِينَهُ: اللَّحَظَاتِ، والخَطَرَاتِ، واللَّفظاتِ، والخُطُواتِ.

فينبغي للعبدِ أنْ يكونَ بوَّابَ نفسهِ على هٰذه الأبوابِ الأربعةِ، يُلازمُ الرباطَ على ثغورها، فمنها يدخلُ عليه العدوُّ، فيجوسُ خلالَ الدِّيارِ، ويُتَبِّرُ ما علا تَتْبِيراً.

٨٠ ـ فَصْلٌ [كيف تدخل المعاصي على العبد؟]:

وأكثرُ ما تدخلُ المعاصي على العبدِ مِنْ هٰذه الأبوابِ الأربعةِ، فنذكرُ في كلِّ بابٍ منها فصلاً يليقُ به:

فأمَّا اللَّحظاتُ: فهي رائدُ الشهوةِ ورسولُها، وحفظُها أصلُ حفظِ الفرجِ، فَمَنْ أطلقَ بصرَهُ أوردَ نفسَهُ مواردَ الهلكاتِ.

وقال النبيُّ ﷺ: «لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّما لَكَ الأولى، وليستْ لكَ الأخرى»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٥ / ٣٥٣ و٣٥٧)، والبيهقي (٧ / ٩٠) عن بُريدة.

وفي إسنادهِ شَريكٌ النَخعيُّ، وهو سيِّىءُ الحفظِ. =

وفي «المسندِ»[1] عنه ﷺ: «النَّظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ، فمنْ غَضَّ بصرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امرأةٍ للهِ؛ أورثَ اللهُ قلبَهُ حَلاوةً إلى يومِ يلقاهُ». هٰذا معنى الحديث.

وقال: «غُضُّوا أبصارَكُم واحْفَظُوا فُرُوجَكُم»[2].

= وله شاهدٌ:

فقد أخرج الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢ / ٣٥٢)، والحاكم (٣ / ١٢٣)، وأحمد (١ / ١٥٩)، والبزَّار (١٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (رقم ٢٢٥٢ ـ مجمع البحرين)، وابن أبي شيبة (١٢ / ٦٤) عن عليّ.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤ / ٢٧٧): «ورجال الطبراني ثقات».

قلتُ: ولٰكنَّ ابن إسحاق مدلِّس، وقد عنعنه لٰكنه يشهد لِمَا قبلهُ ويُقَوِّيه.

(١) لم أره في «المسند» بهٰذا اللفظ.

نعم؛ روى أحمد (٥ / ٢٦٤)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٤٢)، وابن عدي (٥ / ٦٨٥) عن أبي أمامة مرفوعاً: «ما مِنْ مسلمٍ ينظر إلى امرأةٍ أوَّل نظرةٍ ثم يغضُّ بَصَرَهُ إلَّا أحدث اللهُ له عبادةً يجد حلاوتها».

قال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٦٣): «وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك».

قلتُ: وعبيدُ الله بن زَحْر ضعيفٌ.

وأمَّا تخريجُ الحديثِ باللفظ الذي ذكره المصنِّف؛ فأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤ / ٣١٣)، والقُضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ١٣٩) عن حُذيفة.

وفي إسناده عبد الرحمٰن الواسطي؛ ضعَّفوه، كما قال الذهبيُّ.

وقد اضطربَ عبدُ الرحمٰن هٰذا في روايتهِ؛ فرواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٦٢) من طريقه؛ فجعله من حديثِ ابن مسعود!

ورواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ١٤٠) مِن طريقهِ ـ أيضاً ـ؛ فجعله من حديث عليّ!

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٥ / ٣٢٣)، والحاكم (٤ / ٣٥٨)، وابن حبان (٢٥٤٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٤٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٣١)، =

وقال: «إيَّاكُم والجلوسَ على الطُّرُقاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ! مَجالِسُنا، ما لنا بُدٌّ منها. قال: فإنْ كُنْتُم لَا بُدَّ فاعِلِينَ، فأعْطُوا الطَّريقَ حَقَّهُ، قالوا: وما حَقُّهُ؟ قالَ: غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السَّلامِ»[1].

والنظرُ أصلُ عامَّةِ الحوادِثِ التي تُصيبُ الإنسانَ، فإنَّ النظرةَ تُولِّدُ خطرةً، ثم تُوَلِّدُ الخطرةُ فكرةً، ثم تُوَلِّدُ الفكرةُ شهوةً، ثم تُوَلِّدُ الشهوةُ إرادةً، ثم تَقْوى فتصيرُ عزيمةً جازمةً، فيقعُ الفعلُ ولا بُدَّ، ما لم يمنعْ منه مانعٌ، وفي هٰذا قيل: «الصبرُ على غضِّ البصرِ أيسرُ مِنَ الصبرِ على ألمِ ما بَعدَهُ».

قال الشاعر:

كُلُّ الحَـوَادِثِ مَبْـدَاهَـا مِنَ النَّـظَرِ ... ومُعْـظَمُ النَّـارِ مِنْ مُسْتَصْغَـرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ بَلَغَتْ مِنْ قَلْبِ صَاحِبِهَـا ... كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ القَـوْسِ والوَتَرِ
والـعَـبْـدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَـلِّبُـهُ ... فِي أَعْيُنِ الغَيْرِ مَوْقُوفٌ عَلَى الخَطَرِ
يَسُـرُّ مُقْـلَتَـهُ مَا ضَرَّ مُهْـجَـتَـهُ ... لَا مَرْحَبـاً بِسُـرُورٍ عَادَ بِالضَّـرَرِ

ومِنْ آفاتِ النظرِ: أنَّهُ يورِّثُ الحَسَراتِ والزَّفَراتِ والحَرَقاتِ، فيرى العبدُ ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهٰذا مِنْ أعظمِ العذابِ: أنْ ترى ما لا صبرَ لك عنه، ولا عن بعضِهِ، ولا قُدرَةَ لك عليه.

= والبيهقي (٦ / ٢٨٨) عن عُبادة.

وأعلَّه الهيثمي في «المجمع» (٤ / ١٤٥)، والمنذري في «الترغيب» (٣ / ٦٤) بالانقطاع بين المطَّلب بن عبد الله وعُبادة.

وله شاهد:

أخرجه الحاكم (٤ / ٣٥٩)، وأبو يعلى (٤٢٥٧)، والخرائطي (ص ٣٠) عن أنس بسند حسن إن شاء الله.

(١) رواه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١).

قال الشاعر:

وكُنْتَ مَتى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ولاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

وهٰذا البيتُ يحتاجُ إلى شرحٍ، ومُرادُهُ: أنَّكَ ترى ما لا تصبرُ عن شيءٍ منه ولا تقدرُ على شيءٍ منه، فإنَّ قوله: «لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه» نفيٌ لقدرتِهِ على الكلِّ، التي لا تنبغي إلا بنفي القدرةِ على كلِّ واحدٍ.

وكمْ مِمَّنْ أرسلَ لحظاتِهِ فما أقلعَتْ إلا وهو يَتَشَحّطُ بينهنَّ قتيلًا! كما قيل:

يا نَاظِراً مَا أَقْلَعَتْ لَحَظَاتُهُ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

ولي من أبيات:

مَلَّ السَّلَامَةَ فاغْتَدَتْ لَحَظَاتُهُ وَقْفاً عَلَى طَلَلٍ يُظَنُّ جَمِيلًا
ما زَالَ يَتْبَعُ إِثْرَهُ لَحَظَاتِهِ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

ومنَ العجبِ: أنَّ لحظةَ الناظرِ سهمٌ لا يَصِلُ إلى المنظورِ إليه، حتى يتبوَّأ مكاناً منْ قلبِ الناظرِ.

ولي من قصيدةٍ:

يَا رَامِياً بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِداً أَنْتَ القَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلَا تُصِبِ
وَبَاعِثَ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ احْبِسْ رَسُولَكَ لَا يَأْتِيكَ بِالعَطَبِ

وأعجبُ مِنْ ذٰلك: أنَّ النظرةَ تجرحُ القلبَ جرحاً، فَيُتْبِعُها جرحاً على جرحٍ؛ ثم لا يمنعهُ ألمُ الجراحةِ مِنِ استدعاءِ تكرارِها.

ولي أيضاً في هٰذا المعنى:

مَا زِلْتَ تَتْبَعُ نَظْرَةً فِي نَظْرَةٍ فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحِ

وَتَـظُنُّ ذَاكَ دَوَاءَ جُرْحِكَ وَهْوَ فِي الـ ... تَّحْـقِـيقِ تَجْـرِيحٌ عَلَى تَجْـرِيحِ
فَذَبَحْتَ طَرْفَكَ بِاللِّحَـاظِ وبِـالبُكَا ... فَالـقَـلْبُ مِنْـكَ ذَبِـيحٌ أَيُّ ذَبِـيحِ

وقد قيل: حبسُ اللّحظاتِ أيسرُ من دوامِ الحَسرَاتِ.

٨١ ـ فَصْلٌ [من مداخل المعاصي: الخطرات]:

وأمـا الخـطراتُ: فشأنُها أصعبُ، فإنَّها مبدأُ الخيرِ والشرِّ، ومنها تَتولَّدُ الإراداتُ والهِمَمُ والعزائِمُ، فَمَنْ راعَى خطراتِهِ مَلَكَ زِمَامَ نفسِهِ وقهرَ هواه، ومَنْ غلبتهُ خطراتُهُ فهواه ونفسهُ له أغلبُ، ومَنِ استهانَ بالخطراتِ قادتهُ قهراً إلى الهلكاتِ.

ولا تزالُ الخـطراتُ تَـرِدُ عـلى القلبِ حتى تصيرَ مُنىً باطلةً ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأخسُّ النـاسِ همَّـةً، وأوضعهم نفساً مَنْ رضيَ مِنَ الحقائِقِ بالأمانيِّ الكـاذبـةِ، واستجلبهَـا لنفسـهِ، وتحلَّى بها، وهيَ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ رؤوسُ أموالِ المُفْلِسينَ، ومتـاجـرُ البـطالين، وهي قوتُ النفسِ الفارغةِ التي قد قنعَتْ مِنَ الوصلِ بزورةِ الخيالِ، ومنَ الحقائقِ بكواذبِ الآمالِ؛ كما قال الشاعر:

أَمَـانِيُّ مِنْ سُعْدَى رُوَاءٌ عَلَى الظَّمَا ... سَقَتْنَـا بِهَـا سُعْـدَى عَلَى ظَمإٍ بَرْدا
مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى ... وإِلَّا فَقَـدْ عِشْنَـا بِهَـا زَمَنـاً رَغْـدَا

وهي أضرُّ شيءٍ على الإنسانِ، وتتولَّدُ مِنَ العجزِ والكسلِ، وتُوَلِّدُ التفريطَ والحسـرةَ والندمَ، والمُتَمنّي لمَّا فاتتهُ مباشرةُ الحقيقةِ الحسيَّةِ حوَّل صورتَها في قلبِهِ، وعانقَها وضمَّها إليه، فقنَعَ بوصالِ صورةٍ وهميةٍ خياليةٍ صوَّرها فكرهُ!!

وذلك لا يُجدي عليه شيئاً، وإنَّما مَثَلُهُ مثلُ الجائعِ والظمآنِ، يُصَوِّرُ في

وهمِهِ صورةَ الطَّعامِ والشرابِ، وهو لا يأكلُ ولا يشربُ!

والسكونُ إلى ذٰلك واستجلابُهُ يدلُّ على خساسةِ النفسِ ووضاعتِهَا، **وإنما شرفُ النفسِ وزكاؤها وطهارتُها وعلوُّها؛ بأنْ ينفي عنها كلَّ خطرةٍ لا حقيقةَ لها، ولا يرضى أنْ يُخطِرَها ببالِهِ، ويأنَفَ لنفسِهِ منها.**

ثم الخطراتُ ـ بَعْدُ ـ أقسامٌ تدورُ على أربعةِ أصولٍ:

خطراتٌ يستجلبُ بها منافعَ دنياهُ.

وخطراتٌ يستدفعُ بها مضارَّ دنياهُ.

وخطراتٌ يَستجلبُ بها مصالحَ آخرته.

وخطراتٌ يستَدفعُ بها مضارَّ آخرتِهِ.

فَلْيَحْصُرِ العبدُ خطراتِهِ وأفكارَهُ وهمومَهُ في هٰذه الأقسامِ الأربعةِ، فإذا انحصَرَتْ له فيها فما أمكنَ اجتماعهُ منها لم يتركهُ لغيرِهِ، وإذا تزاحَمَتْ عليه الخطراتُ لِتَزَاحُمِ مُتَعَلَّقاتِها قدَّمَ الأهمَّ الذي يخشى فوتَهُ، وأخَّرَ الذي ليس بأهمَّ ولا يخافُ فوتَهُ.

بقي قسمانِ آخرانِ:

أحدهما: مهمٌّ لا يَفُوتُ.

والثاني: غيرُ مهمٍّ، ولٰكنه يَفُوتُ.

ففي كُلٍّ منهما ما يدعو إلى تقديمِهِ، فهنا يقعُ التردُّدُ والحيرةُ، فإنْ قَدَّمَ المهمَّ خشيَ فواتَ ما دونَهُ، وإنْ قَدَّمَ ما دونَهُ فاتَهُ الاشتغالُ به عن المهمِّ، وذٰلك بأن يُعرضَ له أمرانِ لا يمكنُ الجمعُ بينهما، ولا يحصلُ أحدُهما إلا بتفويتِ الآخرِ.

فهـذا موضـعُ استعمالِ العقلِ والفقهِ والمعرفةِ، ومِنْ ها هنا ارتفعَ مَن ارتفَعَ، وأنجحَ من أنجحَ، وخابَ مَنْ خابَ، **وأكثرُ مَنْ ترى ممَّنْ يَعْظُمُ عقلُهُ ومعرفتُهُ يُؤْثِرُ غَيْرَ المهمِّ الذي لا يفوتُ على المهمِّ الذي يفوتُ، ولا تجدُ أحداً يسلمُ مِنْ ذٰلك، ولٰكنْ مُسْتقلٌّ ومُستكثرٌ**[1].

والحُكْمُ في هٰذا البابِ للقاعدةِ الكبرى التي عليها مدارُ الشرعِ والقَدَرِ وإليها يرجعُ الخلقُ والأمرُ؛ وهي إيثارُ أكبرِ المصلحتينِ وأعلاهما، وإنْ فاتَتِ المصلحةُ التي هي دونَها، والدخولُ في أدنى المفسدتينِ لدفعِ ما هو أكبرُ منها، فتفوِّت مصلحةً لِيُحصلَ ما هُوَ أكبَرُ منها، وترتكبُ مفسدةً لدفعِ ما هو أعظمُ منها.

فخـطراتُ العـاقـلِ وفِكَـرُهُ لا تَتَجـاوَزُ ذٰلك، وبذٰلك جاءتِ الشرائعُ، ومصالحُ الدنيا والآخرةِ لا تقومُ إلّا على ذٰلك، وأعلى الفِكَرِ وأجلُّها وأنفعها: ما كانَ للهِ والدارِ الآخرةِ؛ فما كانَ للهِ أنواعٌ:

أحدها: الفكرةُ في آياتِهِ المنزَّلَةِ وتعقُّلها، وفهمُ مرادِهِ منها، ولذٰلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرَّدِ تلاوَتها، بل التلاوةُ وسيلةٌ.

قال بعضُ السلفِ: أنزلَ اللهُ القرآنَ ليعملَ به، فاتَّخذُوا تلاوَتَهُ عملاً!

الثـاني: الفكرةُ في آياتِهِ المشهودةِ والاعتبارُ بها، والاستدلالُ بها على أسمائِهِ وصفاتِهِ، وحكمتِهِ، وإحسانِهِ، وبرِّهِ، وجُودِهِ، وقد حضّ سبحانه عبادَهُ على التفكُّرِ في آياتِهِ وتدبُّرِهَا وتَعَقُّلِها، وذمَّ الغافلَ عن ذٰلك.

الثالث: الفكرةُ في آلائهِ وإحسانِهِ، وإنعامِهِ على خلقهِ بأصنافِ النعمِ، وسعةِ رحمتِهِ ومغفرتِهِ وحلمِهِ.

---

(١) وهذا تنبيهٌ جليلٌ ينبغي تأمُّله.

وهٰذه الأنواعُ الثلاثةُ تَسْتَخْرِجُ مِنَ القلبِ معرفةَ اللهِ ومحبَّته وخوفَهُ ورجاءَهُ.

ودوامُ الفكرةِ في ذٰلك مع الذكرِ يصبغُ القلبَ في المعرفةِ والمحبَّةِ صبغةً تامةً.

الرابع: الفكرةُ في عيوبِ النفسِ وآفاتِهَا، وفي عيوبِ العملِ، وهٰذه الفكرةُ عظيمةُ النفعِ، وهي بابٌ لكلِّ خيرٍ، وتأثيرُها في كسرِ النفسِ الأمَّارةِ بالسوءِ، ومتى كُسِرَتْ عاشتِ النفسُ المطمئنَّةُ وانتعَشَتْ وصارَ الحكمُ لها، فحيِيَ القلبُ، ودارَتْ كلمتُهُ في مملكتِهِ، وبثَّ أمراءهُ وجندَهُ في مصالحِهِ.

الخامس: الفكرةُ في واجبِ الوقتِ ووظيفتِهِ، وجمعُ الهمِّ كلِّه عليه، فالعارفُ ابنُ وقتِهُ، فإنْ أضاعَهُ ضاعَتْ عليه مصالحُهُ كلُّها، فجميعُ المصالحِ إنما تنشأُ مِنَ الوقتِ[1]، وإنْ ضيَّعهُ لم يستدركْهُ أبداً.

قال الشافعيُّ رضي الله عنه: «صحبتُ الصُّوفيةَ[2] فلم أستفِدْ منهم سوى حرفينِ، أحدُهما قولُهم: الوقتُ سيفٌ، فإنْ قطعتَهُ وإلاَّ قطعَكَ، ـ وذكرَ الكلمةَ الأخرى ـ: ونفسَكَ إن لم تشغلْها بالحقِّ وإلا شغلتْكَ بالباطلِ».

فوقتُ الإنسانِ هو عمُرهُ في الحقيقةِ، وهو مادةُ حياتِهِ الأبديَّةِ في النعيمِ المقيمِ، ومادَّةُ معيشتِهِ الضنكِ في العذابِ الأليمِ، وهو يمرُّ أسرعَ مِنْ مَرِّ السحابِ، فما كان مِنْ وقتِهِ لله وباللهِ فهو حياتُهُ وعمرُهُ، [وغيرُ] ذٰلك ليس محسوباً في حياتِهِ، وإنْ عاشَ فيه [عاشَ] عيشَ البهائِمِ، فإذا قطعَ وقتَهُ في الغفلةِ والشهوةِ والأمانيِّ الباطلةِ، وكان خيرُ ما قطعهُ به النومَ والبطالَةَ؛ فموتُ هٰذا خيرٌ له مِنْ حياتِهِ.

---

(١) ولي في بيان أهميَّة الوقت رسالةٌ مستقلَّةٌ حافلةٌ، عنوانها: «المؤتَمن في حِفْظ الوقت وقيمة الزَّمَن»، يسَّر اللهُ إتمامها ونشرها.

(٢) ذاك في صوفيَّة زمانه! أمَّا اليومَ؛ فلا يستفاد منهم شيءٌ، ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ باللهِ.

وإذا كانَ العبدُ ـ وهو في الصلاةِ ـ ليس له مِنْ صلاتِهِ إلَّا ما عَقَلَ منها[1]، فليس به مِنْ عمرِهِ إلَّا ما كانَ فيه باللهِ وللهِ.

وما عدا هٰذه الأقسامِ مِنَ الخطراتِ والفِكَرِ، فإمَّا وساوسُ شيطانيةٌ، وإما أمانيُّ باطلةٌ وخِدَعٌ كاذبةٌ، بمنزلةِ خواطرِ المُصابينَ في عقولِهِم مِنَ السكارى والحشَّاشينَ والمُوسوسين!

ولسانُ حالِ هٰؤلاءِ يقولُ عندَ انكشافِ الحقائقِ:

إنْ كَانَ مَنْـزِلَتِي فِي الحَشْرِ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَـدْ ضَيَّعْـتُ أَيَّامِـي
أُمْـنِيَّةٌ ظَفِـرَتْ نَفْسِي بِهَـا زَمَنـاً ... واليَوْمَ أَحْسَبُهَـا أَضْغَـاثُ أَحْـلَام

واعلمْ أنَّ ورودَ الخاطرِ لا يَضُرُّ، وإنَّما يضرُّ استدعاؤهُ ومحادثتُهُ، فالخاطرُ كالمارِّ على الطريقِ، فإن لم تستدعِهِ وتركتهُ مرَّ وانصرفَ عنك، وإنِ استدعيتَهُ سَحَرَكَ بحديثِهِ وخِدَعِهِ وغُرُورِهِ، وهو أخفُّ شيءٍ على النفسِ الفارغةِ الباطلةِ، وأثقلُ شيءٍ على القلبِ والنفسِ الشريفةِ السماويةِ المطمئنةِ.

وقد ركَّبَ اللهُ سبحانه في الإنسانِ نَفْسَيْنِ: نفساً أمَّارةً، ونفساً مطمئنَّةً، وهما متعاديتانِ، فكلُّ ما خفَّ على هٰذه ثَقُلَ على هٰذه، وكلُّ ما التذَّتْ به هٰذه تألَّمَتْ به الأخرى؛ فليسَ على النفسِ الأمارةِ أشقُّ مِنَ العملِ للهِ وإيثارُ رضاهُ على هواها، وليس لها شيءٌ أنفعَ منه، وليس على النفسِ المُطْمَئِنَّةِ أشقُّ مِنَ العملِ لغيرِ اللهِ وإجابةُ داعِي الهوى.

وليسَ عليها شيءٌ أضرَّ منه، والمَلَكُ مع هٰذه عن يَمْنَةِ القلبِ، والشيطانُ مع تلك عن يَسْرَةِ القلبِ، والحربُ مستمرَّةٌ لا تضعُ أوزارها إلَّا أنْ تستوفيَ أجلها مِنَ الدنيا، والباطلُ كلُّه يتحيَّزُ مع الشَّيطانِ والأمَّارَةِ، والحقُّ كلُّه يتحيزُ مع المَلَكِ والمطمئنَّةِ، والحربُ دُوَلٌ وسِجَالٌ، والنصرُ مع الصبرِ، **ومَنْ صبرَ وصابرَ ورابطَ**

---

(١) قارن بـ «تخريج الإحياء» (١ / ١٥٩)، و«إتحاف السادة المُتَّقين» (٣ / ١١٢).

واتَّقى اللهَ فلهُ العاقبةُ في الدنيا والآخرة.

وقد حكمَ اللهُ حكماً لا يُبَدِّلُ أبداً: أنَّ العاقبةَ للتَّقوى، والعاقبةَ للمتَّقينَ، فالقلبُ لوحٌ فارغٌ، والخواطرُ نقوشٌ تُنْقَشُ فيه، فكيفَ يليقُ بالعاقلِ أنْ تكونَ نقوشُ لوحِهِ ما بين كذبٍ وغرورٍ وخدعٍ، وأمانيَّ باطلةٍ، وسرابٍ لا حقيقةَ له؟ فأيُّ حكمةٍ وعلمٍ وهدىً ينتقشُ مع هٰذه النقوشُ؟!

وإذا أرادَ أنْ ينقشَ ذٰلك في لوحِ قلبِهِ كانَ بمنزلةِ كتابةِ العلمِ النافعِ في محلٍّ مشغولٍ بكتابةِ ما لا منفعةَ فيه، فإنْ لم يُفَرِّغِ القلبُ مِنَ الخَواطِرِ الرديَّةِ؛ لم تستقرَّ فيه الخواطرُ النافعةُ، فإنَّها لا تستقرُّ إلا في محلٍّ فارغٍ، كما قيل:

أَتَـانِي هَوَاهَـا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَـادَفَ قَلْبـاً فَارِغـاً فَتَمَـكَّنـا

وكهٰذا كثيرٌ مِنْ أربابِ السلوكِ بَنَوْا سُلوكَهُم على حفظِ الخواطرِ، وأنْ لا يُمَكِّنُوا خاطراً يدخلُ قلوبَهُم، حَتى تصيرَ القلوبُ فارغةً قابلةً للكشفِ وظهورِ حقائقِ العُلويَّاتِ فيها!!

وهٰؤلاءِ حفظوا شيئاً وغابَتْ عنهم أشياءُ، فإنهم أخلَوا القلوبَ مِنْ أنْ يطرقَها خاطرٌ، فبقيَتْ فارغةً لا شيءَ فيها؛ فصادَفَها الشيطانُ خاليةً، فبذَرَ فيها الباطلَ في قوالِبَ أوهمَهُم أنَّها أعلى الأشياءِ وأشرفُها؛ عوَّضهم بها عن الخواطرِ التي هي مادَّةُ العلمِ والهدى، وإذا خلا القلبُ عن هٰذه الخواطرِ جاءَ الشيطانُ فوجدَ المحلَّ خالياً، فشغَلَهُ بما يُناسِبُ حالَ صاحِبه، حيثُ لم يستطعْ أنْ يَشْغَلَهُ بالخواطرِ السُّفليَّةِ فشغلهُ بإرادةِ التجريدِ والفراغِ مِنَ الإرادةِ التي لا صلاحَ للعبدِ ولا فلاحَ إلَّا بأنْ تكونَ هي المستوليةَ على قلبِهِ، وهي إرادةُ مرادِ اللهِ الدينيِّ الأمريّ الذي يحبُّهُ ويرضاهُ، ويَشْغَل اهتمامَهُ بمعرفتِهِ على التفصيلِ به، والقيامُ به وتنفيذُهُ في الخلقِ، والتطرقُ إلى ذٰلك، والتوصلُ إليه بالدخولِ في الخلقِ لتنفيذِهِ، فأضلَّهم الشيطانُ عن ذٰلك بأنْ دعاهُم إلى تركِهِ وتعطيلِهِ مِنْ بابِ الزُّهدِ في خواطرِ الدُّنيا وأسبابِها.

وأوهمَهُم أنَّ كمالَهُم في ذٰلك التَّجريدِ والفراغِ، وهيهاتَ هيهاتَ! إنَّما الكمـالُ في امتـلاءِ القلبِ والسرِّ مِنَ الخواطر والإراداتِ والفِكْرِ في تحصيلِ مراضي الربِّ تعالى مِنَ العبدِ وَمِنَ الناسِ والفِكْرِ في طُرُقِ ذٰلك والتوصُّلِ إليه.

فأكمـلُ النـاسِ أكثـرُهم خواطرَ وفِكراً وإراداتٍ لذٰلك، كما أنَّ أنقصَ الناسِ أكثرهُم خواطرَ وفِكْرَاً وإراداتٍ لحظوظِهِ وهواه أينَ كانَتْ، واللهُ المستعانُ.

وهٰذا عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله تعالى عنه كانَتْ تتزاحَمُ عليه الخواطرُ في مراضي الربِّ تعالى، فربَّما استعمَلَها في صلاتِهِ، وكانَ يُجَهِّزُ جيشَهُ وهو في الصـلاةِ[1]، فيكـونُ قد جمـعَ بينَ الجهـادِ والصـلاةِ، وهٰذا بابٌ مِنْ تداخلِ العباداتِ في العبادةِ الواحدةِ.

وهـو بابٌ عزيزٌ شريفٌ، لا يدخـله إلاَّ حاذقُ الـقـلـبِ؛ متـضـلِّعٌ مِنَ العلمِ عالي الهمَّةِ، بحيثُ يدخلُ في عبادةٍ يَظفرُ فيها بعباداتٍ شتّى، وذٰلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ.

٨٢ ـ فَصْلٌ [من مداخل المعاصي: اللّفظات]:

وأما اللَّفْظاتُ: فحفظُها بأنْ لا يُخْرِجَ لفظةً ضائعةً، بأنْ لا يتكَلَّمَ إلاَّ فيما يرجو فيه الربحَ والفائدةَ في دِينِهِ، فإذا أرادَ أن يتكلَّمَ بالكلمةِ نظرَ: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أم لا؟ فإنْ لم يكنْ فيها ربحٌ أمسكَ عنها، وإنْ كانَ فيها ربحٌ نظر: هل تفوتُه بها كلمةٌ هي أربحُ منها؟ فلا يُضَيِّعُهَا بهٰذه.

وإذا أردْتَ أنْ تستدلَّ على ما في القلبِ فاستدلَّ عليه بحركةِ اللسانِ، فإنَّه

---

(١) علَّقه البخاري في «صحيحه» (٣ / ٨٩).

وانظر: «تغليق التعليق» (٢ / ٤٤٨) للحافظ ابن حجر.

يُطلعُك على ما في القلبِ، شاءَ صاحبهُ أم أبى.

قال يحيى بنُ معاذٍ: «القلوبُ كالقُدورِ تَغْلي بما فيها، وألسنتها مغارفُها؛ فانظرْ إلى الرجلِ حينَ يتكلَّمُ فإنَّ لسانَهُ يغترفُ لكَ ممَّا في قلبِهِ، حُلوٍ وحامضٍ، وعَذْبٍ وأجاجٍ، وغيرِ ذلك، ويُبينُ لك طعمَ قلبِهِ اغترافُ لسانِهِ»[1]؛ أي: كما تَطْعَمُ بلسانِكَ طَعْمَ ما في القُدورِ مِنَ الطعامِ فتدركُ العلمَ بحقيقتِهِ، كذلك تَطْعَمُ ما في قلبِ الرجلِ مِنْ لسانِهِ، فتذوقُ ما في قلبِهِ من لسانِهِ، كما تذوقُ ما في القِدْرِ بلسانِكَ.

وفي حديثِ أنسٍ المرفوعِ: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُهُ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتَّى يستقيمَ لسانُهُ»[2].

وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن أكثرِ ما يُدخلُ الناسَ النارَ؟ فقال: «الفَمُ والفَرْجُ»، قال الترمذيُّ[3]: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه أبو نُعيم في «الحلية» (١٠ / ٦٣).

(٢) رواه أحمد (٣ / ١٩٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٩)، والخرائطي (رقم ٤٤٢) عن أنس.

وضعَّفه الهيثمي في «المجمع» (١ / ٥٣)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣ / ١٠٦).

وله شواهد:

فأخرجه أحمد (٣٦٧٢) عن ابن مسعود بسند فيه الصَّبَاح بن محمد، وهو ضعيفٌ أيضاً.

وله طريقٌ أخرى عن ابن مسعود؛ فأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٥٣)، والشجري في «أماليه» (١ / ٣٦).

وأعلَّه الهيثمي (١ / ٩٦) بجهالة رَاوِيَيْنِ من رواته.

(٣) رواه في «سُننه» (٢٠٠٤).

ورواه ابن حبان (١٩٢٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٤)، والحاكم (٤ / ٣٢٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٨٠) عن أبي هُريرة بسند جيِّد.

وقد سألَ معاذٌ النبيَّ ﷺ عنِ العملِ الذي يدخلهُ الجنَّةَ ويباعِدُهُ مِنَ النارِ، فأخبرهُ برأسهِ وعمودِهِ وذروةِ سنامهِ، ثم قال: «ألا أُخبركَ بملاكِ ذلكَ كُلِّه؟ قالَ: بلى يا رسولَ اللهِ، فأخذَ بلِسَانِ نفسهِ ثُمَّ قالَ: كُفَّ عليكَ هذا. فقال: وإنَّا لمؤاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعاذُ، وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ على وجوهِهِم ـ أو مَنَاخِرِهِمْ ـ إلاَّ حصائِدُ ألسنَتِهِم». قال الترمذي[1]: حديث حسنٌ صحيحٌ.

ومِنَ العجبِ أنَّ الإنسانَ يَهُونُ عليه التحفُّظُ والاحترازُ مِنْ أكلِ الحرامِ والظُّلمِ والزِّنى والسرقةِ وشربِ الخمرِ، ومِنَ النَّظرِ المحرَّمِ وغيرِ ذلك، ويصعُبُ عليه التحفُّظُ مِنْ حركةِ لسانِهِ، حتى ترى الرجلَ يُشارُ إليه بالدِّينِ والزُّهدِ والعبادةِ، وهو يتكلَّمُ بالكلماتِ مِنْ سخطِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً ينزلُ بالكلمةِ الواحدَةِ منها أبعدَ مما بينَ المشرقِ والمغربِ[2].

وكم ترى مِنْ رجلٍ مُتورِّعٍ عن الفواحِشِ والظلمِ، ولسانُهُ يفري في أعراضِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا يبالي بما يقولُ[3]!

(١) رواه في «سننه» (٢٦١٦).

ورواه ابن ماجه (٣٩٧٣)، والنَّسائي في «الكبرى» ـ كما في «تُحفة الأشراف» (٨ / ٣٩٩) ـ، وعبد بن حُميد (١١٢)، وعبد الرزَّاق (١١ / ١٩٤) من طريق أبي وائل عن مُعاذ.

وسنده منقطع؛ فإنَّ أبا وائل لم يسمع من مُعاذ.

وله طُرق أخرى عن مُعاذ بمنقطعةٌ أيضاً.

وله شاهدٌ عن عُبادة أخرجه الحاكم (٤ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٥٥) بسند صحيح.

وقد حسَّن الحديث السخاويُّ، كما في «الفتوحات الربَّانية» (٦ / ٣٥٨) لابن علاَّن.

(٢) كما رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) عن أبي هُريرة.

(٣) فليتَّقِ اللهَ هؤلاء، ولْيَعلموا أنَّ لسانَهم الوالغ في أعراض عامَّة الناس ـ فضلاً عن خاصَّتهم ـ سيوردهم المهالك إنْ لم يُعاجِلُوا أنفسَهم بالتوبةِ والإنابة.

وإذا أردْتَ أنْ تعرفَ ذلك؛ فانظرْ إلى ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»[1] مِنْ حديثِ جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قالَ رجُلٌ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ ذا الذي يَتَأَلَّى عليَّ أنّي لا أغْفِرُ لِفُلانٍ؟ قد غَفَرْتُ لهُ وأحْبَطتُ عَمَلَكَ كلّه...».

فهٰذا العابدُ الذي قد عبدَ اللهَ ما شاءَ أن يعبدَهُ أحبطتْ هٰذه الكلمةُ الواحدةُ عملَهُ كلَّهُ.

وفي حديثِ أبي هُريرةَ نحوُ ذلك[2]، ثم قال أبو هُريرةَ: «تكَلَّمَ بِكَلِمةٍ أوْبَقَتْ دُنياهُ وآخِرَتَهُ».

وفي «الصَّحيحين»[3] مِنْ حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ العبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللهِ لا يُلقِي لَهَا بالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بها درجاتٍ، وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سخطِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في نارِ جهنَّمَ».

وعند مسلم: «إنَّ العبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ ما يَتَبَيَّنُ ما فيها يهوي بها في النَّارِ أبعدَ ما بينَ المشرقِ والمغربِ».

وعندَ الترمذيِّ[4] من حديثِ بلالِ بن الحارثِ المُزَنيِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ أحدَكُم لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ من رضوانِ اللهِ ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فيَكْتُبُ اللهُ له بها رِضوانَهُ إلى يومِ يلقاهُ، وإنَّ أحدَكُم لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ما يَظُنُّ

---

(١) (برقم ٢٦٢١).

(٢) رواه أحمد (٨٢٧٥)، وأبو داود (٤٩٠١) بسند حسن.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) (برقم ٢٣١٩).

ورواه النَّسائي في «الكبرى» ـ كما في «تُحفة الأشراف» (٢ / ١٠٣) ـ، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (٣ / ٤٦٩)، والحُميدي (٩١١)، وابن حبان (٢٨٠) بسند حسَن.

أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبُ اللهُ لهُ بها سَخَطَهُ إلى يوم ٍ يلقاهُ».

وكانَ علقمةُ[1] يقولُ: كم مِنْ كلام ٍ قد مَنَعَنِيهِ حديثُ بلال ِ بنِ الحارثِ؟

وفي «جـامع الترمذيِّ»[2] أيضاً من حديثِ أنس ٍ قال: «تُوُفِّيَ رجلٌ مِنَ الصَّحابَةِ، فقالَ رجلٌ: أبشِرْ بالجنَّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: وما يُدريكَ؟ فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فيما لا يعنيهِ، أو بخلَ بما لا يَنْقُصُهُ». قال: حديثٌ حسنٌ..

وفي لفظٍ[3]: «إنَّ غُلامـاً استُشْهِـدَ يومَ أُحُـدٍ، فَوُجِدَ على بطنِهِ صخرَةٌ مربوطةٌ من الجوعِ، فمَسَحَتْ أمُّهُ التُّرابَ عن وجهه، وقالت: هَنِيئاً لكَ يا بُنَيَّ الجَنَّةُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: وَمَا يُدريكِ؟ لَعَلَّهُ كانَ يَتَكَلَّمُ فيما لا يعنيهِ، ويمنعُ ما لا

---

(١) هو علقمةُ بن وقَّاص، راوي الحديث عن بلال ٍ.

(٢) (برقم ٢٣١٦).

ورواه الطحاوي في «المشكل» (٣ / ١٥٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٩)، وأبو يعلى (٤٠١٧)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٢٤٠).

وضعَّف الحافظ العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٣ / ٩٧) سنده، ولعلَّه لمظنَّة الانقطاع في رواية الأعمش عن أنس، ولموضع الاستدلال ِ منه شاهدٌ:

رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٠)، والخطيب في «تاريخه» (٤ / ٢٧٣)، والطبراني ـ كما في «الإصابة» (٨ / ٢٨٨) ـ عن كعب بن عُجرة.

وفي سنده أحمد بن عيسى، وهو إلى الضعف أقربُ.

لكنَّه على كُلٍّ شاهدٌ يُقَوِّي الحديثَ ويُحَسِّنُهُ.

ثم رأيتُ له شاهداً آخر إنْ لم ينفعهُ لم يضرَّه:

أخرجه أبو يعلى (٦٦٤٦)، والعسكري في «الأمثال» ـ كما في «جمع الجوامع» (٩٠٣١) ـ عن أبي هُريرة.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣)؛ قال: «وفيه عصام بن طُليق وهو ضعيفٌ».

(٣) انظر: التعليق السابق.

يَضُرُّهُ».

وفي «الصَّحيحين»[1] مِنْ حديثِ أبي هريرةَ يرفعهُ: «مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيراً أو لِيَصْمُتْ».

وفي لفظٍ لمسلمٍ[2]: «من كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فإذا شَهِدَ أمراً فَلْيَتَكَلَّمْ بخيرٍ أو لِيَسْكُتْ».

وذكر الترمذيُّ[3] بإسنادٍ صحيحٍ عنه ﷺ أنه قال: «مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ».

وعن سفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثقفيِّ قال: «قُلتُ: يَا رسولَ اللهِ! قُلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَكَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ استقم، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ما أخوَفُ ما تَخَافُ عليَّ؟ فأخذَ بلِسَانِ نفسِهِ، ثُمَّ قالَ: هٰذا». والحديثُ صحيحٌ[4].

وعن أمِّ حبيبةَ زوجِ النبيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «كُلُّ كلامِ ابنِ آدمَ عليهِ لا لَهُ: إلَّا أمراً بمعروفٍ، أو نهياً عن مُنكرٍ، أو ذكراً للهِ عزَّ وجلَّ». قال الترمذي[5]: حديثٌ حسنٌ.

---

(1) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٤٨).

(2) (برقم ١٤٦٨).

(3) (برقم ٢٣١٧).

وفي إسنادهِ ضعفٌ لَكنَّهُ يتقوَّى بشواهدِهِ وطرقه الَّتي جمعتُها في جُزْءٍ مُفْرَدٍ بعنوان «إتحاف النَّبيهِ بطرق حديث: «مِن حُسن إسلام المرءِ تركُهُ ما لا يُعنيه»»، يسَّر اللهُ إتمامهُ ونشره.

(4) أخرجه مسلم (٣٨).

(5) (برقم ٢٤١٢).

وأخرجه ابن ماجه (٣٩٧٤)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٢٢ ـ ٢٣)، والحاكم =

وفي حديثٍ آخرَ: «إذا أصبحَ العبدُ، فإنَّ الأعضاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ، تقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا فإنَّما نحنُ بكَ، فإذا استقمتَ استقمنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعوجَجْنا»[1].

وقد كانَ السلفُ يحاسِبُ أحدُهُم نفسَهُ في قولِهِ: يومٌ حارٌّ، ويومٌ باردٌ.

ولقد رُؤِيَ بعضُ الأكابرِ مِنْ أهلِ العلمِ في النومِ فَسُئِلَ عن حالِهِ، فقال: أنا موقوفٌ على كلمةٍ قلتُها، قلتُ: ما أحوجَ النَّاسَ إلى غيثٍ! فقيل لي: وما يدريكَ؟ أنا أعلمُ بمصلحةِ عبادي.

وقـال بعضُ الصَّحـابـةِ لجاريتِهِ يوماً: هاتي السُّفْرَةَ نعبثُ بها ثم قال: أستغفرُ اللهَ! ما أتكلمُ بكلمةٍ إلَّا وأنا أخْطِمُها وأزُمُّهَا إلَّا هٰذه الكلمة خرجَتْ مني بغيرِ خِطامٍ ولا زمامٍ، أو كما قال.

وأيسرُ حركاتِ الجوارحِ حركةُ اللسانِ وهي أضرُّها على العبدِ.

واختلفَ السلفُ والخلفُ هل يُكْتَبُ جميعُ ما يُلْفَظُ به أو الخيرُ والشرُّ فقط؟

على قولينِ؛ أظهرُهما الأوَّلُ.

وقال بعضُ السَّلَفِ: كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ عليه لا له، إلا ما كانَ مِنَ ذكرِ اللهِ

= (٢ / ٥١٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤).

وفي إسنادِهِ جهالةٌ وضعفٌ.

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وأحمد (٣ / ٩٥ ـ ٩٦)، والطيالسي (٢٢٠٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤ / ٣١٦)، وأبو يعلى (١١٨٥)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢) عن أبي سعيد الخُدْريِّ.

وسندهُ حَسَنٌ إن شاءَ اللهُ؛ فإنَّ أبـا الصَّهْبَاءِ وثَّقه ابنُ حبان وروى عنه جماعةٌ، كما في «تهذيب الكمال» (٣٣ / ٤٣٠).

وما والاه.

وكانَ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه يمسكُ بلسانِهِ ويقولُ: «هٰذا أوردَني المواردَ»[1].

والكلامُ أسيرُك، فإذا خرجَ مِنْ فِيْكَ صِرْتَ أنت أسيرَهُ، واللهُ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ؛ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وفي اللسانِ آفتانِ عظيمتانِ؛ إنْ خلصَ مِنْ إحداهما لم يَخْلَصْ مِنَ الأخرى: آفةُ الكلامِ، وآفةُ السُّكوتِ، وقد يكونُ كلٌّ منهما أعظمَ إثماً مِنَ الأخرى في وقتِها؛ **فالساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسُ**، عاصٍ للهِ، مُراءٍ مُداهنٌ إذا لم يخَفْ على نفسهِ، والمتكلمُ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ للهِ.

وأكثرُ الخلقِ مُنحرفٌ في كلامهِ وسكوتِه، فهم بين هٰذينِ النوعينِ.

وأهلُ الوسطِ ـ وهم أهلُ الصراطِ المستقيمِ ـ كفُّوا ألسنَتَهُم عن الباطلِ، وأطلقوهَا فيما يعودُ عليهم نفعُه في الآخرةِ، فلا ترى أحدَهم يتكلمُ بكلمةٍ تذهبُ عليه ضائعةً بلا منفعةٍ، فضلاً أنْ تضرَّهُ في آخرتِهِ، وإنَّ العبدَ ليأتي يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ، فيجدَ لسانَهُ قد هدمَها عليه كلَّها، ويأتي بسيئاتٍ أمثالِ الجبالِ فيجدَ لسانَهُ قد هدمَها من كثرةِ ذكرِ اللهِ وما اتَّصلَ به.

٨٣ ـ فَصْلٌ [من مداخل المعاصي: الخطوات]:

وأما الخُطُواتُ؛ فحفظُها بأنْ لا ينقلَ قدمَهُ إلَّا فيما يرجو ثوابَهُ، فإن لم يكنْ في خُطاهُ مزيدُ ثوابٍ فالقعودُ عنها خيرٌ له، ويُمكنُهُ أنْ يستخرجَ مِنْ كُلِّ مُباحٍ يخطو إليه قُربةً يتقرَّبُ بها وينْويها للهِ، فتقعَ خطاهُ قُربةً.

(١) رواه أبو يعلى (٥)، وابن السُّنِّي (٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣)، وعبد الله ابن أحمد في «زوائد الزهد» (١١٢)، وغيرهم بسند صحيح.

ولمَّا كانتِ العثرةُ عثرتين : عثرةَ الرِّجْلِ ، وعثرةَ اللسانِ ؛ جاءتْ إحداهُما قرينـةَ الأخرى في قولِه تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان : ٦٣]، فوصفَهم بالاستقامةِ في لفظاتِهم وخطواتِهم، كما جمعَ بينَ اللحظاتِ والخطراتِ في قولِه تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

٨٤ ـ فَصْلٌ [تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج]:

وهٰـذا كلُّه ذكـرنـاه مُقَـدِّمةً بين يدي تحريمِ الفواحشِ ووجوبِ حفظِ الفرجِ ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «أكثَرُ ما يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ: الفَمُ والفَرْجُ»[١].

وفي «الصَّحيحين»[٢] عنـه ﷺ : «لَا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ إلَّا بإحدى ثلاثٍ : الثَّيِّبِ الزَّاني ، والنَّفْسِ بالنَّفْسِ ، والتَّارِكِ لِدِينِهِ المُفَارِقِ للجماعةِ».

وهٰذا الحديثُ في اقترانِ الزنى بالكفرِ وقتلِ النفسِ نظيرُ الآيةِ التي في الفُرقانِ[٣]، ونظيرُ حديثِ ابنِ مسعودٍ.

ويـدأ ﷺ بالأكثرِ وقوعاً، والذي يليه، فالزِّنى أكثرُ وقوعاً مِنْ قتلِ النفسِ ، وقتـلُ النفسِ أكثـرُ وقـوعـاً مِنَ الـردَّةِ، وأيضـاً فإنّـه انتقـالٌ مِنَ الأكبرِ إلى ما هو أكبرُ منه، ومفسدةُ الزنى مُناقِضةٌ لمصالحِ العالمِ ؛ فإنَّ المرأةَ إذا زَنَتْ أدخلَتِ العارَ على أهلِها وزوجِها وأقاربِها، ونَكَسَتْ رؤوسَهُم بينَ الناسِ إنْ حمَلَتْ مِنَ الـزِّنى ؛ فإنْ قتلَتْ ولدَها جمعَتْ بينَ الزِّنى والقتلِ ، وإنْ حَمَلَتْهُ على الزوجِ

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦) عن ابن مسعود.

(٣) وهي قولُه تعالى : ﴿والَّذينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. . .﴾.

أدخَلَتْ على أهلهِ وأهلِها أجنبيّاً ليس منهم، فورِثَهُم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسبَ إليهم وليس منهم، إلى غيرِ ذٰلك من مفاسدِ زناها، وأمَّا زنى الرجل فإنه يُوجبُ اختلاطَ الأنساب أيضاً، وإفسادَ المرأةِ المصونةِ، وتعريضَها للتلفِ والفسادِ، ففي هٰذه الكبيرةِ خرابُ الدنيا والدِّينِ، وإنْ عَمَرَتِ القبورَ في البرزخِ والنارَ في الآخرةِ؛ فكم في الزِّنى مِن استحلالِ حرماتٍ، وفواتِ حقوقٍ، ووقوعِ مظالمَ؟

ومن خاصِّيتهِ: أنَّه يُوجِبُ الفقرَ، ويُقَصِّرُ العمرَ، ويكسو صاحبَهُ سوادَ الوجهِ، ويُوَرِّثُ المقتَ بينَ الناسِ.

ومن خاصيَّتِهِ أيضاً: أنَّه يُشَتِّتُ القلبَ ويُمْرِضُهُ إن لم يُمِتْهُ، ويجلبُ الهمَّ والحُزنَ والخوفَ؛ ويُباعِدُ صاحبَهُ مِنَ المَلَكِ ويُقَرِّبُهُ مِنَ الشيطانِ، فليسَ بعدَ مفسدةِ القتلِ أعظمُ مِنْ مفسدتِهِ، ولهٰذا شُرِعَ فيه القتلُ على أشنعِ الوجوهِ وأفحشِها وأصعبِها، ولو بلغَ العبدَ أنَّ امرأتَهُ أو حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ؛ كانَ أسهلَ عليه مِنْ أن يَبْلُغَهُ أنها زَنَتْ.

وقال سعدُ بنُ عبادةَ رضي الله عنه: «لو رأيتُ رجُلاً مَعَ امرأتي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غيرَ مُصَفَّحٍ، فبلغَ ذٰلك رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «أتعجبونَ مِنْ غيرةِ سعدٍ؟ واللهِ لأنا أغيرُ مِنْهُ، واللهُ أغيرُ مِنِّي، ومِنْ أجلِ غيرةِ اللهِ حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ». متفق عليه[1].

وفي «الصحيحين»[2] أيضاً عنه ﷺ: «إنَّ اللهَ يَغارُ، وإنَّ المُؤمِنَ يَغارُ، وغَيْرَةُ اللهِ أنْ يَأتِيَ العَبْدُ مَا حُرِّمَ عليهِ».

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (٢٧٦١).

وفي «الصَّحيحين»[1] أيضاً عنه ﷺ: «لا أحدُ أغيرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجل ذلك حرَّمَ الفواحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحدُ أحبُّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجلِ ذلك أرسلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ، ولا أحدُ أحبُّ إليه المدحُ مِنَ اللهِ، ومِنْ أجلِ ذلك أثنى على نفسهِ».

وفي «الصَّحيحين»[2] في خطبتِهِ ﷺ في صلاةِ الكسوفِ أنَّه قال: «يا أُمَّةَ محمدٍ! واللهِ إنَّهُ لا أحدَ أغيرُ مِنَ اللهِ أن يزني عبدُهُ أو تزنيَ أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ محمدٍ! واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً»، ثُمَّ رفعَ يديهِ وقال: «اللهمَّ هلْ بَلَّغْتُ؟».

وفي ذِكْرِ هذه الكبيرةِ بخصوصِها عَقِبَ صلاةِ الكُسوفِ سرٌّ بديعٌ لِمَنْ تأمَّلَهُ، وظهورُ الزِّنى من أماراتِ خراب العالم، وهو مِنْ أشراطِ السَّاعةِ، كما في «الصَّحيحين»[3] عن أنسِ بنِ مالكٍ أنَّه قال: «لأُحَدِّثَنَّكُم حَديثاً لا يُحَدِّثُكُموهُ أحدٌ بعدي، سمعتهُ من رسول الله ﷺ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مِنْ أشراطِ السَّاعَةِ أن يُرْفَعَ العِلْمُ، ويظهَرَ الجهلُ وشربُ الخمرِ، ويَظْهَرَ الزِّنى، ويَقِلَّ الرِّجَالُ، وتَكْثُرَ النِّساءُ، حَتَّى يكونَ لخمسينَ امرأةً القَيِّمُ الواحِدُ».

وقد جرَتْ سنَّةُ اللهِ سبحانه في خَلْقِهِ أنَّه عندَ ظهورِ الزِّنى يغضبُ اللهُ سبحانه ويشتدُّ غضبهُ، فلا بُدَّ أن يُؤَثِّرَ غضبُهُ في الأرضِ عقوبةً.

قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: «ما ظهرَ الربا والزِّنى في قريةٍ إلَّا أذنَ اللهُ بهلاكِها»[4].

ورأى بعضُ أحبارِ بني إسرائيلَ ابنَهُ يغمزُ امرأةً فقال: مهلاً يا بُنَيَّ، فَصُرِعَ

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥٨)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١).

(٣) رواه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١).

(٤) انظر ما سبق (ص ٧٠).

الأبُ عن سريرِهِ فانقطعَ نُخاعُهُ، وأسْقَطَتِ امرأتُهُ، وقيل له: «هٰكذا غضبُكَ لي؟ لا يكونُ في جنسِكَ خيرٌ أبداً».

وخصَّ سبحانه حدَّ الزنى مِنْ بينِ الحدودِ بثلاثِ خصائصَ:

أحدها: القتلُ فيه بأشنعِ القِتْلَاتِ، وحيثُ خفَّفهُ جمعَ فيه بينَ العقوبةِ على البدنِ بالجلدِ وعلى القلبِ بتغريبِهِ عن وطنِه سنةً.

الثاني: أنَّه نهى عبادَهُ أنْ تأخُذَهم بالزُّناةِ رأفةٌ في دينِهِ، بحيثُ تمنعُهُم مِنْ إقامةِ الحدِّ عليهم؛ فإنَّه سبحانه مِنْ رأفتِهِ ورحمتِهِ بهم شَرَعَ لهم هٰذه العقوبةَ فهو أرحمُ منكم بهم، ولم تمنعهُ رحمتُهُ مِنْ أمرِهِ بهٰذه العقوبةِ، فلا يمنعكم أنتم ما يقومُ بقلوبِكُم مِنَ الرأفةِ مِنْ إقامةِ أمرِهِ.

وهٰذا ـ وإنْ كانَ عامّاً في سائرِ الحدودِ ـ ولكنْ ذُكر في حدِّ الزنى خاصّةً لشدَّة الحاجة إلى ذكره، فإنّ النّاسَ لا يَجِدُونَ في قلوبِهِم مِنَ الغِلْظَةِ والقَسْوَةِ على الـزَّاني ما يجدونَهُ على السارقِ والقاذفِ وشاربِ الخمرِ؛ فقلوبُهم ترحمُ الزَّاني أكثرَ ممَّا ترحمُ غيرَهُ مِنْ أربابِ الجرائمِ، والواقعُ شاهدٌ بذٰلك، فنَهُوا أن تأخذَهم هٰذه الرأفةُ وتحملَهُم على تعطيلِ حدِّ اللهِ.

وسببُ هٰذه الرَّحمةِ: أنَّ هٰذا ذنبٌ يقعُ من الأشرافِ والأوساطِ والأرذالِ، وفي النُّفـوسِ أقوى الدواعي إليه، والمُشارِكُ فيه كثيرٌ، وأكثرُ أسبابِهِ العشقُ، والقلوبُ مجبـولَـةٌ على رحمـةِ العاشقِ، وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يعدُّ مُساعَدَتَهُ طاعةً وقُربةً، وإن كانت الصورةُ المعشوقةُ محرَّمةً عليه، ولا تستنكرْ هٰذا الأمرَ؛ فإنَّه مُستقرٌّ عندَ مَنْ شاءَ اللهُ مِنْ أشباهِ الأنعامِ، ولقد حُكِيَ لنا مِنْ ذٰلك شيءٌ كثيرٌ، أكثرهُ عن ناقصي العقولِ والأديانِ؛ كالخُدَّامِ والنِّساءِ.

وأيضاً فإنَّ هٰذا ذنبٌ غالباً ما يقعُ مَعَ التَّراضي من الجانبين، فلا يقعُ فيه مِنَ العُدوانِ والظُّلمِ والاغتصابِ ما تنفرُ النفوسُ منه، وفيه شهوةٌ غالبةٌ له فَيُصَوِّرُ ذٰلك لنفسِهِ فتقومُ بها رحمةٌ تمنعُ إقامةَ الحدِّ!

وهٰذا كلُّه مِنْ ضعفِ الإيمانِ، وكمالُ الإيمانِ أن تقومَ به قُوَّةٌ يُقيمُ بها أمرَ اللهِ؛ ورحمةٌ يَرْحَمُ بها المحدودَ، فيكونُ موافِقاً لربِّه تعالى في أمرِه ورحمتِه.

الثالث: أنَّه سبحانه أمرَ أنْ يكونَ حدُّهما بمشهدٍ مِنَ المؤمنينَ، فلا يكونُ في خَلْوةٍ بحيثُ لا يراهما أحدٌ، وذٰلك أبلغُ في مصلحةِ الحدِّ وحكمةِ الزجر.

وحدُّ الزَّاني المُحْصَنِ مُشتقٌّ مِنْ عقوبةِ اللهِ تعالى لقومِ لوطٍ بالقذفِ بالحجارةِ، وذٰلك لاشتراكِ الزنى واللُّواطِ في الفحشِ، وفي كُلٍّ منهما فسادٌ يُناقِضُ حكمةَ اللهِ في خلقِهِ وأمرِه، فإنَّ في اللواطِ مِنَ المفاسِدِ ما يفوتُ الحصرَ والتعدادَ، ولأنْ يُقْتَلَ المفعولُ به خيرٌ له مِنْ أنْ يُؤتَى، فإنَّهُ يُفْسِدُ فساداً لا يُرجىٰ له بعدَهُ صلاحٌ أبداً، ويذهبُ خيرُهُ كلُّهُ، وتمصُّ الأرضُ ماءَ الحياءِ مِنْ وجهِهِ، فلا يستحيي بعدَ ذٰلك مِنَ اللهِ ولا مِنْ خلقِهِ، وتعملُ في قلبِهِ وروحِهِ نُطفةُ الفاعلِ ما يعملُ السمُّ في البدنِ.

وقد اختلفَ الناسُ: هل يدخلُ الجنةَ مفعولٌ به؟

على قولين، سمعتُ شيخَ الإسلامِ يَحْكيهما.

والذين قالوا: لا يدخلُ الجنَّةَ احتجُّوا بأمورٍ:

منها: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الجنَّةَ ولدُ الزنى»[1]، فإذا كانَ هٰذا

---

(١) رواه الدارمي (٢ / ١١٢)، وأحمد (٢ / ٢٠٣)، والنَّسائي (٨ / ٣١٨)، وابن حبان (٣٣٨٣) عن ابن عَمْرٍو.

وفي إسناده جابان، وهو مجهولٌ.

ولٰكنْ له شاهدان يُقَوِّيانه:

الأول: رواه أحمد (٣ / ٢٨ و٤٤)، وأبو يعلى (١١٦٨) عن أبي سعيد الخدري.

وفيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيفٌ.

الثاني: رواه الطحاوي في «المشكل» (١ / ٣٩٥) عن مولى لأبي قتادةَ مرفوعاً. =

حالَ ولدِ الزنى مع أنّه لا ذنبَ له في ذلك[1]، ولكنه مظنةُ كلِّ شرٍّ وخُبثٍ، وهو جديرٌ أنْ لا يجيءَ منه خيرٌ أبداً، لأنّهُ مخلوقٌ مِنْ نُطفةٍ خبيثةٍ، وإذا كانَ الجسدُ الذي تربّى على الحرامِ؛ النارُ أولى به، فكيفَ بالجسدِ المخلوقِ مِنَ النطفةِ الحرامِ؟!

قالوا: والمفعولُ به شرٌّ مِنْ ولدِ الزّنى، وأخزىٰ وأخبثُ وأوقحُ، وهو جديرٌ أنْ لا يُوَفَّقَ لخيرٍ، وأنْ يُحال بينه وبينه، وكلَّما عملَ خيراً قيَّضَ اللهُ له ما يُفسدُهُ عقوبةً له، وقلَّ أنْ ترى مَنْ كانَ كذلك في صغرِهِ إلاّ وهو في كِبَرِهِ شرٌّ مما كانَ، ولا يُوفَّقُ لعلمٍ نافعٍ، ولا عملٍ صالحٍ، ولا توبةٍ نصوحٍ.

والتحقيقُ في هذهِ المسألةِ أنْ يقالَ: إنْ تابَ المبتلىٰ بهذا البلاءِ وأنابَ، ورُزِقَ توبـةً نَصُوحاً وعملاً صالحاً، وكانَ في كِبَرِهِ خيراً منه في صغرِهِ، وبدَّلَ سيئاتِهِ حسناتٍ، وغسلَ عارَ ذلك بأنواعِ الطاعاتِ والقُرُبَاتِ، وغضَّ بصرَه وحفظَ فرجَهُ عنِ المُحَرّماتِ، وصدقَ اللهَ في معاملتِهِ؛ فهذا معفورٌ له، وهو مِنْ أهلِ الجنةِ، فإنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً، وإذا كانتِ التوبةُ تمحو كلَّ ذنبٍ، حتى الشرك باللهِ وقتلَ أنبيائِهِ وأوليائِهِ والسحرَ والكُفرَ وغيرَ ذلك؛ فلا تَقْصُرُ عن مَحْوِ هذا الذنبِ.

وقد استقرَّتْ حكمةُ اللهِ تعالى به عدلاً وفضلاً أنَّ «التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذنبَ لهُ»[2]، وقد ضَمِنَ اللهُ سبحانهُ لِمَنْ تابَ مِنَ الشركِ وقتلِ النفسِ والزنى

= ولم يظهر لي؛ أهذا المولى صحابيٌّ أم تابعيٌّ؟! ولم نقف له على توثيق، فإن كان صحابيّاً؛ فعدم توثيقه لا يضرُّ، فيكفيه كونُه صحابيّاً، وإن كان تابعيّاً؛ فهو مجهول.

وعلى كُلٍّ؛ فهو ـ مع ما قبله ـ يُقَوِّيانِ الحديثَ ويُثَبِّتانِه.

(١) وللإمام أبي جعفر الطحاوي جوابٌ آخَرُ في «مشكل الآثار» (١ / ٣٩٥).

وانظُرْ: «المَنار المَنيف» (ص ١٣٣) للإمام المُصَنِّف رحمه الله.

(٢) وهـذا حديثٌ حسنٌ بشـواهـدِهِ، خرَّجتـهُ في تعليقي على «تمييز المحـظوظين عن المحرومين» (ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨) للمعصوميّ.

أنَّه يُبدِّلُ سيئاتِهِ حسناتٍ، وهٰذا حُكمٌ عامٌّ لكلِّ تائبٍ من كلِّ ذنبٍ.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ فلا يَخْرُجُ مِنْ هٰذا العمومِ ذنبٌ واحدٌ، ولٰكنْ هٰذا في حقِّ التائبينَ خاصَّةً.

وأمَّا المفعولُ به إنْ كانَ فِي كِبَرِهِ شرّاً ممَّا كانَ في صغرِهِ، لم يُوفَّقْ لتوبةٍ نَصُوحٍ ولا لعملٍ صالحٍ، ولا استدراكِ ما فاتَ وإحياءِ ما أماتَ، ولا بدَّلَ السيئاتِ بالحسناتِ؛ فهٰذا بعيدٌ أنْ يُوَفَّقَ عندَ المماتِ لخاتمةٍ يدخلُ بها الجنةَ، عقوبةً له على عملِهِ، فإنّ اللهَ سبحانهُ يُعاقِبُ على السيئةِ بسيئةٍ أخرى، وتتضاعفُ عقوبةُ السيئاتِ بعضُها ببعضٍ، كما يُثيبُ على الحسنةِ بحسنةٍ أخرى.

وإذا نظَرْتَ إلى حالِ كثيرٍ مِنَ المحتضَرينَ وجَدْتَهُم يُحالُ بينهم وبين حسنِ الخاتمةِ، عقوبةً لهم على أعمالِهِم السَّيئةِ.

قال الحافظُ أبو محمدٍ عبدُ الحقِّ بنُ عبدِ الرحمٰنِ الإشبيلي[1] رحمه الله:

«واعلمْ أنَّ لسوءِ الخاتمةِ ـ أعاذنا اللهُ منها ـ أسباباً، ولها طرقٌ وأبوابٌ، أعظمُها الانكبابُ على الدنيا، والإعراضُ عن الآخرةِ، والإقدامُ والجُرأةُ على معاصِي اللهِ عزَّ وجلَّ، وربَّما غلبَ على الإنسانِ ضَرْبٌ مِنَ الخطيئةِ، ونوعٌ مِنَ المعصيةِ، وجانبٌ مِنَ الإعراضِ، ونصيبٌ من الجرأةِ والإقدامِ فملك قلبَه، وسبا عقلَه، وأطفأ نُورَهُ، وأرسل عليه حُجُبَهُ، فلم تنفعْ فيه تذكرةٌ، ولا نجعَتْ فيه موعظةٌ، فربَّما جاءه الموتُ على ذٰلك، فسمعَ النداءَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ، فلم يتبيَّنِ المرادَ، ولا عَلِمَ ما أرادَ، وإنْ كررَّ عليه الدَّاعِي وأعادَ.

---

(١) لم أره في كتابه «العاقبة في أحوال الآخرة»، وهو مظنَّةُ وجودِ كلامِهِ.

قال: ويُروى أنَّ بعضَ رجالِ النَّاصِرِ[1] نزلَ به الموتُ، فجعلَ ابنهُ يقول: قل: لا إله إلَّا اللهُ، فقال: الناصرُ مولاي، فأعاد عليه القولَ، فأعادَ مثلَ ذلك، ثم أصابتهُ غشيةٌ، فلما أفاقَ قال: الناصرُ مولاي! وكانَ هذا دأبَهُ، كُلَّما قيلَ له: قل: لا إله إلَّا اللهُ، قال: الناصرُ مولاي، ثم قال لابنه: يا فلانُ! الناصرُ إنما يعرِفُكَ بسيفِكَ، والقتلَ القتلَ، ثم ماتَ.

قال عبدُ الحقِّ: وقيل لآخرَ - ممَّنْ أعرفُهُ - قل: لا إله إلَّا اللهُ، فجعلَ يقولُ: الدارُ الفلانيةُ أصلِحُوا فيها كذا، والبستانُ الفلانيّ افعلُوا فيه كذا.

قال: وفيما أذنَ لي أبو طاهرٍ السِّلَفيّ[2] أنْ أُحدِّثَ به عنه أنَّ رجلاً نزلَ به الموتُ، فقيل له: قل: لا إله إلَّا اللهُ، فجعلَ يقولُ بالفارسيةِ: ده يازده.

وتفسيرهُ: عشرةٌ بأحدَ عشرَ.

وقيل لآخرَ: قل: لا إله إلَّا اللهُ.

فجعلَ يقولُ: أينَ الطَّريقُ إلى حَمَّامِ مِنْجَابٍ؟

قال: وهذا الكلامُ له قِصَّةٌ، وذلك أنَّ رجلاً كان واقِفاً بإزاءِ دارِه، وكان بابُها يُشبهُ بابَ هذا الحمَّامِ، فمرَّتْ به جاريةٌ لها منظرٌ، فقالَتْ: أينَ الطريقُ إلى حمَّامِ منجابٍ؟ فقال: هذا حمَّامُ منجابٍ، فدخلَتِ الدارَ ودخَلَ وراءَها، فلما رأتْ نفسَها في دارِه وعلمَتْ أنَّه قد خدعَها أظهرَت له البِشْرَ والفرحَ باجتماعِها معه، وقالتْ له: يصلحُ أنْ يكونَ معنا ما يَطِيبُ به عيشُنا، وتقرُّ به عيونُنا، فقالَ لها: الساعَةَ آتيكِ بكلِّ ما تُريدينَ وتشتهينَ، وخرجَ وتركَهَا في الدارِ، ولم يُغلِقها، فأخذَ ما يصلحُ ورجعَ، فوَجَدَها قد خرجَتْ وذهبتْ، ولم

(١) هو من خُلفاءِ المسلمين الماضين، وقد تلقَّب بهذا اللفظ جماعةٌ منهم.

(٢) هو أحد جهابذة حُفَّاظ الحديث، توفي سنة (٥٧٦هـ)، ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١ / ٥).

تَخُنْهُ في شيءٍ، فهَامَ الرجلُ وأكثَرَ الذِّكرَ لها، وجعلَ يمشي في الطرقِ والأزقَّةِ ويقولُ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْماً وَقَدْ تَعِبَتْ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

فبينما هو يوماً يقولُ ذٰلك، وإذا بجاريةٍ أجابتهُ من طاقٍ، تقول: قَرْنانُ[1]!

هَلَّا جَعَلْتَ سَرِيعاً إِذْ ظَفِرْتَ بِهَا ... حِرْزاً عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلاً عَلَى البَابِ

فازدادَ هَيَمانُهُ واشتدَّ هَيَجانُهُ، ولم يزلْ على ذٰلك، حتى كانَ هٰذا البيتُ آخِرَ كلامِهِ مِنَ الدنيا[2]!!

ولقد بكى سفيانُ الثوريُّ ليلةً إلى الصباحِ، فلمَّا أصبحَ قيل له: كلُّ هٰذا خوفاً مِنَ الذنوبِ؟ فأخذَ تِبْنَةً مِنَ الأرضِ، وقال: الذنوبُ أهونُ مِنْ هٰذا، وإنما أبكي مِنْ خوفِ سوءِ الخاتمةِ.

وهٰذا مِنْ أعظمِ الفقهِ: أنْ يَخافَ الرجلُ أنْ تخذلَهُ ذنوبُهُ عندَ الموتِ، فتحولَ بينه وبينَ الخاتمةِ الحسنىٰ.

وقد ذكرَ الإمامُ أحمدُ[3] عن أبي الدرداءَ أنَّه لما احتضرَ جعلَ يُغمىٰ عليه ثم يفيقُ، ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمنْ هٰذا خافَ السلفُ مِنَ الذنوبِ، أن تكونَ حِجاباً بينهم وبين الخاتمةِ الحسنى.

قال: واعلمْ أنَّ سوءَ الخاتمةِ ـ أعاذنا اللهُ تعالى منها ـ لا تكونُ لِمَن استقامَ ظاهرهُ وصلُحَ باطنُهُ، ما سُمعَ بهٰذا ولا عُلِمَ به ولله الحمدُ، وإنما تكونُ لمنْ له فسادٌ في العقيدةِ أو إصرارٌ على الكبائرِ، وإقدامٌ على العظائمِ، فربَّما غلبَ ذٰلك

---

(١) هو الدَّيُّوث.

(٢) انظر «معجم البلدان» (٢ / ٢٩٨).

(٣) في «الزهد» (١ / ٦٥).

عليه حتى نـزلَ به الموتُ قبلَ التوبةِ، فيأخذَه قبلَ إصلاحِ الطويَّةِ، ويَصْطَلِمَ قبلَ الإنابةِ، فيظفرَ به الشيطانُ عندَ تلك الصدمةِ ويختطِفَهُ عندَ تلك الدهشةِ، والعياذُ باللهِ.

قال: ويُروى أنَّه كانَ بمصرَ رجلٌ يلزمُ مسجداً للأذانِ والإقامة والصلاةِ، وعليه بهـاءُ الطاعةِ وأنوارُ العبادةِ؛ فرقىٰ يوماً المنارةَ على عادتِهِ للأذانِ، وكانَ تحتَ المنارةِ دارٌ لنصرانيٍّ؛ فاطَّلعَ فيها؛ فرأى ابنةَ صاحبِ الدارِ فافْتُتِنَ بهَا، فتركَ الأذانَ، ونزلَ إليها، ودخلَ الدارَ عليها، فقالَتْ له: ما شأنُكَ وما تُريدُ؟ قال: أُريدُكِ؛ فقـالت: لمـاذا؟ قال: قد سَبَيْتِ لُبِّي وأخذْتِ بمجامعِ قلبي، قالت: لا أجيبُكَ إلى رِيبَةٍ أبداً، قال: أتزَوَّجُكِ، قالت: أنت مسلمٌ وأنا نصرانيَّةٌ وأبي لا يُزوِّجُني منـك، قال: أتنصَّـرُ! قالت: إن فعلتَ أفعلْ، فتنصَّرَ الرجلُ ليتزَوَّجَها، وأقامَ معهم في الدَّارِ، فلمَّا كان في أثناءِ ذلك اليوم رقى إلى سطحٍ كان في الدارِ فسقطَ منه، فماتَ، فلم يظفرْ بها، وفاته دِينُه!!

قال: ويُروى أنَّ رجلاً عَشِقَ شخصاً فاشتدَّ كَلَفُهُ به، وتمكَّنَ حبُّه مِنْ قلبهِ، حتى وقعَ ألماً به ولزمَ الفراشَ بسببهِ، وتمنَّعَ ذلك الشخصُ عليهِ، واشتدَّ نفارُهُ عنـه، فلم تزلِ الـوسـائطُ يمشونَ بينهما حتى وعدَه بأنْ يعودَهُ، فأخبر بذلـك البائسُ، ففرِحَ واشتدَّ فرحُهُ وانجلى غمُّهُ، وجعلَ ينتظرُهُ للميعادِ الذي ضُرِبَ له، فبينما هو كذلك إذ جاءهُ السَّاعِي بينهما، فقال له: إنَّه وصلَ معي إلى بعضِ الـطَّريقِ ورجَـعَ، ورغبتُ إليه وكلَّمتُهُ، فقالَ: إنَّه ذكَرَني وفَرِحَ بي، ولا أدخلُ مداخِلَ الرِّيَبِ، ولا أُعرِّضُ نفسي لمواقعِ التُّهمِ، فعاوَدْتُهُ فأبىٰ وانصرفَ، فلمَّا سمـعَ البائسُ أُسْقِطَ في يدِهِ، وعادَ إلى أشدَّ ممَّا كانَ به، وبدتْ عليه علائمُ الموتِ، فجعلَ يقولُ في تلك الحالِ:

يَا سَلْمُ يَا رَاحَـةَ الـعَـلِيلِ ... وَيَا شِفَـاءَ الـمُـدْنَفِ الـنَّحِـيلِ
رِضَـاكَ أَشْـهَـى إِلَـى فُؤَادِي ... مِنْ رَحْـمَـةِ الـخَـالِـقِ الـجَلِيلِ

فقلتُ له: يا فلانُ! اتَّقِ اللهَ، قال: قد كانَ، فقمتُ عنه، فما جاوزتُ بابَ دارِهِ حتى سمعتُ صيحَةَ الموتِ.

فعياذاً باللهِ مِنْ سوءِ العاقبةِ، وشُؤْمِ الخاتمةِ.

٨٥ ـ فَصْلٌ [مفسدة اللّواط من أعظم المفاسد]:

ولمَّا كانتْ مفسدةُ اللواطِ مِنْ أعظمِ المفاسِدِ كانت عقوبَتُهُ في الدنيا والآخرةِ مِنْ أعظمِ العقوباتِ.

وقد اختلفَ الناسُ: هل هو أغلظُ عقوبةً مِنَ الزِّنى، أو الزِنى أغلظُ عقوبةً منه، أو عقوبتُهما سواءٌ؟

على ثلاثةِ أقوالٍ:

فذهَبَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ وخالدُ بنُ الوليدِ وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ وعبدُ اللهِ بنُ عباسٍ وجابرُ بنُ زيدٍ وعبدُ اللهِ بنُ معمرٍ، والزهريُّ وربيعةُ بنُ أبي عبدِ الرحمٰنِ، ومالكُ وإسحاقُ بنُ راهويهِ، والإمامُ أحمدُ ـ في أصحِّ الروايتينِ عنه ـ والشافعيُّ في أحدِ قوليهِ ـ إلى أنَّ عقوبَتَهُ أغلظُ مِنْ عقوبَةِ الزِّنى، وعقوبَتُهُ القتلُ على كلِّ حالٍ، مُحْصَناً كانَ أو غيرَ محصنٍ.

وذهبَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ، والحسنُ البصريُّ، وسعيدُ بنُ المسيبِ، وإبراهيمُ النخعيُّ، وقتادةُ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ ـ في ظاهرِ مذهبِهِ ـ والإمامُ أحمدُ ـ في الروايةِ الثانيةِ عنه ـ وأبو يوسفَ ومحمدٌ؛ إلى أنَّ عقوبتَهُ وعقوبةَ الزِّنى سواءٌ.

وذهبَ الحَكَمُ وأبو حنيفةَ إلى أنَّ عقوبَتَهُ دونَ عقوبةِ الزَّاني، وهي التعزيرُ.

قالوا: لأنهُ معصيةٌ مِنَ المعاصِي لم يُقدِّرِ اللهُ ولا رسولُهُ فيه حدّاً مُقدراً؛ فكانَ فيه التعزيرُ، كأكلِ الميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ.

قالوا: ولأنَّهُ وَطْءٌ في مَحَلٍّ لا تشتهيهِ الطِّباعُ، بل رَكَّبَهَا اللهُ تعالى على النُّفرةِ منه حتى الحيوانُ البهيمُ؛ فلم يكنْ فيه حدٌّ كَوَطْءِ الحمارِ وغيرِهِ.

قالـوا: ولأنَّـه لا يُسمَّى زانياً لُغـةً ولا شرعـاً ولا عُرفـاً، فلا يدخـلُ في النُّصوصِ الدالَّةِ على حدِّ الزَّانيين.

قالوا: وقد رأينا في قواعدِ الشريعةِ أنَّ المعصيةَ إذا كانَ الوازعُ منها طبعياً اكْتُفِيَ بذٰلك الوازعِ مِنَ الحدِّ، وإذا كانَ في الطِّباعِ تقاضيها جُعِلَ فيها الحَدُّ بحسبِ اقتضاءِ الطِّباعِ لها، ولهٰذا جُعِلَ الحدُّ في الزِّنى والسرقةِ وشربِ المُسكرِ دونَ أكلِ الميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ.

قالوا: وطردُ هٰذا: أنَّه لا حدَّ في وَطْءِ البهيمةِ[1] ولا الميتةِ، وقد جَبَلَ اللهُ سبحانهُ الطِّباعَ على النُّفرةِ مِنْ وَطْءِ الرَّجُلِ رجلاً مثلَهُ أشدَّ نُفرةٍ، كما جَبَلَها على النُّفرةِ مِن استدعاءِ الرجلِ مَنْ يطؤهُ، بخلافِ الزِّنى، فإنَّ الدَّاعي فيه مِنَ الجانبينِ.

قالوا: ولأنَّ أحدَ النوعينِ إذا استمتَعَ بشكلِهِ لم يجبْ عليه الحدُّ، كما لو تساحَقَتِ المرأتانِ، واستمتَعَتْ كلُّ واحدةٍ منهما بالأخرى.

قال أصحابُ القولِ الأولِ ـ وهو جمهورُ الأمةِ ـ وحكاهُ غيرُ واحدٍ إجماعاً للصحابةِ: ليس في المعاصي أعظمُ مفسدةً مِنْ هٰذه المفسدةِ، وهي تلي مفسدَةَ الكفرِ، وربما كانت أعظمَ مِنْ مفسدةِ القتلِ، كما سَنُبَيِّنُهُ إنْ شاءَ اللهُ.

قالـوا: ولم يَبْتَـلِ اللهُ سبحـانـهُ بهٰـذه الكبيرةِ قبلَ قومِ لُوطٍ أحداً مِنَ العالمينَ، وعاقَبَهُم عقوبةً لم يُعاقِبْ بها أُمَّةً غيرَهم، وجمعَ عليهم من أنواعِ العقـوبـاتِ بينَ الإهـلاكِ، وقَلْبِ ديارِهم عليهم، والخَسْفِ بهم، ورَجْمِهم بالحجـارَةِ مِنَ السمـاءِ، فنكَّلَ بهم نَكالاً لم يُنَكِّلْهُ أمَّةً سواهم، وذٰلك لعِظَمِ

---

(١) وفي ذٰلك بيانٌ آتٍ.

مفسدةِ هٰذه الجريمةِ التي تكادُ الأرضُ تميدُ مِنْ جوانِبها إذا عُمِلَتْ عليها، وتهربُ الملائكةُ من أقطار السماواتِ والأرضِ إذا شاهدُوها، خشيةَ نزولِ العذابِ على أهلِها، فَيُصيبَهُم معهم، وتَعُجُّ الأرضُ إلى رَبِّها تبارك وتعالى، وتكادُ الجبالُ تزولُ عن أماكِنِها.

وقَتْلُ المفعولِ به خيرٌ له مِنْ وَطْئِهِ، فإنَّهُ إذا وَطِئَهُ قَتَلَهُ قتلاً لا تُرجى الحياةُ معه، بخلافِ قتلِهِ، فإنه مظلومٌ شهيدٌ وربما ينتفعُ به في آخرتِهِ.

قالوا: والدليلُ على هٰذا: أنَّ اللهَ سبحانه جعلَ حدَّ القاتلِ إلى خِيَرَةِ الوليِّ، إنْ شاءَ قتلَ وإنْ شاءَ عفا، وحَتَّمَ قَتْلَ اللُّوطيِّ حدّاً، كما أجمَعَ عليه أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ ودلَّتْ عليه سنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ الصحيحةُ الصريحةُ التي لا مُعارِضَ لها، بل عليها عَمَلُ أصحابِهِ وخلفائِهِ الراشدينَ.

وقد ثبتَ عن خالدِ بنِ الوليدِ أنَّه وجدَ في بعضِ ضواحِي العربِ رجلاً، يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَح المرأةُ، فكتبَ إلى أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي اللهُ عنه، فاستشارَ أبو بكرٍ الصحابةَ رضي الله عنهم، فكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ أشدَّهم قولاً فيه، فقال: ما فعلَ هٰذا إلَّا أمَّةٌ مِنَ الأممِ واحدةٌ، وقد علمتُم ما فعلَ اللهُ بها، أرى أنْ يُحْرَقَ بالنارِ، فكتبَ أبو بكرٍ إلى خالدٍ فَحَرَقَهُ[1].

وقال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ: «يُنْظَرُ أعلى بناءٍ في القريةِ، فيُرمى اللوطيُّ منها مُنكَّساً، ثم يتبعُ بالحجارةِ»[2].

وأخذَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ هٰذا الحدَّ مِنْ عقوبةِ اللهِ لِلُّوطيةِ (قومِ لوطٍ)، وابنُ عباسٍ هو الذي رَوى عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يعمَلُ عَمَلَ قومِ

---

(١) رواه الآجُرِّي في «تحريم اللواط» (رقم ٢٩)، والبيهقي في «السنن» (٨ / ٢٣٢)، وابن حزم في «المحلّى» (١١ / ٣٨٠).

(٢) رواه الدُّوري في «ذم اللواط» (رقم ٤٨)، والآجُرِّي في «تحريم اللواط» (٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٩ / ٥٢٩)، والبيهقي (٨ / ٢٣٢).

لُوطٍ؛ فاقْتُلُوا الفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ». رواهُ أهلُ «السنن»[1]، وصحَّحهُ ابنُ حِبَّانَ وغيره، واحتجَّ الإمامُ أحمدُ بهٰذا الحديثِ، وإسنادهُ على شرط البخاريِّ.

قالوا: وثبتَ عنه ﷺ أنه قالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[2].

ولم يجيء عنه لعنةُ الزاني ثلاثَ مرَّاتٍ في حديثٍ واحدٍ، وقد لعنَ جماعةً مِنْ أهلِ الكبائرِ، فلم يتجاوزْ بهم في اللعنِ مرَّةً واحدةً، وكرَّر لعنَ اللوطيَّةِ، وأكَّدهُ ثلاثَ مرَّاتٍ.

وأطبقَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ على قتلهِ، لم يختلفْ فيه منهم رجلانِ، وإنَّما اختلَفَتْ أقوالُهُم في صفةِ قتلهِ، فَظَنَّ بعضُ الناسِ أنَّ ذٰلك اختلافٌ منهم في قتلهِ، فحكاها مسألةَ نزاعٍ بينَ الصحابةِ، وهي بينهم مسألةُ إجماعٍ، لا مسألةُ نزاعٍ.

قالوا: ومَنْ تأمَّلَ قولَهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومقتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢]، وقولَهُ في اللّواطِ: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]؛ تبيَّنَ له تفاوُتُ ما بينهما، وأنَّهُ سبحانهُ نكَّرَ الفاحشةَ في الزِّنى ـ أي: هو فاحشةٌ مِنَ الفواحِشِ ـ وعرَّفها في اللواطِ، وذٰلك يفيدُ أنَّه جامعٌ لمعانِي اسمِ الفاحشةِ، كما تقولُ: زيدٌ الرجلُ، ونِعْمَ الرجلُ زيدٌ، أي: أتأتونَ الخَصْلَةَ التي استقرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ، فهي لظهورِ فُحشها وكمالهِ غنيَّةٌ عن ذكرها، بحيثُ لا ينصرفُ الاسمُ إلى غيرها، وهٰذا نظيرُ قولِ فرعونَ لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:

(١) رواه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد (١ / ٣٠٠)، والحاكم (٤ / ٣٥٥)، والبيهقي (٨ / ٢٣٢)، والآجُرِّي في «تحريم اللواط» (٢٦) و(٢٧).
وصحَّحه المؤلِّف ـ أيضاً ـ في «زاد المعاد» (٥ / ٤٠).

(٢) رواه أحمد (١ / ٣٠٩)، وأبو يعلى (٢٥٣٩)، وابن حبان (٤٤١٧)، والحاكم (٤ / ٣٥٦)، والطبراني (١١٥٤٦)، والبيهقي (٨ / ٢٣١) عن ابن عباس بسند صحيح.

١٩]؛ أي: الفعلةَ الشنعاءَ الظاهرةَ المعلومَةَ لكلِّ أحدٍ.

ثم أكَّدَ سبحانه شأنَ فُحشِهَا بأنَّها لم يعمَلْها أحدٌ مِنَ العالَمِينَ قَبْلَهُم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، ثم زادَ في التأكيدِ بأنْ صرَّحَ بما تشمئزُّ منه القلوبُ وتنبو عنه الأسماعُ، وتنفرُ منه الطِّباعُ أشدَّ نفرةٍ، وهو إتيانُ الرجلِ رَجُلاً مثله ينكحُهُ كما ينكحُ الأنثىٰ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]، ثم نَبَّهَ على استغنائِهِمْ عن ذٰلك، وأنَّ الحامِلَ لهم عليه ليس إلاَّ مجرَّدُ الشهوةِ لا الحاجةُ التي لأجلها مالَ الذَّكَرُ إلى الأنثىٰ، مِنْ قضاءِ الوَطَرِ ولذَّةِ الاستمتاعِ، وحُصولِ المودَّةِ والرحمةِ التي تنسىٰ المرأةُ لها أبويها وتذكرُ بعلَهَا، وحُصُولِ النَّسْلِ الذي هو حفظُ هٰذا النوعِ الذي هو أشرفُ المخلوقاتِ، وتحصينِ المرأةِ وقضاءِ وَطَرِهَا، وحُصولِ علاقةِ المُصاهرةِ التي هي أختُ النسبِ، وقيامِ النساءِ على الرجالِ، وخُروجِ أحبِّ الخلقِ إلى اللهِ مِنْ جماعِهِنَّ كالأنبياءِ والأولياءِ والمؤمنينَ، ومُكاثرةِ النبيِّ ﷺ الأنبياءَ بأمَّتِه[1]، إلى غيرِ ذٰلك مِنْ مصالحِ النكاحِ، والمفسدةُ التي في اللّواطِ تُقاوِمُ ذٰلك كلَّهُ، وتُرَبِّي عليه بما لا يمكنُ حصرُ فسادِهِ، ولا يعلمُ تفصيلَهُ إلاَّ اللهُ.

ثمَّ أكَّدَ قُبْحَ ذٰلكَ بأنَّ اللوطيَّةَ عكسُوا فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ عليها الرِّجالَ، وقَلبُوا الطَّبيعةَ التي ركَّبَها اللهُ في الذُّكورِ ـ وهي شهوةُ النِّساء دونَ شهوةِ الذكورِ ـ فقلبوا الأمرَ وعكسوا الفطرةَ والطبيعةَ، فأَتَوُا الرجالَ شهوةً من دون النساء؛ ولهٰذا قلبَ اللهُ عليهم ديارَهم فجعلَ عاليَها سافلَها، وكذٰلك قلوبَهم، ونُكسوا في العذاب على رؤوسهم.

ثم أكَّدَ سبحانهُ قُبحَ ذٰلك بأنْ حكمَ عليهم بالإسرافِ ـ وهو مجاوزةُ الحدِّ ـ

(١) كما رواه أحمد (٣ / ١٥٨ و٢٤٥)، وسعيد بن منصور (٤٩٠)، وابن حبان (٤٠٢٨)، والبيهقي (٧ / ٨١ ـ ٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٣٥ ـ مجمع البحرين) عن أنس.
وفيه ضعفٌ. وله شواهد تُصَحِّحهُ أشار إليها شيخُنا في «آداب الزِّفَافِ» (ص ١٣٣).

فقال: ﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]؛ فتأمَّلْ هل جاءَ مثلُ ذلك أو قريبٌ منه في الزِّنى؟

وأكَّدَ سبحانهُ ذلك عليهم بقولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

ثم أكَّدَ سبحانه عليهم الذمَّ بِوَصْفَيْنِ في غايةِ القُبْحِ فقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وسمَّاهُم مُفسدِينَ في قولِ نبيِّهم: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى القومِ المُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وسمَّاهُم ظالِمينَ في قولِ الملائكةِ لإبراهيمَ:

﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هٰذهِ القَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ فتأمَّلْ مَنْ عُوقِبَ بمثلِ هٰذه العُقوباتِ، ومَنْ ذَمَّهُ اللهُ بمثلِ هٰذه المُذمَّاتِ، ولمَّا جادلَ فيهم خليلهُ إبراهيمُ الملائكةَ وقد أخبروهُ بإهلاكِهم قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وتأمَّلْ خُبْثَ اللُّوطيةِ وفَرْطَ تمرُّدِهم على اللهِ حيثُ جاؤوا نبيَّهُم لوطاً لمَّا سمِعُوا بأنه قد طرقَهُ أضيافٌ، هم مِنْ أحسنِ البشرِ صوراً، فأقبلَ اللوطيةُ إليه يُهرولونَ، فلمَّا رآهُم قالَ لهم: ﴿يَا قَوْمِ هٰؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم﴾ [هود: ٧٨]، ففدى أضيافَهُ ببناتِهِ يُزَوِّجُهُم بهنَّ؛ خوفاً على نفسهِ وأضيافِهِ مِنَ العارِ الشديدِ، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هٰؤلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم فاتَّقُوا اللهَ ولاَ تُخْزونِ في ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُم رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، ؛ فردُّوا عليه، ولكنْ ردَّ جبارٍ عنيدٍ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فنفثَ نبيُّ اللهِ نَفْثَةَ مَصْدُورٍ، خَرَجَتْ مِنْ قلبِ مَكْرُوبٍ عميد، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]؛ فنفَّسَ له رسلُ اللهِ، وكشفُوا له عن حقيقةِ الحالِ، وأعلموهُ أنهم ليسوا ممَّنْ يُوصَلُ إليهم، ولا إليه بسببٍ، فلا تَخَفْ

منهم ولا تَعْبَأ بهم، وَهَوِّنْ عليك، فقالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، وبشَّرُوهُ بما جاؤوا به مِنَ الوعدِ لهُ ولقومِهِ مِنَ الوعيدِ المُصيبِ، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فاستبطأ نبيُّ اللهِ موعدَ هلاكِهم وقال: أريدُ أعجلَ مِنْ هٰذا، فقالتِ الملائكةُ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]؟

فواللهِ ما كانَ بينَ إهلاكِ أعداءِ اللهِ ونجاةِ نبيهِ وأوليائِهِ إلَّا ما بينَ السَّحَرِ وطلوعِ الفجرِ، وإذا بديارِهم قد اقْتُلِعَتْ من أصولها، ورُفِعَتْ نحوَ السماءِ حتى سمعت الملائكةُ نباحَ الكلابِ ونهيقَ الحميرِ[1]، فنزل المرسومُ الذي لا يُرَدُّ من عند الربِّ الجليلِ، إلى عبدهِ ورسولِهِ جبرائيلَ، بأنْ يَقْلِبَها عليهم كما أخبرَ به مُحْكَمُ التنزيلِ، فقال عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]؛ فجعلهُم آيةً للعالمينَ، وموعظةً للمتقينَ، ونَكَالاً وسَلَفاً لِمَنْ شارَكَهُم في أعمالِهِم مِنَ المجرمينَ، وجعلَ ديارَهُم بطريقِ السَّالكينَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ ـ ٧٧]، أخذَهم على غِرَّةٍ وهم نائمونَ، وأجاءَهُم بأسُهُ وهم في سكرتِهِم يعمهُونَ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فَقُلِبَتْ تلك اللذاتُ آلاماً، فأصبحُوا بها يُعذَّبونَ.

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الحَيَاةِ لأَهْلِهَا عِذاباً فَصَارَتْ فِي المَمَاتِ عَذَاباً

ذهبتِ اللَّذَّاتُ، وأُعقبتِ الحسراتِ، وانقضتِ الشهواتُ، وأُورثَتِ الشقواتِ، تمتَّعُوا قليلاً، وعُذِّبُوا طويلاً، رتعُوا مرتعاً وخيماً؛ فأعقَبَهُم عذاباً أليماً، أسكرتهمْ خمرةُ تلك الشهوةِ؛ فما استفاقُوا منها إلَّا في ديارِ المعذَّبينَ،

---

(١) ورد هٰذا المعنى في مراسيل ومعاضيل مُتَعدِّدة، انظرها في «الدر المنثور» (٤ / ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

وأرقدتهُم تلك الغفلةُ فما استيقظوا منها إلا وهم في منازلِ الهالكينَ، فندمُوا والله أشدَّ الندامةِ حينَ لا ينفعُ الندمُ، وبكَوْا على ما أسلفُوا بدلَ الدموعِ بالدمِ، فلو رأيتَ الأعلى والأسفلَ مِنَ هٰذه الطائفةِ، والنارُ تخرجُ مِنْ منافذِ وجوههم وأبدانِهم وهم بينَ أطباقِ الجحيمِ، وهم يشربونَ بدلَ لذيذِ الشرابِ كؤوسَ الحميمِ، ويقالُ لهم ـ وهم على وجوهِم يُسحبونَ ـ: ذوقُوا ما كنتمْ تكسبونَ ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُم إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقد قرَّبَ اللهُ مسافةَ العذابِ بينَ هٰذه الأمَّةِ وبينَ إخوانِهم في العملِ، فقال مخوِّفاً لهم أنْ يقعَ الوعيدُ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وقال الشاعرُ:

فَيَا نَاكِحِي الذُّكْرَانِ تَهْنِيكُم البُشْرَى ... فَيَوْمَ مَعَادِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ أَجْرَا

كُلُوا واشْرَبُوا وازْنُوا وَلُوطُوا وأَبْشِرُوا ... فَإِنَّ لَكُمْ زفّاً إِلَى الجنَّةِ الحَمْرَا

فَإِخْوَانُكُم قَدْ مَهَّدُوا الدَّارَ قَبْلَكُم ... وَقَالُوا إِلَيْنَا عَجِّلُوا لَكُمُ البُشْرَى

وَهَا نَحْنُ أَسْلَافُ لَكُمْ فِي انْتِظَارِكُمْ ... سَيَجْمَعُنَا الجَبَّارُ فِي نَارِهِ الكُبْرَى

فَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ الَّذِينَ نَكَحْتُمُوا ... يَغِيبُونَ عَنْكُم بَلْ تَرَوْنَهُم جهرا

وَيَلْعَنُ كُلَّ مِنْكُمُ لِخَلِيلِهِ ... وَيَشْقَى بِهِ المَحْزُونُ فِي الكَرَّةِ الأُخْرَى

يُعَذَّبُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِشَرِيكِهِ ... كَمَا اشْتَرَكَا فِي لَذَّةٍ تُوْجِبُ الوِزْرَا

٨٦ ـ فَصْلٌ [الرَّد على من جعل عقوبة اللّواط دون عقوبة الزّنى]:

في الأجوبة عمَّا احتجَّ به من جعل عقوبةَ هٰذه الفاحشة دون عقوبةِ الزنى: أما قولُهم: إنَّها معصيةٌ لم يجعلِ اللهُ فيها حدّاً معيناً؛ فجوابُهُ من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ المُبَلِّغَ عَنِ اللهِ جعلَ حدَّ صاحبِها القتلَ حَتْماً، **وما شرعهُ رسولُ اللهِ ﷺ فإنّما شرعهُ عنِ اللهِ**، فإنْ أردتُم أنَّ حدَّها غيرُ معلومٍ بالشرعِ فهو

باطلٌ، وإنْ أردتُم أنَّه غيرُ ثابتٍ بنصِّ الكتابِ لم يلزمْ منْ ذٰلك انتفاءُ حكمهِ لثبوتهِ بالسنَّةِ[1].

الثاني: أنَّ هٰذا يُنْقَضُ عليكم بالرَّجمِ، فإنَّه إنما ثبتَ بالسنةِ.

فإنْ قلتُم: بل ثبتَ بقرآن نُسِخَ لفظهُ وبقي حكمهُ!

قلنا: فيُنقَضُ عليكم بحدِّ شاربِ الخمرِ.

الثالث: أنَّ نفيَ دليلٍ مُعينٍ لا يستلزمُ نفيَ مُطْلَقِ الدليلِ ولا نفيَ المدلولِ؛ فكيفَ وقد قدَّمنا أنَّ الدليلَ الذي نفيتمُوهُ غيرُ مُنْتَفٍ؟

وأما قولكُم: إنَّه وطءٌ في محلٍّ لا تشتهيهِ الطِّباعُ، بل ركَّبَ اللهُ الطِّباعَ على النفرةِ منه فهو كوطءِ الميتةِ والبهيمةِ؛ فجوابهُ مِنْ وجوهٍ:

أحدها: أنَّه قياسٌ فاسدُ الاعتبارِ، مردودٌ بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ وإجماعِ الصحابةِ، كما تقدمَ بيانُهُ.

الثاني: أنَّ قياسَ وَطْءِ الأمردِ الجميلِ الذي فتنتهُ تربو على كلِّ فتنةٍ، على وطءِ أتانٍ أو امرأةٍ ميتةٍ مِنْ أفسدِ القياسِ، وهل تغزَّل أحدٌ قطُّ بأتانٍ أو بقرةٍ أو ميتةٍ، أو سبىٰ ذٰلك عقلَ عاشقٍ، أو أسرَ قلبَهُ، أو استولى على فكرهِ ونفسهِ؟

وليس في القياسِ أفسدُ مِنْ هٰذا.

الثالث: أنَّ هٰذا مُنْتَقَضٌ بوطءِ الأمِّ والبنتِ والأختِ؛ فإنَّ النفرةَ الطبيعيةَ عنه حاصلةٌ مع أنَّ الحدَّ فيه مِنْ أغلظِ الحدودِ ـ في أحدِ القولينِ ـ وهو القتلُ بكلِّ

---

(١) هٰذا هو المنهجُ الحقُّ في تلقِّي الأحكام، لا منهج العُرْج العوج الذين لا يتَّقون، بل لا يعقلون، وهم يحسبون أنَّهم خيراً يصنعون!

حالٍ مُحْصَناً كانَ أو غيرَ محصنٍ، وهٰذا إحدى الرِّوايتينِ عن أحمدَ، وهو قولُ إسحاقَ بنِ راهويهِ وجماعةٍ مِنْ أهلِ الحديثِ.

وقد روى أبو داودَ والترمذيُّ[1] من حديثِ البراءِ بن عازبٍ قال: «لقيتُ عَمِّي ومعهُ الرَّايةُ؛ فَقُلْتُ: إلى أينَ تُريدُ؟ قالَ: بَعَثَنِي رسولُ اللهِ ﷺ إلى رَجُلٍ نَكَحَ امرأةَ أبيهِ مِنْ بَعْدِهِ أنْ أضرِبَ عُنُقَهُ وآخُذَ مَالَهُ».

قال الترمذي: هٰذا حديثٌ حسنٌ، قال الجُوزجانيُّ: عمُّ البراءِ اسمهُ الحارثُ بنُ عمرو.

وفي «سننِ أبي داودَ» و«ابنِ ماجه»[2] من حديثِ ابنِ عباسٍ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ».

ورُفِعَ إلى الحجَّاجِ رجلٌ اغتَصَبَ أختَهُ على نَفْسِها، فقال: احبسوهُ وسَلُوا مَنْ ها هنا مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فسألوا عبدَ اللهِ بن أبي مُطَرِّفٍ، فقال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ تَخَطَّى حُرَمَ المُؤمنينَ؛ فَخُطُّوا وَسَطَهُ بالسَّيْفِ»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١)، والترمذي (١٣٧٣)، والنَّسائي (٦ / ١٠٩)، وأحمد (٤ / ٢٩٥).

وفي سنده ضعفٌ.

لٰكنَّ له طُرُقاً وشواهدَ تُثَبِّتُهُ؛ خَرَّجها مطوَّلاً شيخُنا الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠)؛ فَلْيُنْظَرْ.

(٢) لم أره في «سنن أبي داود»، ولم أرَ ـ كذا ـ مَن عزاه له سوى المصنِّف رحمه الله، وبعض نُسخ الكتاب خُلْوٌ منه.

نعم؛ رواه ابن ماجه (٢٥٦٤)، والترمذي (١٤٨٧) و(٢٥٦٤)، والدارقطني (٣ / ١٢٦)، والحاكم (٤ / ٣٥٦)، والبيهقي (٨ / ٢٣٤).

وفي إسناده ضعيفان، وقد حكم بنكارته الإمام أبو حاتم الرازي كما في «العلل» (١ / ٤٥٥) لابنهِ.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٨١٧)، والطبراني في «الكبير» ـ كما في =

وفيه دليلٌ على القتلِ بالتَّوسيطِ، وهٰذا دليلٌ مستقلٌ في المسألةِ، وهو أنَّ مَنْ لا يُباحُ وطؤهُ بحالٍ فحدُّ وطئهِ القتلُ، دليلُهُ: مَنْ وَقَعَ على أمِّهِ أو ابنتِهِ، وكذٰلِكَ يُقالُ في وطءِ ذواتِ المحارمِ، ووطءِ مَنْ لا يباحُ له وطؤهُ بحالٍ؛ وكان حدُّه القتلُ كاللوطيِّ.

والتحقيقُ: أنْ يُستدلَّ على المسألتينِ بالنصِّ، والقياسُ يشهدُ لصحَّةِ كَلٍّ منهما.

وقد اتفقَ المسلمونَ على أنَّ مَنْ زنى بذاتِ مَحرَمٍ فعليهِ الحدُّ، وإنَّما اختلفوا في صفةِ الحدِّ، هل هو القتلُ بكلِّ حالٍ، أو حدُّهُ حدُّ الزَّاني؟

على قولينِ:

فذهب الشافعيُّ ومالكٌ وأحمدُ ـ في إحدى روايتيهِ ـ أنَّ حدَّهُ حدُّ الزاني.

وذهبَ أحمدُ وإسحاقُ وجماعةٌ مِنْ أهلِ الحديثِ إلى أنَّ حدَّهُ القتلُ بكلِّ حالٍ.

= «مجمع الزوائد» (٦ / ٢٦٩) ـ والبيهقي في «الشعب» (٥٤٧٣)، وابن عدي في «الكامل» (٣ / ١٠٣٦).

قال الإمام البخاري في «التاريخ الكبير» (٥ / ٣٤) في ترجمة عبد الله: «له صحبة، ولم يصحّ إسناده».

وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه رِفدة بن قُضاعة، وثَّقه هشام بن عمَّار، وضعَّفه الجمهور».

وانظر: «علل ابن أبي حاتم» (١ / ٤٥٦)، و«فتح الباري» (١٢ / ١١٨)، و«الإصابة» (٤ / ٣٦٣).

«تنبيه»: قولهُ في الحديث: «عبد الله بن أبي مُطَرِّف» غَلَطٌ، صوابه: عبد الله بن مُطرِّف، كما نبَّه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢ / ٢ / ١٥٣) عن أبيه.

وهو على شرطِ (أوهام الجمع والتفريق)، ولم أره في «الموضح» للخطيب!

وكذلك اتَّفقوا كلُّهم على أنَّهُ لو أصابهَا باسمِ النِّكاحِ عالماً بالتَّحريمِ أنه يُحَدُّ، إلَّا أبا حنيفةَ وحدَهُ؛ فإنَّهُ رأى في ذلك شُبهةً مسقِطةً للحدِّ.

ومُنازعوهُ يقولونَ: إذا أصابَها باسمِ النِّكاحِ فقد زاد الجريمةَ غِلَظاً وشدَّةً، فإنَّه ارتكبَ محذُورَيْن عظيمَيْن: محذورَ العَقْدِ، ومحذورَ الوطءِ؛ فكيفَ تُخَفَّفُ عنه العقوبةُ بضمِّ مَحْذُورِ العقدِ إلى محذور الزنى؟

وأما وطءُ المَيْتَةِ ففيه قولانِ للفقهاءِ، وهما في مذهبِ أحمدَ وغيرِهِ:

أحدهما: يجبُ به الحدُّ[1]، وهو قولُ الأوزاعيِّ، فإنَّ فِعْلَهُ أعظمُ جرماً وأكبرُ ذنباً لأنَّهَ انضمَّ إلى فاحشتِهِ هتكُ حُرمَةِ الميتة.

٨٧ ـ فَصْلٌ [حكمُ واطىء البهيمة في الشّرع]:

وأما واطىءُ البهيمةِ فللفقهاءِ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنه يُؤدَّبُ، ولا حدَّ عليه، وهٰذا قولُ مالكٍ وأبي حنيفةَ والشافعيِّ في أحدِ قوليهِ، وقولُ إسحاقَ.

والقولُ الثاني: أنَّ حُكْمَهُ حكمُ الزاني، يُجْلَدُ إنْ كانَ بِكراً، ويُرجَمُ إنْ كانَ مُحْصَناً، وهٰذا قولُ الحسنِ.

والقول الثالث: أنَّ حُكْمَهُ حُكمُ اللوطيِّ، نصَّ عليه أحمدُ، فيخرجُ على الروايتينِ في حدِّه، هل هو القتلُ حتماً أو هو كالزَّاني؟

والذين قالوا: «حدُّه القتلُ»، احتَجُّوا بِمَا رواهُ أبو داودَ[2] مِنْ حديثِ ابنِ

---

(١) أي: أنَّ القولَ الثاني هو عدمُ وجوب الحدّ.

(٢) (برقم ٤٤٦٤).

وروواه أحمد (١ / ٢٦٩)، والترمذي (١٤٥٤)، والحاكم (٤ / ٣٥٥)، والدارقطني (٣ /

عباسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ أتى بهيمةً فاقْتُلُوهُ، واقتلوهَا معهُ».

قالوا: ولأنَّهُ وطءٌ لا يُبَاحُ بِحَالٍ؛ فكانَ فيه القتلُ كحدِّ اللوطيّ.

ومَنْ لم يَرَ عليه حدّاً قالوا: لم يصحَّ فيه الحديثُ[1]، ولو صحَّ لقلنا به، ولم يحلَّ لنا مخالفتُهُ.

قال إسماعيلُ بنُ سعيدٍ الشَّالَنْجيّ[2]: سألتُ أحمدَ عن الذي يأتي البهيمَةَ، فوقفَ عندَها، ولم يُثبتْ حديثَ عمرِو بنِ أبي عمرٍو في ذلك.

قال الطحاويُّ: الحديثُ ضعيفٌ، وأيضاً فراويهِ ابنُ عباسٍ، وقد أفتى بأنَّه لا حدَّ عليه، قال أبو داودَ: وهذا يُضَعِّفُ الحديثَ.

ولا ريبَ أنَّ الزاجِرَ الطبيعي عن إتيانِ البهيمةِ أقوى مِنَ الزاجرِ الطبيعي عن التلوُّطِ، وليس الأمرانِ في طِباعِ الناسِ سواءً، فإلحاقُ أحدِهما بالآخرِ مِنْ أفسدِ القياسِ كما تقدمَ.

٨٨ ـ فَصْلٌ [قياسُ واطءِ الرّجل لمثله على تدالُك المرأتين فاسدٌ]:

وأمَّا قياسُكُم وطءَ الرجلِ لمثلهِ على تدالُكِ المرأتين؛ فَمِنْ أفسدِ القياسِ، إذ لا إيلاجَ هناك، وإنَّما نظيرُهُ مباشرةُ الرجلِ الرجلَ مِنْ غيرِ إيلاجٍ،

= ١٢٧)، والبَيْهقي (٨ / ٢٣٣) بسند حسن.

وله مُتابعات وشواهدُ تُنظر في «الإرواء» (٢٣٤٨) لشيخنا الألباني.

(١) بل صحَّ كما سبق تحقيقهُ، وانظر: «التلخيص الحبير» (٤ / ٥٥)، و«مجمع الزوائد» (٦ / ٢٧٤).

(٢) من أصحاب الإمام أحمد، توفِّي سنة (٢٣٠هـ)، ترجمته في «طبقات الحنابلة» (١ / ١٠٤)، و«المنهج الأحمد» (١ / ٣٧٥)، و«المقصد الأرشد» (١ / ٢٦١)، و«الأنساب» (٧ / ٢٥٩).

على أنَّـه قد جاءَ في بعضِ الآثـارِ المـرفـوعَـةِ: «إذا أتتِ المرأةُ المرأةَ فَهُمَا زَانِيَتانِ»[1]، ولٰكنْ لا يجبُ الحدُّ بذٰلك، لعدمِ الإيلاجِ، وإنْ أُطْلِقَ عليها اسمُ الزنى العامِّ، كزنى العينِ واليدِ والرجلِ والفمِ.

إذا ثبتَ هٰذا فقـد أجمعَ المسلمونَ على أنَّ حكمَ التلوُّطِ معَ المملوكِ كحُكْمِهِ مع غيرِهِ، ومَنْ ظَنَّ أنَّ تلوُّطَ الإنسانِ بمملوكِهِ جائزٌ، واحتجَّ على ذٰلك بقـولِـهِ تعالى: ﴿إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٣٠]، وقاس ذٰلك على أمَتِهِ المملوكَةِ فهو كافرٌ، يُستتابُ كما يُستتابُ المرتَدُّ، فإنْ تابَ وإلَّا ضُرِبَتْ عنقُهُ.

وتلوُّطُ الإنسانِ بمملوكِهِ كتلوُّطِهِ بمملوكِ غيرِهِ في الإثمِ والحكمِ.

٨٩ ـ فَصْلٌ [دواء اللواط]:

فإنْ قِيلَ: وهل مع هٰذا كلِّه دواءٌ لهٰذا الداءِ العُضالِ؟ ورُقيةٌ لهٰذا السحرِ القَتَّالِ؟

وما الاحتيالُ لدفعِ هٰذا الخَبَالِ؟

وهل مِنْ طريقٍ قاصدٍ إلى التوفيقِ؟

وهل يُمكِّنُ السكرانُ مِنْ خَمْرِ الهوى أنْ يُفيقَ؟

وهل يملكُ العاشقُ قلبَهُ والعِشْقُ قد وَصَلَ إلى سُويدائِهِ؟

---

(١) قطعة من حديثٍ رواه البيهقي (٨ / ٢٣٣) عن أبي موسى، وضعَّفه بقولِه: «ومحمد بن عبد الرحمٰن لا أعرفه، وهو مُنْكَرٌ بهٰذا الإسناد».
وتعقَّبه صاحب «الجوهر النقي» بأنَّ محمداً هٰذا معروفٌ، لٰكنْ بالكذب!
وبه أعلَّه الحافظُ ابنُ حَجَرَ في «التلخيص الحبير» (٤ / ٥٥).

وهل للطبيبِ بعدَ ذٰلك حيلةٌ في بُرئِهِ مِنْ سوءِ داءِه؟

وهل إنْ لامهُ لائمٌ التذَّ بملامِهِ ذِكراً لمحبوبِهِ، وإنْ عَذَلَهُ عاذلٌ أغراهُ عذلُهُ، وسَارَ بِهِ في طريقِ مَطْلُوبِهِ، يُنادِي عليه شاهدُ حالِهِ بلسانِ مقالِهِ:

وَقَفَ الهَوَى بي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدَّمُ
وَأَهَنْتَنِي فَأَهَنْتَ نَفْسِي جَاهِداً ... مَا مَنْ يَهُونُ عَلَيْكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ
أَشْبَهْتَ أَعْدَائِي فَصِرْتُ أُحِبُّهُم ... إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمُ
أَجِدُ المَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً ... حُبّاً لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

. . . ولعلَّ هٰذا هو المقصودُ بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاءُ، والداءُ الذي طُلبَ له هٰذا الدواءُ.

٩٠ ـ فَصْلٌ [دواء هذا الدّاء من طريقين]:

قيل: نعم، الجوابُ مِنْ أصلهِ: «ما أنزلَ اللهُ مِنْ داءٍ إلَّا جَعَلَ لهُ دواءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»[1].

والكلامُ في دواءِ هٰذا الداءِ مِنْ طريقينِ:

أحدهما: حسمُ مادتِهِ قبلَ حصولِها.

والثاني: قلعُها بعدَ نزولِها، وكلاهُما يسيرٌ على مَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليه، ومُتَعَذِّرٌ على مَنْ لم يعنهُ، فإنْ أزمَّةَ الأمورِ بيديهِ.

فأما الطريقُ المانعُ مِنْ حصولِ هٰذا الداءِ؛ فأمرانِ:

أحدهُما: غضُّ البصر كما تقدَّم؛ فإنَّ النظرةَ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ، ومَنْ أطلقَ لَحَظَاتِهِ دامَتْ حسراتُهُ، وفي غضِّ البصرِ عدةُ منافعَ ـ وهو بعض أجزاء الدواء النافع ـ:

---

(١) تقدَّم تخريجه.

أحدها: أنَّه امتثالٌ لأمرِ اللهِ الذي هو غايةُ سعادةِ العبدِ في معاشِهِ ومعادِه؛ فليسَ للعبدِ فِي دنياهُ وآخرتِه أنفعُ مِن امتثالِ أوامِرَ ربِّهِ تبارك وتعالى، وما سَعِدَ مَنْ سَعِدَ في الدنيا والآخرةِ إلَّا بامتثالِ أوامرِهِ، وما شقيَ مَنْ شقيَ فِي الدنيا والآخرةِ إلَّا بتضييعِ أوامرِهِ.

الثانية: أنَّه يمنعُ مِنْ وصولِ أثرِ السهمِ المسمومِ ـ الذي لعلَّ فيه هلاكَهُ ـ إلى قلبِهِ.

الثالثة: أنَّه يُورِّثُ القلبَ أُنساً باللهِ وجمعيَّةً عليه؛ فإنَّ إطلاقَ البصرِ يُفرِّقُ القلبَ ويُشتِّتُهُ، ويُبعِدُهُ عن اللهِ، وليس على القلبِ شيءٌ أضرَّ مِنْ إطلاقِ البصرِ؛ فإنَّهُ يُوقِعُ الوحشةَ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه.

الرابعة: أنَّه يُقوِّي القلبَ ويُفْرِحَهُ، كما أنَّ إطلاقَ البصرِ يُضعفُهُ ويُحزِنُهُ.

الخامسة: أنَّهُ يُكْسِبُ القلبَ نوراً، كما أنَّ إطلاقَهُ يُكسبهُ ظُلْمةً، ولهذا ذكرَ اللهُ سبحانهُ آيةَ النور عَقيبَ الأمرِ بغضِّ البصرِ، فقال: ﴿قُلْ للمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم﴾ [النور: ٣٠].

ثم قال إثرَ ذلك: ﴿اللهُ نُورُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي: مثلُ نورِهِ في قلبِ عبدِهِ المؤمن الذي امتثلَ أوامرَهُ واجتَنَبَ نواهيهِ.

وإذا استنارَ القلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه مِنْ كلِّ ناحيةٍ، كما أنَّهُ إذا أظلمَ أقْبَلَتْ سحائبُ البلاءِ والشرِّ عليه مِنْ كلِّ مكانٍ، فما شئْتَ مِنْ بدعٍ وضلالةٍ، واتِّباعِ هوىً، واجتنابِ هدىً، وإعراضٍ عن أسبابِ السعادةِ، واشتغالٍ بأسبابِ الشقاوةِ؛ فإنَّ ذلك إنما يكشفهُ له النورُ الذي في القلبِ؛ فإذا فُقِدَ ذلك النورُ بقيَ صاحبُهُ كالأعمى الذي يجوسُ في حنادسِ الظلماتِ.

السادسة: أنَّه يُورِّثُ فراسةً صادقةً يُمَيِّزُ بها بينَ الحقِّ والباطلِ، والصادقِ

والكاذبِ.

وكانَ ابنُ شجاعٍ الكرمانيُّ[1] يقولُ: مَنْ عَمَّرَ ظاهِرَهُ باتِّباعِ السنَّةِ وباطنَهُ بدوامِ المراقبةِ، وغضَّ بصرَهُ عن المحارمِ، وكفَّ نفسَهُ عن الشبهاتِ، واغتذى بالحلالِ؛ لم تُخْطِىء له فراسةٌ.

وكان شُجاعٌ هٰذا لا تُخطىءُ له فراسةٌ.

واللهُ سبحانهُ يُجزي العبدَ على عملهِ بما هو مِنْ جنسِ عملهِ، و«مَنْ تَرَكَ للهِ شيئاً عَوَّضَهُ اللهُ خيراً منه»[2]؛ فإذا غضَّ بصرَهُ عن محارمِ اللهِ عوَّضَهُ اللهُ بأنْ يُطلَقَ نورَ بصيرَتهِ عِوَضاً عن حَبْسِ بصرهِ للهِ، ويفتحَ عليه بابَ العلمِ والإيمانِ، والمعرفةِ والفراسةِ الصادقةِ المصيبةِ التي إنَّما تُنالُ ببصيرةِ القلبِ.

وضدُّ هٰذا ما وصفَ اللهُ به اللُّوطيَّةَ مِنَ العَمَهِ الذي هو ضدُّ البصيرةِ فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فوصفَهُم بالسَّكْرَةِ التي هي فسادُ العقلِ، والعَمَهِ الذي هو فسادُ البصيرةِ.

فالتعلُّقُ بالصُّورِ يُوجِبُ فسادَ العقلِ، وعَمَهَ البصيرةِ، وسُكْرَ القلبِ، كما قال القائلُ:

سُكْرَانِ سُكْرُ هَوىً وسُكْرُ مُدَامَةٍ ... ومَتَى إفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ

وقال الآخر:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... العِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بالمَجَانِينِ

العِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهرَ صَاحِبُهُ ... وإنَّمَا يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحِينِ

---

(١) انظر تعليقي على «موارد الأمان المُنتقى من إغاثة اللهفان» (ص ١٠٤).

(٢) وهٰذا لفظُ حديثٍ صحيحٍ رواه أحمد (٥ / ٣٦٣) وغيره بسند صحيح.
وانظر: «موارد الأمان» (ص ١٠٢).

السابعة: أنَّه يُورِثُ القلبَ ثباتاً وشجاعةً وقوةً، فجمعَ اللهُ له بينَ سلطانِ النصرةِ والحجَّةِ وسلطانِ القدرةِ والقوةِ، كما في الأثر: «الذي يخالفُ هواهُ يَفْرَقُ الشيطانُ مِنْ ظلِّه».

وضدُّ هٰذا تجدُ في المتَّبِعِ لهواه ـ مِنْ ذُلِّ النفسِ ووضاعتِهَا ومهانتها وخسَّتِها وحقارتِها ـ ما جعلهُ اللهُ سبحانه فيمَنْ عصاهُ.

كما قالَ الحسنُ: «إنَّهم وإن طقطقتْ بِهِمُ البغالُ وهملجتْ بهم البراذينُ، إنَّ ذلَّ المعصيةِ في رقابِهِم، أبى اللهُ إلَّا أنْ يذلَّ مَنْ عَصَاهُ».

وقد جعلَ اللهُ سبحانهُ العزَّ قرينَ طاعتِهِ، والذُّلَّ قرينَ معصيتِهِ، فقال تعالى: ﴿ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِه وللمُؤمنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿ولاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والإيمانُ قولٌ وعملٌ، ظاهرٌ وباطنٌ، قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريدُ العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ جَميعاً إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: مَنْ كانَ يريدُ العزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا بطاعةِ اللهِ وذكرِهِ مِنَ الكلمِ الطيبِ والعملِ الصالحِ.

وفي دعاءِ القُنُوتِ: «إنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ والَيْتَ، ولا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»[1]، ومَنْ أطاعَ اللهَ فقد والاهُ فيما أطاعهُ فيه، وله مِنَ العزِّ بحسبِ طاعتِهِ، ومَنْ عصاهُ فقد عاداهُ فيما عصاهُ فيه، وله مِنَ الذلِّ بحسبِ معصيتِهِ.

الثامنة: أنَّه يَسُدُّ على الشيطانِ مدخَلَهُ إلى القلبِ، فإنَّهُ يدخلُ مع النظرةِ وينفذُ معها إلى القلبِ أسرعَ مِنْ نفوذِ الهواءِ في المكانِ الخالِي، فَيُمَثِّلِ له صورةَ

---

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥) وغيره عن الحسن بن علي بن أبي طالب مرفوعاً.
وهو حديثٌ صحيحٌ، انظر له «موارد الأمان» (ص ١٠٦ ـ ١٠٥).

المنظورِ إليه ويُزَيِّنُها، ويجعلُها صنماً يَعْكِفُ عليه القلبُ ثم يَعِدُهُ ويُمنِّيهِ ويُوقِدُ على القلبِ نارَ الشهوةِ، ويُلقي عليه حَطَبَ المعاصِي التي لم يكن يَتَوَصَّلُ إليها بدونِ تلكَ الصُّورَةِ، فيصيرُ القلبُ في اللَّهيبِ.

فمِنْ ذٰلك اللهيبِ تلك الأنفاسُ التي يجدُ فيها وَهْجَ النارِ، وتلك الزَّفَراتُ والحَرَقاتُ؛ فإنَّ القلبَ قد أحاطَتْ به النيرانُ مِنْ كلِّ جانبٍ، فهو في وسطِها كالشاةِ في وسطِ التَّنُّورِ، ولهٰذا كانَتْ عقوبةُ أصحابِ الشهواتِ للصورِ المحرمةِ: أنْ جُعِلَ لهم في البرزخِ تَنُّورٌ مِنْ نارٍ، وأودِعَتْ أرواحُهم فيه إلى يوم حشرِ أجسادهم، كما أراهُ اللهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ في المنامِ في الحديثِ المتَّفَقِ على صِحَّتِهِ[1].

التاسعة: أنَّه يُفَرِّغُ القلبَ للفكرةِ في مصالحِهِ والاشتغالِ بها، وإطلاقُ البصرِ يُنسيهِ ذٰلك ويحولُ بينه وبينه، فينفرطُ عليه أمرُهُ، ويقعُ في اتِّباعِ هواهُ وفي الغفلةِ عن ذكرِ رَبِّهِ، قال تعالى: ﴿ولاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨].

وإطلاقُ النظرِ يُوجِبُ هٰذه الأمورَ الثلاثةَ بحسبِهِ.

العاشرة: أنَّ بينَ العينِ والقلبِ منفذاً وطريقاً يُوجِبُ انفصالَ أحدِهما عن الآخرِ، وأنْ يَصْلُحَ بصلاحِهِ، ويفسُدَ بفسادِهِ، فإذا فسدَ القلبُ فسدَ النظرُ، وإذا فسدَ النظرُ فسدَ القلبُ.

وكـذٰلك في جانبِ الصلاحِ؛ فإذا خربتِ العينُ وفسدَتْ خربَ القلبُ وفسدَ، وصار كالمزبلةِ التي هي مَحَلُّ النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يصلحُ لسُكنى معرفةِ اللهِ ومحبَّتِهِ والإنابةِ إليه، والأُنْسِ بِهِ والسُّرورِ بقربِهِ فيه،

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٠)، ومسلم (٢٢٧٥) عن سَمُرة.

وإنما يسكنُ فيه أضدادُ ذلك.

فهٰذه إشارةٌ إلى بعضِ فوائِدِ غضِّ البصرِ تُطْلِعُكَ على ما وراءَها.

الطريقُ الثاني المانعُ مِنْ حصولِ تعلُّقِ القلبِ: اشتغالُ القلبِ بما يُبْعِدُهُ عن ذٰلك، ويحولُ بينه وبينَ الوقوعِ فيه، وهو إمَّا خوفٌ مُقْلِقٌ أو حبٌّ مُزْعِجٌ، فمتى خلا القلبُ مِنْ خوفِ ما فَوَاتُهُ أضرُّ عليه من حصولِ هٰذا المحبوبِ، أو خوفِ ما حصولُهُ أضرُّ عليه مِنْ فواتِ هٰذا المحبوبِ، أو مَحبَّةِ ما هو أنفعُ له وخيرٌ له مِنْ هٰذا المحبوبِ، وفواتُهُ أضرُّ عليهِ مِنْ فواتِ هٰذا المحبوبِ، لم يجدْ بُدّاً مِنْ عشقِ الصورِ.

وشرحُ هٰذا: أنَّ النفسَ لا تَتْرُكُ محبوباً إلَّا لمحبوبٍ أعلى منه، أو خشيةَ مكروهٍ حصولُهُ أضرُّ عليها مِنْ فواتِ هٰذا المحبوبِ.

وهٰذا يحتاجُ صاحبُهُ إلى أمرينِ إنْ فقدَهُما أو أحدَهما لم ينتفعْ بنفسهِ:

أحدُهُما: بصيرةٌ صحيحةٌ يُفَرِّقُ بها بينَ درجاتِ المحبوبِ والمكروهِ، فَيُؤْثِرُ أعلى المحبوبَيْنِ على أدناهُما، ويحتملُ أدنى المكروهينِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ أعلاهُما، وهٰذا خاصَّةُ العقلِ، ولا يُعَدُّ عاقلاً مَنْ كَانَ بضدِّ ذٰلك، بل قد تكونُ البهائمُ أحسنَ حالاً منه.

الثاني: قوةُ عزمٍ وصبرٍ يتمكَّنُ به منْ هٰذا الفعلِ والتركِ؛ فكثيراً ما يعرفُ الرجلُ قَدْرَ التفاوتِ، ولٰكنْ يأبى له ضعفُ نَفْسِهِ وهمَّتِهِ وعزمتِهِ على إيثارِ الأنفَعِ، مِنْ جشَعِهِ وحرصِهِ ووضاعةِ نفسِهِ وخسَّةِ همَّتِهِ.

ومثلُ هٰذا لا ينتفعُ بنفسهِ، ولا ينتفعُ به غيرُهُ، وقد منعَ اللهُ سبحانهُ إمامةَ الدِّين إلَّا مِنْ أهلِ الصَّبرِ واليقينِ، فقالَ تعالى ـ وبقولهِ يهتدي المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾

[السجدة: ٢٤].

وهٰذا هو الذي ينتفعُ بعلمِهِ، وينتفعُ به الناسُ، وضدُّهُ لا ينتفعُ بعلمِهِ، ولا ينتفعُ به غيرُه.

ومِنَ الناسِ مَنْ ينتفعُ بعلمِهِ في نفسهِ ولا ينتفعُ به غيرُهُ، فالأولُ يمشِي في نورِهِ ويمشِي الناسُ في نورِهِ، والثاني قد طُفِيءَ نورُهُ، فهو يمشي في الظلماتِ ومَنْ تبعهُ في ظلُمتِهِ، والثالثُ يمشي في نورِهِ وحده.

٩١ ـ فَصْلٌ [المحبة الصَّادقة تقتضي توحيد المحبوب الأعلى]:

إذا عرَفْتَ هٰذه المقدمةَ فلا يُمكنُ أنْ يجتمعَ في القلبِ حبُّ المحبوبِ الأعلَى وعشقُ الصورِ أبداً، بل هما ضِدَّانِ لا يتلاقيانِ، بل لا بُدَّ أنْ يُخْرِجَ أحدُهُما صاحِبَهُ. فمنْ كانت قُوَّةُ حبِّهِ كلُّها للمحبوبِ الأعلى الذي محبَّةُ ما سواهُ باطلةٌ وعذابٌ على صاحِبها؛ صرفَهُ ذٰلك عن محبَّةِ مَا سواهُ، وإنْ أَحَبَّهُ لم يُحِبَّهُ إلَّا لأجلِهِ، أو لكونِهِ وسيلةً إلى محبَّتِهِ، أو قاطعاً له عمَّا يُضادُّ محبَّتَهُ وينقُصُهَا.

والمحبَّةُ الصادقةُ تقتضي توحيدَ المحبوبِ، وأنْ لا يُشركَ بينه وبينَ غيرِهِ في محبَّتِهِ، ويمقتَهُ لذٰلك، ويُبْعدَهُ ولا يُحْظِيَهُ بقربِهِ، ويَعُدَّهُ كاذباً في دعوى محبَّتِهِ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يُشركَ محبةَ غيره في محبته ـ مع أنَّهُ ليس أهلاً لصرفِ كلِّ قوَّةِ المحبَّةِ إليه ـ؛ فكيفَ بالحبيبِ الأعلى الذي لا تنبغي المحبَّةُ إلَّا له وحدَهُ، وكلُّ محبَّةٍ لغيرِهِ فهي عذابٌ على صاحبِها ووبالٌ؟!

ولهٰذا لا يغفرُ اللهُ سبحانه أنْ يشركَ به في هٰذه المحبَّةِ، ويغفرُ ما دونَ ذٰلك لمَنْ يشاءُ.

فمحبَّة الصورِ تُفَوِّتُ محبَّةَ ما هو أنفعُ للعبدِ منها، بل تُفَوِّتُ محبَّةَ ما ليس له صلاحٌ ولا نعيمٌ، ولا حياةٌ نافعـةٌ إلَّا بمحبَّتِـهِ وحـدَهُ؛ فَليختَرِ العبدُ إحدى

المحبَّتَين، فإنَّهما لا يجتمعانِ في القلبِ ولا يرتفعانِ منه، بل مَنْ أعرضَ عن محبَّةِ اللهِ وذكرِه والشوقِ إلى لقائِه ابتلاهُ اللهُ بمحبَّةِ غيرِه؛ فيعذِّبُهُ بها في الدنيا وفي البرزخِ وفي الآخرةِ، فإمَّا أنْ يعذِّبَهُ بمحبةِ الأوثانِ، أو بمحبَّةِ الصُّلبَانِ، أو المُـردانِ، أو محبَّـةِ النيرانِ، أو محبَّـةِ النسـوانِ، أو محبَّـةِ الأثمانِ، أو محبَّةِ العُشَـراءِ، أو محبَّـةِ الخِـلاّن، أو محبَّةِ ما دُونَ ذلك ممَّا هو في غايةِ الحقارةِ والهوانِ؛ فالإنسانُ عبدٌ محبوبَهُ كائناً مَنْ كانَ، كما قيلَ:

أَنْـتَ الـقَـتِـيلُ بِكُـلِّ مَنْ أَحْـبَبْتَـهُ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

فَمَنْ لم يكُنْ إلٰهُهُ مالِكَهُ ومولاهُ كانَ إلٰههُ هواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٩٢ ـ فَصْلٌ [العبادة هي الحبّ مع الخضوع، والذّل للمحبوب]:

وخـاصيَّةُ التعبُّدِ: الحبُّ مع الخضوعِ، والذلُّ للمحبوبِ، فَمَنْ أحبَّ شيئاً أو خضعَ له فقد تعبَّدَ قلبَهُ له، بل التعبُّدُ آخر مراتِبِ الحبِّ[1]، ويقال له: التتيُّم أيضاً:

فإنَّ أولَ مراتبِهِ **العلاقةُ**، وسمِّيتْ علاقةً لتعلُّقِ قلبِ المحبِّ بالمحبوبِ:

قال الشاعر:

وَعَـلِقْـتُ لَيْلَى وَهْيَ ذَاتُ تَمَـائِمٍ وَلَمْ يَبْـدُ لِلأَتْـرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

وقال الآخر:

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص ١٦)، و«إغاثة اللهفان» (ص ١٠٣ ـ «موارد الأمان»)، كلاهما للمصنِّف رحمه الله.

أَعَــلاَقَــةٌ أمَّ الــوَلــيدِ بُعَيْـدَ مَا أَفْنَــانُ رَأسِــكِ كالثَّغَـامِ الأبْيَضِ

ثم بعدها **الصَّبابةُ**؛ وسُمِّيَتْ بذلك لانصبابِ القلبِ إلى المحبوبِ، قال الشاعر:

تَشَكَّى المُحِبُّــونَ الصَّبَــابَــةَ لَيْتَنِي تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي
فَكَــانَــتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الحُبِّ كُلُّهَــا فَلَم يَلْقَهَــا قَبْلِي مُحِبٌّ ولاَ بَعْـدِي

ثم **الغرامُ**؛ وهو لزومُ الحبِّ للقلبِ لُزوماً لا ينفكُّ عنه، ومنه سُمِّيَ الغريمُ غريماً: لملازمتِهِ صاحبَهُ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَراماً﴾ [الفرقان: ٦٥].

وقد أُولِعَ المتأخِّرونَ باستعمالِ هٰذا اللفظِ في الحُبِّ، وقلَّ أن تجِدَهُ في أشعارِ العربِ.

ثم **العِشْقُ**؛ وهو إفراطُ المحبَّةِ؛ ولهٰذا لا يُوصَفُ به الربُّ سبحانه، ولا يُطلقُ في حقِّه(١).

ثم **الشوقُ**؛ وهو سَفَرُ القلبِ إلى المحبوبِ أحثَّ السفرِ، وقد جاءَ إطلاقُهُ في حقِّ الربِّ تعالى كما في «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(٢) مِنْ حديثِ عمَّارِ بن ياسرٍ: «أنَّــهُ صلَّى صلاةً فأوْجَـزَ فيها، فقيلَ له في ذٰلك، فقالَ: أمَّا إنِّي دَعَوْتُ فيها بدَعَوَاتٍ كانَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ يدعُو بهِنَّ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بعِلْمِكَ الغيْبَ، وقُـدْرَتِكَ على الخَلْقِ، أحيِنِي إذا كانَتِ الحياةُ خيراً لي، وتَوَفَّنِي إذا

---

(١) وهٰذا تنبيهٌ حسنٌ جدّاً يُرَدُّ به على بعض الأدباء(!) والصوفيَّة الذين يُكثرون من هٰذا الاستعمال في حقِّ اللهِ سُبحانه.

(٢) (برقم ١٨٣٥١).

وأخرجه النَّسائي (٣ / ٥٤)، وابن حبان (١٩٧١)، وابن خُزيمة في «التوحيد» (ص ١٢)، والحاكم (١ / ٥٢٤) بسند صحيح.

كانَتِ الوفاةُ خَيْراً لي، اللهُمَّ إنِّي أسألُكَ خَشْيَتَكَ في الغيبِ والشَّهادةِ، وأسألُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ في الغضبِ والرِّضَى، وأسألُكَ القصدَ في الفقرِ والغنى، وأسألُكَ نَعِيماً لا يَنْفَذُ، وأسألُكَ قُرَّةَ عينٍ لا تنقَطِعُ، وأسألُكَ بَرْدَ العيشِ بَعْدَ الموتِ، وأسألُكَ لذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِكَ، وأسألُكَ الشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ، في غَيْرِ ضَرَّاءٍ مُضِرَّةٍ ولا فِتنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينةِ الإيمانِ، واجْعَلْنا هُداةً مُهتدينَ».

وفي أثرٍ آخرَ: «طالَ شوقُ الأبرارِ إلى لِقائِي، وأنا إلى لِقائِهِم أشدُّ شوقاً»[1].

وهٰذا هو المعنى الذي عبَّرَ عنه ﷺ بقولِه: «مَنْ أحبَّ لِقَاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»[2].

وقال بعضُ أهلِ البصائرِ[3] في قولِه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]: لمَّا عَلِمَ اللهُ سبحانهُ شدَّةَ شوقِ أوليائِهِ إلى لقائِهِ، وأنَّ قلوبَهُم لا تهتدي دونَ لقائِهِ؛ ضربَ لهم أجَلاً وموعداً للقائِهِ؛ تسكنُ نفوسُهُم به.

وأطيبُ العيشِ وألذُّهُ على الإطلاقِ عيشُ المُحِبِّينَ المشتاقينَ المُستأنسينَ، فحياتُهُم هي الحياةُ الطيبةُ في الحقيقةِ، ولا حياةَ للقلبِ أطيبُ ولا أنعمُ ولا أهنأُ منها، فهي الحياةُ الطيبةُ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣ / ٨): «لم أجد له أصلاً؛ إلَّا أنَّ صاحب «الفردوس» خرَّجه من حديث أبي الدرداء، ولم يذكر له ولدهُ في «مسند الفردوس» إسناداً».
وانظر: «الفردوس» (٥ / ٨١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣)، ومسلم (٢٦٨٣).

(٣) لعلَّ المصنِّف يُشير إلى نفسه دون تصريحٍ، فإنَّ هٰذا النَّسَقَ من الكلام لا يخرج عن أسلوب المؤلف رحمه الله وطريقته في الإنشاء، واللهُ تعالى أعلم.

صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وليس المـرادُ منها الحياةَ المشتركةَ بينَ المؤمنينَ والكفارِ والأبرارِ والفجارِ؛ مِنْ طِيبِ المأكلِ والملبسِ والمشربِ والمنكحِ، بل ربَّما زادَ أعداءُ اللهِ على أوليائِهِ في ذلك أضعافاً مُضاعفةً.

وقد ضَمِنَ اللهُ سبحانه لكلِّ مَنْ عملَ صالحاً أن يُحييهُ حياةً طيبةً، وهو صادقُ الـوعـدِ الذي لا يُخْلِفُ وعدَهُ، وأيُّ حياةٍ أطيبُ مِنْ حياةِ مَنْ اجتَمَعَتْ همومُهُ كلُّها وصارَتْ هَمّاً واحداً[1] في مرضاةِ اللهِ! ولم يتشعَّبْ قلبُهُ، بل أقبلَ على اللهِ، واجتمَعَتْ إرادتُـهُ وأفكارُهُ التي كانَتْ مُنقسمةً بكلِّ وادٍ منها شُعبةٌ، فصارَ ذِكْرُ محبوبِهِ الأعلى وحبُّهُ والشوقُ إلى لقائِهِ، والأنْسُ بقُربِهِ هو المستولي عليه، وعليه تدورُ هُمومُهُ وإرادتُهُ وقصودُهُ بل وخطراتُ قلبِهِ، فإنْ سكتَ سكتَ باللهِ، وإنْ نَطَقَ نَطَقَ باللهِ، وإنْ سَمِـعَ فبـه يسمعُ، وإن بصرَ فبه يبصرُ، وبه يبـطشُ، وبـه يمشي، وبـه يتحركُ، وبه يسـكنُ، وبه يحيا، وبه يموتُ، وبه يبعثُ، كما في «صحيحِ البخاريّ»[2] عنه ﷺ فيما يرويهِ عن ربه تبارك وتعالى أنـه قال: «ما تقرَّبَ إليَّ عبدي بمثلِ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنْتُ سَمْعَهُ الذي يسمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يبطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يمشي بها (فبِي يَسْمَعُ، وبي يُبْصِـرُ، وبي يَبْـطِشُ، وبي يَمْشِي)[3] ولئِنْ سألَنِي لأُعْـطِيَنَّـهُ، ولئِنْ اسْتَعَاذَنِي

---

(١) وفي هذا المعنى حديثٌ نبويٌّ ثابتٌ أخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (رقم ١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢ / ٤٤٣) و(٤ / ٣٢٨) عن ابن عمر بسند صحيحٍ.

(٢) (برقم ٦٥٠٢).

(٣) ما بين القوسين ليس في «صحيح البخاري».

وقـال شيخنـا الألبـاني في «السلسلة الصحيحـة» (٤ / ١٩١): «لم أر هذه الزيادة عند البخاري، ولا عند غيرِه من المُخَرِّجين، وقد ذكرها الحافظُ [في «الفتح» (١١ / ٣٤٤)] في أثناءِ =

لُأعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعِلُهُ، كتَرَدُّدِي عَنْ قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأكرهُ مساءَتَهُ ولا بُدَّ له منه».

فتضمَّنَ هٰذا الحديثُ الشريفُ الإلٰهيُّ ـ الذي حرامٌ على غليظِ الطَّبْعِ كثيفِ القلبِ فَهْمُ معناه والمرادُ به ـ حَصْرَ أسبابِ محبَّتِهِ في أمرين: أداءِ فرائضهِ، والتقرُّبِ إليه بالنوافلِ.

وأخبرَ سبحانهُ أنَّ أداءَ فرائضهِ أحبُّ ما يتقرَّبُ به إليه المُتَقَرِّبُونَ، ثم بعدَها النوافلَ، وأنَّ المُحبَّ لا يزالُ يُكثرُ مِنَ النَّوافِلِ حتى يصيرَ محبوباً للهِ، فإذا صارَ محبوباً للهِ أوجَبَتْ محبَّةُ اللهِ له مَحَبَّةً أخرى منه للهِ فوقَ المحبَّةِ الأولى، فشغَلَتْ هٰذه المحبَّةُ قلبَهُ عن الفِكرَةِ والاهتمامِ بغيرِ محبوبِهِ، وملكَتْ عليه روحَهُ، ولم يبقَ فيه سَعَةٌ لغيرِ محبوبِهِ ألبَتَةَ، فصارَ ذكرُ محبوبِهِ وحبِّهِ ومثلِهِ الأعلى مالِكاً لزمامِ قلبِهِ مستولياً على روحِهِ استيلاءَ المحبوبِ على مُحبِّهِ الصادقِ في محبَّتِهِ، التي قد اجتمَعَتْ قوى محبَّةِ حُبِّهِ كلُّها له.

ولا ريب أنَّ هٰذا المُحبَّ إنْ سمعَ سمعَ بمحبوبِهِ، وإنْ أبصرَ أبصرَ به، وإن بطشَ بطشَ به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبِهِ ومعهُ وأنيسُهُ وصاحبُهُ، فالباءُ ها هنا للمصاحبةِ، وهي مُصاحبةٌ لا نظيرَ لها، ولا تُدْرَكُ بمجرَّدِ الإخبارِ عنها والعلمِ بها، فالمسألةُ حاليَّةٌ لا علميَّةٌ مَحْضَةٌ.

وإذا كانَ المخلوقُ يجدُ هٰذا في محبَّةِ المخلوقِ التي لم يُخلقْ لها ولم يُفْطَرْ عليها، كما قالَ بعضُ المحبِّينَ:

خَيالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

وقال الآخر:

= شرحه للحديثِ نقلاً عن الطُّوفي، ولم يَعْزِها لأحد».

وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام» (٥ / ٥١١) و(١٠ / ٥٨ ـ ٥٩) و(١٨ / ١٢٩ ـ ١٣١).

وَمِـنْ عَجَـبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... فَأَسْـأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ معي
وَتَـطْلُبُهُم عَيْنِي وهُمْ فِي سَوَادِهـا ... وَيَشْتَـاقُهُم قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وهٰذا ألطفُ مِنْ قولِ الآخرِ:

إنْ قُلْتُ غِبْتَ فَقَلْبِي لَا يُصَـدِّقُني ... إِذْ أَنْتَ فِيهِ مَكَـانَ السِّـرِّ لم تَغِبِ
أَوْ قُلْتُ مَا غِبْتَ قَالَ الطَّرْفُ ذَا كَذِبٌ ... فَقَـدْ تَحَيَّرْتُ بَيْنَ الصِّدْقِ والكَذِبِ

فليسَ شيءٌ أدنى إلى المُحِبِّ مِنْ محبوبِهِ، وربَّما تَمكَّنَتْ منه المحبَّةُ، حتى يصيرَ أدنى إليه مِنْ نفسهِ، بحيثُ ينسى نفسهُ ولا ينساهُ، كما قِيلَ:

أُرِيدُ لِأَنْـسَى ذِكْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا ... تُمَـثَّـلُ لِي لَيْلَى بِكُـلِّ سَبِيـلِ

وقال آخر:

يُرَادُ مِنَ الـقَـلْبِ نِسْـيَانُـكُـم ... وتَـأْبَى الـطِّبَـاعُ عَلَى النَّـاقِـلِ

وخصَّ في الحديثِ السمعَ والبصرَ واليدَ والرِّجْلَ بالذِّكْرِ، فإنَّ هٰذه الآلاتِ آلاتُ الإدراكِ وآلاتُ الفعـلِ، والسمـعُ والبصـرُ يُورِدَانِ على القلبِ الإرادةَ والكراهةَ، ويَجْلِبَانِ إليه الحُبَّ والبُغْضَ، فيستعملُ اليدَ والرجلَ، فإذا كانَ سَمْعُ العبدِ باللهِ، وبصرهُ باللهِ كانَ محفوظاً في آلاتِ إدراكهِ، وكان محفوظاً في حُبِّهِ وبُغضِهِ، فَحُفِظَ في بَطْشِهِ ومَشْيِهِ.

وتَأَمَّلْ كيفَ اكتفى بذكرِ السَّمْعِ والبَصَرِ واليدِ والرِّجلِ عن اللسانِ، فإنه إذا كان إدراكُ السمعِ الذي يحصلُ باختيارِهِ تارةً وبغيرِ اختيارِهِ تارةً.

وكـذلك البصرُ قد يَقَعُ بغيرِ الاختيارِ فجأةً، وكذلك حَرَكَةُ اليدِ والرِّجْلِ التي لا بُدَّ للعبدِ منهما؛ فكيفَ بحركةِ اللسانِ التي لا تقعُ إلا بقصدٍ واختيارٍ! وقد يستغني العبدُ عنها إلا حيثُ أُمِرَ بها.

وأيضاً فانفعالُ اللِّسانِ عنِ القلبِ أتمُّ من انفعالِ سائرِ الجوارحِ، فإنَّه

ترجمانُهُ ورسولُهُ.

وتأملْ كيفَ حَقَّقَ تعالى كونَ العبدِ به عند سمعهِ وبَصَرِه وبطشهِ ومشيهِ بقولِه: «كُنْتُ سمعَهُ الذي يسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ الَّتي يمشي بها»؛ تحقيقاً لكونِهِ مع عبدِهِ، وكونِ عبدِهِ به في إدراكاتِهِ بسمعهِ وبصَرِهِ، وحَرَكاتِهِ بيده ورجلِهِ.

وتأمَّلْ كيفَ قال: «فَبي يَسْمَعُ، وبِي يُبْصِرُ، وبي يَبْطِشُ»[1]، ولم يقلْ: فلي يسمعُ ولي يبصرُ، ولي يَبْطِشُ.

وربَّما يظنُّ الظَّانُّ أنَّ اللامَ أولى بهٰذا الموضعِ؛ إذ هي [أدلُّ] على الغايةِ ووقوعِ هٰذه الأمورِ للهِ، وذٰلك أخصُّ مِنْ وقوعِها به!

وهٰذا مِنَ الوَهَمِ والغلطِ؛ إذ ليستِ الباءُ هٰهنا لمجرَّدِ الاستعانةِ؛ فإنَّ حركاتِ الأبرارِ والفُجَّارِ وإدراكاتِهِم إنما هي بمعونةِ اللهِ لهم، وإنَّما الباءُ ها هنا للمُصاحبةِ، أي: إنما يسمعُ ويبصرُ ويبطشُ ويمشي وأنا صاحبهُ ومعه، كقولِهِ في الحديثِ الآخرِ: «أنا مع عبدي ما ذكرَني وتحرَّكَتْ بي شفتاهُ»[2]، وهٰذه المعيَّة هي المعيةُ الخاصَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقولِ النبيِّ: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُمَا»[3]، وقولِهِ تعالى: ﴿وإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوا والَّذينَ هُمْ

---

(١) سبق التعليقُ على هٰذه الزيادة.

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه» (٩ / ١٨٧)، ووصله هو في «خلق أفعال العباد» (رقم ٤٣٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٥٦)، وأحمد (٢ / ٥٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (١ / ٣١٥)، وابن حِبَّان (٢٣١٦) عن أبي هريرة بسند صحيح.

وله طريقٌ آخر عنه أخرجه أحمد (٢ / ٥٤٠)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، والبغوي (٥ / ١٣).

وذكر الحافظ في «الفتح» (١٣ / ٥) أنَّ الطريقين محفوظان.

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقولهِ: ﴿كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

فهٰذه الباءِ مُقَيِّدةٌ لمعنى هٰذه المعيَّةِ دونَ اللامِ، ولا يتأتَّى للعبدِ الإخلاصُ والصبرُ والتوكلُ، ونزولُهُ في منازلِ العبوديةِ إلَّا بهٰذه الباءِ وهٰذه المعيَّةِ.

فمتى كانَ العبدُ باللهِ هانَتْ عليه المشاقُّ، وانقَلَبَتْ المخاوِفُ في حقِّه أماناً، فباللهِ يهونُ كلُّ صعبٍ، ويسهلُ كلُّ عسيرٍ، ويقربُ كلُّ بعيدٍ، وباللهِ تزولُ الهمومُ والغمومُ والأحزانُ؛ فلا همَّ مع اللهِ، ولا غمَّ ولا حُزنَ إلَّا حيثُ يفوتُهُ معنى هٰذه الباءِ، فيصيرُ قلبُهُ حينئذٍ كالحوتِ، إذا فارقَ الماءَ يَثِبُ وينقلبُ حتى يعودَ إليهِ.

ولمَّا حَصَلَتْ هٰذه المُوَافَقَةُ مِنَ العبدِ لربِّهِ في محابِّهِ حَصَلَتْ موافقةُ الربِّ لعبدهِ في حوائجهِ ومطالبهِ؛ فقالَ: «ولَئِنْ سَألَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، ولئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيْذَنَّهُ»؛ أي: كما وافقِني في مُرادي بامتثالِ أوامري والتقرُّبِ إليَّ بمحابيّ، فأنا أوافقهُ في رغبتِهِ ورهبتِهِ فيما يسألُني أنْ أفعَلَهُ به ويستعيذُني أنْ ينالهُ، وقَوِيَ أمرُ هٰذه الموافقةِ مِنَ الجانبين حتى اقتضى ذٰلك تردُّدَ الربِّ سبحانه في إماتَةِ عبدِهِ لأنَّهُ يكرهُ الموتَ، والربُّ تعالى يكرهُ ما يكرهُهُ عبدُهُ ويكرهُ مساءَتَهُ، فمِنْ هٰذه الجهةِ يقتضي أنْ لا يُميتَهُ ولٰكنَّ مصلحتَهُ في إماتَتِهِ، فإنَّهُ ما أماتَهُ إلَّا ليُحْيِيَهُ، ولا أمرضَهُ إلَّا لِيُصِحَّهُ، ولا أفقَرَهُ إلَّا لِيُغْنِيَهُ، ولا منعَه إلا لِيُعْطِيَهُ، ولم يُخرجهُ مِنَ الجنَّةِ في صُلبِ أبيه إلَّا لِيُعِيدَهُ إليها، فهٰذا هو الحبيبُ على الحقيقةِ لا سواهُ؛ بل لو كانَ في كُلِّ مَنْبَتِ شعرةٍ مِنَ العبدِ مَحَبَّةٌ تامةٌ للهِ، لكانَ بعضَ ما يستحقُّهُ على عبدِهِ:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى مَا الحُبُّ إلَّا لِلحَبِيبِ الأَوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَداً لأوَّلِ مَنْزِلِ

٩٣ ـ فَصْلٌ [التَّتَيُّم؛ آخر مراتب الحبّ]:

ثم التَّتَيُّمُ؛ وهو آخرُ مراتِبِ الحُبِّ، وهو تعبُّدُ المُحِبِّ لمحبوبِهِ، يُقالُ: تَيَّمَه الحبُّ، إذا عبَّدَه، ومنه: تَيْمُ اللهِ؛ أي: عَبْدُ اللهِ، وحقيقةُ التعبُّدِ: الذلُّ والخضوعُ للمحبوبِ، ومنه قولهُم: طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: مُذَلَّلٌ قد ذَلَّلَتْهُ الأقدامُ؛ فالعبدُ هو الذي ذَلَّلَهُ الحبُّ والخضوعُ لمحبوبِهِ، ولهٰذا كانتْ أشرفُ أحوالِ العبدِ ومقاماتِهِ هي العبوديَّةِ؛ فلا منزلَ له أشرفُ منها.

وقد ذكرَ اللهُ أكرمَ الخلقِ عليه وأحبَّهم إليه، وهو رسولُه محمدٌ ﷺ بالعبوديةِ في أشرفِ مقاماتِهِ، وهو مقامُ الدعوةِ إليه، ومقامُ التحدِّي بالنبوَّةِ، ومقامُ الإسراءِ، فقال سبحانه: ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وإنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورةٍ مِنْ مثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأقْصَى الّذي بَارَكْنا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

وفي حديثِ الشفاعةِ: «اذْهَبُوا إلى محمدٍ؛ عبدٌ غفرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ»[1]، فنالَ مقامَ الشفاعةِ بكمالِ عبوديَّتِهِ، وكمالِ مغفرةِ اللهِ له.

واللهُ سبحانَهُ خلقَ الخَلْقَ لعبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، التي هي أكملُ أنواعِ المحبَّةِ مع أكملِ أنواعِ الخُضوعِ والذُّلِّ، وهٰذا هو حقيقةُ الإسلامِ ومِلَّةُ إبْرَاهِيمَ التي مَنْ رغبَ عنها فقد سَفِهَ نفسَهُ؛ وقال تعالى: ﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ

(١) رواه البخاري (٤٢٠٦)، ومسلم (١٩٣).

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُم مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُم شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلَهَ آبَائِكَ إِبْراهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣].

ولهٰذا كانَ أعظمَ الذنوبِ عندَ اللهِ الشركُ، واللهُ لا يغفر أن يُشركَ به.

وأصلُ الشركِ باللهِ الإشراكُ به في المحبَّةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فأخبرَ سبحانهُ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُشركُ بِهِ فيتّخذ من دونه نِدّاً يُحِبُّهُ كما يحبُّ اللهَ، وأخبرَ أنَّ الذينَ آمنوُا أشدُّ حُبّاً للهِ مِنْ أصحابِ الأندادِ لأندادِهِم.

وقيل: بل المعنى أنَّهم أشدُّ حُبّاً من أصحاب الأنداد للهِ، فإنَّهم وإنْ أحبُّوا اللهَ، لٰكنْ لمَّا شَرَكُوا بينه وبينَ أندادِهم في المحبَّةِ ضَعُفَتْ محبَّتُهُم للهِ، والموحِّدُونَ للهِ لمَّا خَلَصَتْ محبَّتُهُم له كانت أشدَّ مِنْ محبَّةِ أولٰئك، والعدلُ بربِّ العالمينَ، والتسويةُ بينه وبينَ الأندادِ إنَّما يكون بالتسويةِ في هٰذه المحبَّةِ، كما تقدَّم.

ولما كانَ مُرادُ اللهِ مِنْ خلقهِ خُلُوصَ هٰذه المحبَّةِ له أنكرَ على مَنِ اتَّخذَ مِنْ دونِهِ وليّاً أو شفيعاً غايةَ الإنكارِ، وجمعَ ذٰلك تارةً، وأفردَ أحدَهما عن الآخر فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾

[الأنعام: ٥١].

وقال في الإفراد: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ . قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٤٣ و٤٤]، وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً ولاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبدُ ربَّهُ وحدَه أقامَ له الشُّفعاءَ، وعقدَ له المُوالاةَ بينه وبين عبادهِ المؤمنينَ فصاروا أولياءَهُ في اللهِ، بخلافِ مَنِ اتَّخذَ مخلوقاً وليّاً مِنْ دونِ اللهِ.

فهٰذا لونٌ وذاك لونٌ.

كما أنَّ الشفاعةَ الشِّرْكيَّةَ الباطلةَ لونٌ، والشفاعةَ الحقَّ الثابتةَ التي إنَّما تُنالُ بالتوحيدِ لونٌ، وهٰذا موضعُ فُرقانٍ بينَ أهلِ التَّوحيدِ وأهلِ الإشراكِ، واللهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ.

والمقصودُ: أنَّ حقيقةَ العُبوديَّةِ لاَ تَحْصُلُ مع الإشراكِ باللهِ في المحبَّةِ؛ بخلافِ المحبَّةِ للهِ، فإنَّها من لوازمِ العُبوديَّةِ وموجباتِها؛ فإنَّ محبَّةَ الرسولِ ـ بل تقديمُهُ في الحُبِّ على الأنفُسِ والآباءِ والأبناءِ ـ لا يتمُّ الإيمانُ إلا بها؛ إذ محبَّتُهُ مِنْ محبَّةِ اللهِ، وكذٰلكَ كلُّ حبٍّ في اللهِ ولله، كما في «الصَّحيحين»[1] عنه ﷺ: أنه قال: «ثلاثُ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإيمانِ».

وفي لفظٍ في «الصَّحيحين»[2]: «لا يَجِدُ حَلاَوَةَ الإيمانِ إلاَّ مَنْ كَانَ فيهِ ثلاثُ خِصَالٍ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ مِمَّا سواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وأن يكرهَ أن يرجِعَ في الكُفْرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ منهُ، كما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ».

---

(١) رواه البخاري (رقم ١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤١)، ومسلم (٤٣).

وفي الحديثِ الذي في «السُّننِ»[1]: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وأبغَضَ للهِ، وأعطى للهِ، ومَنَعَ للهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمانَ».

وفي حديث آخَرَ: «ما تحابَّ رَجُلانِ في اللهِ إلَّا كانَ أفضَلُهُما أشدَّهُما حُبّاً لصاحِبِهِ»[2].

فإن هٰذه المحبَّةَ مِنْ لوازِمِ محبَّةِ اللهِ وموجِبَاتِهَا، وكُلَّمَا كانَتْ أقوى، كان أصلُها كذٰلك.

٩٤ ـ فَصْلٌ [أربعة أنواع المحبّة]:

وها هنا أربعةُ أنواعٍ مِنَ المحبَّةِ، يجبُ التفريقُ بينها، وإنما ضلَّ مَنْ ضلَّ بعدمِ التمييزِ بينها:

أحدها: محبَّةُ اللهِ، ولا تكفي وحدَها في النجاةِ مِنْ عذابِ اللهِ والفوزِ بثوابِهِ؛ فإنَّ المشركينَ وعُبَّادَ الصَّليبِ واليهودَ وغيرَهم يحبُّونَ اللهَ[3].

الثاني: محبَّةُ ما يُحِبُّ اللهُ، وهٰذه هي التي تُدخِلُهُ في الإسلامِ وتُخرِجُهُ

---

(١) رواه أبـو داود (٤٦٨١)، والطبراني في «الكبير» (٧٦١٣) و(٧٧٣٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٥٤) عن أبي أُمامة بسند حسن.

(٢) أخرجه البُخاريّ في «الأدب المفرد» (٥٤٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٦٦)، والحـاكم (٤ / ١٧١)، والطيالسي (٢٠٥٣)، وأبو يعلى (٣٤١٩)، وابن حبان (٥٦٦) عن ابن مسعود بسند صحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢ / ١٥٩).

(٣) وهٰذا ردٌّ ماحقٌ على أعداءِ منهج السَّلَف الذين لا يُمَيِّزونَ بين الغَثِّ والسمين، والخرز والثمين، فيظنُّون كلَّ لامعٍ ذهباً، مُتوهمين ـ أو مُوهمين ـ أنَّ قاعدة المحبَّةِ ـ أو الإخلاص ـ كافيةٌ في قَبول العَمَل، ومُغْنِيَةٌ في الحُصولِ على رضا الله، غافلين ـ أو متغافلين ـ عن قاعدةِ الاتِّباع والأسوةِ الكاملة برسول الله ﷺ.

مِنَ الكفرِ، وأحبُّ الناسِ إلى اللهِ أقومُهُم بهٰذه المحبَّةِ وأشدُّهم فيها.

الثالث: الحبُّ للهِ وفيهِ، وهي مِنْ لوازِمِ محبَّةِ ما يُحِبُّ، ولا تستقيمُ محبَّةُ ما يُحَبُّ إلَّا بالحبِّ فيه وله.

الرابع: المحبةُ معَ اللهِ، وهي المحبَّةُ الشِّرْكِيَّةُ، وكلُّ مَنْ أحبَّ شيئاً مع اللهِ لا للهِ، ولا مِنْ أجلهِ، ولا فيه؛ فقدِ اتَّخَذَهُ نِدّاً منْ دونِ اللهِ، وهٰذه محبَّةُ المشركينَ.

وبقي قسمٌ خامسٌ ليس ممَّا نحنُ فيه، وهو المحبَّةُ الطبيعيةُ، وهي مَيْلُ الإنسانِ إلى ما يُلائِمُ طبعَهُ، كمحبَّةِ العطشانِ للماءِ، والجائعِ للطعامِ، ومحبَّةِ النومِ والزوجةِ والولدِ، فتلك لا تُذَمُّ إلَّا إذا ألْهَتْ عن ذكرِ اللهِ، وشَغَلَتْ عن مَحَبَّتِهِ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم ولاَ أَوْلاَدُكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: ٣٧].

٩٥ ـ فَصْلٌ [الخُلَّة تتضمن كمال المحبّة]:

ثم الخُلَّةُ وهي تتضمَّنُ كمالَ المحبَّةِ ونهايَتَها، بحيثُ لا يبقى في قلبِ المحبِّ سَعَةٌ لغيرِ محبوبِهِ، وهي منصبٌ لا يقبلُ المُشاركَةَ بوجه ما، وهٰذا المنصبُ خاصٌّ للخليلَيْنِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهما: إبراهيمَ ومحمدٍ، كما قال ﷺ: «إنَّ اللهَ اتَّخذَني خليلاً كَمَا اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً»[1].

وفي «الصَّحيحِ»[2] عنه ﷺ أنه قالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أهلِ الأرْضِ خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولٰكنَّ صاحِبَكُم خليلُ اللهِ».

(١) رواه مسلم (٥٣٢) عن جندب.

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٣٨٣).

وفي حديثٍ آخَرَ: «إنِّي أبرأُ إلى كُلِّ خليلٍ مِنْ خُلَّتِه»[1].

ولما سألَ إبراهيمُ عليه السلامُ الولدَ فأُعْطِيَهُ، وتَعَلَّقَ حبُّه بقلبه، فأخذَ منه شُعبةً؛ غارَ الحبيبُ على خليلِهِ أن يكونَ في قلبهِ مَوْضِعٌ لغيرِه، فأمَرَه بذبحِهِ، وكانَ الأمرُ في المنامِ ليكونَ تنفيذُ المأمورِ به أعظمَ ابتلاءً وامتحاناً، ولم يكن المقصودُ ذبحَ الولدِ، ولكنَّ المقصودَ ذبحُهُ مِنْ قلبِهِ لِيُخْلِصَ القلبُ للربِّ، فلمَّا بادرَ الخليلُ إلى الامتثالِ، وقدَّمَ محبَّةَ ربِّهِ على محبةِ ولدِه، حصلَ المقصودُ فَرُفِعَ الذبحُ، وفُدِيَ الولدُ بذِبحٍ عظيمٍ، فإنَّ الربَّ تعالى ما أمر بشيء ثم أبطَلَهُ رأساً، بل لا بُدَّ أن يبقى بعضُهُ أو بَدَلُهُ كما أبقى شريعةَ الفداءِ، وكما أبقى استحبابَ الصدقةِ بينَ يدي المناجاةِ، وكما أبقى الخَمْسَ صلواتٍ بعدَ رفعِ الخمسينَ وأبقى ثوابها، وقال: «لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، هِيَ خمسٌ في الفعْلِ، وهِيَ خمسونَ في الأجرِ»[2].

٩٦ - فَصْلٌ [المحبّة عامّة، والخلّة خاصة]:

وأمَّا ما يظنُّهُ بعضُ الغالطينَ أنَّ المحبَّةَ أكملُ مِنَ الخِلَّةِ، وأنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ، ومحمداً حبيبُ اللهِ فمِنْ جهلِهِ! فإنَّ المحبةَ عامَّةٌ، والخُلَّةَ خاصَّةٌ، والخُلَّةُ نهايةُ المحبَّةِ، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ اتَّخذَهُ خليلاً كما اتخذَ إبراهيمَ خليلاً، ونفى أن يكونَ له خليلٌ غيرَ ربِّهِ، مع إخبارِهِ بحبِّه لعائشةَ ولأبيها[3]، ولعمرَ بنِ الخطابِ وغيرِهم.

وأيضاً فإنَّ اللهَ سبحانه ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:

(١) رواه مسلم (٢٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) عن أنس.

(٣) روى البخاري (٣٤٦٢) أنَّ عَمْرو بن العاص سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: عائشة، قال: ومِن الرجال؟ قال: أبوها».

٢٢٢]، و ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، و ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، والشابُّ التائبُ حبيبُ اللهِ، وخلَّتُهُ خاصَّةٌ بالخليلَيْنِ، وإنَّما هٰذا[1] مِنْ قلَّةِ العلمِ والفهمِ عنِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ.

٩٧ ـ فَصْلٌ [العبد يترك ما يحبُّ ويهوى لمن يحبّه ويهواه]:

قد تقدمَ أنَّ العبدَ لا يتركُ ما يُحِبُّهُ ويهواه إلَّا لما يحبُّه ويهواه، ولٰكنْ يتركُ أضعفَهما محبَّةً لأقواهما محبَّةً؛ كما أنَّه يفعلُ ما يكرهُهُ لحصولِ ما محبَّتُهُ أقوى عندَه مِنْ كراهةِ ما يفعلهُ، أو لِخَلَاصهِ مِنْ مكروهٍ، كراهتُهُ عنده أقوى مِنْ كراهةِ ما يفعلهُ.

وتقـدَّمَ أنَّ خاصيَّةَ العقـلِ إيثارُ أعلى المحبـوبَيْنِ على أدناهما، وأيسرِ المكروهينِ على أقواهما، وتقدمَ أنَّ هٰذا من كمالِ قوَّةِ الحُبِّ والبُغضِ.

ولا يتمُّ له هٰذا إلَّا بأمرين: قُوَّة الإدراكِ، وشجاعةِ القلبِ، فإنَّ التخلُّفَ عن ذٰلك والعملَ بخلافِهِ يكونُ إمَّا لضعفِ الإدراكِ، بحيثُ إنَّه لم يُدْرِك مراتبَ المحبـوبِ والمكـروهِ على ما هي عليه، وإمَّـا لضعفٍ في النفسِ وعجزٍ في القلبِ، بحيثُ لا يُطاوِعُهُ على إيثارِ الأصلحِ لرفعِ علمهِ بأنَّه الأصلحُ، فإذا صحَّ إدراكُهُ وقويت نفسهُ وتشجَّعَ قلبُهُ على إيثارِ المحبوبِ الأعلى والمكروهِ الأدنى، فقد وُفِّقَ لأسبابِ السَّعادةِ.

فمِنَ النـاسِ مَنْ يكونُ سلطانُ شهوتِهِ أقوى مِنْ سُلطانِ عقلِهِ وإيمانِهِ، فيقهرُ الغالبُ الضعيفَ، ومنهم مَنْ يكونُ سلطانُ إيمانهِ وعقلِهِ أقوى مِنْ سلطانِ شهوتِهِ.

---

(١) دعوى أنَّ المحبَّة أكملُ مِنَ الخُلَّةِ!

وإذا كانَ كثيرٌ مِنَ المـرضى يَحميهِ الطبيبُ عمَّا يضرُّهُ فتأبى عليه نفسُهُ وشهوتُهُ إلَّا تناولَهُ، ويُقَدّمُ شهوتَهُ على عقلِهِ، وتُسمِّيهِ الأطباءُ: عديمَ المروءةِ! فهٰكذا أكثرُ مرضى القلوبِ يُؤثِرونَ ما يزيدُ مَرَضَهُم؛ لقوَّةِ شهوتِهِم له.

فأصلُ الشرِّ مِنْ ضعفِ الإدراكِ وضعفِ النفسِ ودناءتِها، وأصلُ الخيرِ مِنْ كمالِ الإدراكِ وقُوَّةِ النفسِ وشرفها وشجاعتها.

فالحبُّ والإرادةُ أصلُ كُلِّ شيءٍ ومبدؤهُ، والبغضُ والكراهةُ أصلُ كلِّ تركٍ ومبدؤهُ، وهاتانِ القُوَّتَانِ في القلبِ أصلُ سعادةِ العبدِ وشقاوتُهُ.

ووجودُ الفعلِ الاختياريِّ لا يكونُ إلَّا بوجودِ سببهِ مِنَ الحُبِّ والإرادةِ.

وأمَّـا عدمُ الفعـلِ فتـارةً يكونُ لعدمِ مُقتضيهِ وسببهِ، وتارةً يكونُ لوجودِ البُغضِ والكراهةِ المانعةِ منه، وهٰذا متعلَّقُ الأمرِ والنهيِ، وهو الذي يُسمَّى: الكَفَّ، وهو مُتعلَّقُ الثوابِ والعقابِ، وبهٰذا يزولُ الاشتباهُ في مسألةِ التَّرْكِ[1]، وهل هو أمرٌ وجوديٌّ أو عدميٌّ؟

والتحقيقُ أنَّـه قسمـانِ: فالتـركُ المُضـافُ إلى عدمِ السببِ المُقتضي عدميٌّ، والمضافُ إلى السببِ المانعِ مِنَ الفعلِ وُجوديٌّ.

٩٨ ـ فَصْلٌ [الحيُّ يؤثر الفعل والترك الاختياريين]:

وكـلُّ واحدٍ مِنَ الفعلِ والتركِ الاختياريين إنَّما يُؤْثِرُهُ الحيُّ لِمَا فيه مِنْ حُصُـولِ المنفعةِ التي يَلْتَذُّ بحصولِها، أو زوالِ الألمِ الذي يحصلُ له الشفاءُ بزوالِهِ، ولهٰذا يقال: شفىٰ صدرَهُ، وشفى قلبَه، قال:

هِيَ الشِّفَـاءُ لِدَائِي لَوْ ظَفِـرْتُ بِهَـا ... وَلَيْسَ مِنْهَــا شِفَــاءُ الـدَّاءِ مَبْـذُولُ

وهٰـذا مطلوبٌ يُؤْثِـرُهُ العـاقلُ بل الحيوانُ البهيمُ؛ ولٰكنْ يَغْلَطُ فيه أكثرُ

(١) انظر كتابي «علم أصول البدع» (ص ١٠٧ ـ ١١٨).

الناسِ غَلَطاً قبيحاً، فيقصدُ حصولَ اللَّذَّةِ بما يُعْقِبُ عليه أعظمَ الألمِ؛ فيؤلِمُ نفسَهُ مِنْ حيثُ يظنُّ أنَّه يُحَصِّلُ لذَّتَهَا، ويشفي قلبَهُ بما يُعْقِبُ عليه غايةَ المرضِ!

وهٰـذا شأنُ مَنْ قَصَرَ نظرهُ على العاجلِ ولم يُلاحِظ العواقبَ، وخاصَّةُ العقلِ النظرُ في العواقبِ، فأعقلُ النَّاسِ مَنْ آثَـرَ لذَّتهُ وراحتَهُ الآجلةَ الدائمةَ على العاجلةِ المُنْقَضِيَةِ الزَّائلة، وأسفهُ الخلقِ مَنْ باعَ نعيمَ الأبَدِ وطيبَ الحياةِ الدائمةِ واللَّذةِ العُظمى التي لا تَنْغيصَ فيها ولا نقصَ بوجهٍ ما بلذَّةٍ مُنقضيةٍ مشوبةٍ بالآلامِ والمخاوفِ، وهي سريعةُ الزَّوالِ وشيكةُ الانقضاءِ.

قال بعضُ العلماءِ: فَكَّرْتُ فيما يسعى فيه العقلاءُ، فرأيتُ سعيَهم كلَّه في مطلوبٍ واحدٍ، وإن اختلفَتْ طُرُقُهم في تحصيلهِ؛ رأيتُهم جميعاً إنَّما يَسْعَوْنَ في دفعِ الهمِّ والغمِّ عن نُفوسِهم، فهٰذا بالأكلِ والشربِ، وهٰذا بالتجارةِ والكَسْبِ، وهٰذا بالنِّكاحِ، وهٰذا بسماعِ الغناءِ والأصواتِ المُطربةِ، وهٰذا باللَّهوِ واللعبِ! فقلتُ: هٰذا المطلوبُ مطلوبُ العقلاءِ، ولٰكنَّ الطرقَ كلَّها غيرُ موصلةٍ إليه، بل لعـلَّ أكثرَها إنما يُوصلُ إلى ضدِّه، ولم أرَ في جميعِ هٰذه الطرقِ كلِّها طريقاً مُوصلةً إليه إلَّا الإقبالَ على اللهِ ومعاملتَه وحده وإيثارُ مَرضاتِهِ على كلِّ شيءٍ.

فإنَّ سالكَ هٰذه الطريقِ إنْ فاتَهُ حظُّهُ مِنَ الدنيا فقدْ ظَفِرَ بالحظِّ العالي الـذي لا فَوْتَ معه، وإنْ حصلَ للعبدِ حصلَ له كلُّ شيءٍ، وإنْ فاتَهُ فاتَهُ كلُّ شيءٍ، وإنْ ظفرَ بحظِّهِ مِنَ الدنيا نالَهُ على أهنأ الوجوهِ، فليس للعبدِ أنفعُ مِنْ هٰذه الطرقِ، ولا أوصلُ منها إلى لذَّاتِهِ وبهجتِهِ وسعادتِهِ، وباللهِ التوفيقُ.

٩٩ ـ فَصْلٌ [المحبوب قسمان: لنفسه ولغيره]:

والمحبوبُ قسمانِ: محبوبٌ لنفسهِ، ومحبوبٌ لغيرِه، والمحبوبُ لغيرِه لا بُدَّ أن ينتهيَ إلى المحبـوبِ لنفسـهِ؛ دفعاً للتسلسُلِ المُحالِ، وكلُّ ما سوى

المحبوبِ الحقِّ فهو محبوبٌ لغيرِه، **وليس شيءٌ يُحَبُّ لنفسهِ إلَّا اللهَ وحدَه، وكـلُّ ما سواهُ مما يحبُّ فإنَّما محبَّتُهُ تبعٌ لمحبَّةِ الربِّ تبارك وتعالى**، كمحبةِ ملائكتهِ وأنبيائِهِ وأوليائِهِ، فإنَّها تَبَعٌ لمحبَّتِهِ سبحانه، وهي مِنْ لوازمِ محبَّتِهِ، فإنَّ محبَّةَ المحبوبِ تُوجِبُ محبَّةَ ما يُحِبُّهُ، وهٰذا موضعٌ يجبُ الاعتناءُ به، فإنَّه مَحَلُّ فُرقانٍ بينَ المحبَّةِ النافعةِ لغيرِهِ، والمحبَّةِ التي لا تنفعُ بل قد تَضُرُّ.

فاعلمْ أنَّـه لا يُحَبُّ لذاتِـهِ إلَّا مَنْ كانَ كمـالُـهُ مِنْ لوازمِ ذاتِهِ، وإلٰهيَّتُهُ وربـوبيَّتُـهُ وغنـاهُ مِنْ لوازمِ ذاتـهِ، وما سواهُ فإنَّما يُبْغَضُ ويُكرهُ لِمُنافاتِهِ محابّه ومضادتِهِ لها، وبغضُه وكراهتُهُ بحسبِ قوَّةِ هٰذه المُنافاةِ وضعفِها، فما كانَ أشدَّ منـافـاةً لمحـابِّه، كانَ أشدَّ كراهةً مِنَ الأعيانِ والأوصافِ والأفعالِ والإراداتِ وغيرِها، فهٰذا ميزانٌ عادلٌ تُوزَنُ به موافقةُ الربِّ ومُخالفتهُ ومُوالاتُهُ ومُعادَاتُهُ، فإذا رأينا شَخْصاً يُحِبُّ ما يكرهُهُ الربُّ تعالى ويكرهُ ما يحبُّهُ؛ عَلِمْنَا أنَّ فيه مِنْ مُعاداتِهِ بحسبِ ذٰلك، وإذا رأينـا شـخصاً يُحِبُّ ما يحبُّهُ الربُّ ويكرهُ ما يكرهُهُ، وكُلَّما كانَ الشيءُ أحبَّ إلى الربِّ كانَ أحبَّ إليه وآثرَ عنده، وكُلَّما كانَ أبغضَ إليه كان أبغضَ إليه وأبعدَ منه؛ علمنا أنَّ فيهِ مِنْ موالاةِ الربِّ بحسبِ ذٰلك.

فتَمَسَّكْ بهٰذا الأصلِ في نفسِكَ وفي غيرِكَ، **فالولايةُ عبارةٌ عن موافقةِ الوليِّ الحميدِ في محابِّه ومساخطِهِ، وليستْ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ ولا تمزُّقٍ ولا رياضةٍ**.

والمحبوبُ لغيرِهِ قسمانِ أيضاً:

أحدُهما: ما يلتذُّ المحبُّ بإدراكِهِ وحصولِهِ.

والثاني: ما يألـمُ به ولٰكنْ يحتملهُ لإفضائِهِ إلى المحبوبِ، كشُربِ الدواءِ الكريهِ، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦].

فأخبرَ سبحانه أنّ القتالَ مكروهٌ مع أنّه خيرٌ لهم لإفضائِهِ إلى أعظمِ محبوبٍ وأنفعهِ، والنفوسُ تُحبُّ الراحةَ والدَّعَةَ والرفاهيَّةَ، وذٰلك شرٌّ لها لإفضائِهِ إلى فواتِ هٰذا المحبوبِ، فالعاقلُ لا ينظرُ إلى لذَّةِ المحبوبِ العاجلِ فيُؤْثِرُها، وألمِ المكروهِ العاجلِ فيرغبُ عنه؛ فإنَّ ذٰلك قد يكونُ شرّاً له، بل قد يجلبُ عليه غايةَ الألمِ ويُفَوِّتُهُ أعظمَ اللذةِ، بل عقلاءُ الدنيا يتحَمَّلونَ المشاقَّ المكروهَةَ لما يُعقبُهُم مِنَ اللذةِ بعدَها، وإنْ كانت منقطعةً.

فالأمورُ أربعةٌ:

مكروهٌ يُوصِلُ إلى مكروهٍ.

ومكروهٌ يُوصِلُ إلى محبوبٍ.

ومحبوبٌ يُوصِلُ إلى محبوبٍ.

ومحبوبٌ يُوصِلُ إلى مكروهٍ.

فالمحبوبُ الموصِلُ إلى محبوبٍ قد اجتمعَ فيه داعِي الفعلِ مِنْ وجهينِ، والمكروهُ الموصِلُ إلى مَكروهٍ قد اجتمعَ فيه داعِي التركِ مِنْ وجهين.

بقي القسمانِ الآخرانِ يتجاذَبهُما الداعيانِ ـ وهما معتركُ الابتلاءِ والامتحانِ ـ؛ فالنفسُ تُؤْثِرُ أقربَهُما جواراً منها، وهو العاجلُ، والعقلُ والإيمانُ يُؤْثِرُ أنفعَهما وأبقاهما، والقلبُ بينَ الداعِيَيْنِ، وهو إلى هٰذا مرَّةً، وإلى هٰذا مرَّةً.

وها هنا محلُّ الابتلاءِ شَرْعاً وقَدَراً؛ فداعِي العقلِ والإيمانِ ينادي كلَّ وقتٍ: حيَّ على الفلاحِ، «عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرَى»[1]، وفي المماتِ

---

(١) مَثَلٌ ضربه العربُ للرجل يحتمل المشقَّة طلباً للراحة، وانظر: «مجمع الأمثال» (٢ / ٣) للميداني.

يحمـدُ العبـدُ التقى، فإنْ اشتـدَّ ظلامُ ليلِ المحبـةِ، وتَحَكَّمَ سلطانُ الشهوةِ والإرادةِ يقول: يا نفسُ اصـبري؛ فما هي إلَّا ساعةٌ ثم تنقضي، ويذهبُ هٰذا كلُّهُ ويزولُ.

١٠٠ ـ فَصْلٌ [الحبُّ أصل كلِّ عمل من حقٍّ وباطلٍ]:

وإذا كانَ الحبُّ أصلَ كلِّ عملٍ مِنْ حقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينيَّةِ حبُّ اللهِ ورسولِهِ، كما أنَّ أصلَ الأقوالِ الدينيةِ تصديقُ اللهِ ورسولِهِ، وكلُّ إرادةٍ تمنعُ كمالَ الحبِّ للهِ ورسولِهِ وتُزاحِمُ هٰذه المحبَّةَ أو شُبهةٍ تمنعُ كمالَ التصديقِ؛ فهي مُعارِضَةٌ لأصلِ الإيمانِ أو مُضْعِفَةٌ له، فإنْ قويَتْ حتى عارَضَتْ أصلَ الحُبِّ والتصديقِ كانت كُفراً أو شِركاً أكبرَ، وإنْ لم تُعارضهِ قدحَتْ في كمالهِ، وأثَّرتْ فيه ضَعفـاً وفُتـوراً في العزيمةِ والطَّلَبِ، وهي تَحْجِبُ الواصلَ وتقطعُ الطالبَ وتُنْكِسُ الـراغبَ، **فلا تصحُّ الموالاةُ إلَّا بالمعاداة**، كما قال تعالى عن إمامِ الحُنفـاءِ المُحِبِّينَ أنَّـه قال لقـومِـه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]؛ فلم يصحَّ لخليلِ اللهِ ﷺ هٰذه الموالاةُ والخلَّةُ إلا بتحقيقِ هٰذه المعاداةِ، فإنَّه لا ولاءَ إلَّا للهِ، ولا ولاءَ لله إلا بالبراءةِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواهُ.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَـوْمِهِمْ إِنَّـا بُرَآءُ مِنْكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّـذِي فَطَرَنِي فَإِنَّـهُ سَيَهْـدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]؛ أي: جعلَ هٰذه المولاةَ للهِ والبراءةَ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه كلمةً باقيةً في عَقِبهِ يتوارثُها الأنبياءُ وأتْبَاعُهُم بعضُهم عن بعضٍ وهي كلمةُ: لا

إله إلَّا اللهُ، وهي التي وَرَّثَها إمامُ الحنفاءِ لأتباعِهِ إلى يوم القيامة.

وهي الكلمةُ التي قامَتْ بها الأرضُ والسماواتُ، وفطرَ اللهُ عليها جميعَ المخلوقاتِ، وعليها أُسِّسَتِ الملَّةُ ونُصِبَتِ القبلةُ، وجُرِّدَتْ سيوفُ الجهادِ، وهي محضُ حقِّ اللهِ على جميعِ العبادِ، وهي الكلمةُ العاصمةُ للدمِ والأموالِ والذُّرِّيةِ في هٰذه الدارِ، والمنجيةُ منْ عذابِ القبرِ وعذابِ النارِ، وهي المنشورُ الذي لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ إلَّا به، والحبلُ الذي لا يَصِلُ إلى اللهِ مَنْ لم يتعلَّق بسببِهِ، وهي كلمةُ الإسلامِ، ومفتاحُ دارِ السلامِ، وبها انقسمَ الناسُ إلى شقيٍّ وسعيدٍ ومَقْبولٍ وطريدٍ، وبها انفصلتْ دارُ الكفرِ مِنْ دارِ الإيمانِ، وتميَّزَتْ دارُ النعيمِ مِنْ دارِ الشقاءِ والهوانِ، وهي العمودُ الحاملُ للفرضِ والسنَّةِ و«مَنْ كانَ آخِرَ كلامِهِ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ»[1].

وروحُ هٰذه الكلمةِ وسِرُّها: إفرادُ الربِّ ـ جلَّ ثناؤه، وتقدَّسَتْ أسماؤهُ، وتبارَكَ اسمهُ، وتعالى جَدُّهُ، ولا إلٰه غيرُهُ ـ؛ بالمحبَّةِ والإجلالِ والتعظيمِ والخوفِ والرجاءِ، وتوابعِ ذٰلك مِنَ التَّوكُّلِ والإنابةِ والرغبةِ والرهبةِ، فلا يُحِبُّ سواهُ، وكلُّ ما يُحِبُّ غيرَهُ فإنَّما يُحِبُّ تَبَعاً لمحبَّتِهِ، وكونُهُ وسيلةً إلى زيادةِ محبَّته، ولا يَخافُ سواهُ، ولا يرجوَ سواهُ، ولا يتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يرغبُ إلَّا إليه، ولا يرهبُ إلَّا منه، ولا يحلفُ إلَّا باسمِهِ، ولا ينذرُ إلا له، ولا يُتابُ إلا إليه، ولا يُطاعُ إلَّا أمرُهُ، ولا يُتحَسَّبُ إلَّا به، ولا يُستعانُ في الشدائِد إلَّا به، ولا يُلتجأُ إلَّا إليه، ولا يُسْجَدُ إلَّا له، ولا يُذْبَحُ إلَّا له وباسمِهِ، ويجتمعُ ذٰلك كلُّه في حرفٍ واحدٍ، وهو: أنْ لا يَعْبُدَ إلَّا إياه بجميعِ أنواعِ العبادةِ؛ فهٰذا هو تحقيقُ شهادةِ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٠ / ١١٢)، والحاكم (١ / ٣٥١) عن معاذ بإسنادٍ يحتمل التحسين.

وله شاهدٌ عن أبي هُريرة: أخرجه ابن حبان (٢٩٩٣) بسند جيد.

ولهٰـذا حَرَّمَ اللهُ على النارِ مَنْ شهدَ أنْ لا إلٰه إلاَّ اللهُ حقيقةَ الشهادةِ، ومُحَالٌ أنْ يدخلَ النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هٰذه الشهادةِ وقامَ بها، كما قال تعالى: ﴿والَّذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]، فيكونُ قائماً بشهادتِهِ في ظاهرِهِ وباطنِهِ، في قلبِهِ وقالبِهِ؛ فإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ تكونُ شهادتُهُ مَيْتَةً، ومنهم مَنْ تكونُ نائمةً فإذا نُبِّهَتِ انتبهتْ، ومنهم مَنْ تكونُ مُضطجعةً، ومنهم مَنْ تكونُ إلى القيامِ أقربَ، وهي في القلبِ بمنـزلةِ الروحِ فِي البدنِ، فروحٌ ميتةٌ، وروحٌ مريضةٌ إلى الموتِ أقربُ، وروحٌ إلى الحياةِ أقربُ، وروحٌ صحيحةٌ قائمةٌ بمصالحِ البدنِ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ (١) عنه ﷺ: «إنِّي لأعْلَمُ كلمةً لا يقولُها عبدٌ عندَ الموتِ إلَّا وَجَدَتْ رُوحُهُ لها رُوحاً».

فحياةُ الروحِ بحياةِ هٰذه الكلمةِ فيها، كما أنَّ حياةَ البدنِ بوجودِ الرُّوحِ فيه، وكما أنَّ مَنْ ماتَ على هٰذه الكلمةِ فهو في الجنَّةِ يتقلَّبُ فيها، فمَنْ عاشَ على تحقيقِها والقيامِ بها فروحهُ تتقلَّبُ في جنَّةِ المأوى، وعيشُهُ أطيبُ عيشٍ؛ قال تعالى: ﴿وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى . فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١]؛ فالجنَّةُ مأواهُ يومَ اللقاءِ.

وجنَّةُ المعرفةِ والمحبةِ والأُنسِ باللهِ والشوقِ إلى لقائِهِ والفرحِ به والرضى به وعنه؛ مأوى رُوحِهِ في هٰذا الدارِ، فَمَنْ كانت هٰذه الجنَّةُ مأواهُ ها هنا كانَتْ جنةُ الخلدِ مأواهُ يومَ المَعَادِ، ومَنْ حُرِمَ هٰذه الجنةَ فهو لتلك الجنةِ أشدُّ حرماناً، والأبـرارُ في النعيمِ وإن اشتدَّ بهم العيشُ وضاقَتْ عليهم الدنيا، والفُجَّارُ في

---

(١) رواه أحمد (١ / ٦٣)، والحاكم (١ / ٧٢)، وابن حبان (٢٠٤)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٢ / ٢٩٦)، وابن خُزيمة في «التوحيد» (ص ٣٢٨)، وابن البنَّاء في «فضل التهليل» (رقم ١) عن عمر بن الخطَّاب وعُثمان رضي الله عنهما، وسندهُ قويٌّ.

جحيم وإن اتَّسَعَتْ عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وطيبُ الحياةِ جنَّةُ الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأيُّ نعيمٍ أطيبُ مِنْ شرحِ الصدرِ؟

وأيُّ عذابٍ أمرُّ مِنْ ضيقِ الصَّدْرِ؟

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحياةِ الدُّنْيا وفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]؛ فالمؤمنُ المخلصُ للهِ مِنْ أطيبِ الناسِ عيشاً، وأنعمِهِم بالاً، وأشرحِهِم صدراً، وأسرِّهم قلباً، وهٰذه جنَّةٌ عاجلةٌ قبلَ الجنةِ الآجلةِ.

قال النبي ﷺ: «إذا مَرَرْتُم برياضِ الجنَّـةِ فارْتَعُـوا، قالـوا: وما رياضُ الجنةِ؟ قال: حِلَقُ الذِّكْرِ»(١).

ومن هٰذا قولهُ ﷺ: «ما بينَ بيتي ومِنْبَري روضةٌ من رياضِ الجنَّةِ»(٢).

ومنْ هٰذا قولهُ ـ وقد سألوهُ عن وصالِهِ في الصَّومِ ـ: «إنِّي لستُ كَهَيْئَتِكُم، إنِّي أظلُّ عندَ ربِّي يُطعِمُني ويَسْقِيني»(٣)، فأخبرَ ﷺ أنَّ ما يَحْصُلُ له مِنَ الغذاءِ عندَ ربه يقومُ مقامَ الطعامِ والشرابِ الحِسِّيِّ، وأنَّ ما يحصلُ له مِنْ ذٰلك أمرٌ يختصُّ به لا يُشارِكُهُ فيه غيرُهُ، فإذا أمسكَ عن الطعامِ والشرابِ فله عنه عِوَضٌ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١١٠٥).

يقومُ مقامَهُ وينوبُ منابَهُ، ويُغني عنه، كما قيل:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الشَّرَابِ وتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا شَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا ... رُوحُ اللِّقَاءِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

وكُلَّما كانَ وجودُ الشيءِ أنفع للعبدِ وهو إليه أحوجُ كان تألُّمُهُ بِفَقْدِهِ أشدَّ، وكُلَّما كانَ عدمُهُ أنفعَ له كانَ تألُّمُهُ بوجودِهِ أشدَّ، ولا شيءَ على الإطلاقِ أنفعُ للعبدِ مِنْ إقبالِهِ على اللهِ، واشتغالِهِ بذكرِهِ، وتنعُّمِهِ بحبِّهِ، وإيثارِهِ لمرضاتِهِ، بل لا حياةَ له ولا نعيمَ ولا سُرورَ ولا بهجةَ إلَّا بذلك، فعدمُه آلمُ شيءٍ له وأشدُّه عذاباً عليه، وإنَّما تغيبُ الروحُ عن شُهودِ هٰذا العذابِ والألمِ لاشتغالها بغيرِهِ، واستغراقها في ذلك الغيرِ، فتغيبُ به عن شهودِ ما هي فيه مِنْ أَلَمِ الفواتِ بفراقِ أحبِّ شيءٍ إليها وأنفَعَهُ لها، وهٰذه منزلةُ السَّكرانِ المُستغرقِ في سُكرِهِ الذي احترَقَتْ دارُهُ وأموالُهُ وأهلُهُ وأولادُهُ، وهو لاستغراقِهِ في السُّكْرِ لا يشعرُ بألمِ ذلك الفواتِ وحَسْرَتِهِ، حتى إذا صحا وكُشِفَ عنه غطاءُ السُّكْرِ وانتبهَ مِنْ رقدةِ الخمرِ؛ فهو أعلمُ بحالِهِ حينئذٍ.

وهٰكذا الحالُ سواءٌ عندَ كَشْفِ الغطاءِ ومُعايَنَةِ طلائعِ الآخرةِ والإشرافِ على مُفارقةِ الدنيا، والانتقالِ منها إلى اللهِ، بل الألَمُ والحَسْرَةُ والعذابُ هناك أشدُّ بأضعافٍ مُضاعفةٍ، فإنَّ المُصابَ في الدنيا يرجو جَبْرَ مُصيبتِهِ بالعِوَضِ، ويعلمُ أنَّه قد أُصيبَ بشيءٍ زائلٍ لا بقاءَ له؛ فكيفَ بمَنْ مُصيبَتُهُ بلا عِوَضٍ عنه، ولا بَدَلَ منه، ولا نِسبةَ بينه وبينَ الدُّنيا جميعِها؟ فلو قضى اللهُ سبحانه عليه بالموتِ من هٰذه الحَسْرَةِ والألمِ لكانَ العبدُ جديراً به، والموتُ لَيَعُودُ أعظمَ أمنيَّتِهِ وأكبرَ حسراتِهِ، هٰذا لو كانَ الألمُ على مُجَرَّدِ الفواتِ؛ فكيفَ وهناكَ مِنَ العذابِ على الروحِ والبدنِ بأمورٍ أخرى وجوديَّة ما لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ؟!

فتباركَ مَنْ حَمَّلَ هٰذا الخَلْقَ الضعيفَ هٰذينِ الألمينِ العظيمينِ، اللَّذينِ لا تحمِلهُما الجبالُ الرَّواسي.

فَاعْرِض الآنَ على نَفْسِكَ أعظمَ محبوبٍ لك في الدُّنيا، بحيثُ لا تطيبُ لك الحياةُ إلَّا معهُ، فأصبَحْتَ وقد أُخِذَ منك، وحِيلَ بينكَ وبينه أحوجَ ما كُنْتَ إليه، فكيفَ يكونُ حالُكَ؟ هٰذا ومنه كلُّ عِوَضٍ؛ فكيفَ بمَنْ لا عوضَ عنه؟ كما قيل:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ وَمَا مِنَ اللهِ إنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وفي أثرٍ إلٰهيٍّ: «ابنَ آدمَ، خلقتُكَ لعبادتِي فلا تلعبْ، وتَكَفَّلْتُ برزقِكَ فلا تَتْعَبْ، ابنَ آدمَ! أطِعْني تجِدْني، فإن وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شيءٍ، وإن فُتَّكَ فاتَكَ كُلُّ شَيءٍ، وأنا أحبُّ إليك مِنْ كلِّ شيءٍ»[1].

١٠١ ـ فَصْلٌ [المحبّة جنس تحته أنواع متفاوتة]:

ولمَّا كانت المحبَّةُ جنساً تحتَهُ أنواعٌ متفاوتةٌ في القَدْرِ وَالوَصْفِ، كان أغلبُ ما يُذكرُ فيها في حقِّ اللهِ تعالى ما يختصُّ به ويليقُ به مِنْ أنواعِها، وما لا يصلحُ إلّا له وَحدهُ، مثلُ العبادةِ والإنابةِ ونحوِهما، فإنّ العبادةَ لا تَصْلُحُ إلّا له وحدَه، وكذٰلك الإنابةُ.

وقد تُذْكَرُ المحبَّةُ باسِمها المُطْلَقِ، كقولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأعظمُ أنواعِ المحبَّةِ المذمومةِ: المحبةُ معَ اللهِ التي يُسوِّي المُحِبُّ فيها بين محبَّةِ اللهِ ومحبَّتِهِ النِّدَّ الذي اتَّخذَهُ مِنْ دونِهِ.

---

(١) لم أقف له على أصل على كثرة ما تردِّده الألسنةُ!! وعلى كثرةِ ما بحثتُ عنه!

وأعظمُ أنواعِها المحمودةِ محبَّةُ اللهِ وحدَه ومحبَّةُ ما أحبَّ.

وهٰذه المحبَّةُ هي أصلُ السعادةِ ورأسُها التي لا ينجو أحدٌ مِنَ العذابِ إلَّا بها.

والمحبَّةُ المذمومةُ الشِّركيَّةُ هي أصلُ الشَّقاوةِ ورأسُها التي لا يبقى في العذابِ إلَّا أهلُها، فأهلُ المحبَّةِ الذين أحبُّوا اللهَ وعبدوهُ وحدَه لا شريكَ له لا يدخلونَ النارَ، ومَنْ دخلها منهم بذنوبهِ فإنه لا يبقىٰ فيها منهم أحدٌ.

ومَدَارُ القرآنِ على الأمرِ بتلك المحبَّةِ ولوازِمِهَا، والنهيِ عنِ المحبَّةِ الأخرى ولوازِمِها، وضربِ الأمثالِ والمقاييسِ للنوعينِ، وذكرِ قصصِ النوعينِ، وتفصيلِ أعمالِ النوعينِ وأوليائِهم ومعبودِ كليهما، وإخبارِهِ عن فعلهِ بالنوعينِ، وعن حالِ النَّوعينِ في الدورِ الثلاثةِ: دارِ الدُّنيا، ودارِ البرزخِ، ودارِ القرارِ، والقرآنُ جاءَ في شأنِ النوعينِ.

وأصلُ دعوةِ جميعِ الرُّسُلِ عليهم السلامُ مِنْ أوَّلِهم إلى آخِرِهم: إنَّما هي عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له؛ المُتَضَمِّنَةُ لكمالِ حُبِّهِ، وكمالِ الخُضوعِ والذُّلِّ له، والإجلالِ والتعظيمِ، ولوازِمِ ذٰلك: مِنَ الطَّاعَةِ والتَّقوى.

وقد جاءَ في «الصَّحيحين»[1] من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «والذي نفسي بيده! لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتَّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ وَلَدِهِ ووالِدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ».

وفي «صحيح البُخاري»[2] أن عُمر بن الخطَّابِ رضي الله عنه قال: «يا رسولَ اللهِ! واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِنْ كُلِّ شيءٍ إلَّا مِنْ نفسي، فقالَ: لا يا عُمَرُ

---

(١) رواه البخاري (١٤ و١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) (برقم ٦٢٥٧).

حتَّى أكونَ أحبَّ إليكَ مِنْ نَفْسِكَ، قال: والذي بعثك بالحقِّ؛ لأنْتَ أحبُّ إليَّ مِنْ نفسي، قال: الآنَ يا عُمَرُ».

فإذا كان هٰذا شأنَ محبَّةِ عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ، ووجوب تقديمها على محبَّةِ نفسِ الإنسانِ وولدِهِ ووالدِهِ والناس أجمعينَ؛ فما الظَّنُّ بمحبَّةِ مُرْسِلِه سبحانه وتعالى، وَوُجُوبِ تقديمِها على محبَّة ما سواه؟

ومحبَّةُ الرَّبِّ سبحانه وتعالى تختصُّ عن محبَّةِ غيرِهِ في قَدْرِها وصِفَتِها، وإفرادِهِ سبحانه بها؛ فإنَّ الواجبَ له من ذٰلك كُلِّهِ أن يكونَ أحبَّ إلى العبدِ مِنْ وَلَدِهِ ووالدِهِ، بل مِنْ سَمْعِهِ وبصَرِهِ ونَفْسِهِ التي هي بينَ جَنْبَيهِ، فيكون إلٰهه الحقُّ ومعبودُهُ أحبَّ إليه من ذٰلك كلِّه، والشيءُ قد يُحَبُّ من وجهٍ دون وجهٍ، وقد يُحَبُّ بغيرِهِ، وليس شيءٌ يُحَبُّ لذاتِهِ من كل وجهٍ إلَّا اللهُ وحدَه، ولا تَصْلُحُ الألوهيَّةُ إلَّا له، و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والتألُّهُ: هو المحبَّةُ والطاعةُ والخضوعُ.

١٠٢ ـ فَصْلٌ [المحبة أصل كُلِّ حركة في العالم العلوي والسفلي]:

وكُلُّ حركةٍ في العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ فأصْلُهَا المحبَّةُ، فهي علَّتُها الفاعليَّةُ والغائيَّةُ.

وذٰلك لأنَّ الحَرَكَاتِ ثلاثةُ أنواعٍ: حَرَكَةٌ اختياريَّةٌ وإراديَّةٌ، وحركةٌ طبيعيَّةٌ، وحركةٌ قسريَّةٌ.

والحركةُ الطبيعيةُ أصلُها السكونُ، وإنما يتحرَّكُ الجسمُ إذا خرجَ عن مُسْتَقَرِّهِ ومركزِهِ الطبيعيّ، فهو يتحرَّكُ للعَوْدِ إليه، وخروجُهُ عن مركزِهِ ومستقرِّهِ إنما هو بتحريكِ القاسِرِ المُحَرِّكِ له، فله حركةٌ قَسْريَّةٌ تتحرَّكُ بتحريكِ مُحَرِّكِهِ وقاسرِهِ، وحركةٌ طبيعيةٌ بذاتِها يَطْلُبُ بها العودَ إلى مركزِهِ، وكلا حركتيهِ تابعةٌ

للقاسِرِ المُحَرِّكِ، فهو أصلُ الحركتين.

والحركةُ الاختياريَّةُ والإراديَّةُ هي أصلُ الحركتينِ الأخريين، وهي تابعةٌ للإرادة والمحبَّةِ؛ فصارَتِ الحركاتُ الثلاثةُ تابعةً للإرادةِ والمحبَّةِ.

والدليلُ على انحصارِ الحركاتِ في هٰذه الثلاثِ: أنَّ المُتَحَرِّكَ إنْ كانَ له شعورٌ بالحركةِ فهي الإراديةُ، وإنْ لم يكُنْ له شعورٌ بها، فإمَّا أنْ تكونَ على وَفْقِ طبعِهِ أو لا؟

فالأُولى: هي الطبيعيةُ، والثانية: القَسْريَّةُ.

إذا ثَبَتَ هٰذا فما في السماواتِ والأرضِ وما بينهما من حَرَكاتِ الأفلاكِ والشمسِ والقمرِ والنُّجومِ والرياحِ والسحابِ والمَطَرِ والنَّباتِ وحركاتِ الأجنَّةِ في بُطونِ أُمَّهاتِها؛ فإنَّما هي بواسطةِ الملائكةِ المُدَبِّراتِ أمراً والمُقَسِّماتِ أمراً، كما دلَّ على ذٰلك نصوصٌ مِنَ القرآنِ والسنَّةِ في غيرِ موضعٍ، والإيمانُ بذٰلك مِنْ تمامِ الإيمانِ بالملائكةِ، فإنَّ اللهَ وكَّلَ بالرحمِ ملائكةً، وبالقَطْرِ ملائكةً، وبالنباتِ ملائكةً، وبالرياحِ ملائكةً، وبالأفلاكِ والشمسِ والقمرِ والنَّجومِ ملائكةً، ووكَّلَ بكلِّ عبدٍ أربعةً من الملائكةِ، كاتِبَيْنِ عن يمينِه وشمالِه، وحافِظَيْنِ مِنْ بين يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ، ووكَّلَ ملائكةً بقبضِ روحِهِ وتجهيزِها إلى مُستقرِّها مِنَ الجنَّةِ والنارِ، ووكَّلَ ملائكةً بمساءلَتِهِ وامتحانِهِ في قبرِهِ وعذابِهِ هناك أو نعيمِهِ، وملائكةً تسوقُهُ إلى المَحْشَرِ إذا قامَ مِنْ قَبْرِهِ، وملائكةً بتعذيبِهِ في النار أو بنعيمِهِ في الجنَّةِ، ووكَّلَ بالجبالِ ملائكةً، وبالسَّحابِ ملائكةً تسوقُهُ حيثُ أُمِرَتْ به، وبالقَطْرِ ملائكةً تُنْزِلُهُ بأمرِ اللهِ بقَدَرٍ معلومٍ كما شاءَ اللهُ، ووكَّلَ ملائكةً بغرسِ الجنةِ وعملِ آلتِها وفرشِها وثيابِها والقيامِ عليها، وملائكةً بالنار كذٰلك.

فأعظمُ جُندِ اللهِ الملائكةُ، ولفظُ (المَلَكُ) يُشْعِرُ بأنَّهُ رسولٌ مُنَفِّذٌ لأمرِ غيرِهِ، فليسَ لهم مِنَ الأمرِ شيءٌ، بل الأمرُ كلُّهُ للهِ، وهم يُدَبِّرُونَ الأمرَ ويُقَسِّمُونَهُ

بأمر اللهِ وإذْنِهِ، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْني شفاعَتُهُم شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وأقسمَ سبحانهُ بطوائفَ مِنَ الملائكةِ المُنَفِّذِينَ لأمرِهِ في الخليقةِ كما قال: ﴿والصَّافَّاتِ صَفّاً. فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً. فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ [الصافات: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿وَالمُرْسَلاَتِ عُرْفاً. فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً. والنَّاشِرَاتِ نَشْراً. فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً. فَالمُلْقِيَاتِ ذِكْراً. عُذْراً أو نُذْراً﴾ [المرسلاتِ: ١ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿والنَّازِعَاتِ غَرْقاً. والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً. والسَّابِحَاتِ سَبْحاً. فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً. فالمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

وقد ذكرنا معنى ذٰلك وسرَّ الإقسامِ به في كتاب «أقْسامِ القرآن»[1].

وإذا عَرفتَ ذٰلك؛ فجميعُ تلك المَحبَّاتِ والحَركاتِ والإراداتِ والأفعالِ هي عبادةٌ منهم لربِّ الأرضِ والسماواتِ، وجميعُ الحركاتِ الطبيعيَّة والقَسْريَّةِ تابعةٌ لها، فلولا الحبُّ ما دارتِ الأفلاكُ، ولا تحركَتِ الكواكبُ النَّيِّراتُ، ولا هَبَّتْ الرياحُ المُسَخَّراتُ، ولا مرَّتِ السُّحُبُ الحاملاتُ، ولا تحرَّكَتِ الأجنَّةُ في بُطونِ الأمَّهاتِ، ولا انصدَعَ عن الحَبِّ أنواعُ النباتِ، ولا اضطربتْ أمواجُ البحارِ الزاخراتِ، ولا تحركتِ المُدبِّراتُ والمُقسِّماتُ، ولا سبَّحَتْ بحمدِ فاطرها الأرضونَ والسماواتُ، وما فيها مِنْ أنواعِ المخلوقاتِ، فسبحانَ مَنْ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ والأرضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وإِنَّ مِنْ شيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولٰكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) وهو المسمَّى «التبيان»؛ فانظر (ص ٢٦٨) منه.

١٠٣ ـ فَصْلٌ [كلُّ حيٍّ له إرادة ومحبَّة]:

فإذا عُرِفَ ذلك فكلُّ حيٍّ له إرادةٌ ومحبَّةٌ وعملٌ بحَسَبِهِ، وكلُّ مُتَحَرِّكٍ فأصلُ حركتِهِ المحبَّةُ والإرادةُ، ولا صلاحَ للموجوداتِ إلَّا بأنْ تكونَ حَرَكاتُها ومحبَّتُها لفاطِرِها وبارئِها وحدَه، كما لا وجودَ لها إلَّا بإبداعِهِ وحده.

ولهٰذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولم يقل سبحانه: لما وُجِدتا ولكانتا معدومَتَيْنِ، ولا قال: لعُدِمتا؛ إذ هو سبحانه قادرٌ أنْ يُبقيهِمَا على وجهِ الفسادِ، لٰكنْ لا يمكنُ أن يكونا على وجهِ الصلاحِ والاستقامةِ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ وحدَهُ هو مَعْبُودَهُما ومعبودَ ما حَوَتَاهُ وسكَنَ فيهما، فلو كانَ للعالَم إلٰهانِ لفسَدَ نظامُهُ غايةَ الفسادِ، فإنَّ كُلَّ إلٰهٍ كانَ يطلبُ مُغالبةَ الآخرِ، والعُلُوَّ عليه، وتَفَرُّدَه دُونَهُ بالإلٰهيةِ، إذ الشركةُ نَقْصٌ ينافي كمال الإلٰهيةِ، والإلٰهُ لا يرضىٰ لنفسهِ أنْ يكونَ إلٰهاً ناقصاً، فإنْ قهرَ أحدُهما الآخر كانَ هو الإلٰهُ وحدهُ، والمقهورُ ليس بإلٰهٍ، وإنْ لم يَقْهَرْ أحدُهما الآخَرَ لزمَ عجزُ كلٍّ منهما ونقصهُ، ولم يكنْ تامَّ الإلٰهيةِ، فيجبُ أنْ يكونَ فوقهُما إلٰهٌ قاهرٌ لهما حاكمٌ عليهما، وإلَّا ذهبَ كلٌّ منهما بما خلقَ، وطلبَ كلٌّ منهما العُلُوَّ على الآخَرِ، وفي ذٰلك فسادُ أمرِ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهما، كما هو المعهودُ مِنْ فسادِ البلدِ إذا كانَ فيه مَلِكانِ متكافئانِ، وفسادِ الزوجةِ إذا كانَ لها بَعْلانِ، والشَّوْلِ[1] إذا كان فيه فَحْلانِ.

وأصلُ فسادِ العالَمِ إنما هو من اختلافِ الملوكِ والخلفاءِ، ولهٰذا لم يطمعْ أعداءُ الإسلامِ فيه في زمنٍ منَ الأزمنةِ إلَّا في زمن تعدُّدِ ملوكِ المسلمينَ

---

(١) في «المصباح المنير» (ص ٣٢٨): «شالت الناقةُ بِذَنبها (شَوْلاً) ـ عند اللقاح ـ: رَفَعَتْهُ؛ فهي شائلٌ».

واختلافِهم، وانفرادِ كُلٍّ منهم ببلادٍ، وطَلَبِ بعضهم العُلُوَّ على بعضٍ[1].

فصلاحُ السماواتِ والأرض واستقامتُهما وانتظامُ أمرِ المخلوقاتِ على أتمّ نظام من أظهرِ الأدلَّةِ على أنَّه لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ [يحيي ويميتُ] وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ كُلَّ معبودٍ من لَدُنْ عَرْشِهِ إلى قرارِ أرضِهِ باطلٌ إلَّا وجهَهُ الأعلى، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ و٩٢].

وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢].

فقيل: المعنى لابْتَغَـوْا السبيلَ إليه بالمُغالَبَةِ والقهرِ، كما يفعلُ الملوكُ بعضُهم مع بعضٍ، ويدُلُّ عليه قولُهُ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخُنا[2] رضي اللهُ عنه: والصحيحُ أنَّ المعنى: لابْتَغَوْا إليه سبيلاً بالتقرُّبِ إليه وطاعتِهِ؛ فكيفَ تعبدونَهُم من دونِهِ؟ وهم لو كانوا آلهةً كما يقولونَ لكانوا عبيداً له.

---

(١) وواقعُ الأمَّةِ اليومَ بكلِّ ما تحمله من تناقُضٍ وتباغُضٍ، وتشتُّت وتفتُّت، لَهُوَ أكبرُ دليلٍ على هذا الكلام النفيس الأصيل.

(٢) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة رحمه الله تعالى.

قال: ويدلُّ على هٰذا وجوهٌ:

منها: قولهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: **٥٧**]؛ أي: هٰؤلاء الذين تَعْبُدونَهُم مِنْ دوني هم عبادي كما أنتم عِبادي، تَرْجُونَ رحمتي وتخافون عذابي؛ فلماذا تعبدونَهُم مِنْ دوني؟

الثاني: أنَّه سبحانه لم يَقُل: لابتغوا عليه سبيلاً، بل قال: ﴿لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: **٤٢**]، وهٰذا اللفظُ إنما يُستعملُ في التقرُّب، كقولِهِ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: **٣٥**]. وأمَّا في المُغالبةِ فإنَّما يستعمل بِـ (علىٰ)، كقولِهِ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: **٣٤**].

الثالث: أنَّهم لم يقولوا: إنَّ آلهتهم تُغالبهُ وتطلبُ العُلُوَّ عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: **٤٢**]، وهم إنما كانوا يقولونَ: إنَّ آلهتَهم تبتغي التقرُّبَ إليه وتُقرِّبهُم زُلفى إليه، فقال: لو كانَ الأمرُ كما تقولونَ لكانتْ تلك الآلهةُ عبيداً له؛ فلماذا تعبدونَ عبيدَهُ مِنْ دونه؟!

١٠٤ ـ فَصْلٌ [آثار المحبّة وتوابعها ولوازمها وأحكامها]:

والمحبَّةُ لها آثارٌ وتوابعُ ولوازمُ وأحكامٌ، سواءٌ كانت محمودةً أو مذمومةً، نافعةً أو ضارةً: مِنْ الوَجْدِ، والذَّوْقِ، والحلاوةِ، والشوقِ، والأُنْسِ، والاتصالِ بالمحبوبِ والقُرْبِ منه، والانفصالِ عنه والبُعد منه، والصَّدِّ والهجرانِ، والفرحِ والسرورِ، والبُكاءِ والحزنِ، وغيرِ ذٰلك مِن أحكامِها ولوازمِها.

والمحبَّةُ المحمودةُ هي المحبَّةُ النافعةُ التي تَجلِبُ لصاحبها ما ينفعُه في دُنياهُ وآخرتِهِ، وهٰذه المحبَّةُ هي عنوانُ السعادةِ، وضدّها هي التي تجلبُ

لصاحِبِها ما يضرُّهُ في دنياهُ وآخِرَتِه، وهي عنوانُ شقاوتِه.

ومعلومٌ أنَّ الحيَّ العاقلَ لا يختارُ ما يضرُّهُ وَيُشْقِيهِ، وإنَّما يصدُرُ ذٰلك عن جَهْلٍ وظُلمٍ؛ فإنَّ النفسَ قد تهوى ما يَضُرُّها ولا ينفعُها، وذٰلك ظُلْمٌ مِنَ الإنسانِ لنفسهِ؛ إما بأنْ تكونَ جاهلةً بحالِ محبوبِها بأنْ تهوى الشيءَ وتُحِبَّهُ غيرَ عالمةٍ بما في محبَّتِهِ مِنَ المضرَّةِ، وهٰذا حالُ مَنِ اتَّبَعَ هواه بغيرِ علمٍ، وإمَّا عالمةً بما في مَحَبَّتِهِ مِنَ المضَرَّةِ لٰكِنْ تُؤثِرُ هواها على علمِها، وقد تتركَّبُ محبَّتُها مِنْ أمرينِ:

اعتقادٍ فاسدٍ.

وهوىً مذمومٍ.

وهٰذا حالُ مَنِ اتبعَ الظنَّ وما تهوى الأنفسُ؛ فلا تقعُ المحبَّةُ الفاسدةُ إلَّا مِنْ جهلٍ أو اعتقادٍ فاسدٍ أو هوىً غالبٍ، أو ما تركَّبَ مِنْ ذٰلك وأعانَ بعضُه بعضاً، فَتَنفقَ شُبهَةً وشهوةً، شُبهةً يشتبِهُ بها الحقُّ بالباطلِ وتزينُ له أمرَ المحبوبِ، وشهوةً تدعُوهُ إلى حصولِه، فيتساعَدُ جيشُ الشُّبْهَةِ والشهوةِ على جيشِ العقلِ والإيمانِ، والغَلَبَةُ لأقواهما.

وإذا عُرِفَ هٰذا فتوابعُ كُلِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ المحبَّةِ له حُكْمُ متبوعِهِ، فالمَحَبَّةُ النافعةُ المحمودةُ التي هي عنوانُ سعادةِ العبدِ وتوابِعُها كلُّها نافعةٌ له، حُكمُها حُكْمُ متبوعِها؛ فإنْ بكى نَفَعَهُ، وإنْ حزنَ نفعَهُ، وإنْ فرِحَ نفعَهُ، وإن انقبضَ نفعَهُ، وإن انبسطَ نفعَهُ؛ فهو يَتَقَلَّبُ في منازلِ المحبَّةِ وأحكامِها في مزيدٍ وربحٍ وقُربةٍ.

والمحبَّةُ الضارَّةُ المذمومَةُ توابِعُها وآثارُها كُلُّها ضارَّةٌ لصاحِبِها مُبْعِدةٌ له مِنْ رَبِّهِ، كيفما تَقَلَّبَ في آثارِها ونزلَ في منازِلِها فهو في خسارةٍ وبُعْدٍ.

وهٰذا شأنُ كُلِّ فعلٍ تَوَلَّدَ عن طاعةٍ ومعصيةٍ، فكلُّ ما تولَّدَ مِنَ الطاعةِ فهو

زيادةٌ لصاحِبها وقُربةٌ، وكلُّ ما تولَّدَ عن المعصيةِ فهو خُسرانٌ لصاحِبِه وبُعدٌ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ و١٢١].

فأخبرَ سبحانه في الآيةِ الأولى أنَّ الـمتولِّدَ عن طاعتِهِمْ وأفعالِهِم يُكتَبُ لهم به عملٌ صالحٌ.

وأخبرَ في الثانيةِ أنَّ أعمالَهُم الصالحةَ التي باشروُها تُكتَبُ لهم أنفُسها.

والفرقُ بينهما: أنَّ الأوَّلَ ليسَ مِنْ فعلِهِم، وإنَّما تَوَلَّدَ عنه، فكُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ، والثاني نفسُ أعمالِهِم فكُتِبت لهم.

فليتأمَّلْ قتيلُ المحبَّةِ هٰذا الفصلَ حقَّ التأمُّلِ ليعلَمْ ما له وما عليه:

سَيَعْلَمُ يَوْمَ العَـرْضِ أَيَّ بِضَـاعَـةٍ ... أَضَـاعَ وَعِنْـدَ الوَزْنِ مَا كَانَ حَصَّلَا

١٠٥ ـ فَصْلٌ [المحبّة والإرادة أصلُ كلِّ دين]:

وكما أنَّ المحبَّةَ والإرادةَ أصلُ كلِّ فعلٍ كما تقدمَ؛ فهي أصلُ كُلِّ دينٍ سواءٌ أكانَ حقّاً أو باطلاً، فإنَّ الدينَ هُوَ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ، والمحبَّةُ والإرادةُ أصلُ ذٰلك كلِّه، والدينُ هو الطاعةُ والعبادةُ والخُلُقُ، فهو الطاعةُ اللازمةُ الـدائمـةُ التي صارتْ خُلُقاً وعادةً، ولهٰذا فُسِّرَ الخُلُقُ بالدِّينِ في قولِه تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال الإمامُ أحمدُ عن ابنِ عُيَينَةٍ: قال ابنُ عباسٍ: «لعلىٰ دينٍ عظيمٍ»[1].

---

(١) أخرج نحوه ـ عنه ـ ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، كما في =

وسُئِلَتْ عائشةُ عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالت: «كانَ خُلُقُهُ القُرآنُ»[1].

والدِّينُ فيه معنى الإذْلالِ والقَهْرِ، وفيه معنى الذُّلِّ والخُضُوعِ والطاعةِ؛ فلذٰلك يكونُ مِنَ الأعلى إلى الأسفلِ؛ كما يُقال: دِنْتُهُ فدانَ، أي: قهرتُهُ فذلَّ.

قال الشاعر:

هُوَ دَانَ الـرِّبَـابَ إِذْ كَرِهُـوا الـدِّ ... ينَ فَأَضْـحَـوْا بِعِـزَّةٍ وصِـيَالِ

ويكونُ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، كما يُقال: دِنْتَ اللهَ، ودِنْتُ للهِ. وفلانٌ لا يَدينُ اللهَ ديناً، ولا يَدِينُ للهِ بدينٍ، فدانَ اللهَ؛ أي: أطاعَ اللهَ وأحبَّهُ وخافَهُ، ودانَ للهِ؛ أي: خشعَ له وخَضَعَ وَذَلَّ وانقادَ.

والدينُ الباطنُ لا بُدَّ فيه مِنَ الحُبِّ والخُضُوعِ كالعبادةِ سواءً، بخلافِ الدِّينِ الظاهرِ؛ فإنَّهُ لا يستلزمُ الحُبَّ، وإنْ كانَ فيه انقيادٌ وذلٌّ في الظاهرِ.

وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى يومَ القيامةِ يومَ الدينِ فإنَّهُ اليومُ الذي يُدينُ فيه النـاسُ بأعمـالِهِم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌّ، وذٰلـك يتضمَّنُ جزاءهم وحسابَهم، فلذٰلك فُسِّرَ بيومِ الجزاءِ ويومِ الحسابِ.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦ و٨٧]؛ أي: هلَّا تردّونَ الروحَ إلى مكانِها إنْ كنتم غيرَ مربوبينَ ولا مقهورينَ ولا مَجزيِّينَ.

وهٰـذه الآيةُ تحتـاجُ إلى تفسيرٍ؛ فإنَّهـا سِيقَتْ للاحتجـاجِ عليهم في إنكارِهِم البعثَ والحسابَ، ولا بُدَّ أنْ يكونَ الدليلُ مُسْتَلْزِماً لمدلولِهِ، بحيثُ

= «الدر المنثور» (٨ / ٢٤٣).

وانظر: «تفسير ابن كثير» (٨ / ٢١٤).

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

ينتقلُ الذِّهْنُ منه إلى المدلولِ ، لما بينهما مِنَ التلازُمِ ، فكُلُّ ملزومٍ دليلٌ على لازِمِهِ، ولا يجبُ العكسُ.

ووجـهُ الاستدلالِ : أنَّهم إذا أنكروا البعثَ والجزاءَ فقد كفروا بربِّهم، وأنكـروا قُدْرَتَهُ ورُبُوبِيَّتَهُ وحِكْمَتَهُ ، فإمَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّ لهم ربّاً قاهراً لهم مُتصرِّفاً فيهم كما يشاء؛ يُميتهم إذا شاءَ، ويُحْييهم إذا شاءَ، ويأمُرُهُم وينهاهُم، ويُثيبُ مُحْسِنَهُم وَيُعاقِبُ مسيئهُم، وإما أنْ لا يُقِرُّوا بربٍّ هٰذا شأنُهُ، فإنْ أقرُّوا به آمنوا بالبعثِ والنَّشورِ، والدينِ الأمريِّ والجزائيِّ، وإنْ أنكروهُ وكفروا به، فقد زَعَمُوا أنَّهم غيرُ مربوبينَ ولا محكومٌ عليهم، ولا لهم رَبٌّ يتصرَّفُ فيهم كما أرادَ، فهلاَّ يَقْدِرُونَ على دفعِ الموتِ عنهم إذا جاءَهم، وعلى ردِّ الرُّوحِ إلى مستقرِّها إذا بلغتِ الحلقومَ؟!

وهٰذا خِطابٌ للحاضِرينَ، عند المُحْتَضَرِ، وهم يُعاينونَ موتَهُ؛ أي: فهلاَّ تَرُدُّونَ روحَهَا إلى مكانِها إنْ كانَ لكم قُدرةٌ وتَصَرُّفٌ، ولستم مربوبينَ ولا مقهورينَ لقـاهـرٍ قادرٍ، تمضي عليكم أحكامُهُ، وتَنْفُذُ فيكم أوامرُهُ، وهٰذا غايةُ التعجيزِ لهم؛ إذ تبيَّنَ عجزُهُم عن ردِّ نفسٍ واحدةٍ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ولو اجتمعَ على ذٰلك الثَّقلانِ.

فيَا لها من آيةٍ دالَّةٍ على ربوبيَّتِهِ سبحانه، ووحدانيَّتِهِ، وتصرُّفِهِ في عبادِهِ، ونُفوذِ أحكامِهِ فيهم، وجَرَيانِها عليهم.

والـدِّينُ دينانِ: دينٌ شرعِيٌّ أمريٌّ، ودينٌ حِسابيٌّ جزائيٌّ، وكلاهما للهِ وحدَه؛ فالدِّينُ كُلُّهُ للهِ أمراً وجزاءً، والمحبَّةُ أصلُ كلِّ واحدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ، فإنَّ ما شرعهُ سبحانهُ وأمرَ به فإنَّه يُحِبُّهُ ويرضاهُ، وما نهى عنه فإنَّه يكرهُهُ ويُبغضُهُ لِمُنافَاتِهِ لما يُحِبُّهُ ويرضاهُ؛ فهو يُحِبُّ ضدَّهُ؛ فعادَ دينُهُ الأمريُّ كلُّه إلى محبَّتِهِ ورضاه.

ودينُ العبدِ للهِ به إنَّما يُقْبَلُ إذا كانَ عن محبَّةٍ ورضىً، كما قال ﷺ: «ذاقَ

طعمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً»(1).

فهٰذا الدينُ قائمٌ بالمحبَّةِ، وبسببِها شُرِعَ، ولأجلِها شُرِعَ، وعليها أُسِّسَ، وكذٰلك دينُهُ الجزائيُّ فإنَّهُ يتضمَّنُ مُجازاةَ المُحْسِنِ بإحسانِهِ والمُسيءِ بإساءتِهِ، وكلٌّ مِنَ الأمرينِ محبوبٌ للربِّ، فإنَّهما عدلُهُ وفضْلُهُ، وكلاهُما من صفاتِ كمالِهِ، وهو سبحانَهُ يُحِبُّ صفاتِهِ وأسماءَهُ، ويُحِبُّ مَنْ يُحِبُّها.

وكلُّ واحدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ فهو صِراطُهُ المستقيمُ الَّذي هو عليه سبحانه فهو على صراطٍ مستقيمٍ؛ في أمرِهِ ونهيِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ، كما قال تعالى إخباراً عن نبيِّهِ هودٍ عليه الصلاة والسلامُ أنَّه قال لقومِهِ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُستقيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

ولمَّا عَلِمَ نبيُّ اللهِ هودٌ عليه السلامُ أنَّ ربَّهُ على صراطٍ مستقيمٍ في خَلْقِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ، وقضائِهِ وقَدَرِهِ، ومَنْعِهِ وعطائِهِ، وعافيتِهِ وبلائِهِ، وتوفيقِهِ وخِذْلانِهِ، لا يَخْرُجُ في ذٰلك عن مُوجِبِ كمالِهِ المُقَدَّسِ، الذي تقتضيهِ أسماؤهُ وصفاتُهُ، مِنَ العدلِ والحكمةِ والرحمةِ، والإحسانِ، والفضلِ، ووضعِ الثوابِ في موضعِهِ، والعُقوبةِ في موضعها اللاَّئقِ بها، ووضعِ التوفيقِ والخذلانِ والعطاءِ والمنعِ والهدايةِ والإضلالِ، كلُّ ذٰلك في أماكنِهِ ومحالِّهِ اللائقةِ به ـ بحيثُ يَسْتَحِقُّ على ذٰلك كمالَ الحمدِ والثناءِ ـ أوجبَ له ذٰلك العلمُ والعرفانُ؛ إذ نادى على رؤوسِ الملأ مِنْ قومِهِ بجَنَانٍ ثابتٍ وقلبٍ غيرِ خائفٍ بل متجرِّدٍ للهِ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وربِّكُم مَا مِنْ دابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

---

(1) رواه مسلم (٣٤).

بِنَاصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

ثم أخبرَ عن عُمومِ قُدرتِهِ وقهرِهِ لكلِّ ما سواهُ، وذُلِّ كلِّ شيءٍ لعظمتِهِ، فقال: ﴿مَا مِنْ دابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فكيفَ أخافُ مَنْ ناصيتِهِ بيدِ غيرِهِ، وهو في قبضتِهِ وتحتَ قهرِهِ وسُلطانِهِ دونه! ومثلُ هٰذا الأمرِ أجهلُ الجهلِ وأقبحُ الظلمِ؟!

ثم أخبرَ أنَّه سُبحانهُ على صراطٍ مستقيمٍ، في كلِّ ما يقضيهِ ويُقَدِّرُهُ فلا يخافُ العبدُ جَوْرَهُ ولا ظُلْمَهُ، فلا أخافُ ما دونَهُ، فإنَّ ناصيَتَهُ بيدِهِ، ولا أخافُ جَوْرَهُ ولا ظُلْمَهُ، فإنَّهُ على صراطٍ مستقيمٍ، فهو سبحانهُ ماضٍ في عبدِهِ حُكْمُهُ، عدلٌ فيه قضاؤهُ، له الملكُ وله الحمدُ، لا يَخْرُجُ تصرُّفُهُ في عبادِهِ عن العَدْلِ والفَضْلِ، إنْ أعطى وأكرمَ وهدى ووفَّقَ فبفضلِهِ ورحمتِهِ، وإنْ منعَ وأهانَ وأضلَّ وخَذَلَ وأشقى فبعَدْلِهِ وحكمتِهِ، وهو على صراطٍ مستقيمٍ في هٰذا وهٰذا.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «ما أصابَ عبداً قطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ، فقالَ: اللهمَّ إنِّي عبدُكَ ابنُ عبدِكَ ابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتي بيدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤكَ، أسأَلُكَ اللهُمَّ بكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو أنزلْتَهُ في كِتَابِكَ، أو علَّمْتَهُ أحداً مِنْ خلقِكَ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَكَ: أن تجعلَ القرآن العظيمَ ربيعَ قلبي، ونُورَ صدْري، وجَلاءَ حُزْني، وذَهَابَ هَمِّي وغَمِّي، إلَّا أذْهَبَ اللهُ همَّهُ وغَمَّهُ وأبدَلَهُ مَكانَهُ فرجاً، قالوا: يا رسول الله! ألا نتعلَّمهُنَّ؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهُنَّ أن يتعلمهُنَّ»[1].

وهٰـذا يتناول حُكْمَ الربِّ الكَوْنيِّ والأمريِّ وقضاءَهُ الذي يكونُ باختيارِ

(١) رواه أحمد (١ / ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، والحاكم (١ / ٥٠٩)، وأبو يعلى (٥٢٩٧) عن ابن مسعود بسند صحيح.

وانظر ـ لزيادة الفائدة ـ: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٩) لشيخنا الألباني.

العبدِ وغيرِ اختيارِه، وكلا الحُكمينِ ماضٍ في عبدِه، وكلا القضاءينِ عدلٌ فيه، فهٰذا الحديثُ مُشْتَقٌّ مِنْ هٰذه الآيةِ، بينهما أقربُ نسبٍ.

١٠٦ ـ فَصْلٌ [المفاسد العاجلة والآجلة من عشق الصور]:

ونختمُ الجوابَ بفصلٍ مُتَعَلِّقٍ بعشقِ الصورِ وما فيه مِنَ المفاسِدِ العاجلةِ والآجلةِ، وإنْ كانَتْ أضعافَ ما يذكرهُ ذاكرٌ؛ فإنَّهُ يُفْسِدُ القلبَ بالذَّاتِ، وإذا فسدَ القلبُ فسدتِ الإراداتُ والأقوالُ والأعمالُ، وفسدَ ثَغْرُ التوحيدِ كما تقدَّمَ، وكما سَنُقَرِّرُهُ أيضاً إن شاءَ اللهُ.

واللهُ سبحانه وتعالى إنَّما حكى هٰذا المرضَ عن طائفتينِ مِنَ الناسِ وهما اللوطيةُ والنساءُ؛ فأخبرَ عن عِشْقِ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ وما راودتهُ وكادتهُ به، وأخبرَ عن الحالِ التي صارَ إليها يوسُفُ بصبرِهِ وعِفَّتِهِ وتقواهُ، مع أنَّ الذي ابْتُلِيَ به أمرٌ لا يصبرُ عليه إلَّا مَنْ صبَّرهُ اللهُ، فإنَّ مُواقعةَ الفعلِ بحسبِ قُوَّةِ الدَّاعِي وزوالِ المانعِ، وكانَ الدَّاعي ها هنا في غايةِ القُوَّةِ، وذٰلك لوجوهٍ:

أحدها: ما ركَّبه اللهُ سبحانهُ في طَبْعِ الرجلِ مِنْ ميلِهِ إلى المرأةِ، كما يميلُ العطشانُ إلى الماءِ، والجائعُ إلى الطعامِ، حتى إنَّ كثيراً مِنَ الناسِ يصبرُ عن الطعامِ والشرابِ ولا يصبرُ عن النساءِ، وهٰذا لا يُذَمُّ إذا صادفَ حِلًّا، بل يُحْمَدُ كما في كتابِ «الزهد»[1] للإمامِ أحمدَ مِنْ حديثِ يوسفَ بنِ عطيَّةَ الصفارِ

---

(١) لم أره في مطبوعتِه.

وقولهُ في آخره: «. . . أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن» مِمَّا تفردَّ به عند أحمد ـ هنا ـ يوسف بن عطيَّة الصفَّار، وهو متروكٌ!

والحديثُ ـ دون الزيادة ـ؛ ثابتٌ صحيحٌ:

فقد رواه أحمد في «مسنده» (٣ / ١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥)، والنَّسائي في «سننه» (٣٩٣٩)، وفي «عشرة النِّساء» (رقم ١ و٢)، والحاكم (٢ / ١٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢) و(٣٥٣٠)، والبيهقي =

عن ثابتٍ البنانيّ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُم النِّساءُ والطِّيبُ، أصبرُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ ولا أصبرُ عنهُنَّ».

الثاني: أنَّ يوسفَ عليه السلامُ كانَ شاباًّ، وشهوةُ الشَّابِّ وحِدَّتُهُ أقوى.

الثالث: أنَّه كان عَزَباً ليس له زوجةٌ ولا سُرِّيَّةٌ تكسرُ ثورةَ الشهوةِ.

الرابع: أنَّه كان في بلادِ غُربةٍ يتأتَّى للغريبِ فيها مِنْ قضاءِ الوَطَرِ ما لا يتأتَّى له في وطنِهِ، وبينَ أهلِهِ ومعارِفِهِ.

الخامس: أنَّ المرأةَ كانت ذاتَ منصبٍ وجمالٍ، بحيثُ إنَّ كلَّ واحدٍ من هٰذينِ الأمرينِ يدعو إلى مُواقعتِها.

السادس: أنَّها غيرُ مُمتنعةٍ ولا آبيَةٍ؛ فإنَّ كثيراً مِنَ الناسِ يُزيلُ رغبَتَهُ في المرأةِ إباؤها وامتناعُها؛ لِمَا يجدُ في نفسهِ مِنْ ذُلِّ الخضوعِ والسؤالِ لها، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يزيدُهُ الإباءُ والامتناعُ إرادةً وحُبّاً، كما قال الشاعر:

وزَادَنِي كَلَفاً فِي الحُبِّ أَنْ مُنِعْتُ ... أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

فَطِبَاعُ النَّفْسِ مختلفةٌ؛ فمنهم مَنْ يتضاعَفُ حبُّهُ عندَ بذلِ المرأةِ ورغبتِها ويَضْمَحِلُّ عندَ إبائِها وامتناعِها.

وأخبرني بعضُ القضاةِ أنَّ إرادتَهُ وشهوتَهُ تضمحِلُّ عندَ امتناعِ امرأتِهِ أو سُرِّيَّتِهِ وإبائِها، بحيثُ لا يُعاوِدُها، ومنهم مَنْ يتضاعَفُ حُبُّهُ وإرادتُهُ بالمنعِ فيشتَدُّ شوقُهُ كُلَّما مُنِعَ، ويحصلُ له مِنَ اللَّذَّةِ بالظَّفَرِ نظيرُ ما يحصلُ له مِنَ اللذةِ بالظفرِ بالضدِّ بعدَ امتناعِهِ ونِفَارِهِ، واللذةِ بإدراكِ المسألةِ بعدَ استصعابِها وشدَّةِ الحِرصِ

= (٧ / ٧٨) من طرق عن ثابت عن أنس.

وقد حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/١١٦). وانظر: «المقاصد الحسنة» (ص ٢٩٩) للسخاوي، و«زاد المعاد» (٤/٢٥٠) للمصنِّف، وما سيأتي (ص ٣٦٦).

على إدراكِها.

السابع: أنَّها طَلَبَتْ وأرادتْ وراوَدتْ وبَذَلَتِ الجُهْدَ؛ فَكَفَتْهُ مُؤنَةُ الطَّلَبِ وذُلَّ الرغبةِ إليها، بل كانت هي الرَّاغبةَ الذليلةَ، وهو العزيزَ المرغوبَ إليه.

الثامن: أنَّه في دارِها وتحتَ سُلطانِها وقهرِها؛ بحيثُ يخشى إنْ لم يُطاوِعها مِنْ أذاها له؛ فاجتمعَ داعِي الرغبةِ والرهبةِ.

التاسع: أنَّه لا يَخْشَى أنْ تَنِمَّ عليه هي ولا أحدَ مِنْ جهتِها، فإنَّها هي المُطالبةُ الراغبةُ، وقد غلَّقَتِ الأبوابَ وغيَّبَتِ الرقباءَ.

العاشر: أنَّه كانَ في الظاهرِ مملوكاً لها في الدارِ، بحيثُ يدخلُ ويخرجُ ويحضـرُ معها ولا يُنكرُ عليه، وكانَ الأُنسُ سابقاً على الطَّلبِ، وهو مِنْ أقوى الدَّواعِي، كما قيلَ لامرأةٍ شريفةٍ[1] مِنْ أشرافِ العربِ: مَا حَمَلَكِ على الزِّنى؟ قالت: «قربُ الوِسادِ وطُولُ السَّوادِ»، تعني قربُ وِسادِ الرجلِ مِنْ وسادتِي، وطولُ السَّوادِ بيننا.

الحادي عشر: أنَّها استعانَتْ عليه بأئمَّةِ المكرِ والاحتيالِ؛ فأرتهُ إياهُنَّ وشكَتْ حالَها إليهنَّ لتستعينَ بهنَّ عليه، فاستعانَ هو باللهِ عليهنَّ فقال: ﴿وإلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنَّها توعَّدتهُ بالسِّجنِ والصَّغَارِ، وهٰذا نوعُ إكراهٍ؛ إذ هو تهديدُ مَنْ يغلبُ على الظنِّ ما هَدَّدَ به، فيجتمعُ داعِي الشهوةِ وداعِي السلامةِ مِنْ ضيقِ السِّجْنِ والصَّغَارِ.

الثالث عشر: أنَّ الزوجَ لم يُظْهِرْ مِنَ الغيرةِ والنَّخْوَةِ مَا يُفَرِّقُ به بينهما، ويُبْعِدُ كلًّا منهما عن صاحبِهِ، بل كان غايةَ ما قابَلَها به أنْ قالَ ليوسفَ: ﴿أَعْرِضْ

---

(١) هي هِنْد بنت الخُسّ؛ فانظر: «أعلام النساء» (٥ / ٢٣١).

عَنْ هٰذا﴾ [يوسف: ٢٩]، وللمرأةِ: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدَّةُ الغيرةِ للرجلِ مِنْ أقوى الموانعِ، وهٰذا لم يظهرْ منه غيرةٌ.

ومع هٰذه الدَّواعي كُلِّها فآثَرَ مرضاةَ اللهِ وخوفَهُ، وحَمَلَهُ حُبُّهُ للهِ على أن اختارَ السجنَ على الزِّنى ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعَلِمَ أنَّه لا يُطيقُ صَرْفَ ذٰلك عن نفسِهِ، وأنَّ ربَّهُ تعالى إن لم يعصِمْهُ ويصرفْ عنه كيدَهُنَّ صَبَا إليهنَ بِطَبْعِهِ وكانَ مِنَ الجاهلينَ، وهٰذا مِنْ كمالِ معرفتِهِ بربِّهِ وبنفسِهِ.

وفي هٰذه القصةِ مِنَ العبرِ والفوائدِ والحِكَمِ [١] ما يزيدُ على ألفِ فائدةٍ، لعلَّنا إن وفَّق اللهُ أنْ نُفْرِدَها في مصنفٍ مستقلٍّ.

١٠٧ ـ فَصْلٌ [من حكى الله عنهم العشق]:

والطائفةُ الثانيةُ، الذين حكى اللهُ عنهم العشقَ هم اللوطيَّةُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . واتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ . قالوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ . قَالَ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧ ـ ٧٢]؛ فهٰذه الأمةُ عَشِقَتْ، فحكاهُ سبحانه عن طائفتينِ، عَشِقَ كلٌّ منهما ما حُرِّمَ عليه مِنَ الصورِ ولم يُبالِ بما في عشقهِ مِنَ الضَّررِ.

وهٰذا داءٌ أعيى الأطبَّاءَ دواؤُهُ، وعزَّ عليهم شفاؤُهُ، وهو لعمرُ اللهِ الداءُ

---

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص ٤٠٠ ـ ٤٣٤)، و«بدائع الفوائد» (١ / ١٩)، و«روضة المحبِّين» (ص ٣٤٢ ـ ٣٤٥) كلُّها للمصنِّف.

وقارن بكتاب «ابن القيِّم؛ حياته وآثاره» (ص ٢٩٥) لفضيلة الأخ الشيخ بكر أبو زيد.

العُضالُ، والسُّم القتَّالُ، الذي ما علقَ بقلبٍ إلَّا وعزَّ على الورى استنقاذُهُ مِنْ إسارِهِ، ولا استَعَلَتْ نارهُ في مُهجتِهُ إلَّا وَصَعُبَ على الخلقِ تخليصُها مِنْ نارِه.

وهو أقسامٌ:

فإنَّه تارةً يكونُ كفراً؛ كمَنِ اتَّخَذَ معشوقَهُ نِدّاً، يحبُّهُ كما يحبُّ اللهَ؛ فكيفَ إذا كانَتْ محبَّتُهُ أعظمَ مِنْ محبَّةِ اللهِ في قلبِهِ؟ فهٰذا عشقٌ لا يُغْفَرُ لصاحِبِه، فإنَّهُ مِنْ أعظمِ الشركِ، واللهُ لا يغفرُ أنْ يشركَ به وإنَّما يغفرُ بالتوبةِ الماحيةِ ما دونَ ذٰلك].

وعلامةُ هٰذا العِشقِ الشِّرْكِيِّ الكفريِّ: أن يُقدِّمَ العاشقُ رضى معشوقِهِ على رضى ربِّهِ، وإذا تعارضَ عنده حقُّ معشوقِهِ وحظُّهُ، وحقُّ ربِّهِ وطاعتُهُ؛ قَدَّمَ حقَّ معشوقِهِ على حقِّ ربِّه وآثَرَ رِضَاهُ على رضاهُ، وبَذَلَ لمعشوقِهِ أنفسَ ما يَقْدِرُ عليه، وبَذَلَ لربِّهِ ـ إنْ بذلَ ـ أردأ ما عنده؛ واستفرغَ وُسْعَهُ في مرضاةِ معشوقِهِ وطاعتِهِ والتقرُّبِ إليه، وجعلَ لربِّهِ ـ إنْ أطاعه ـ الفَضْلَةَ التي تَفْضَلُ عن معشوقِهِ مِنْ ساعاتِهِ.

فتأمَّلْ حالَ أكثرِ عُشَّاقِ الصورِ تَجِدْها مُطابقةً لذٰلك، ثم ضَعْ حالَهم في كِفَّةٍ، وتوحيدَهم وإيمانَهُم في كِفَّةٍ، ثم زِنْ وزناً يرضى اللهُ به ورسولهُ ويُطابقُ العدلَ!

ورُبَّما صرحَ العاشقُ منهم بأنَّ وَصْلَ معشوقِهِ أحبُّ إليه من توحيدِ رَبِّهِ، كما قال العاشقُ الخبيثُ[1]:

يَتَـرَشَّـفْـنَ مِنْ فَمِـي رَشَـفَـاتٍ ... هُنَّ أَحْـلَى فِيهِ مِنَ الـتَّـوْحِـيدِ

---

(١) هو المتنبِّي!!

فانظر «ديوانه» (٢ / ٤٠)، وتعليق محققه عليه!

وكمـا صرَّح الخبيثَ الآخرُ أنَّ وَصْلَ معشوقِهِ أشهى إليه مِنْ رحمةِ ربه له ـ فعياذاً بك اللهمَّ مِنْ هٰذا الخذلانِ ـ فقال:

وَصْـلُكِ أشـهـى إلَـى فُؤادِي مِنْ رَحْمَـةِ الـخَـالِقِ الـجَـلِيلِ

ولا ريبَ أنَّ هٰذا العشقَ مِنْ أعظمِ الشركِ، وكثيرٌ مِنَ العشاقِ يُصَرِّحُ بأنَّهُ لم يبقَ في قلبِهِ موضعٌ لغيرِ معشوقِهِ ألبتةَ؛ بل قد مَلَكَ معشوقُه عليه قلبَهُ كلَّهُ فصارَ عبداً مَحْضاً مِنْ كُلِّ وجهٍ لِمَعْشُوقِهِ؛ فَقَدْ رَضِيَ هٰذا مِنْ عبوديَّةِ الخالقِ جلَّ جلالُهُ بعبوديَّةِ مخلوقٍ مثلِهِ، فإنَّ العبوديةَ هي كمالُ الحبِّ والخضوعِ، وهٰذا قد استفرغَ قوَّةَ حبِّهِ وخُضُوعِهِ وذُلِّهِ لمعشوقِهِ فقد أعطاهُ حقيقةَ العبوديَّةِ.

ولا نسبةَ بين مفسدةِ هٰذا الأمرِ العظيمِ ومفسدةِ الفاحشةِ؛ فإنَّ ذٰلك ذنبٌ كبيرٌ لفاعِلِهِ حكمُ أمثالِهِ، ومفسدةُ هٰذا العشقِ مفسدةُ الشركِ.

وكـان بعضُ الشيوخِ مِنَ العارفينَ يقولُ: لأن أُبْتَلَى بالفاحشةِ مع تلك الصُّورةِ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أبتلىٰ فيها بعشقٍ يَتَعَبَّدُ لها قلبي ويَشْغَلُهُ عن اللهِ.

١٠٨ ـ فَصْلٌ [دواء هذا الدّاء القتّال؛ العشق]:

ودواءُ هٰذا الداءِ القتَّالِ أنْ يَعْرِفَ أنَّ ما ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ هٰذا الداءِ المُضَادِّ للتوحيدِ؛ إنَّما هو مِنْ جهلِهِ وغَفْلَةِ قلبِهِ عن اللهِ؛ فعليهِ أنْ يعرفَ توحيدَ ربِّهِ وسُنَنِهِ وآياتِـهِ أولاً، ثم يأتي مِنَ العبـاداتِ الظاهرةِ والباطنةِ بما يَشْغَلُ قلبَهُ عن دوامِ الفكرةِ فيه، ويُكْثِرُ اللَّجْأَ والتضرُّعَ إلى اللهِ سبحانه في صَرْفِ ذٰلك عنه؛ وأنْ يرجعَ بقلبِهِ إليه، وليس له دواءٌ أنفعَ مِنَ الإخلاصِ للهِ، وهو الدواءُ الذي ذكرهُ اللهُ في كتابِهِ حيثُ قال: ﴿كذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فأخبـرَ سبحـانـه أنَّه صَرَفَ عنه السوءَ مِنَ العشقِ والفحشاءِ مِنَ الفعلِ

بإخلاصِهِ، فإنَّ القلبَ إذا خَلَصَ وأخلصَ عملَهُ للهِ لم يتمَكَّنْ منه عشقُ الصورِ؛ فإنَّه إنما يتمكَّنُ مِنْ قلبٍ فارغٍ: كما قال:

أَتَـانِي هَوَاهَـا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَـادَفَ قَلْبـاً خَالِـياً فَتَـمَـكَّـنـا

ولْيَعْلَمِ العـاقـلُ أنَّ العقلَ والشرعَ يُوجبانِ تحصيلَ المصالحِ وتكميلَهَا وإعدامَ المفاسِدِ وتقليلَها؛ فإذا عَرَضَ للعاقلِ أمرٌ يرى فيه مصلحةً ومفسدةً؛ وجبَ عليه أمرانِ: أمرٌ عِلْمِيٌّ، وأمرٌ عَمَلِيٌّ؛ فالعلميُّ طلبُ معرفةِ الراجحِ مِنْ طَرَفي المصلحةِ والمفسدةِ؛ فإذا تَبَيَّنَ له الرّجحانُ وجبَ عليه إيثارُ الأصلحِ له.

ومِنَ المعلومِ أنَّـه ليس في عِشْقِ الصُّورِ مصلحةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ، بل مفسدتُهُ الدينيَّةُ والدنيويَّةُ أضعافُ ما يُقَدَّرُ فيه مِنَ المصلحةِ، وذلك مِنْ وجوهٍ:

أحدها: الاشتغالُ بحُبِّ المخلوقِ وذكرِهِ عن حُبِّ الرب تعالى وذكره؛ فلا يجتمعُ في القلبِ هذا وهذا إلَّا ويقهرُ أحدُهما الآخرَ، ويكونُ السُّلطانُ والغَلَبَةُ له.

الثاني: عذابُ قلبِهِ بمعشوقِهِ؛ فإنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئاً غيرَ اللهِ عُذِّبَ به ولا بدَّ، كما قيل:

فَمَـا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ وإنْ وَجَـدَ الهَـوَى حُلْوَ المَـذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِـياً فِي كُلِّ حِينٍ مَخَـافَـةَ فُرْقَـةٍ أَوْ لاِشْـتِـيَاقِ
فَيَبْـكِـي إنْ نَأَوْا شَوْقـاً إلَـيْهِـمْ وَيَبْـكِـي إنْ دَنَـوْا حَذَرَ الـفِـرَاقِ
فَتَـسْـخُـنُ عينُـهُ عِنْـدَ الـفِـرَاقِ وَتَـسْـخُـنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ الـتَّـلاقِي

والعشقُ ـ وإن استعذبَهُ صاحبُهُ ـ فهو مِنْ أعظمِ عذابِ القلبِ.

الثالث: أنَّ العاشقَ قلبُهُ أسيرٌ في قبضة معشُوقِهِ يسومُه الهوانُ، ولكنْ لسكرةِ العشقِ لا يشعرُ بمصابِهِ؛ فقلبهُ:

كَعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا حِيَاضَ الرَّدَى وَالطِّفْلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ

كما قال بعضُ هٰؤلاءِ:

مَلَكْتَ فُؤَادِي بِالقَطِيعَةِ والجَفَا وَأَنْتَ خَلِيُّ البَالِ تَلْهُو وَتَلْعَبُ

فعيشُ العاشقِ عيشُ الأسيرِ الموثقِ، وعيشُ الخليِّ عيشُ المسيَّبِ المطلق، كما قيل:

طَلِيقٌ بِرَأْيِ العَيْنِ وَهُوَ أَسِيرٌ عَلِيلٌ عَلَى قُطْبِ الهَلَاكِ يَدُورُ
وَمَيْتٌ يُرَى فِي صُورَةِ الحَيِّ غَادِياً وَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ
أَخُو غَمَرَاتٍ ضَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى المَمَاتِ حُضُورُ

الرابع: أنَّه يشتغلُ به عن مصالحِ دينهِ ودنياه، فليس شيءٌ أضيعَ لمصالحِ الدينِ والدنيا من عشقِ الصورِ:

أما مصالحُ الدِّينِ فإنَّها منوطةٌ بلَمِّ شَعَثِ القلبِ وإقبالِهِ على اللهِ، وعشقُ الصورِ أعظمُ شيءٍ تشعيثاً وتشتيتاً له.

وأمَّا مصالحُ الدنيا فهي تابعةٌ في الحقيقةِ لمصالحِ الدِّينِ؛ فمَنِ انفرطَتْ عليه مصالحُ دينه وضاعَتْ عليه؛ فمصالحُ دُنياهُ أضيعُ وأضيعُ.

الخامس: أنَّ آفاتِ الدنيا والآخرةِ أسرعُ إلى عُشَّاقِ الصورِ مِنَ النارِ في يابسِ الحطبِ.

وسبب ذٰلك أنَّ القلبَ كُلَّما قَرُبَ مِنَ العشقِ، وقوي اتِّصالُهُ به بَعُدَ مِنَ اللهِ؛ فأبعدُ القلوبِ مِنَ اللهِ قُلوبُ عُشَّاقِ الصُّورِ، وإذا بَعُدَ القلبُ مِنَ اللهِ طَرَقَتْهُ الآفاتُ، وَتَوَلَّاهُ الشيطانُ مِنْ كُلِّ نَاحيةٍ، ومَنْ تولَّاهُ عدوُّهُ واستولى عليه أنالَهُ وبالاً ولم يدعْ أذى يُمكنُهُ مِنْ إيصالِهِ إليه إلَّا أوصلَهُ؛ فما الظنُّ بقلبٍ تمكَّنَ منه عدوُّهُ وأحرصُ الخلقِ على غيِّهِ وفسادِهِ، وبَعُدَ منه وليُّهُ وَمَنْ لا سعادةَ ولا فلاحَ ولا سرورَ

إلّا بقربِهِ وولايَتِهِ!

السادس: أنَّه إذا تَمَكَّنَ مِنَ القلبِ واستحكَمَ وقويَ سلطانُهُ؛ أفسدَ الذِّهْنَ وأحـدَثَ الوسواسَ، وربَّما ألحَقَ صاحِبَهُ بالمجانين الذين فسدَتْ عقولُهم فلا ينتفعونَ بها.

وأخبارُ العُشَّاقِ في ذٰلك موجودةٌ في مواضعِها، بل بعضُها مُشاهَدٌ بالعيانِ، وأشرفُ ما في الإنسانِ عقلُهُ، وبه يتميَّزُ عن سائرِ الحيواناتِ، فإذا عدمَ عقلَهُ التحقَ بالحيوانِ البهيمِ، بل ربَّما كانَ حالُ الحيوانِ أصلحَ من حالِهِ، وهل أذهبَ عقلَ مجنونِ ليلى وأضرابِهِ إلَّا ذٰلك العشقَ!

وربما زادَ جنونُهُ على جنونِ غيرِهِ، كما قيل:

قالُـوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُم ... الـعِشْقُ أَعْــظَمُ مِمَّــا بالمَجَــانِينِ
العِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الـدَّهْـرَ صَاحِبُـهُ ... وإنَّمَـا يُصْـرَعُ المَجْنُـونُ فِي الحِينِ

السابع: أنَّه ربما أفسدَ الحواسَّ أو بعضَها، إمَّا إفساداً معنويّاً أو صُوريّاً، أما الفسادُ المعنويُّ فهو تابعٌ لفسادِ القلبِ؛ فإنَّ القلبَ إذا فسدَ فسدتِ العينُ والأذنُ واللســانُ، فيرى القبيحَ حَسَنــاً منـه ومِنْ معشوقِهِ كما في «المسندِ»[1] مرفوعاً: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعمِي وَيُصِمُّ»، فهو يُعمي عَيْنَ القلبِ عن رؤيةِ مساوىء المحبوبِ وعيوبِهِ، فلا ترى العينُ ذٰلك، ويصمُّ أذنَهُ عن الإصغاءِ إلى العذلِ فيه، فلا تسمعُ الأذنُ ذٰلك، **والرَّغَبَاتُ تسترُ العيوبَ**، فالراغبُ في الشيءِ لا يرى عيوبَهُ حتى إذا زالتْ رغبتُهُ فيه أبصرَ عيوبَهُ، فشدَّةُ الرغبةِ غشاوةٌ على العينِ،

---

(١) (٥ / ١٩٤) و(٦ / ٦٥٠).

ورواه أبو داود (٤٩٦٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢ / ١ / ١٥٧)، والقُضاعي في «الشِّهاب» (١٥١) عن أبي الدرداءِ.

وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيفٌ، وانظر: «المقاصد الحسنة» (٣٨١).

تمنعُ مِنْ رؤيةِ الشيءِ على ما هو به، كما قيل:

هَوَيْتُــكَ إِذْ عَيْنِـي عَلَيْهَــا غِشَــاوَةٌ فَلَمَّــا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُــومُهَا

والداخلُ في الشيءِ لا يرى عيوبَهُ، والخارجُ منه الذي لم يدخلْ فيه لا يرى عيوبَهُ، ولا يرى عيوبَهُ إلَّا مَنْ دخلَ فيه ثم خرجَ منه(١)، ولهٰذا كانَ الصحابَةُ الذين دخلوا في الإسلامِ بعدَ الكفرِ خيراً مِنَ الذينَ وُلِدُوا فِي الإسلامِ.

قال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: «إنما تنتقضُ عرى الإسلامِ عروةً عروةً، إذا وُلِدَ في الإسلامِ مَنْ لم يعرِف الجاهليةَ».

وأمَّا فسادُ الحواسِّ ظاهراً فإنه يُمْرِضُ البدنَ ويُنهكهُ، وربما أدَّى إلى تلَفِهِ، كما هو المعروفُ في أخبارِ مَنْ قَتَلَهُم العشقُ.

وقد رُفِعَ إلى ابنِ عباسٍ وهو بعرفةَ شابٌّ قد انتحلَ حتى عادَ جِلْداً على عظمٍ؛ فقال: ما شأنُ هٰذا؟ قالوا: به العشقُ، فجعلَ ابنُ عباسٍ يستعيذُ باللهِ مِنَ العشقِ عامَّةَ يومِهِ.

الثامن: أنَّ العشقَ ـ كما تقدَّمَ ـ هو الإفراطُ في المحبَّةِ، بحيثُ يستولي المعشوقُ على قلبِ العاشقِ، حتى لا يخلوا مِنْ تَخَيُّلِهِ وذِكْرِهِ والفكرِ فيه، بحيثُ لا يغيبُ عن خاطـرِهِ وذهنِـهِ، فعندَ ذٰلك تشتغلُ النفسُ عن استخدامِ القوى الحيوانيةِ والنفسـانيةِ فتتعطلُ تلك القوى، فيحدثُ بتعطيلِها مِنَ الآفاتِ على البدنِ والروحِ ما يَعُزُّ دواؤهُ ويتعذَّرُ، فتتغَيَّرُ أفعالُهُ وصفاتُهُ ومقاصِدُهُ ويختلُّ جميعُ ذٰلك، فتعجزُ البشرُ عن صلاحِهِ، كما قيل:

الـحُـبُّ أَوَّلُ مَا يَكُــونُ لُجَـاجَــةً تَأْتِــي بِــهِ وَتَـسُـوقُــهُ الأَقْــدَارُ
حَتَّى إِذَا خَاضَ الفَتَى لُجَجَ الهَوَى جَاءَتْ أُمُــورٌ لَا تُطَاقُ كِبَــارُ

---

(١) وهٰذه قاعدةٌ منهجيَّةٌ مهمَّةٌ مِن قواعد الدعوةِ إلى الله سبحانه.

والعشقُ مبادئُه سهلةٌ حلوةٌ، وأوسطُهُ همٌّ وشغلُ قلبٍ وسقمٌ، وآخرهُ عَطَبٌ وقتلٌ؛ إن لم تتداركْهُ عنايةٌ مِنَ اللهِ، كما قيل في ذلك:

وَعِشْ خَالِياً فَالحُبُّ أَوَّلُهُ عَنىً وأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ

وقال الآخر:

تولَّهَ بالعِشْقِ حَتَّى عَشِقْ فَلَمَّا استَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ
رَأى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقْ

والذنبُ له، وهو الجانِي على نفسهِ، وقد قعدَ تحتَ المثلِ السائرِ: «يداكَ أَوْكَتا وَفُوكَ نَفَخَ»(١).

١٠٩ ـ فَصْلٌ [مقامات العاشق ثلاثة]:

والعاشقُ له ثلاثةُ مقاماتٍ: مقامُ ابتداءٍ، ومقامُ توَسُّطٍ، ومقامُ انتهاءٍ:

فأمَّا مقامُ ابتدائِهِ، فالواجبُ عليه فيه مُدافعتُهُ بكلِّ ما يقدرُ عليه إذا كانَ الوصولُ إلى معشوقِهِ مُتَعَذِّراً قَدَراً أو شرعاً، فإنْ عجزَ عن ذلك وأبى قلبُهُ إلاَّ السفرَ إلى محبوبِهِ ـ وهٰذا مقامُ التوسُّطِ والانتهاءِ ـ فعليهِ كتمانُ ذلك، وأنْ لا يُفشِيَهُ إلى الخلقِ، ولا يُشَبِّبَ بمحبوبِهِ وَيَهْتِكَهُ بينَ الناسِ، فيجمعَ بينَ الشركِ والظلمِ، فإنَّ الظُّلمَ في هٰذا البابِ مِنْ أعظمِ أنواعِ الظُّلمِ، وربما كان أعظمَ ضرراً على المعشوقِ وأهلِهِ من ظُلمِهِ في مالِهِ، فإنَّه يعرِّضُ المعشوقَ ـ بهتكهِ في عشقهِ ـ إلى وقوعِ الناسِ فيه وانقسامِهِم إلى مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ، وأكثرُ الناسِ يُصَدِّقُ في هٰذا البابِ بأدنى شبهةٍ، وإذا قيلَ: فلانٌ فعلَ بفلانٍ أو بفلانةٍ كذَّبهُ واحدٌ وصدَّقَهُ تسعمئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ!

وخبرُ العاشقِ المُتهتِّكِ عندَ الناسِ في هٰذا البابِ يُفيدُ **القطعَ اليقينيَّ**!،

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» (٢ / ٤١٤) للميداني.

بل إذا أخبَرَهُم المفعولُ به عن نفسهِ كذباً وافتراءً على غيرِهِ جزمُوا بصدقِهِ جزماً لا يحتملُ النقيضَ، بل لو جمعهُما مكانٌ واحدٌ اتِّفاقاً؛ لجزموا أنَّ ذٰلك عن وعدٍ واتفاقٍ بينهما، وجَزْمُهُم في هٰذا البابِ على الظُّنُونِ والتخيُّلِ والشُّبهِ والأوهامِ والأخبارِ الكاذبةِ، كجزمِهِم بالحسيَّاتِ المشاهدةِ، وبذٰلك وقعَ أهلُ الإفكِ في الطَّيبةِ المطيَّبةِ، حبيبةِ رسولِ اللهِ ﷺ، المُبَرَّأةِ مِنْ فوقِ سبعِ سماواتٍ، بشبهةِ مجيءِ صفوانَ بنِ المُعَطِّلِ بها وحدَهُ خلفَ العسكرِ، حتى هلكَ مَنْ هلكَ، ولولا أنْ تولَّى اللهُ سبحانه وتعالى براءتَها والذبَّ عنها وتكذيبَ قاذفها؛ لكانَ أمراً آخرَ[1].

والمقصودُ أنَّ في إظهارِ المبتلَى عِشْقَ مَنْ لَا يَحِلُّ له الاتِّصَالُ بِهِ مِنْ ظُلْمِهِ وأذاهُ ما هو عُدوانٌ عليه وعلى أهلِهِ، وتعريضٌ لتصديقِ كثيرٍ مِنَ الناسِ ظنونَهُم فيه؛ فإنِ استعانَ عليه بمَنْ يستميلُهُ إليه، إما برغبةٍ أو رهبةٍ تعدَّى الظلمُ وانتشرَ، وصارَ ذٰلك الواسطةُ ديّوثاً ظالماً، وإذا كانَ النبيُّ ﷺ قد لعنَ الرائشَ[2] ـ وهو الواسطةُ بينَ الراشِي والمرتشي في إيصالِ الرّشوةِ ـ؛ فما ظَنُّكَ بالديّوثِ الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوَصْلةِ المُحَرَّمة؛ فيتساعد العاشق والدَّيُّوث على ظلمِ المعشوقِ وظُلمِ غيرِهِ مِمَّنْ يَتَوَقَّفُ حصولُ غَرَضِهِ على ظُلْمِهِ في نفسٍ أو مالٍ أو عِرْضٍ؟ فإنه كثيراً ما يتوقَّفُ المطلوبُ فيه على قتلِ نفسٍ تكونُ حياتُها مانعةً مِنْ غرضِهِ.

وكَمْ مِنْ قتيلٍ طُلَّ دمُهُ[3] بهٰذا السبب مِنْ زوجٍ وسيدٍ قريبٍ.

---

(١) وحديثُ الإفك مرويٌّ في «صحيح البخاري» (٢٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠). وقد أفرده عددٌ من العُلماءِ بالتصنيف كالآجُرِّي، وغيره. وانظر: «جزء ابن ديزيل» (رقم ٣).

(٢) سبق تخريج الحديث الوارد في ذٰلك وبيان ضعفه.
نعم؛ الرَّائشُ آثمٌ عاصٍ؛ لأنَّه مُعاونٌ للراشي والمرتشي على المعصيةِ والإثم.

(٣) أُهْدِرَ.

وكم خُبِّبَتِ امـرأةٌ على بعلِها وجاريةٌ وعبدٌ على سيِّدهما، وقد لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ مَنْ فعلَ ذٰلك وتبرَّأ منه[1]، وهو مِنْ أكبرِ الكبائرِ.

وإذا كان النبيُّ ﷺ قد نهى أنْ يخطِبَ الرجلُ على خِطْبَةِ أخيه[2]، أو أنْ يَسْتَامَ على سومِ أخيهِ[3]؛ فكيفَ بِمَنْ يسعى في التفريقِ بينَ رجلٍ وبين امرأتِهِ وأمَتِهِ حتَّى يتَّصِلَ بهما؟!

وعُشَّاقُ الصورِ ومساعِدُوهُم مِنَ الدِّيَثَةِ[4] لا يرونَ ذٰلك ذنباً، فإنَّ طلَبَ ذٰلك العاشِق وصلَ معشوقِهِ ومشاركَةَ الزَّوجِ والسيدِ، ففي ذٰلك مِنْ إثمِ ظلمِ الغيرِ ما لعلهُ لا يقصُرُ عن إثمِ الفاحشةِ، إن لـم يَرْبُ عليها.

ولا يسقطُ حقُّ الغيرِ بالتوبةِ مِنَ الفاحشةِ؛ فإنَّ التوبةَ وإنْ أسقطتْ حقَّ اللهِ فحقُّ العبدِ باقٍ له المطالبةُ به يومَ القيامةِ، فإنَّ ظُلمَ الوالدِ بإفسادِ ولدِهِ وفَلْذَةِ كبدهِ ومَنْ هو أعزُّ عليه مِنْ نفسهِ، فظلمُ الزوجِ بإفسادِ حبيبِهِ والجنايةِ على فراشِهِ؛ أعظمُ مِنْ ظلمِهِ بأخذِ مالِهِ كلِّه، ولهٰذا يؤذيهِ ذٰلك أعظمَ ممَّا يؤذيهِ أخذُ مالِهِ، ولا يعدلُ ذٰلك عندَه إلَّا سفكُ دمِهِ.

فيا له مِنْ ظُلمٍ أعظمَ إثماً مِنْ فعلِ الفاحشةِ، فإنْ كانَ ذٰلك حقّاً لغازٍ في

---

(١) كما رواه أحمد (٢ / ٣٩٧)، وأبو داود (٥١٧٠)، وابن حبان (٥٦٨)، والنَّسائي في «عشرة النساء» (٣٣٢)، والحاكم (٢ / ١٩٦)، والبيهقي في «الآداب» (ص ٧٢) من طريق يحيى ابن يَعْمَر عن أبي هريرة.

وسنـده صحيحٌ إنْ سَلِمَ من الانقطاعِ بين يحيى وأبي هُريرة؛ فإنَّ معظم رواياتـهِ عن التابعين، ونصَّ الحُفَّاظ أنَّه لم يلق عمَّاراً ولا عائشة.

ولٰكنَّ للحديث شواهد؛ منها: حديث بُريدة عند أحمد (٥ / ٣٥٢)، والحاكم (٤٠ / ٢٩٨)، وابن حبان (٤٣٦٣)، والبيهقي (١٠ / ٣) بسند صحيح.

(٢) كما رواه مسلم (١٤٠٨) (٣٨) عن أبي هُريرة.

(٣) كما رواه مسلمٌ (١٥١٥) عن أبي هريرة أيضاً.

(٤) جمع ديُّوث، وفي بعض النُّسَخ: الدَّياثيَّة!

سبيلِ اللهِ وُقِّفَ له الجاني الفاعلُ يومَ القيامةِ، وقيل له: «خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»، كمـا أخبـرَ بذلـك رسـولُ اللهِ ﷺ، ثم قالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: «فمـا ظَنُّكُم؟»[1]؛ أي: فما تظنُّونَ يُبْقِي له مِنْ حسناتِهِ؟ فإنِ انضافَ إلى ذٰلك أنْ يكونَ المـظلومُ جاراً له، أو ذا رحمٍ محرمٍ، تعدَّدَ الظلمُ فصارَ ظُلماً مُؤكَّداً لقطيعةِ الرحمِ وأذى الجارِ، و«لا يَدْخُلُ الجنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ»[2]، ولا «مَنْ لَا يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[3].

فإنِ استعانَ العاشقُ على وِصالِ معشوقِهِ بشياطينِ مِنَ الجنِّ - إما بسحرٍ أو استخدامٍ أو نحوِ ذٰلك - ضمَّ إلى الشِّرْكِ والظُّلْمِ كُفرَ السِّحرِ، فإنْ لم يفعلْهُ هو ورَضِيَ به كان راضياً بالكفرِ غيرَ كارهٍ لحصولِ مقصدِهِ به، وهٰذا ليس ببعيدٍ مِنَ الكفرِ.

والمقصودُ: أنَّ التعاونَ في هٰذا البابِ تعاونٌ على الإثمِ والعدوانِ.

وأمَّا ما يقترنُ بحصولِ غرضِ العاشقِ مِنَ الظلمِ المنتشرِ المتعدِّي ضررُهُ فأمرٌ لا يخفىٰ، فإنَّهُ إذا حصلَ له مقصودُهُ مِنَ المعشوقِ فللمعشوقِ أغراضٌ أُخَرُ يريدُ مِنَ العاشِقِ إعانَتَهُ عليها، فلا يجدُ مِنْ إعانتِهِ بُدّاً؛ فبقيَ كلٌّ منهما يُعينُ الآخرَ على الظلمِ والعدوانِ، فالمعشوقُ يعينُ العاشقَ على ظلمِ مَنْ يتَّصِلُ به مِنْ أهلِهِ وأقارِبِهِ وسيِّدِهِ وزوجِهِ، والعاشِقُ يُعينُ المعشوقَ على ظلمِ مَنْ يكونُ غرضُ المعشوقِ مُتَوقِّفاً على ظلمِهِ؛ فكلٌّ منهما يُعينُ الآخَرَ على أغراضِهِ التي فيها ظُلْمُ الناسِ، فيحصلُ العدوانُ والظلمُ للناسِ بسببِ اشتراكِهما في القُبْحِ لتعاونِهما بذٰلك على الظلمِ، كما جرتْ به العادةُ بينَ العُشَّاقِ والمعشوقينَ، مِنْ

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(3) رواه البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦).

إعانةِ العاشقِ لمعشوقِهِ على ما فيه ظلمٌ وعدوانٌ وبغيٌ، حتَّى ربَّما يسعى له في منصبٍ لا يليقُ به ولا يَصْلُحُ لمثلِهِ، وفي تحصيلِ مالٍ من غيرِ حلِّهِ، وفي استطالتِهِ على غيرِهِ، فإذا اختصَمَ معشوقُهُ وغيرُهُ أو تشاكيا لم يكنْ إلَّا في جانبِ المعشوقِ؛ ظالماً كان أو مظلوماً، هٰذا إلى ما ينضمُّ إلى ذٰلك مِنْ ظُلمِ العاشقِ للناسِ بالتحيُّلِ على أخذِ أموالِهِم، والتوصُّلِ بها إلى المعشوقِ بسرقةٍ أو غَصْبٍ أو خيانةٍ أو يمينٍ كاذبةٍ أو قطعِ طريقٍ أو نحوِ ذٰلك، وربَّما أدَّى ذٰلك إلى قتلِ النفسِ التي حَرَّمَ اللهُ ليأخذَ مالَهُ ليتوصَّلَ به إلى معشوقِهِ.

وكُلُّ هٰذه الآفاتِ وأضعافُها وأضعافُ أضعافِها تنشأُ مِنْ عشقِ الصورِ، وتَحْمِلُ على الكفرِ الصريحِ، وقد تنصَّرَ جماعةٌ مِمَّنْ نَشؤُوا في الإسلامِ بسببِ العشقِ! كما جرى لبعضِ المُؤذِّنينَ حينَ أبصَرَ امرأةً جميلةً على سطحٍ، فَفُتِنَ بها فنزلَ ودَخَلَ عليها وسألها نفسَها فقالت: هي نصرانيةٌ، إن دخلتَ في ديني تزوجتُ بك، ففعلَ، فرقيَ في ذٰلك اليومِ على درجةٍ عندَهم فسقط منها فماتَ.

ذكرَ هٰذا عبدُ الحقِّ في كتابِ «العاقبة»[1] له.

وإذا أراد النَّصارى أن يُنصِّروا الأسيرَ، أَرَوْهُ امرأةً جميلةً وأَمَرُوها أنْ تُطْمِعَهُ في نفسِها، حتى إذا تَمَكَّنَ حُبُّهَا من قلبِهِ بذلَتْ له نَفْسَهَا إنْ دَخَلَ في دينِها، فهنالك: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي العشقِ مِنْ ظلمِ كلِّ واحدٍ مِنَ العاشقِ والمعشوقِ لصاحِبِهِ بمعاونتِهِ له على الفاحشةِ وظُلمِهِ لنفسِهِ ما فيه، وكلٌّ منهما ظالمٌ لنفسِهِ وصاحبِهِ، وظلمهُمَا متعدٍّ إلى الغيرِ كما تقدمَ، وأعظمُ مِنْ ذٰلك ظُلمهُما بالشركِ، فقد تضمَّنَ العشقُ أنواعَ الظلمِ كلِّها.

---

(١) تقدّمت الإشارةُ إلى ذٰلك.

والمعشوقُ إذا لم يَتَّقِ اللهَ فإنَّهُ يُعَرِّضُ العاشقَ للتَّلَفِ، وذلك ظلمٌ منه، بأنْ يُطْمِعَـهُ في نفسهِ ويتزيَّنَ له ويستميلَه بكلِّ طريقٍ حتى يستخرجَ منه مالَهُ ونفعَهُ ولا يُمَكِّنـهُ مِنْ نفسـهِ، لئـلَّا يزولَ غرضُـهُ بقضاءِ وَطَرِه منه، فهٰذا يسومُهُ سوءَ العـذابِ، والعـاشقُ ربمـا قتـلَ معشـوقَهُ ليشفي نفسَهُ منه، ولا سيَّما إنْ جادَ بالوصالِ لغيرِه.

فكمْ للعشقِ مِنْ قتيلٍ مِنَ الجانبين؟

وكم قد أزالَ مِنْ نعمةٍ، وأفقرَ مِنْ غنى، وأسقَطَ مِنْ مرتبةٍ، وشَتَّتَ مِنْ شملٍ؟

وكم أفسدَ مِنْ أهلٍ للرجلِ وولدهِ؟ فإنَّ المرأةَ إذا رأتْ بعلَها عاشِقاً لغيرها اتَّخذتْ هي معشوقاً لنفسِها، فيصيرُ الرجلُ مُتَرَدِّداً بين خرابِ بيتِهِ بالطَّلاقِ وبينَ القيادَةِ[1]؛ فمِنَ الناسِ مَنْ يُؤْثِرُ هٰذا، ومنهم مَنْ يُؤثِرُ هٰذا.

فعلى العاقلِ أنْ لا يُحْكِمَ على نفسهِ عشقَ الصُّوَرِ لِئَلَّا يُؤَدِّيَهُ ذٰلك إلى هٰذه المفاسدِ أو أكثرِها أو بعضِها، فمَنْ فَعَلَ ذٰلك فهو المُفَرِّطُ بنفسهِ المغرورُ بها، فإذا هلكَتْ فهو الذي أهلكَهَا، فلولا تَكْرَارُهُ النظرَ إلى وجهِ معشوقِهِ وطمعُهُ في وصالِهِ لم يَتَمَكَّنْ عشقُهُ مِنْ قلبِهِ؛ فإنَّ أوَّلَ أسبابِ العِشْقِ الاستحسانُ سواءً تولَّدَ عن نَظَرٍ أو سماعٍ، فإنْ لم يُقارِنْهُ طَمَعٌ في الوصالِ وقارَنَهُ الإياسُ مِنْ ذٰلك لم يَحْدُثْ له العشقُ، فإن اقترنَ به الطمعُ فصرفَهُ عن فكرِهِ، ولم يَشْغَلْ قلبَهُ به لم يَحْدُثْ له ذٰلك، فإنْ أطالَ مع ذٰلك الفكرَ في محاسنِ المعشوقِ وقارَنَهُ خوفُ ما هو أكبرُ عنده مِنْ لذَّةِ وصالِهِ - إمَّا خوفٌ دينيٌّ كدخولِ النارِ وغضبِ الجبارِ واحتقابِ[2] الأوزارِ - وغلبَ هٰذا الخوفُ على ذٰلك الطمعِ والفكرِ لم يحدثْ له

---

(١) هي الدِّياثةُ!

(٢) تجمُّع.

ذلك العشقُ، فإنْ فاتَهُ هٰذا الخوفُ فقارَنَهُ خوفٌ دنيويٌّ كخوفِ إتلافِ نفسِهِ أو مالِهِ أو ذهابِ جاهِهِ وسقوطِ مرتبتِهِ عندَ الناسِ وسقوطِهِ مِنْ عينِ مَنْ يَعُزُّ عليه، وغَلَبَ هٰذا الخوفُ لداعِي العشقِ دَفعهُ، وذٰلك إذا خاف من فوات محبوبٍ هو أحبُّ إليه وأنفعُ له من ذلك المعشوقِ وقَدمَ محبَّتَهُ على مَحبَّةِ ذٰلك المعشوقِ اندفَعَ عنه العشقُ.

فإنِ انتفى ذٰلك كلُّه وغلبتْ محبَّةُ المعشوقِ لذلك؛ انجذَبَ إليه القلبُ بكليّتِهِ، ومالَتْ إليه النفسُ كلَّ الميلِ.

فإنْ قيل[1]: قد ذكرتُم آفاتِ العشقِ ومضارَّهُ ومفاسِدَهُ، فهلاَّ ذكرتُم منافِعَهُ وفوائِدَهُ التي مِنْ جُمْلَتِها: رقةُ الطبعِ، وترويحُ النفسِ، وخفَّتُها، وزوالُ ثِقَلُها، ورياضَتُها، وحملُها على مكارِمِ الأخلاقِ؛ مِنَ الشجاعةِ والكرمِ والمروءةِ ورقَّةِ الحاشيةِ ولُطفِ الجانبِ؟

وقد قيل ليحيى بنِ مُعاذٍ الرازيِّ: إنَّ ابنَكَ قد عَشِقَ فلانةً، فقال: الحمدُ اللهِ الذي صيَّرَهُ إلى طَبْعِ الآدميِّ!

وقال بعضُهم: العشقُ داءُ أفئدةِ الكرامِ!

وقال غيرُهُ: العشقُ لا يَصْلُحُ إلا لذي مروءةٍ ظاهرةٍ وخليقةٍ طاهرةٍ، أو لذي لسانٍ فاضلٍ وإحسانٍ كاملٍ، أو لذي أدبٍ بارعٍ، وحَسَبٍ ناصعٍ!

وقال آخرُ: العشقُ يُشجِّعُ جَنَانَ الجبانِ، ويصفّي ذهنَ الغبيِّ، ويُسخِّي كفَّ البخيلِ، ويُذِلُّ عزَّةَ الملوكِ، ويُسكِّنُ نوافرَ الأخلاقِ، وهو أنيس مَنْ لا أنيسَ له، وجليسُ مَنْ لا جليسَ له!

وقال آخرُ: العشقُ يُزيلُ الأثقالَ، ويُلَطِّفُ الروحَ، ويصفّي كَدَرَ القلبِ،

---

(١) مِن هنا إلى (ص ٣٥٠) كلُّه من كلام المعترض، وسيجيبُ عنه المصنِّف رحمه الله ـ بَعْدُ ـ إجمالاً.

ويُوجِبُ الارتياحَ لأفعالِ الكرامِ ! كما قال الشاعر:

سَيَهْلِكُ فِي الـدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ ... إِذَا غَالَـهُ مِنْ جَانِبِ الـحُبِّ غَائِلُه
كَرِيمٌ يُمِيْتُ الـسِّـرَّ حَتَّى كَأَنَّـهُ ... إِذَا اسْتَفْهَمُوهُ عَنْ حَدِيْثِكَ جَاهِلُه
يَوَدُّ بِأَنْ يُمْسِي سَقِيماً لَعَلَّهَا ... إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُه
وَيَهْتَـزُّ لِلْمَعْـرُوفِ فِي طَلَبِ العُلَا ... لِتُحْمَدَ يَوْماً عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُه

فالعشقُ يحملُ على مكارمِ الأخلاقِ!

وقال بعضُ الحُكَماءِ: العشقُ يُروِّضُ النفسَ، ويُهذِّبُ الأخلاقَ، إظهارهُ طَبْعيٌّ، وإضمارُهُ تكلُّفي!

وقال آخرُ: مَنْ لم تَبْتَهِجْ نفسُهُ بالصوتِ الشجيِّ[1] والوجهِ البهيِّ؛ فهو فاسدُ المزاجِ، محتاجٌ إلى علاجٍ! وأنشدَ في ذلك:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ... فَمَا لَكَ فِي طِيبِ الـحَيَاةِ نَصِيبُ

وقال آخرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ... فَأَنْتَ وَعَيْرٌ فِي الـفَلَاةِ سَوَاءُ

وقال:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ... فَكُنْ حَجَراً مِنْ جَانِبِ الصَّخْرِ جَلْمَدا

وقال آخر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ... فَقُمْ فَاعْتَلِفْ تِبْناً فَأَنْتَ حِمَارُ

---

(١) يُروى (!) عن بعض شيوخ الأزهر (!) أنَّه قال: «من لم يطرب للأوتار على ضِفاف الأنهار مصحوبةً بالأشعار؛ فهو جَلِف الطَّبْع حمار»!!

ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ الجبَّار.

وقال بعضُ العُشَّاقِ أولو العفةِ والصيانةِ: عِفُّو تشرفُوا، واعشقُوا تظرُفُوا!

وقيل لبعضِ العُشَّاقِ: ما كنتَ تصنعُ لو ظفرتَ بِمَنْ تَهْوىٰ! فقال: كنت أُمَتِّعُ طرفي بوجهِهِ، وأُرَوِّحُ قلبي بذكرِهِ وحديثِهِ، وأسترُ منه ما لا يُحِبُّ كشفَهُ، ولا أصيرُ بقبيحِ الفعلِ إلى ما ينقصُ عهدَه! ثم أنشد:

أَخْـلُو بِهِ فَأَعِـفُّ عَنْـهُ تَكَـرُّمـاً ... خَوْفَ الـدِّيَانَـةِ لَسْتُ مِنْ عُشَّـاقِـهِ
كَالْـمَـاءِ فِي يَدِ صائِـمٍ يَلْتَـذُّهُ ... ظَمَـأً فَيَصْـبِـرُ عَنْ لَذِيذِ مَذَاقِـهْ

وقـال إسحاقَ بن إبراهيم: أرواحُ العُشَّاقِ عطرةٌ لطيفةٌ، وأبدانُهم رقيقةٌ خفيفةٌ، نُزهتُهُم المؤانسةُ، وكلامُهم يُحيي مَوَاتَ القلوبِ، ويزيدُ في العقولِ، ولولا العشقُ والهوى لبطلَ نعيمُ الدنيا!

وقال آخرُ: العشقُ للأرواحِ بمنزلةِ الغذاءِ للأبدانِ، إنْ تَرَكْتَهُ ضرَّكَ، وإنْ أكثَرْتَ منه قَتَلَكَ! وفي ذلك قيل:

خَلِيْلَيَّ إِنَّ الـحُـبَّ فِيهِ لَذَاذَةٌ ... وفِـيْهِ شَقَـاءٌ دائِـمٌ وَكُـرُوبُ
عَلَى ذَاكَ ما عَيْشٌ يَطِيبُ بِغَـيْرِهِ ... وَلَا عَيْشَ إِلَّا بالـحَـبِـيبِ يَطِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِي الـدُّنْيَا بِغَيْرِ صَبَـابَـةٍ ... وَلَا فِي نَعِـيمٍ لَيْسَ فِيهِ حَبِـيبُ

وذكرَ الخرائطيُّ[1] عن أبي غسانَ قال: مرَّ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه بجاريةٍ وهي تقولُ:

وَهَـوِيْتُـهُ مِنْ قَبْـلِ قَطْعِ تَمَـائِمِي ... مُتَمَـائِـلاً مِثْـلَ القَضِيبِ النَّـاعِمِ

فسـألها: أَحُرَّةٌ أنتِ أم مملوكةٌ؟ قالت: بل مملوكةٌ، فقال: لمن هواكِ؟

---

(١) في «اعتلال القلوب»، وهو مخطوطٌ عندي منه نسخةٌ مصوَّرة عن الخزانة العامة ـ الرباط.

ومنه نُسخة أخرى في دار الكتب المصرية.

فَتَلَكَّأَتْ: فأقسَمَ عليها. فقالت:

وأنَا الَّتي لَعِبَ الهَوَى بِفُؤَادِهَا ... قُتِلَتْ بِحُبِّ مُحَمَّدِ بْنِ القَاسِمِ

فاشتراها مِنْ مولاها، وبعثَ بها إلى محمدِ بنِ القاسمِ بنِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ فقال: هٰؤلاءِ فِتَنُ الرجالِ، وكم والله قد ماتَ بهنَّ كريمٌ وعطبَ بهنَّ سليمٌ[1].

وجاءَت جاريةٌ إلى عثمانَ بن عفانَ رضي الله عنه تستعدِي على رجلٍ مِنَ الأنصارِ، فقال لها عثمانُ: ما قصَّتُكِ؟ فقالَتْ: كَلِفْتُ يا أميرَ المؤمنينَ بابن أخيهِ، فما أَنْفَكُّ أُراعيهِ، فقالَ له عثمانُ: إما أنْ تَهَبَهَا لابنِ أخيك، أو أُعطيكَ ثمنَها مِنْ مالي، فقال: أُشهِدُكَ يا أميرَ المؤمنينَ أنَّها له.

ونحنُ لا نُنكرُ فسادَ العشقِ الذي مُتَعَلَّقُهُ فعلُ الفاحشةِ بالمعشوقِ، وإنَّما الكلامُ في العشقِ العفيفِ، مِنَ الرجلِ الظريفِ، الذي يأبى له دينُهُ وعفَّتُهُ ومروءَتُهُ أنْ يُفسدَ ما بينه وبينَ اللهِ وما بينه وبينَ معشوقِهِ بالحرامِ، وهٰذا كعشقِ السلفِ الكرامِ، والأئمةِ الأعلامِ، فهٰذا عُبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتبَةَ بنِ مسعودٍ أحدُ الفقهاءِ السبعةِ عشقَ حتى اشتهرَ أمرُهُ، ولم يُنْكَرْ عليه، وعُدَّ ظالماً مَنْ لامه، ومِنْ شعرِهِ:

كَتَمْتَ الهَوَى حَتَّى أَضَرَّ بِكَ الكَتْمُ ... وَلَامَكَ أَقْوَامٌ وَلَومُهُمُ ظُلْمُ

فَنَمَّ عَلَيْكَ الكَاشِحُونَ وَقَبْلَهُم ... عَلَيْكَ الهَوَى قَدْ نَمَّ لَوْ يَنْفَعُ الكَتْمُ

فَأَصْبَحْتَ كَالهِنْدِيِّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً ... عَلَى إِثْرِ هِنْدٍ أَوْ كَمَنْ شَفَّهُ سُقْمُ

---

(١) هٰذا الخَبَرُ - وأمثالُه - مِمَّا يتنزَّهُ عنه هٰؤلاء الرجال الأبرار من صفوة الأمَّة لما وفَّقهم اللهُ سبحانه إليه من صفاءِ نفسٍ، ونقاءِ سريرةٍ، وبهاء طويَّة جُبِلَتْ على تعظيم اللهِ سبحانه واتِّباع رسولِه ﷺ. واللهُ الهادي إلى سواء السبيلِ.

أَتَحْسِبُ إِتْيَانَ الحَبِيبِ تَأَثُّماً ... أَلَا إِنَّ هِجْرَانَ الحَبِيبِ هُوَ الإِثْمُ

فَذُقْ هَجْرَهَا قَدْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ ... رَشَادٌ أَلَا يَا رُبَّمَا كَذَبَ الزَّعْمُ

وهٰذا عمرُ بنُ عبدِ العزيز وعشقُهُ مشهورٌ[1] لجاريةِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ امرأتِه، وكانَتْ جاريةً بارعةَ الجمالِ، وكانَ مُعْجَباً بها، وكانَ يطلُبُها من امرأتِهِ ويحرصُ على أنْ تهبهَا له، فتأبى، ولم تزلِ الجاريةُ في نفسِ عُمَرَ، فلمَّا اسْتُخْلِفَ أَمَرَتْ فاطمةُ بالجاريةِ فأُصْلِحَتْ، وكانتْ مَثَلاً في حُسنها وجمالِها، ثم دخلَتْ على عمرَ، وقالت: يا أميرَ المؤمنينَ! إنّك كنتَ مُعْجَباً بجاريتي فلانةٍ، وسأَلْتَنِيها فَأَبيتُ عليك، والآنَ فقد طابَتْ نفسي لك بها، فلمَّا قالَتْ له ذٰلك استبانَ الفرحُ في وجهِهِ، وقال: عَجِّلي عليَّ بها، فلمَّا دخلَتْ بها عليه ازدادَ بها عَجَباً، وقالَ لها: ألقِي ثيابَكِ، ففعَلَتْ ثم قال لها: على رِسلِكِ، أخبريني لِمَنْ كُنْتِ؟ ومِنْ أينَ صِرْتِ لفاطمةَ؟ فقالت: أغرَمَ الحَجَّاجُ عاملاً له بالكوفةِ مالاً، وكنتُ في رقيقِ ذٰلك العاملِ، قالت: فأخذَني وبعثَ بي إلى عبدِ الملكِ فوَهَبني لفاطمةَ، قال: وما فعلَ ذٰلك العاملُ؟ قالَتْ: هلكَ، قال: وهل تركَ ولداً؟ قالت: نعم، قالَ: فما حالهم؟ قالت: سيئَةٌ، فقال: شُدِّي عليكِ ثيابَكِ واذهبي إلى مكانِكِ، ثم كتبَ إلى عاملِهِ على العراقِ: أنْ ابعثْ إليَّ فلانَ بنَ فلانٍ على البريدِ، فلمَّا قدمَ قال له: ارفعْ إليَّ جميعَ ما أغرمهُ الحجَّاجُ لأبيكَ، فلم يرفعْ إليه شيئاً إلّا دفعهُ إليه، ثم أمرَ بالجاريةِ فَدُفِعَتْ إليه ثم قالَ له: إيَّاكَ وإياها، فلعلَّ أباكَ قد أَلَمَّ بها، فقال الغلامُ: هي لك يا أميرَ المؤمنينَ، قال: لا حاجةَ لي بها، قال: فابتَعْها منِّي، قال: لستُ إذاً مِمَّنْ نهى النفسَ عنِ الهوى، فلما عزمَ الفتى على الانصرافِ بها قالَتْ: أينَ وَجْدُكَ بي يا أميرَ المؤمنينَ؟ قال: على حاله، ولقد زادَ. ولم تزلِ الجاريةُ في نفسِ عمرَ، حتى ماتَ رحمهُ اللهُ.

---

(١) انظر التعليق السابق.

وهذا أبو بكرٍ محمدُ بنُ داودَ الظاهريّ[1] العالمُ المشهورُ في فنونِ العلمِ ؛ من الفقهِ، والحديثِ، والتفسيرِ، والأدبِ، وله قولٌ في الفقهِ[2]، وهو مِنْ أكابرِ العلماءِ، وعشقُهُ مشهورٌ.

قال نِفْطَويهِ: دخلتُ عليه في مرضِهِ الذي ماتَ فيه، فقلتُ: كيفَ تجدُكَ؟ فقال: حبُّ مَن تعلمُ أورثني ما ترى، فقلتُ: وما يمنعُكَ مِنْ الاستمتاعِ بهِ معَ القدرةِ عليه؟ فقال: الاستمتاعُ على وجهين: أحدِهما: النظرُ المباحُ، والآخر: اللذةُ المحظورةُ، فأمَّا النظرُ المباحُ فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذةُ المحظورةُ فيمنعني منها ما حدَّثني أبي، حدَّثنا سويدُ بن سعيدٍ، حدَّثنا عليُّ بنُ مُسْهِرٍ عن أبي يحيى القتَّاتُ عن مُجاهدٍ عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما يرفعُهُ: «مَنْ عَشِقَ وكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ؛ غَفَرَ اللهُ لَهُ وأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ».

ثم أنشد:

انْظُرْ إِلَى السِّحْرِ يَجْرِي فِي لَوَاحِظِهِ ... وَانْظُرْ إِلَى دَعَجٍ فِي طَرْفِهِ السَّاجِي
وانْظُرْ إِلَى شَعَرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ ... كَأَنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ فِي عَاجِ[3]

ثم أنشد:

مَا لَهُمْ أَنْكَرُوا سَوَاداً بِخَدَّيْـ ... ـهِ ولَا يُنْكِرُونَ وَرْدَ الغُصُونِ
إِنْ يَكُنْ عَيْبُ خَدِّهِ بَرْدَ الشَّعْـ ... ـرِ فَعَيْبُ العُيُونِ شَعْرُ الجُفُونِ

فقلتُ له: نَفَيْتَ القياسَ فِي الفقهِ وأَثْبَتَّهُ في الشِّعْرِ؟ فقال: غَلَبَةُ الوجدِ

---

(١) توفِّي سنة (٢٩٧هـ)، ترجمته في «البداية والنهاية» (١١ / ١١٠ ـ ١١١)، و«طبقات الفُقهاء» (١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) قال الذهبيُّ في «السير» (١٣ / ١٠٩): «وله بَصَرٌ تامٌّ بالحديثِ، وبأقوالِ الصحابةِ، ولكن يجتهدُ ولا يُقَلِّدُ أحداً».

(٣) انظر: «تاريخ بغداد» (٥ / ٢٦٢).

وَمَلَكَةُ النَّفْسِ دَعَتْ إليه، ثم مَاتَ مِنْ لَيلَتِهِ.

وبسببِ معشوقِهِ[1] صنفَ كتابَ «الزَّهْرَة»[2].

ومِنْ كلامِهِ فيه: «مَنْ يئسَ مِمَّنْ يهواهُ ولم يَمُتْ مِنْ وقتِهِ سلاه، وذلك أنَّ أول رَوعاتِ اليأسِ تأتي القلبَ وهو غيرُ مُستعِدٍّ لها، فأمَّا الثانيةُ فتأتي القلبَ وقد وَطَّأَتْهُ لها الروعةُ الأولى».

والتقى هو وأبو العباسِ بنُ سُريجٍ في مجلس أبي الحسنِ عليِّ بنِ عيسى الوزير، فتناظرا في مسألةٍ مِنَ الإيلاءِ، فقالَ له ابنُ سُريجٍ: كُنْتَ بأنْ تقولَ: «مَنْ دامَتْ لحظاتُهُ كثرتْ حسراتُهُ»، أحذقَ منك بالكلامِ على الفقهِ!

فقال: لئن كانَ ذلك فإنِّي أقولُ:

أُنَــزِّهُ فِي رَوْضِ المَحَــاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأَمْنَــعُ نَفْسِي أَنْ تَنَــالَ مُحَــرَّمــا
وأَحْمِــلُ مِنْ ثِقْـلِ الهَـوَى مَا لَوَ انَّــهُ ... يُصَبُّ عَلَى الصَّخْـرِ الأَصَمِّ تَهَـدَّمـا
وَيَنْـطِقُ طَرْفِي عَنْ مُتَـرْجَمِ خَاطِري ... فَلَوْلَا اخْـتِـلَاسِــي وُدَّهُ لَتَكَـلَّمَــا
رَأَيْتُ الهَوَى دَعْوَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... فَلَسْــتُ أَرَى وُدّاً صَحِيحــاً مُسَلَّمَــا

فقال له أبو العباسِ بنُ سريجٍ: بِمَ تفخرُ عليَّ؟ ولو شئتُ لقُلْتُ:

وَمُــطَاعِــمٍ كَالشَّهْــدِ فِي نَغَمَــاتِــهِ ... قَدْ بِتُّ أَمْــنَــعُــهُ لَذِيذَ سَنَــاتِــهِ
بِصَبَــابَــةٍ وَبِحُسْنِــهِ وحَــدِيثِــهِ ... وأُنَــزِّهُ الــلَّحَــظَاتِ فِي وَجَنَــاتِــهِ
حَتَّى إِذَا مَا الـصُّبْــحُ لَاحَ عَمُــودُهُ ... وَلَّــى بِخَــاتَــمِ رَبِّــهِ وَبَــرَاتِــهِ[3]

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ١١٥).

(٢) وهو مطبوعٌ.

(٣) القصةُ ـ والأبياتُ ـ في «تاريخ بغداد» (٥ / ٢٦٠ ـ ٢٦٣)، و«المنتظم» (٦ / ٥٩٤ ـ ٥٩٥)، و«وفيات الأعيان» (٤ / ٢٦٠)، و«سير أعلام النُّبلاء» (١٣ / ١١١)، و«الوافي بالوفيات» (٣ / ٦٠ ـ ٦١). وفي رواية المصنِّف للأبياتِ اختلافٌ.

فقال أبو بكر: يحفظُ عليه الوزيرُ ما أقرَّ به حتى يُقيمَ شاهدين على أنّه وليٌّ بخاتمِ ربِّه وبراءتِهِ.

فقال ابنُ سريجٍ: يلزمُني في هٰذا ما يلزمُك في قولِكَ:

أُنَــزِّهُ فِي رَوْضِ المَحَــاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأَمْنَــعُ نَفْسِي أَنْ تَنَــالَ مُحَــرَّمـا

فضحكَ الوزيرُ، وقال: لقد جمعتُما لُطفاً وظُرفاً.

ذكرَ ذٰلك أبو بكرٍ الخطيبُ في «تاريخِهِ»[1].

وجاءته يوماً فُتْيا مضمونُها:

يَا ابــنَ دَاوُدَ يَا فَقِــيهَ الــعِــرَاقِ ... أَفْــتِــنَــا فِي قَوَاتِــلِ الأَحْــدَاقِ

هَلْ عَلَيْهَــا بِمَــا أَتَـتْ مِنْ جُنَــاحٍ ... أَمْ حَلاَلٌ لَهَــا دَمُ الــعُــشَّــاقِ

فكتبَ الجوابَ بخطِّه تحتَ البيتين:

عِنْــدِي جَوَابُ مَسَــائِــلِ العُشَّــاقِ ... فَاسْمَعْــهُ مِنْ قَلِقِ الحَشَــا مُشْتَــاقِ

لَمَّــا سَأَلْــتَ عَنِ الــهَــوَى هَيَّجْتَنِي ... وَأَرَقْــتَ دَمْــعــاً لَمْ يَكُــنْ بِمُــرَاقِ

إِنْ كَانَ مَعْشُــوقــاً يُعَــذِّبُ عَاشِقــاً ... كَانَ الــمُــعَــذَّبُ أَنْعَـمَ الـعُـشَّــاقِ

قال صاحبُ كتاب «منازل الأحبابِ»، شهابُ الدينِ[2] محمودُ بنُ سُلَيمانَ ابنِ فهدٍ صاحبِ[3] كتابِ «الإنشاء»:

وقلتُ في جوابِ البيتين على قافيتِهما مُجيباً للسائِلِ:

قُلْ لِمَــنْ جَاءَ سَائِــلاً عَنْ لِحَــاظٍ ... هُنَّ يَلْعَــبْــنَ فِي دَمِ الــعُــشَّــاقِ

---

(١) «تاريخ بغداد» (٥ / ٢٦٠ ـ ٢٦٣).

(٢) توفي سنة (٧٢٥هـ)، ترجمته في «البداية والنهاية» (١٤ / ١٢٠).

(٣) مترجم في «الوافي بالوفيات» (١٥ / ٤١٧).

مَا عَلَى السَّيْفِ فِي الوَرَى مِنْ جُنَاحٍ ... إِنْ ثَنَى الحَدّ عَنْ دَمٍ مُهْرَاقِ
وَسُيُوفُ اللِّحَاظِ أَوْلَى بِأَنْ تُصْـ ... ـفَحَ عَمَّا جَنَتْ عَلَى العُشَّاقِ
إِنَّمَا كُلُّ مَنْ قَتَلْنَ شَهِيدٌ ... وَلِهٰذا يَفْنَى ضَنيً وَهُوَ بَاقِ

ونظيرُ ذٰلك فتوى وَرَدَتْ على الشيخ أبي الخطَّابِ محفوظِ بنِ أحمدَ الكَلُوذاني[1] شيخ الحنابلةِ في وقته رحمه الله:

قُلْ لِلإِمَامِ أَبِي الخَطَّابِ مَسْأَلَةٌ ... جَاءَتْ إِلَيْكَ وَمَا خَلْقٌ سِوَاكَ لَهَا
مَاذَا عَلَى رَجُلٍ رَامَ الصَّلَاةَ فَمُذْ ... لَاحَتْ لِخَاطِرِهِ ذَاتُ الجَمَالِ لَهَا

فأجابَ تحتَ سؤالِه:

قُلْ لِلأَدِيبِ الَّذي وَافَى بِمَسْأَلَةٍ ... سَرَّتْ فُؤادِي لَمَّا أَنْ أَصَخْتُ لَهَا
إِنَّ الَّتِي فَتَنَتْهُ عَنْ عِبَادَتِهِ ... خَرِيدَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ فَانْثَنَى وَلَهَا
إِنْ تَابَ ثُمَّ قَضَى عَنْهُ عِبَادَتَهُ ... فَرَحْمَةُ اللهِ تَغْشَى مَنْ عَصَى وَلَهَا

وقال عبدُ اللهِ بنُ مَعْمَرٍ القَيْسيُّ[2]: حَجَجْتُ سنةً، ثم دخلتُ ذاتَ ليلةٍ مسجدَ المدينةِ لزيارةِ قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، فبينا أنا جالسٌ ليلةً بينَ القبرِ والمِنْبَرِ؛ إذ سمعتُ أنيناً فأصغيتُ إليه، فإذا هو يقولُ:

أَشْجَاكَ نَوْحُ حَمَائِمِ السِّدْرِ ... فَأَهْجْنَ مِنْكَ بَلَابِلَ الصَّدْرِ
أَمْ عَزَّ نَوْمَكَ ذِكْرُ غَانِيَةٍ ... أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الفِكْرِ
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنِفٍ ... يَشْكُو السُّهَادَ وَقِلَّةَ الصَّبْرِ
أَسْلَمْتَ مَنْ تَهْوَى لِحَرِّ جَوىً ... مُتَوَقِّداً كَتَوَقُّدِ الجَمْرِ
فَالبَدْرُ يَشْهَدُ أَنَّنِي كَلِفٌ ... مُغْرَىً بِحُبِّ شَبِيهَةِ البَدْرِ

---

(١) توفي سنة (٥١٠هـ)، ترجمته في «ذيل طبقات الحنابلة» (١ / ١١٦ ـ ١٢٧).

(٢) لم أقِف لهذا على ترجمة!!! واللهُ أعلم بصحَّة هٰذا الخبر!!

مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَهِيمُ بِهَا ... حَتَّى بُلِيتُ وَكُنْتُ لَا أَدْرِي

ثم انقطَعَ الصوتُ، فلم أدرِ مِنْ أينَ جاءَ، وإذا به قد أعادَ البكاءَ والأنين، ثم أنشد:

أَشْجَاكَ مِنْ رَيَّا خَيَالٌ زَائِرُ ... والَّلَيْلُ مُسْوَدُّ الذَّوَائِبِ عَاكِرُ
واعْتَادَ مُهْجَتَكَ الهَوَى بِرَسِيسِهِ ... واهْتَاجَ مُقْلَتَكَ الخَيَالُ الزَّائِرُ
نَادَيْتُ رَيَّا والظَّلامُ كَأَنَّهُ ... يَمٌّ تَلاطَمَ فِيهِ مَوْجٌ زَاخِرُ
والبَدْرُ يَسْرِي فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ ... مَلِكٌ تَرَجَّلَ وَالنُّجُومُ عَسَاكِرُ
وَتَرَى بِهِ الجَوْزَاءَ تَرْقُصُ فِي الدُّجَى ... رَقْصَ الحَبِيبِ عَلاهُ سُكْرٌ ظَاهِرُ
يَا لَيلُ طُلْتَ عَلَى مُحِبٍّ مَا لَهُ ... إلَّا الصَّبَاحُ مُسَاعِدٌ وَمُؤازِرُ
فَأَجَابَنِي مُتْ حَتْفَ أَنْفِكَ وَاعْلَمَنْ ... أَنَّ الهَوَى لَهُوَ الهَوَانُ الحَاضِرُ

قال: وكنتُ ذهبتُ عند ابتدائه بالأبياتِ فلم ينتبهِ إلاَّ وأنا عندَه، فرأيتُ شاباً مُقتبلاً شبابُهُ، قد خَرَقَ الدمعُ في خدِّه خِرْقَيْنِ، فسلَّمتُ عليه، فقال: اجلسْ مَنْ أنتَ؟ قلتُ: عبدُ اللهِ بنُ معمرٍ القيسيِّ، قال: أَلكَ حاجةٌ؟ قلتُ: نعم، كنتُ جالساً في الروضةِ فما راعَني إلَّا صوتُك؛ فبنفسي أفْديك، فما الَّذي تَجدُ؟ فقال: أنا عُتبةُ بنُ الحُبَابِ بنِ المنذرِ بن الجَمُوحِ الأنصاريِّ، غدوتُ يوماً إلى مسجدِ الأحزابِ فصَلَّيْتُ فِيه، ثم اعتَزَلْتُ غيرَ بعيدٍ، فإذا أنا بنسوةٍ قد أقبلْنَ يَتَهادَيْنَ مِثْلَ القَطَا، وإذا في وَسَطِهِنَّ جاريةٌ بديعةُ الجمالِ، كاملةُ المَلاحَةِ، فوقَفَتْ عليَّ فقالت:

يا عُتبةُ! ما تقولُ في وَصْلِ مَنْ تطلبُ وصلَكَ؟ ثم تَرَكَتْنِي وذهَبَتْ فلم أسمعْ لها خبراً، ولا قَفَوْتُ لها أثراً، وأنا حيرانُ أنتقلُ مِنْ مكانٍ إلى آخَرَ، ثم صرخَ وأكبَّ مَغْشياً عليه، ثم أفاقَ كأنَّما صُبِغَتْ وجنتاهُ بِوَرْسٍ، وهو يقول:

أَرَاكُمْ بِقَلْبِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ... فَيَا هَلْ تَرَوْنِي بِالفُؤادِ عَلَى بُعْدِي

فُؤادِي وَطَــرْفِـي يَأْسَفَــانِ عَلَيْكُـمُ ... وَعِنْــدَكُمُ رُوحِي وَذِكْــرُكُم عِنْـدِي
وَلَـسْـتُ أَلَــذُّ الـعَـيْشَ حَتَّـى أَرَاكُمُ ... وَلَوْ كُنْتُ فِي الفِرْدَوْسِ أَوْ جَنَّـةِ الخُلْدِ

فقلتُ: يا ابنَ أخي! تُبْ إلى ربِّكَ واستغفِرهُ من ذنبك، فبينَ يديك هَوْلُ المَطالِعِ، فقالَ: ما أنا بسَالٍ حتى يَؤوبَ القارِظانِ[1]، ولم أزلْ معه إلى أن طَلَعَ الصُّبْحُ، فقلتُ: قُم بنا إلى مسجدِ الأحزابِ، فلعلَّ اللهَ أن يكشفَ كُرْبَتَكَ، فقال: أرجو ذٰلك إنْ شاءَ اللهُ ببركةِ طَلْعَتِكَ، فذهبنا حتى أتينا مسجدَ الأحزابِ فسمعتُهُ يقولُ:

يَا لَلرِّجَــالِ لِيَوْمِ الأرْبِــعَــاءِ أَمَــا ... يَنْفَـكُّ يُحْـدِثُ لِي بَعْـدَ النُّهَى طَرَبَا
مَا إنْ يَزَالُ غَزَالٌ مِنْــهُ يَقْــتُــلُنِــي ... يَأْتِي إلَى مَسْجِــدِ الأحْـزَابِ مُنْتَقِبَـا
يُخْبِــرُ النَّــاسَ أَنَّ الأجْــرَ هِمَّتُــهُ ... وَمَــا أَتَـى طَالِبــاً لِلْخَيْرِ مُحْتَسِبــا
لَوْ كَانَ يَبْـغِـي ثَوَابــاً مَا أَتَى صَلِفــاً ... مُضَمَّخــاً بِفَتِيتِ المِسْـكِ مُخْتَضِبـا

ثم جلسنـا حتى صلَّينـا الظهرَ، وإذا بالنِّسوةِ قد أقبَلْنَ وليستِ الجاريةُ فيهنَّ، فوقَفْنَ عليه، وقُلْنَ له: يا عُتبةُ! ما ظنُّكَ بطالبةِ وَصْلِكَ، وكاسفةِ بالِكَ؟ قال: وما بالُها؟ قُلْنَ: أخَذَهَا أبوها وارتحلَ بها إلى أرضِ السماوةِ، فسألتُهُنَّ عن الجاريةِ؟ فقُلْنَ: هي ريَّا ابنةُ الغِطْرِيفِ[2] السُّلَمِيِّ، فرفعَ عُتبةُ رأسَه إليهنَّ، وقال:

خَلِيلَيَّ رَيَّا قَدْ أَجَــدَّ بُكُــورُهَــا ... وَسَــارَتْ إلَى أَرْضِ السَّمَـاوَةِ عِيْرُها
خَلِيلَيَّ إنِّــي قَدْ عَشِـيْتُ مِنَ الـبُكَــا ... فَهَــلْ عِنْــدَ غَيْرِي مُقْلَةٌ أَسْتَعِيرُهَــا

---

(١) هما رجلان من عَنَزة، خرجا في طلب القَرَظ ـ وهو دباغ الأديم ـ يجتبيانه؛ فلم يرجعا، فَضُرب بهما المثلُ في انقطاعِ الغيبة.

انظر: «جنى الجنَّتين في تمييز نوعي المُثنَّيَيْن» (ص ٨٩) للمحبّي.

(٢) شاعرة من نساء العصر الأموي، ذكرتها ـ وقصَّتها ـ زينب فوَّاز في «الدر المنثور في طبقات ربَّات الخُدور» (ص ٢١٣).

فقلتُ له: إني قد وَرَدْتُ بمالٍ جزيلٍ أُريدُ به أهلَ السَّتْرِ، واللهِ لأبذَلَنَّهُ أمامَكَ حتى تبلغَ رضاكَ وفوقَ رضاكَ، فقمْ بنا إلى مسجدِ الأنصارِ، فَقُمْنا وسِرْنَا حتى أشرَفْنَا على ملأٍ منهم، فَسَلَّمْتُ فأحسَنُوا الردَّ، فقلتُ: أيها الملأُ، ما تقولونَ في عُتبةَ وأبيهِ؟ قالوا: مِنْ ساداتِ العربِ، قلتُ: فإنه قد رُمِيَ بداهيةٍ مِنَ الهوى، وما أريدُ منكم إلَّا المساعدَةَ إلى السَّماوةِ، فقالوا: سَمْعاً وطاعةً، فركبنا وركبَ القومُ معنا حتى أشرَفْنا على منازلِ بني سُلَيمٍ، فأُعْلِمَ العِطْريفُ بنا فخرجَ مُبادراً فاستقبَلَنَا، وقال: حُيِّيتُم يا كِرامُ، فقلنا: وأنتَ فَحَيَّاكَ اللهُ، إنَّا لك أضيافٌ، فقال: نزلتُم أكرمَ منزلٍ، ثم نادى: يا معشرَ العبيدِ! أَنْزِلُوا القومَ، ففُرِشَتِ الأنطاعُ والنَّمارِقُ وذُبِحَتِ الذبائحُ، فقلنا: لسنا بذائقي طعامِكَ حتى تقضِيَ حاجَتَنا، فقال: وما حاجتُكُم؟ قلنا: نخطُبُ عَقِيلَتَكَ الكريمةَ لِعُتبةَ بن الحُبَابِ بنِ المنذرِ، فقال: إنَّ التي تَخْطُبُونَهَا أمرُها إلى نفسِها، وأنا أَدْخُلُ وأُخبرُها، ثم دخلَ مُغْضَباً على ابنتِهِ، فقالَتْ: يَا أبَتِ! ما لي أرى الغَضَبَ في وجهك؟ فقال: قد وَرَدَ الأنصارُ يَخْطِبُونَكِ منِّي، فقالت: ساداتٌ كرامٌ، استغفَرَ لهم النبيُّ ﷺ، فَلِمَنْ الخِطْبَةُ منهم؟ فقال: لِعُتبةَ بنِ الحُبَابِ، قالت: واللهِ لقد سمعتُ عن عُتبةَ هٰذا أنَّه يفي بما وَعَدَ، ويُدرِكُ إذا قَصَدَ، فقال: أقسمتُ لا زَوَّجْتُكِ به أبداً، ولقد نُمِيَ إليَّ بعضُ حديثِكِ معه، فقالَتْ: ما كانَ ذٰلك، ولٰكنْ إذا أقسمتَ، فإنَّ الأنصارَ لا يُرَدُّونَ ردّاً قبيحاً، حَسِّنْ لهم الردَّ، فقال: بأيِّ شيءٍ؟ قالت: أَغْلِظْ لهم المَهْرَ، فإنَّهم يرجعونَ ولا يُجيبُونَ، فقال: ما أحسنَ ما قلتِ! ثم خرجَ مُبادراً، فقال: إنَّ فتاةَ الحيِّ قد أجابَتْ، ولٰكنِّي أريدُ لها مَهْرَ مثلِها، فَمَنِ القائمُ به؟ فقالَ عبدُ اللهِ بنُ مَعْمَرٍ: أنا، فقلْ ما شِئْتَ، فقال: أَلفُ مثقالٍ مِنَ الذهبِ، ومئةُ ثوبٍ مِنَ الأبرادِ، وخمسةُ أكرشةِ عنبرٍ، فقال عبدُ اللهِ: لك ذٰلك كلُّهُ، فهل أجبتُ؟ قال: أجَلْ، قال عبدُ اللهِ: فأنفذتُ نفراً مِنَ الأنصارِ إلى المدينَةِ، فأتوا بجميعِ ما طلبَ، ثم صُنِعَتْ الوليمةُ، وأقمنا على ذٰلك أياماً،

ثم قال: خُذوا فتاتَكُم وانصرفُوا مُصاحِبينَ، ثم حملهَا في هَوْدَجٍ وجهَّزَها بثلاثينَ راحلةً مِنَ المتـاعِ والتُّحَفِ، فودَّعناهُ وسِرْنا، حتى إذا بقيَ بيننا وبين المدينةِ مرحلةٌ واحدةٌ، خرجَتْ علينا خَيْلٌ تريدُ الغارةَ أحسِبُها مِنْ سليمٍ، فحملَ عليها عُتبةُ بنُ الحُبَابِ، فقَتلَ منهم رجالاً، وجَرَحَ آخرينَ، ثم رجعَ وبه طعنةٌ تفورُ دماً؛ فسقَطَ إلى الأرضِ، وانفنى بخدِّه، فطُرِدَتْ عنَّا الخيلُ وقد قضى عُتبةُ نحبهُ، فقلنـا: واعُتْبَتَـاهُ، فَسَمِعَتْنَا الجاريةُ، فألقَتْ نفسَهَا مِنَ البعِيرِ، وجعَلَتْ تَصِيحُ بحرقةٍ، وأنشدت:

تَصَبَّـرْتُ لَا أَنِّـي صَبَـرْتُ وإِنَّمَـا ... أُعَـلِّلُ نَفْسِـي أَنَّـهـا بِكَ لَاحِـقَـهْ
فَلَوْ أَنْصَفَتْ رُوحِي لَكَانَتْ إِلَى الرَّدَى ... أَمَـامَـكَ مِنْ دُونِ الـبَـرِيَّةِ سَابِقَـهْ
فَمَـا أَحَـدٌ بَعْـدِي وَبَعْـدَكَ مُنْصِفٌ ... خَلِيلاً وَلَا نَفْسٌ لِنَـفْسٍ مُوَافِـقَـهْ

ثم شَهِقَتْ وقضَتْ نَحْبَهـا، فاحتَفَـرْنَا لهما قبراً واحداً ودفنَّاهُما فيه، ثُمَّ رجعتُ إلى المدينةِ فأقمتُ سبعَ سنين، ثم ذهبتُ إلى الحجازِ ووردتُ المدينةَ، فقلتُ: واللهِ لآتينَّ قبرَ عُتبةَ أزورهُ، فأتيتُ القبرَ، فإذا عليه شجرةٌ عليها عصائبُ حُمْرٌ وصُفْرٌ، فقلتُ لأربابِ المنزلِ: ما يقالُ لهٰذه الشجرةِ؟ قالوا: شَجرةُ العروسين!

ولو لم يكنْ في العشقِ مِنَ الرُّخصةِ المُخالفةِ للتَّشديدِ إلَّا الحديثُ الواردُ بالحَسَنِ مِنَ الأسانيدِ، وهو حديثُ سُويدِ بنِ سعيدٍ عن عليِّ بنِ مُسهرٍ عن أبي يحيى القَتَّـاتِ عن مُجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ يرفعهُ: «مَـنْ عَشِـقَ وعفَّ، وكتَمَ فماتَ؛ فهو شهيدٌ»(١).

ورواه سويدٌ أيضاً عنِ ابنِ مُسهرٍ عن هشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ مرفوعاً.

---

(١) سيأتي الكلامُ عليه.

ورواه الخـطيبُ عن الأزهريِّ عن المعافَى بنِ زكريـا عن قُطبةَ عن ابنِ الفضلِ عن أحمدَ بنِ مسروقٍ عنه.

ورواه الزُّبيرُ بنُ بكارٍ عن عبدِ العزيزِ الماجِشون عن عبدِ العزيزِ بنِ أبي حازمٍ عن ابنِ أبي نُجَيحٍ، عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ.

وهٰذا سيدُ الأوَّلينَ والآخرينَ ورسولُ ربِّ العالمينَ ﷺ نظرَ إلى زينبَ بنتِ جحشٍ رضي اللهُ عنها فقال: «سُبحانَ مُقَلِّبِ القُلُوب»[1]، وكانت تحتَ زيدِ ابنِ حارثةَ مولاهُ، فلمَّا همَّ بطلاقِها قالَ له: «اتَّقِ اللهَ وأمْسِكْ عليكَ زوجَكَ».

فلمَّا طلقهَا زوَّجها اللهُ سبحانه مِنْ رسولِهِ ﷺ مِنْ فوقِ سبعِ سماواتٍ، فكانَ هو وليُّها ووليُّ تزويجها منْ رسولِهِ ﷺ، وعَقَدَ نِكاحَهَا فوقَ عرشِهِ، وأنزلَ على رسولِهِ ﷺ: ﴿وإِذْ تَقُولُ لِلَّذي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهٰـذا داودُ نبيُّ اللهِ عليه السلامُ لمَّا كانَ تحتَهُ تسعٌ وتسعونَ امرأةً، ثمَّ أحبَّ تلكَ المرأةَ فتزوَّجها وكمَّل بها المئة[2].

وقال الزُّهْريُّ: أوَّلُ حُبٍّ كانَ في الإسلامِ؛ حبُّ النبيِّ ﷺ عائشةَ رضي

---

(١) كما رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨ / ١٠١ ـ ١٠٢)، والحاكم (٤ / ٢٣)، كلاهما من طريق الواقدي، وهو متروك، بل كذَّبه بعضُهم.

وقد فنّد المؤلِّف رحمه الله هٰذا الخبر بكلامٍ بديعٍ في كتابه «زاد المعاد» (٤ / ٢٦٦ ـ ٢٦٧)؛ فلينظر.

وراجع «أحكام القرآن» (٣ / ١٥٣٠) لابن العربي، و«فتح الباري» (٨ / ٤٠٤).

(٢) سبق نقدُها، والتعليق عليها.

اللهُ عنها[1]، وكانَ مسروقٌ يُسمِّيها: حبيبةَ رسولِ اللهِ ﷺ[2].

وقال أبو قَيْسٍ مولى عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو: «أرسلني عبدُ اللهِ بنُ عمرو إلى أمِّ سلمةَ أسألُها: أكانَ النبيُّ ﷺ يُقبِّلُ أهلَهُ وهوَ صائمٌ؟ فقالت: لا، فقال: إنَّ عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُقبِّلُها وهُوَ صائمٌ. فقالت أمُّ سلمةَ رضي اللهُ عنها: إن النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا رأى عائشةَ لا يَتَمالَكُ عنها»[3].

وذكـر سعيدُ بنُ إبراهيمَ عن عامرِ بنِ سعدٍ عن أبيهِ؛ قالَ: كانَ إبراهيمُ الخليلُ ﷺ يزورُ هاجرَ في كُلِّ يومٍ مِنَ الشامِ على البُراقِ لِشَغَفِهِ بها، وقلَّةِ صبرِهِ عنها[4].

وذكـرَ الخـرائـطيُّ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضي اللهُ عنهما اشترى جاريةً رُوميَّةً، فكانَ يُحبُّها حبّاً شديداً، فوقَعَتْ ذاتَ يومٍ عن بغلةٍ له، فجعلَ يمسحُ الترابَ عن وجهِهَا ويُقَبِّلُها، وكانتْ تُكْثِرُ أنْ تقولَ له: يا بَطْرُونُ! أنتَ قالونُ، تعني يا مولاي أنتَ جيِّدٌ، ثم إنَّها هَرَبَتْ منه، فوجدَ عليها وَجْداً شديداً وقال:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي قَالُـونَ فَانْصَـرَفَتْ　　فَالـيَوْمَ أَعْـلَمُ أَنِّـي غيرُ قَالُـونِ

---

(1) خبرٌ مكذوبٌ، انظر: «الموضوعات» (2 / 267)، و«الفوائد المجموعة» (126).

(2) قارن بـ«الإصابة» (4 / 360).

(3) رواه أحمد (6 / 296 و317)، والطحاوي (1 / 346)، وظاهر إسناده الصحة، لكنْ؛ أعلَّه شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (4 / 84) بعلَّتين؛ إحداهما سبَّبت الأخرى:

أ ـ مُخالفة هٰذه الرواية للروايات الكثيرة المُتظافرة عن عائشة في هٰذا الباب.

ب ـ تفرُّد موسى بن عُلَيّ بها؛ فهو ـ وإن كان ثقةً ـ فقد تكلَّم فيه بعضُ أهل العلم حتى قال ابنُ معين: «لم يكُن بالقويّ»، وقال ابنُ عبد البرّ: «ما انفرد به؛ فليس بالقويّ».

(4) لم أر هٰذا بالإسناد حتى ولا في «مسند سعد» للدورقي؛ فاللهُ أعلمُ بحاله!

قال أبو محمدِ بنُ حزمٍ[1]: وقد أحبَّ مِنَ الخلفاءِ الراشدينَ والأئمةِ المهديين كثيرٌ.

وقال رجلٌ لأميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه: يا أميرَ المؤمنينَ! رأيْتُ امرأةً فَعَشِقْتُها، فقال: ذٰلكَ ما لا تملِكُ.

فالجواب[2]، وباللهِ التوفيقُ:

إنَّ الكلامَ في هٰذا البابِ لا بُدَّ فيه مِنَ التَّمييزِ بينَ الحرامِ والجائزِ، والنافعِ والضارِّ، ولا يُحْكَمُ عليه بالذمِّ والإنكارِ ولا بالمدحِ والقَبُولِ مِنْ حيثُ الجُملَةُ، وإنَّما يُبَيَّنُ حُكْمُهُ وينكشفُ أمرُهُ بذكرِ مُتَعَلَّقِهِ، وإلَّا فالعشقُ مِنْ حيثُ هو لا يُحْمَدُ ولا يذمُّ، ونحنُ نذكرُ النافعَ مِنَ الحُبِّ والضارِّ، والجائزَ والحرامَ:

اعْلَمْ أنَّ أنفعَ المحبَّةِ على الإطلاقِ وأوجَبها وأعلاها وأجلَّها محبَّةُ مَنْ جُبِلَتْ القلوبُ على محبَّتِهِ، وفُطِرَتِ الخليقةُ على تألُّهِهِ، وبها قامَتْ الأرْضُ والسماواتُ، وعليها فُطِرَتِ المخلوقاتُ، وهي سرُّ شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ، فإنَّ الإلٰهَ هو الذي تألَهُهُ القلوبُ بالمحبَّةِ والإجلالِ والتعظيمِ والذُّلِّ له والخُضُوعِ والتعبُّدِ، والعبادةُ لا تَصْلُحُ إلَّا له وحده، والعبادةُ هي كمالُ الحبِّ مع كمالِ الخُضوعِ والذُّلِّ، والشِّرْكُ في هٰذه العبوديةِ مِنْ أظلمِ الظُّلمِ الذي لا يغفرهُ اللهُ، **واللهُ تعالى يُحَبُّ لذاتِهِ مِنْ جميعِ الوجوهِ، وما سواهُ فإنما يُحَبُّ تبعاً لمحبَّتِه.**

وقد دلَّ على وُجوبِ محبَّتِهِ سبحانه جميعُ كُتُبِهِ المنزَّلَةِ، ودعوةُ جميعِ رُسُلِهِ، وفطرتُهُ التي فطرَ عبادَهُ عليها، وما ركَّبَ فيهم مِنَ العُقُولِ، وما أسبغَ عليهم مِنَ النِّعَمِ، فإنَّ القلوبَ مَفْطُورَةٌ مجبولَةٌ على محبَّةِ مَنْ أنعمَ عليها وأحسنَ

(١) «طوْق الحمامة في الألفة والألّاف» (١٨ / ٩٠ ـ مجموع رسائل ابن حزم).
(٢) قارن بـ «روضة المحبِّين» (ص ١٩٨) للمصنِّف رحمه الله.

إليها[1]؛ فكيفَ بِمَنْ كُلُّ الإحسانِ منه، وما بخلقِهِ جميعِهِم من نعمةٍ فمنه وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وما تعرَّف به إلى عبادِهِ مِنْ أسمائِهِ الحُسنى وصفاتِهِ العُلا، وما دَلَّتْ عليه آثارُ مصنوعاتِهِ مِنْ كمالِهِ وبَهائِهِ وَجلالِهِ وعظمتِهِ.

والمحبَّةُ لها داعيان: الجمالُ، والجلالُ، والربُّ تعالى له الكمالُ المُطْلَقُ مِنْ ذٰلك، فإنَّهُ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ بل الجمالُ كلُّه له، والإجلالُ كلُّه منه، فلا يستحقُّ أنْ يُحَبَّ لذاتِهِ مِنْ كُلِّ وجهٍ سواهُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. إِنَّمَا وَلِيُّكُم اللهُ وَرَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

والولايةُ أصلُها الحبُّ، فلا مُوالاةَ إلَّا بحبٍّ، كما أنَّ العداوةَ أصلُها البُغْضُ، واللهُ وليُّ الذينَ آمَنُوا وهم أولياؤهُ، فهم يُوالُونَهُ بمحبَّتِهِم له، وهو يُواليهم بمحبَّتِهِ لهم؛ فاللهُ تعالى يُوالي عبدَه بحسبِ محبَّتِهِ له.

ولهٰذا أنكرَ سبحانه على مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دونِهِ أولياءَ، بخلافِ مَنْ والى أولياءَهُ، فإنَّهُ لم يتَّخِذْهُم أولياءَ مِنْ دونِهِ، بل مُوالاتُهُ لهم مِنْ تمامِ مُوالاتِهِ.

---

(١) وهٰذا معنىً صحيحٌ، وقد ورد ما يُشير إليه في حديث لا يصحُّ.
انظره في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (رقم ٦٠٠).

وقد أنكرَ على مَنْ يُسَوِّي بينه وبينَ غَيْرِه في المحبَّةِ، وأخبرَ أنَّ مَنْ فعلَ ذٰلك فقدْ اتَّخذَ مِنْ دونِه أنداداً يُحبُّهُم كحُبِّ اللهِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ وَالَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأخبرَ عمَّنْ يُسوِّي بينهُ وبينَ الأندادِ في الحُبِّ، أنهم يقولونَ في النَّارِ لمعبودِيهِمْ: ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مبينٍ . إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ و٩٨].

وبهٰذا التوحيدِ في الحُبِّ أرسلَ اللهُ جميعَ رسلِه، وأنزلَ جميعَ كُتُبِه، وأطبقَتْ عليه دعوةُ جميعِ الرسلِ مِنْ أوَّلِهِمْ إلى آخِرِهم، ولأجلِه خُلِقَتِ السماواتُ والأرضُ والجنَّةُ والنَّارُ، فجعلَ الجنَّةَ لأهلِه، والنَّارَ للمشركينَ به فيه.

وقد أقسمَ النبيُّ ﷺ أنَّه: «لا يؤمِنُ عبدٌ حتى يَكُونَ هُوَ أَحَبَّ إليه مِنْ ولدِهِ ووالِدِهِ والنَّاسِ أجمعينَ»[1]؛ فكيفَ بمحبَّةِ الربِّ جل جلالُهُ؟

وقال لعُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه: «لا، حَتَّى أكُونَ أحبَّ إليكَ مِنْ نفسكَ»[2]؛ أي: لا تؤمنَ حتى تَصِلَ مَحبَّتُكَ إلى هٰذه الغايةِ.

وإذا كانَ النبيُّ ﷺ أولى بنا مِنْ أنفسِنا في المحبَّةِ ولوازِمِها؛ أفليسَ الربُّ جلَّ جلالُهُ وتقدَّسَتْ أسماؤهُ وتبارك اسمهُ وتعالى جَدُّهُ ولا إلٰه غيرُهُ، أولى بمحبَّةِ عبادِهِ مِنْ أنفسِهِم؟

وكلُّ ما مِنْهُ إلى عبدِهِ المؤمنِ يدعُوهُ إلى محبَّتِهِ، ممَّا يحبُّ العبدُ ويكرهُ؛ فعطاؤهُ ومنعهُ، ومُعافاتُهُ وابتلاؤهُ، وقبضُه وبَسْطُهُ، وعدلُهُ، وفضلُهُ، وإماتتهُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وإحياؤهُ، ولُطفهُ، وبرُّه، ورحمتُهُ وإحسانُهُ، وسَتْرُهُ وعفوهُ، وحِلمُهُ وصبرُهُ على عبدِه، وإجابَتُهُ لدعائِه، وكشفُ كَرْبِه، وإغاثةُ لهفتِه، وتفريجُ كربتِه مِنْ غيرِ حاجةٍ منه إليه، بل مع غِناهُ التامِّ عنه مِنْ جميعِ الوجوهِ، كلُّ ذٰلك داعٍ للقلوبِ إلى تألُّهه، ومحبَّتِه، بل تمكينُهُ عبدَه مِنْ معصيتِهِ وإعانتُهُ عليها، وسَتْرُهُ حتى يَقْضِيَ وطَرَهُ منها وكلاءَتُهُ وحراسَتُهُ له، وهو يقضِي وَطَرَهُ مِنْ معصيَتِه، وهو يُعينُهُ ويستعينُ عليها بنعمِهِ ـ مِنْ أقوى الدَّواعِي إلى محبَّتِه، فلو أنَّ مخلوقاً فعل بمخلوقٍ أدنى شيءٍ مِنْ ذٰلـك لم يَمْلِكْ قَلْبَـهُ عن محبَّتِـهِ؛ فكيفَ لا يُحِبُّ العبـدُ بكلِّ قلبِهِ وجوارِحِهِ مَنْ يُحْسِنُ إليه على الدَّوامِ بعددِ الأنفاسِ ـ مع إساءتِهِ؟ فخيرُهُ إليه نازلٌ، وشرُّهُ إليه صاعدٌ، يتحَبَّبُ إليه بنِعَمِهِ وهو غنيٌّ عنه، والعبدُ يَتَبَغَّضُ إليه بالمعاصِي وهو فقيرٌ إليه، فلا إحسانُهُ وَبِرُّهُ وإنعامُهُ عليه يَصُدُّهُ عن معصيتِهِ، ولا معصيةُ العبدِ ولؤمُهُ، يقطعُ إحسانَ ربِّه عنه.

فَأَلأمُ اللُّؤمِ تَخَلُّفُ القلوبِ عن محبَّةِ مَنْ هٰذا شأنُهُ، وتعلُّقها بمحبَّةِ سواهُ.

وأيضاً: فكلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الخَلْقِ ويُحِبُّكَ إنَّما يريدُك لنفسِهِ وغَرَضِهِ منك، واللهُ تعالى يُريدُكَ لك، كما في الأثرِ الإلٰهيِّ: «عبدي! كلٌّ يَريدُك لنفسِهِ، وأنا أريدُكَ لك»(١)؛ فكيفَ لا يستحي العبدُ أنْ يكونَ ربُّه له بهٰذه المنزلةِ، وهو مُعْرِضٌ عنه مشغولٌ بحُبِّ غيرِهِ، قد استغرقَ قلبَهُ بمحبَّةِ سواه؟

وأيضاً؛ فكلُّ مَنْ تُعامِلُهُ مِنَ الخَلْقِ إنْ لم يربحْ عليك لم يُعامِلْكَ، ولا بدَّ له مِنْ نوعٍ مِنْ أنواعِ الرِّبحِ، والربُّ تعالى إنَّما يُعامِلُكَ لتربحَ أنتَ عليه أعظمَ الربحِ وأعلاه، والدرهمُ بعشرةِ أمثالهِ إلى سبعمئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، والسيئةُ بواحدةٍ وهي أسرعُ شيءٍ محْواً.

---

(١) لم أقف عليه، ويقعُ في القلب أنَّه من الإسرائيليات الواهية!

وأيضاً فهو سُبحانهُ خَلقَكَ لنفسهِ، وخلقَ كلَّ شيءٍ لك في الدنيا والآخرة، فَمَنْ أولى منه باستفراغِ الوسعِ في محبَّتِهِ وبذلِ الجُهْدِ في مرضاتِهِ؟!

وأيضاً فَمَطَالِبُكَ ـ بل مَطالِبُ الخَلْقِ كلِّهم جميعاً ـ لديهِ، وهو أجودُ الأجْوَدينَ وأكرمُ الأكرمينَ، أعطى عبدَهُ قبل أن يسألَهُ فوقَ ما يُؤمِّلُهُ، يشكرُ القليلَ مِنَ العملِ ويُنمِّيهِ، ويغفرُ الكثيرَ مِنَ الزَّلَلِ ويمحوهُ، يسألهُ مَنْ في السماوٰتِ والأرْضِ ،كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، لا يَشْغَلُهُ سمعٌ عن سمعٍ، ولا تُغَلِّطُهُ كثْرَةُ المسائِلِ، ولا يتبرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ، بل يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعاءِ[1]، ويُحِبُّ أن يُسألَ، ويغضبُ إذا لم يُسألْ[2]، يستحي مِنْ عبدِهِ حيثُ لا يستحِي العبدُ منه، ويسترُهُ حيثُ لا يسترُ نفسَهُ، ويرحمهُ حيثُ لا يرحمُ نفسه، دعاه بنعمِهِ وإحسانِهِ وأياديهِ إلى كرامتِهِ ورضوانِهِ فأبىٰ، فأرسلَ رسله في طلبه، وبعثَ إليهم معَهم عَهْدَهُ، ثم نزلَ سبحانَهُ بنفسِهِ وقال: «مَنْ يسألُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فأغْفِرَ له؟»[3]. كما قيل: أدعوكَ للوصلِ تأبىٰ، أبعثُ رسولي في الطلبِ، أنزلُ إليك بنفسي، ألقاكَ في النُّوَّامِ.

وكيفَ لا تُحِبُّ القلوبُ مَنْ لَا يأتي بالحَسَناتِ إلا هو، ولا يذهبُ بالسيِّئاتِ إلا هو، ولا يُجيبُ الدعواتِ، ويُقيلُ العَثَراتِ، ويغفرُ الخطيئاتِ، ويسترُ العوراتِ، ويكشفُ الكُرُباتِ، ويُغيثُ اللَّهفَاتِ، ويُنيلُ الطَّلباتِ سواه؟

فهو أحقُّ مَنْ ذُكِرَ، وأحقُّ مَنْ شُكِرَ، وأحقُّ مَنْ عُبِدَ، وأحقُّ مَنْ حُمِدَ، وأبصرُ مَن ابْتُغِيَ، وأرْأفُ مَنْ مَلَكَ، وأجودُ مَنْ سُئِلَ، وأوسعُ مَنْ أعطى، وأرحمُ مَنِ اسْتُرْحِمَ، وأكرمُ مَنْ قُصِدَ، وأعزُّ مَنِ التُجِىءَ إليه، وأكفى مَنْ تَوَكَّلَ العبدُ

---

(١) سبق تخريج الحديث الوارد في ذٰلك.

(٢) سبق تخريج الحديث الوارد في ذٰلك.

(٣) رواه البخاري (٥٩٦٢)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هُريرة.

عليه، أرحمُ بعبدِهِ مِنَ الوالدةِ بولدها، وأشدُّ فَرَحاً بتوبةِ التائبِ مِنَ الفاقدِ لراحلتِهِ التي عليهــا طعــامُـهُ وشـرابـهُ في الأرضِ المهلكـةِ إذا يئسَ مِنَ الحياةِ ثم وجدَها[1]!!

وهو المَلِكُ لَا شريكَ له، والفَرْدُ فلا نِدَّ له، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ، لن يُطاعَ إلَّا بإذنِهِ، ولن يُعصىٰ إلَّا بعلمِهِ، يُطاعُ فيشكرُ، وبتوفيقِهِ ونعمتِهِ أُطيعَ، ويُعصى فيغفـرُ، ويعفـو وحقُّه أُضيعَ، فهو أقربُ شهيدٍ، وأجلُّ حفيظٍ، وأوفى بالعهـدِ، وأعدلُ قائمٍ بالقسطِ، حالَ دونَ النفوسِ، وأخذَ بالنَّواصِي، وكتبَ الآثارَ، ونسخَ الآجَالَ؛ فالقلوبُ له مُفْضِيةٌ، والسرُّ عنده علانيَةٌ، والغيبُ لديهِ مكشـوفٌ، وكلُّ أحدٍ إليه ملهوفٌ، وعَنَتِ الوجوهُ وجهِهِ، وعجزتِ العقولُ عن إدراكِ كُنهِـهِ، ودَلَّتِ الفِطَرُ والأدلَّةُ كلُّها على امتناعِ مثلهِ وشبههِ، أشرقَتْ لنورِ وجهِـهِ الـظلمـاتُ، واستنـارَتْ له الأرضُ والسمـاواتُ، وصَلَحَتْ عليه جميعُ المخلوقاتِ، «لا ينامُ ولا ينبغي له أنْ ينامَ، يخفضُ القسطَ ويرفعُهُ، يُرْفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النهارِ، وعملُ النهارِ قبلَ عملِ الليلِ، حجابُهُ النورُ، ولو كشفَهُ لأحْرَقَتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُهُ مِنْ خلقهِ»[2]:

مَا اعْتَــاضَ بَاذِلُ حُبِّــهِ لِسِــوَاهُ مِنْ عِوَضٍ وَلَــوْ مَلَكَ الــوُجُـودَ بِأَسْـرِهِ

١١٠ ـ فَصْلٌ [كمال اللّذة والفرح تابع لأمرين]:

وهـا هنا أمرٌ عظيمٌ يجبُ على اللبيبِ الاعتناءُ به، وهو أنَّ كمالَ اللَّذةِ والفرحِ والسرورِ ونعيمِ القلبِ وابتهاجِ الروحِ تابعٌ لأمرينِ:

---

(١) وفي ذلك حديثٌ صحيحٌ؛ رواه مسلم (٢٧٤٧) عن أنس، وهو في «البخاري» (٦٣٠٩) مختصراً، وفي الباب عن عدَّة من الصحابة.

(٢) رواه مسلم (١٧٩) عن أبي موسى الأشعريّ.

أحدهما: كمالُ المحبوبِ في نفسهِ وجمالهِ، وأنَّه أوْلى بإيثارِ المحبَّةِ مِنْ كُلِّ ما سواه.

والأمرُ الثاني: كمالُ محبَّتِهِ، واستفراغُ الوُسْعِ في حُبِّهِ، وإيثارُ قُربِهِ والوصولُ إليه على كلِّ شيءٍ.

وكلُّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ اللَّذةَ بحصولِ المحبوبِ بحسب قُوَّةِ محبَّتِهِ، فكلما كانتِ المحبةُ أقوى كانتْ لذَّةُ المحبَّةِ أكملَ، فلذَّةُ مَن اشتدَّ ظمؤهُ بإدراكِ الماءِ الزُّلالِ، وَمَنِ اشتدَّ جوعُهُ بأكلِ الطعامِ الشهيِّ، ونظائرُ ذلك على حَسَبِ شَوْقِهِ وشدَّةِ إرادتِهِ ومحبَّتِهِ.

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فاللذةُ والسرورُ والفرحُ أمرٌ مطلوبٌ في نفسهِ، بل هو مقصودُ كلِّ حيٍّ وعاقلٍ، وإذا كانتِ اللذةُ مطلوبةً لنفسها فهي تُذَمُّ إذا أعقبتْ ألماً أعظمَ منها، وإنْ منعَتْ لذَّةً خيراً منها وأجلَّ؛ فكيفَ إذا أعقبَتْ أعظمَ الحسراتِ، وفوَّتَتْ أعظمَ اللَّذاتِ والمَسَرَّاتِ؟ وتُحْمَدُ إذا أعانَتْ على لذةٍ عظيمةٍ دائمةٍ مُستقرَّةٍ لا تَنْغيصَ فيها ولا نَكَدَ بوجهٍ ما، وهي لذَّةُ الآخرةِ ونعيمُها وطيبُ العيشِ فيها:

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا . والآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ و١٧].

وقال السحرةُ لفرعونَ لما آمنوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّما تَقْضِي هٰذهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢ و٧٣].

واللهُ سبحانهُ خَلَقَ الخَلْقَ لِيُنيلَهُم هٰذه اللَّذةَ الدائمةَ في دارِ الخُلْدِ، وأمَّا هٰذه الدارُ فمنقطعةٌ، ولذَّاتُها لا تصفو أبداً ولا تدومُ، بخلافِ الآخرةِ، فإنَّ لذاتِها دائمةٌ ونعيمهَا خالصٌ مِنْ كلِّ كدرٍ وألمٍ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ مع

الخلودِ أبداً، ولا تعلمُ نفسٌ ما أخفى اللهُ لعبادهِ فيها مِنْ قُرَّةِ أعينٍ، بل فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ.

وهٰذا المعنى الذي قَصَدَهُ الناصحُ لقومهِ بقولهِ: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨ و٣٩]، فأخبرَهم أنَّ الدنيا متاعٌ يُسْتمتعُ بها إلى غيرِها، وأنّ الآخِرَةَ هي المستقرُّ.

وإذا عُرِفَ أنَّ لذاتِ الدُّنيا ونعيمَهَا متاعٌ ووسيلةٌ إلى لذَّاتِ الآخرةِ، ولذٰلك خُلِقَتِ الدُّنيا ولذَّاتُها، فكلُّ لذَّةٍ أعانَتْ على لذَّةِ الآخرةِ وأوصَلَتْ إليها لم يُذَمَّ تناولُها، بل يحمدُ بحسبِ إيصالِها إلى لذَّةِ الآخرةِ.

إذا عُرِفَ هٰذا؛ فأعظمُ نعيمِ الآخرةِ ولذَّاتِها: هو النظرُ إلى وجهِ الربِّ جل جلاله، وسماعُ كلامهِ منه، والقربُ منه، كما ثبتَ في «الصَّحيحِ»[1] في حديثِ الرؤيةِ: «فواللهِ ما أعطاهُمْ شيئاً أحبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إليه».

وفي حديثٍ آخَرَ: «إنَّهُ إذا تَجَلَّى لَهُمْ وَرأَوْهُ نَسُوا ما هُم فيه مِنَ النَّعيمِ»[2].

وفي «النسائيِّ» و«مسندِ الإمامِ أحمدَ»[3] مِنْ حديثِ عمارِ بنِ ياسرٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ في دعائهِ: «وأسألُكَ لذَّةَ النَّظرِ إلى وَجْهِكَ الكَريمِ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ».

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) عن صُهَيب.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والعقيلي (٢ / ٢٧٤)، والآجُرّي في «التصديق بالنظر» (٤٨)، والبزَّار (٢٢٥٣) عن جابر.

قال ابنُ كثير في «تفسيره» (٣ / ٥٧٥): «في إسناده نظر».

وحكم ابنُ الجوزي في «الموضوعات» (٣ / ٢٦٢) بوضعهِ وهو ضعيفٌ جدّاً.

(٣) تقدَّم تخريجه.

وفي كتاب «السُّنَّة»[1] لعبدِ اللهِ بنِ الإمامِ أحمدَ مرفوعاً: «كأنَّ الناسَ يومَ القيامةِ لم يسمعوا القرآنَ، إذا سمعوهُ مِنَ الرحمٰنِ فكأنَّهُم لم يسمعوهُ قبلَ ذٰلك».

وإذا عُرِفَ هٰذا؛ فأعظمُ الأسبابِ التي تُحَصِّلُ هٰذه اللذةَ هو أعظمُ لذَّاتِ الدنيا على الإطلاقِ، وهو لذَّةُ معرفةِ اللهِ سبحانه وتعالى ولذَّةُ محبَّتِهِ، فإنَّ ذٰلك هو جنَّةُ الدنيا ونعيمُها العالِي، ونسبةُ لذَّاتِها الفانيةِ إليه كَتُفْلَةٍ في بحرٍ، فإنَّ الروحَ والقلبَ والبدنَ إنَّما خُلِقَ لذلك، فأطيبُ ما في الدنيا معرفتُهُ ومحبَّتُهُ، وألذُّ ما في الجنةِ رؤيتُهُ ومُشاهدتُهُ، فمحبَّتُهُ ورؤيتُهُ قُرَّةُ العيونِ، ولذَّةُ الأرواحِ، وبهجةُ القلوبِ، ونعيمُ الدُّنيا وسرورُها، بل لذَّاتُ الدنيا القاطعةُ عن ذٰلك تنقلبُ آلاماً وعذاباً، ويبقى صاحِبُها في المعيشةِ الضَّنْكِ، فليستِ الحياةُ الطيبةُ إلَّا باللهِ.

وكان بعضُ المحبِّينَ تمرُّ به أوقاتٌ فيقولُ: إنْ كانَ أهلُ الجنَّةِ في مثلِ هٰذا إنَّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ.

وقد تقدَّمَ ذٰلك.

وكانَ غيرُهُ يقولُ: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالَدُونا عليه بالسيوفِ.

وإذا كانَ صاحبُ المحبَّةِ الباطلةِ التي هي عذابٌ على قلبِ المحبِّ، يقولُ في حاله:

وَمَا النَّاسُ إلَّا العَاشِقُونَ ذَوُو الهَوَى ... فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ

---

(١) لم أرَه في المطبوع منه.

نعم، رواه الرافعي في «التدوين في تاريخ قزوين» (٢ / ٤٠٣) وسنده ضعيفٌ، إسماعيل بن رافع ضعيفُ الحفظ.

وانظر «حادي الأرواح» (٢٤١) للمصنِّف رحمه الله.

ويقول:

أُفٍّ لِدُنْيا إِذَا ما لَمْ يَكُنْ   صَاحِبُ الدُّنْيَا مُحَبّاً أَوْ حَبِيبا

وقال آخرُ:

وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي نَعِيمِهَا   وَأَنْتَ وَحِيدٌ مُفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقِ

وقال آخرُ:

اسْكُنْ إِلَى سَكَنٍ تَلَذُّ بِحُبِّهِ   ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ

وقال:

تَشَكَّى المُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي   تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الحُبِّ كُلُّهَا   فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِي

فكيفَ بالمحبَّةِ التي هي حياةُ القلوبِ وغذاءُ الأرواحِ، وليس للقلبِ لذةٌ، ولا نعيمٌ، ولا فلاحٌ، ولا حياةٌ إلا بها؟ وإذا فقدَها القلبُ كانَ ألمُهُ أعظمَ مِنْ ألمِ العينِ إذا فقدتْ نورَها، والأذُنِ إذا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، والأنفِ إذا فقد شمَّهُ، واللسانِ إذا فقدَ نُطْقَهُ، بل فسادُ القلبِ إذا خلا مِنْ محبَّةِ فاطرِهِ وبارئِهِ وإلٰهِهِ الحقِّ؛ أعظمُ مِنْ فسادِ البدنِ إذا خلا مِنَ الروحِ، وهٰذا الأمرُ لا يُصَدِّقُ بِهِ إلَّا مَنْ فيه حياةٌ.

... ...   وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ[1]

والمقصودُ: أنَّ أعظمَ لذَّاتِ الدنيا هو السببُ الموصِلُ إلى أعظمِ لذَّةٍ في الآخرةِ.

ولذَّاتُ الدنيا ثلاثةُ أنواعٍ:

---

(١) شطر بيت مشهور للمتنبِّي، وصدرُهُ:

وَمَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ   ... ...

فأعظمُها وأكملُها: ما أوصلَ إلى لذَّةِ الآخرةِ، ويُثابُ الإنسانُ على هٰذه اللَّذةِ أتمَّ ثوابٍ، ولهٰذا كانَ المؤمنُ يُثابُ على ما يقصدُ به وجهَ اللهِ مِنْ أكلهِ وشربِهِ ولباسِهِ ونكاحِهِ، وشفاءِ غَيْظِهِ بقهرِ عدوِّ اللهِ وعدوِّهِ؛ فكيفَ بلذَّةِ إيمانِهِ، ومعرفتِهِ باللهِ، ومحبَّتِهِ له، وشَوْقِهِ إلى لقائِهِ، وطَمَعِهِ في رؤيةِ وجهِهِ الكريمِ في جنَّاتِ النعيمِ؟

النوع الثاني: لذَّةٌ تمنعُ لذَّةَ الآخرةِ وتُعْقِبُ آلاماً أعظمَ منها، كلذَّةِ الذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِ اللهِ أوثاناً مودَّةً بينهم في الحياةِ الدنيا، يحبُّونَهُم كحبِّ اللهِ، ويستمتعُونَ بعضُهم ببعضٍ ـ كما يقولونَ في الآخرةِ إذا لَقُوا ربَّهم: ﴿رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا ما شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨ و٢٩]، ولذَّةِ أصحابِ الفواحشِ والظلمِ والبغيِ في الأرضِ والعلوِّ بغيرِ الحقِّ.

وهٰـذه اللذاتُ في الحقيقةِ إنما هي استدراجٌ مِنَ اللهِ لهم لِيُذِيقَهُم بها أعـظمَ الآلامِ وَيَحْرِمَهُم بها أكملَ اللذَّاتِ، بمنزلةِ مَنْ قَدَّمَ لغيرِهِ طعاماً لذيذاً مسمـومـاً يستـدرجُـهُ به إلى هلاكِهِ، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُـونَ . وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ و١٨٣]، قال بعضُ السلفِ[١] في تفسيرِها: كلَّما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمةً.

﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الَّذينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ و٤٥].

وقال تعالى في أصحابِ هٰذه اللذةِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ و٥٦].

---

(١) هو يحيى بن المُثَنَّى، رواه عنه أبو الشيخ؛ كما في «الدر المنثور» (٣ / ٦١٨).

وقال في حقِّهم: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم وَلَا أَوْلَادُهُم إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُم وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهٰذه اللذةُ تنقلبُ آخِراً آلاماً مِنْ أعظمِ الآلامِ، كما قيل:

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الحَيَاةِ لأَهْلِهَا ... عِذَاباً فَصَارَتْ فِي المَعَادِ عَذَابا

النوع الثالث: لذَّةٌ لا تُعْقِبُ لذَّةً في دارِ القرارِ ولا تألماً، ولا تمنعُ أصلَ لذَّةِ دارِ القرارِ، وإنْ منعَتْ كمالَهَا: وهٰذه اللذةُ المباحةُ التي لا يُستعانُ بها على لذةِ الآخرةِ، فهٰذه زمانُها يسيرٌ، ليس لتمتُّعِ النفسِ بها قَدْرٌ، ولا بُدَّ أنْ تَشْغَلَ عما هو خيرٌ وأنفعُ منها.

وهٰذا القسمُ هو الذي عناهُ النبيُّ ﷺ بقولِه: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ باطلٌ، إلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وتأدِيبَهُ فَرَسَهُ، ومُلَاعَبَتَهُ امرأَتَهُ، فإنَّهُنَّ مِنَ الحَقِّ»(١).

فما أعانَ على اللذةِ المطلوبةِ لذاتِها فهو حقٌّ، وما لم يُعِنْ عليها فهو باطلٌ.

١١١ ـ فَصْلٌ [الحب منه ما لا ينكر ولا يذمّ]:

فهٰذا الحبُّ لا يُنْكَرُ ولا يُذَمُّ، بل هو أحمدُ أنواعِ الحبِّ، وكذٰلك حبُّ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّما نعني المحبَّةَ الخاصَّةَ، وهي التي تَشْغَلُ قلبَ المحبِّ وفكرَهُ وذكرَهُ بمحبوبِهِ، وإلَّا فكلُّ مسلمٍ في قلبِهِ مَحَبَّةٌ للهِ ورسولِهِ، لا يَدْخُلُ في الإسلامِ إلَّا بها، والناسُ مُتفاوِتُونَ في درجاتِ هٰذه المحبَّةِ تفاوُتاً لا يُحصيهِ إلَّا اللهُ، فبينَ محبَّةِ الخليلينِ ومحبَّةِ غيرِهما ما بينهما، فهٰذه المحبَّةُ هي التي تُلطِّفُ وتُخفِّفُ أثقالَ التكاليفِ، وتُسخِّي البخيلَ، وتُشجِّعُ الجبانَ، وتُصفِّي الذهنَ،

(١) حديثٌ صحيحٌ يُنظر تخريجهُ في تعليقي على «جزء اتِّباع السُّنن» (رقم ٥١) للضياء المقدسيّ.

وتُرَوِّضُ النفسَ؛ وتُطيِّبُ الحياةَ على الحقيقةِ، لا محبَّةَ الصورِ المحرمةِ، وإذا بُليت السرائرُ يومَ اللقاءِ، كانت سريرةُ صاحِبها مِنْ خيرِ سرائرِ العبادِ، كما قيل:

سَيَبْقى لَكُمْ فِي مُضْمَرِ القَلْبِ وَالحَشَا سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ

وهٰذه المحبةُ هي التي تُنوِّرُ الوجهَ، وتشرحُ الصدرَ، وتُحيي القلبَ، وكذٰلك محبَّةُ كلامِ اللهِ، فإنَّها مِنْ علامةِ محبَّةِ اللهِ.

وإذا أردْتَ أن تعلمَ ما عندك وعندَ غيرِك من محبَّةِ اللهِ، فانظرْ محبَّةَ القرآنِ مِنْ قلبِكَ، والتذاذَكَ بسماعِهِ أعظمَ مِنِ التذاذِ أصحابِ الملاهِي والغناءِ المُطْرِبِ بسماعِهِم، فإنَّ مِنَ المعلومِ أنَّ مَنْ أحبَّ محبوباً كانَ كلامُهُ وحديثُهُ أحبَّ شيءٍ إليه، كما قيل:

إنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمَا تَأَمَّلْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَذِيذِ خِطَابِي

وقال عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه: «لو طَهُرَتْ قلوبُنا لما شَبِعَتْ مِنْ كلامِ اللهِ».

وكيفَ يشبعُ المُحِبُّ مِنْ كلامِ محبوبِهِ وهو غايةُ مطلوبِهِ!

وقالَ النبيُّ ﷺ يوماً لعبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه: «اقْرأْ عَلَيَّ، فقال: أَقْرَأُ عليكَ، وعليك أُنْزِلَ؟ فقال: إنِّي أُحِبُّ أن أسمَعَهُ مِنْ غيري، فاسْتَفْتَحَ فقرأَ سورَةَ النِّساءِ، حتَّى إذا بَلَغَ قولَهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١]، قال: حَسْبُكَ، فرفعَ رأْسَهُ فإذا عينَا رسولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ مِنَ البُكَاءِ»(١).

وكان الصحابةُ إذا اجتمعُوا وفيهم أبو موسى يقولونَ: يا أبا موسى! ذكِّرنَا

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠).

ربَّنا، فيقرأُ، وهم يستمعونَ[1].

فلمحبِّي القرآنِ مِنَ الوجدِ، والذوقِ، واللذةِ، والحلاوةِ، والسُّرورِ أضعافُ ما لمحبِّي السماعِ الشيطانيِّ، فإذا رأيتَ الرجلَ؛ ذوقَهُ، ووجدَهُ، وطربَهُ، وتشوُّقه إلى سماعِ الأبياتِ دونَ سماعِ الآياتِ، وفي سماعِ الألحانِ دونَ سماعِ القرآنِ، وهو كما قيل:

تُقْرَا عَلَيْكَ الخَتْمَةُ وَأَنْتَ جَامِدٌ كَالحَجَرِ
وَبَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ يُنْشَدُ تَمِيلُ كَالنَّشْوانِ

فهٰذه مِنْ أقوى الأدلَّةِ على فراغِ قلبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وكلامِهِ، وتعلُّقِهِ بمحبَّةِ سماعِ الشيطانِ، والمغرورُ يعتقدُ أنَّه على شيءٍ.

ففي محبةِ اللهِ وكلامِهِ ورسولِهِ ﷺ أضعافُ أضعافِ ما ذكرَ السائلُ مِنْ فوائِدِ العشقِ ومنافِعِهِ، بل لا حُبَّ على الحقيقةِ أنفعُ منه، وكلُّ حبٍّ سوى ذٰلك باطلٌ، إنْ لم يُعِنْ عليه ويُشوِّقْ المحبَّ إليه.

١١٢ ـ فَصْلٌ [محبّة الزوجات]:

وأما محبةُ الزوجاتِ؛ فلا لَوْمَ على المحبِّ فيها، بل هي مِنْ كمالِهِ، وقد امتَنَّ سبحانه بها على عبادِهِ فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فجعلَ المرأةَ سَكَناً للرجلِ يسكنُ قلبُهُ إليها، وجعلَ بينهما خالصَ الحبِّ، وهو المودَّةُ المقرونةُ بالرحمةِ، وقد قالَ تعالى عَقِيبَ ذِكْرِهِ ما أحلَّ لنا مِنَ النساءِ وما حَرَّمَ منهنَّ: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُم سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُم وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . واللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم وَيُرِيدُ الَّذِينَ

---

(١) رواه بنحوه أبو عُبيد في «فضائل القُرآن» (ص ٧٩).

يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً . يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم وَخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

ذكر سفيانُ الثوريُّ في «تفسيرِه»[1] عن ابنِ طاووسٍ عن أبيه: كانَ إذا نظرَ إلى النساءِ لم يصبرْ.

وفي «الصَّحيح»[2] من حديثِ جابرٍ عن النبيِّ ﷺ «أنَّهُ رأى امرأةً فأتى زينبَ فقضى حاجَته منها، وقال: إنَّ المرأةَ تُقْبِلُ في صورةِ شيطانٍ، وتُدْبِرُ في صورةِ شيطانٍ، فإذا رأى أحدكُم امرأةً فأعجَبَتْهُ فليأتِ أهلَهُ، فإنَّ ذٰلك يَرُدُّ ما في نفسِهِ».

ففي الحديثِ عدَّةُ فوائدَ:

منها: الإرشادُ إلى التَّسَلِّي عن المطلوبِ بجنسِهِ، كما يقومُ الطعامُ مقامَ الطعامِ، والثوبُ مقامَ الثوبِ.

ومنها: الأمرُ بمُداواةِ الإعجابِ بالمرأةِ المورِّث لشهوتها بأنفعِ الأدويةِ، وهو قضاءُ وطرِهِ من أهلِهِ، وذٰلك ينقضُ شهوتَهُ لها.

وهٰذا كما أرشدَ المتحابِّينَ إلى النكاحِ، كما في «سننِ ابنِ ماجه»[3] مرفوعاً: «لم يُرَ للمُتَحابَّيْنِ مِثْلُ النِّكاحِ».

فنكاحُ المعشوقةِ هو دواءُ العشقِ الذي جعلهُ اللهُ دواءَه شرعاً وقَدَراً، وَبه

---

(١) (ص ٩٣).
وانظر: «تفسير الطبري» (٥ / ١٩)، و«حلية الأولياء» (٤ / ١٢)، و«الدر المنثور» (٢ / ١٤٣).

(٢) رواه مسلم (١٤٠٣).

(٣) (برقم: ١٨٤٧)، ورواه الحاكم (٢ / ١٦٠)، والبيهقي (٧ / ٧٨).
وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٦٦٢): «هٰذا إسناد صحيح رجاله ثقاتٌ».

تداوى داودُ[1] ﷺ، ولم يرتكِبْ نبيُّ اللهِ مُحَرَّماً، وإنّما تزوجَ المرأةَ وضمَّها إلى نسائِهِ لمحبَّتِهِ لها، وكانَتْ توبتُهُ بحسبِ منزلتِهِ عندَ اللهِ وعلوِّ مرتبتِهِ، ولا يليقُ بنا المزيدُ على هٰذا.

وأما قصَّةُ زينبَ بنتِ جحشٍ؛ فزيْدٌ كانَ قد عزمَ على طلاقِها ولم تُوافِقْهُ، وكانَ يستشيرُ النبيَّ ﷺ في فراقِها، وهو يأمرُهُ بإمساكِها، فكلَّمَ رسولَ اللهِ ﷺ أنَّه مفارِقُها ولا بدّ؛ فأخفى في نفسِهِ أنَّه يتزوَّجُها إذا فارَقَها زيدُ، وخَشِيَ مقالةَ الناسِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تزوجَ زوجَةَ ابنِهِ؛ فإنَّه كانَ قد تَبَنَّى زيداً قبلَ النبوَّةِ، والربُّ تعالى يُريدُ أن يشرعَ شرعاً عاماً فيه مصالحُ عبادِهِ؛ فلمَّا طلقها زيدٌ وانقضَتْ عِدَّتُها منه أرسلهُ إليها يخطِبها لنفسِهِ، فجاءَ زيدُ واستدبَرَ البابَ بظهرِهِ، وعَظُمَتْ في صدرِهِ لمَّا ذكرها رسولُ اللهِ ﷺ، فناداها مِنْ وراءِ البابِ: «يا زينبُ! إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يخطُبُكِ؛ فقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُؤامِرَ رَبِّي، وقامَتْ إلى محرابِها فصلَّتْ، فتولَّى اللهُ عزَّ وجلَّ نكاحَهَا مِنْ رسولِهِ ﷺ بنفسِهِ، وعقدَ له النكاحَ فوقَ عرشِهِ، وجاءَ الوحيُ بذلك ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ لوقتِهِ فدخلَ عليها؛ فكانَتْ تفخرُ على نساءِ النبيِّ ﷺ بذلك وتقولُ: «أنتُنَّ زوَّجكنَّ أهاليكُنَّ وزوَّجني اللهُ مِنْ فوقِ سبعِ سماواتٍ»[2].

فهذه قصةُ رسولِ اللهِ مع زينبَ.

ولا ريبَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد حُبِّبَ إليه النساءُ، كما في الصَّحيحِ[3]

---

(١) سبق بيان فساد المرويّ في هٰذا الباب ووهائِهِ!

(٢) رواه البخاري (٤٧٨٧)، ومسلم (١٤٢٨) عن أنس.

وانظر: «فتح الباري» (٨ / ٧٢٣).

(٣) يُريدُ الحديثَ الصحيح لا أحد «الصحيحين»؛ فالحديثُ ليس في أيٍّ منهما، وقد سبق تخريجُ الحديثِ.

عنْ أنسٍ عنه ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنياكُمُ النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ».

هٰذا لفظُ الحديثِ، لا ما يرويهِ بعضُهم: «حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنياكُم ثلاثٌ[1]...».

زاد الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزهدِ» في هٰذا الحديثِ: «... أصْبِرُ عن الطَّعامِ والشرابِ ولا أصبِرُ عَنْهُنَّ».

وقد حسدَه أعداءُ اللهِ اليهودُ على ذٰلك فقالوا: ما همُّهُ إلا النكاحُ! فردَّ اللهُ سبحانه عن رسولِ اللهِ ﷺ ونافحَ عنه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥٤].

وهٰذا خليلُ اللهِ إبراهيم إمام الحنفاء ﷺ كانَ عندَه سارةُ أجملُ نساءِ العالمينَ، وأحبَّ هاجرَ وتسرَّى بها.

وهٰذا داودُ عليه السلامُ كانَ عنده تسعٌ وتسعونَ امرأةً فأحبَّ تلك المرأةَ وتزوَّجها فكمَّل المئة[2].

وهٰذا سليمانُ ابنُهُ عليه السلامُ كانَ يطوفُ في الليلةِ على تسعينَ امرأةً[3].

---

(١) نبّه جماعةٌ مِن أهل على عدم ورود هٰذه الزيادة وأنّه لا أصل لها؛ فانظر: «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف» (رقم ٢٢٩)، و«الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي» (٢٧٥)، و«تخريج المشكاة» (١ / ١٤٤٨)، وانظر (ص ٣١٩ - ٣٢٠).

(٢) سبق بيان بُطلان هٰذا الكلام.

(٣) رواه مسلم (٦٦٥٤) بلفظ: «تسعين»، وهو عند البخاري (٥٢٤٢) بلفظ: «مئة».

وقد سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أحبِّ الناسِ إليه؟ فقال: «عائشة»[1].

وقال عن خديجةَ: «إنِّي رُزِقْتُ حُبَّها»[2].

فمحبةُ النساءِ من كمالِ الإنسانِ، قال ابنُ عباسٍ: «خيرُ هٰذه الأمَّةِ أكثرُها نساءً»[3].

وقد ذكرَ الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ وقعَ في سهمهِ يومَ جَلولاءَ[4] جاريةٌ كأنَّ عنقَها إبريقُ فضةٍ، قال عَبدُ اللهِ: «فما صَبَرْتُ أن قَبَّلْتُها والناسُ ينظرونَ».

وبهٰذا احتجَّ الإمامُ أحمدُ في جوازِ الاستمتاعِ مِنَ المَسْبِيَّةِ قبلَ الاستبراءِ بغيرِ الوطءِ، بخلافِ الأمَةِ المشتراةِ.

والفرقُ بينهما أنَّ انفساخَ المُلكِ لا يُتوهَّمُ في المسبيَّةِ، بخلافِ المُشتراةِ؛ فقد ينفسخُ فيها الملكُ، فيكونَ مستمتعاً بأمةِ غيرِه.

وقد شفعَ النبيُّ لعاشقٍ أن تواصِلَهُ معشوقتُهُ بأنْ تتزوَّجَ به فأبَتْ، وذٰلك في قصَّةِ مُغيثٍ وبَريرَةَ؛ فإنَّه رآهُ يمشي خلفها بعد فراقها ودموعُهُ تجري على خدَّيه، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «لو راجَعْتيهِ؟ فقالت: أتأمُرُني يا رسولَ اللهِ؟ فقال: لا، إنَّما أشفَعُ، فقالت: لا حاجةَ لي به، فقال لِعَمِّهِ: يا عبَّاسُ! ألا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرةَ، وَمِنْ بُغْضِهَا له؟»[5] ولم ينكر عليه حبَّها، وإنْ كانت قد بانَتْ منه،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٣) «مُشيراً إلى النبي ﷺ»، كذا قال القاضي عِيَاض في «الشفا» (١ / ١٩٠).
وهٰذا الأثر؛ رواه البخاري في «صحيحه» (٥٠٦٩).

(٤) بلدة في طريق خُراسان وقعت فيها معركةٌ مشهورة بين الفُرس والمسلمين.
انظر: «معجم ما استعجم» (٢ / ٣٩٠)، و«البداية والنهاية» (٧ / ٦٩).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٥٢٨٠).

فإنَّ هٰذا ما لا يملِكُه.

وكان النبيُّ ﷺ يسوِّي بين نسائِهِ في القَسْمِ ويقولُ: «اللهمَّ هٰذا قَسْمِي فيما أملِكُ، فلا تَلُمْنِي فِيما لا أَمْلِكُ»(١)، يعني في الحبِّ.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُم﴾ [النساء: ١٢٩]؛ يعني: في الحب والجماعِ.

ولم يزلِ الخُلَفاءُ الراشدونَ والرُّحماءُ مِنَ الناسِ يشفعونَ للعشَّاقِ إلى معشوقِهِم الجائزِ وصلُهُنَّ، كما تقدَّمَ مِنْ فعلِ أبي بكرٍ وعثمانَ.

وكذٰلك فَعَلَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ فقد أُتِيَ بغلامٍ مِنَ العربِ وُجِدَ في دارِ قومٍ بالليلِ، فقال له: ما قصَّتُكَ؟ قال: لستُ بسارقٍ، ولٰكنِّي أَصْدُقُكَ:

تَعَلَّقْتُ فِي دَارِ الرِّيَاحِي خَوْدَةً ... يَذِلُّ لَهَا مِنْ حُسْنِ مَنْظَرِهَا البَدْرُ
لَهَا فِي بَنَاتِ الرُّومِ حُسْنٌ ومَنْظَرٌ ... إِذَا افْتَخَرَتْ بِالحُسْنِ خَافَهَا الفَخْرُ
فَلَمَّا طَرَقْتُ الدَّارَ مِنْ حَرِّ مُهْجَتِي ... أَبِيْتُ وَفِيهَا مِنْ تَوَقُّدِهَا الجَمْرُ
تَبَادَرَ أَهْلُ الدَّارِ بِي ثُمَّ صَيَّحُوا ... هُوَ اللِّصُّ مَحْتُوماً لَهُ القَتْلُ والأَسْرُ

فلمَّا سمعَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه شِعْرَهُ رقَّ له، وقال للمُهَلَّبِ ابن رباحٍ: اسْمَحْ له بها، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ! سَلْهُ مَنْ هُوَ؟ فقال: النهَّاسُ ابنُ عُيَيْنَةَ، فقال: خُذْهَا فَهِيَ لك(٢).

واشترى معاويةُ جاريةً فأُعْجِبَ بها إعجاباً شديداً؛ فسمِعَهَا يوماً تُنشدُ أبياتاً منها:

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنَّسائي في «الصغرى» (٣٩٤٣) وفي «عِشْرة النساء» (٥)، وابن ماجه (١٩٧١)، وأحمد (٦ / ١٤٤)، وغيرهم عن عائشة.
وسنده ضعيف؛ فانظر له: «إرواء الغليل» (٢٠١٨).

(٢) (لعلّ) هٰذا من أخبار الشريف الرضي أو أبي الفَرَج الأصبهاني!

وَفَــارَقْتُـهُ كَالغُصْنِ يَهْتَـزُّ فِي الثَّرَى طَرِيراً وَسِيمـاً بَعْـدَمَـا طَرَّ شَارِبُـهْ

فسألها، فأخبرَتْهُ أنها تُحِبُّ سيِّدها، فردَّها إليه، وفي قلبهِ منها.

وذكر الزمخشريُّ في «ربيعه»[1] أنَّ زبيدةَ قرأتْ في طريقِ مكَّةَ على حائط:

أَمَـا فِي عِبَـادِ اللهِ أَوْ فِي إِمَـائِـهِ كَرِيمٌ يُجَلِّي الهَمَّ مَنْ ذَاهِبِ العَقْلِ
لَهُ مُقْـلَةٌ أَمَّـا الـمَـآقِي قَرِيحـةٌ وَأَمَّـا الحَشَـا فَالنَّـارُ مِنْـهُ عَلَى وَجَلِ

فنذَرَتْ أن تحتالَ لقائلِهما إنْ عرفَتْهُ حتى تجمَعَ بينه وبينَ مَنْ يحبُّهُ، فبينا هي بالمزدلفة؛ إذ سمعتْ مَنْ يُنشدُ البيتين، فطلبَتْهُ، فزعَمَ أنَّه قالهما في ابنةِ عمٍّ له نذرَ أهلُها أن لا يزوِّجوها منه، فوجَّهَتْ إلى الحيِّ، فما زالتْ تبذُلُ لهم المالَ حتى زوَّجوهـا منه، وإذا المـرأةُ أعشقُ له منه لها، فكانَتْ تعدُّهُ مِنْ أعظمِ حسناتِها، وتقول: ما أنا بشيءٍ أسرُّ مني مِنْ جمعِي بينَ ذلك الفتى والفتاة.

قال الخرائطيُّ: وكان لسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ غلامٌ وجاريةٌ يتحابَّانِ، فكتبَ الغلامُ إلى الجاريةِ يوماً:

وَلَقَـدْ رَأَيْتُـكِ فِي المَنَـامِ كَأَنَّمَـا عَاطَـيْتِـنِـي مِنْ رِيقِ فِيكِ البَـارِدِ
وَكَـأَنَّ كَفَّـكِ فِي يَدِي وَكَـأَنَّـنَـا بِتْـنَـا جَمِيعـاً فِي فِرَاشٍ وَاحِـدِ
فَطَفِـقْـتُ يَوْمِـي كُلَّهُ مُتَـرَاقِـداً لأَرَاكِ فِي نَوْمِـي وَلَـسْـتُ بِرَاقِـدِ

فأجابتهُ الجاريةُ تقولُ:

خَيْرَاً رَأَيْتَ وَكُـلَّ مَا أَبْـصَـرْتَـهُ سَتَـنَـالُـهُ مِنِّي بِرُغْـمِ الحَـاسِـدِ
إِنِّـي لأَرْجُـو أَنْ تَكُـونَ مُعَـانِـقِي فَتَـبِـيْتَ مِنِّـي فَوْقَ ثَدْيٍ نَاهِـدِ
وَأَرَاكَ بَيْنَ خَلاخِـلِي وَدَمَـالِـجِي وَأَرَاكَ فَوْقَ تَرَائِـبِـي وَمَـحَـاشِـدِ

فبلغَ سليمانَ ذلك فأنكحَها الغلامَ، وأحسنَ حالَهما على فَرْطِ غيرتِه.

---

(١) اسمُه «ربيع الأبرار»، وهو مطبوعٌ.

وقال جامعُ بنُ مُرْجِبة: سألتُ سعيدَ بنَ المُسَيَّب مُفتي المدينةِ: هل في حُبٍّ دَهَمَنا مِنْ وِزْرٍ؟

فقال سعيدٌ: إنما تُلامُ على ما تستطيعُ مِنَ الأمرِ، واللهِ ما سألني أحدٌ عن هٰذا، ولو سألَني لما كنتُ أجيبُ إلاّ به.

فعشقُ الناسِ النساءَ ثلاثةُ أقسامٍ:

١ ـ **عشقٌ** هو قُربةٌ وطاعةٌ، وهو عشقُ الرجلِ امرأته وجاريَته، وهٰذا العشقُ عشقٌ نافعٌ؛ فإنّه أدعى إلى المقاصدِ التي شرعَ اللهُ لها النكاحَ، وأكفُّ للبصرِ والقلبِ عن التطلُّعِ إلى غيرِ أهلِه، ولهٰذا يُحْمَدُ هٰذا العاشقُ عندَ اللهِ، وعندَ الناسِ.

٢ ـ **عشقٌ** هو مَقْتٌ مِنَ اللهِ وبُعْدٌ مِنْ رحمَتِه، وهو أضرُّ شيءٍ على العبدِ في دينِه ودنياهُ، وهو عشقُ المُردانِ؛ فما ابْتُلِيَ به إلاَّ مَنْ سَقَطَ مِنْ عينِ اللهِ، فَطُرِدَ عن بابِه، وأُبْعِدَ قلبُهُ عنه، وهو مِنْ أعظمِ الحجبِ القاطعةِ عن اللهِ، كما قال بعضُ السلفِ: إذا سقطَ العبدُ مِنْ عينِ اللهِ، ابتلاهُ بمحبَّةِ المُردانِ.

وهٰذه المحبَّةُ هي التي جَلَبَتْ على قومِ لوطٍ ما جَلَبَتْ، فما أُتُوا إلاَّ مِنْ هٰذا العِشقِ، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ودواءُ هٰذا الداءِ: الاستغاثةُ بمقلِّبِ القلوبِ، وصدقُ اللَّجْإِ إليه، والاشتغالُ بذكرِه، والتعوُّضُ بحبِّهِ وقُربِهِ، والتفكُّرُ في الألمِ الذي يَعْقُبُهُ هٰذا العشقُ، واللذَّةُ التي تفوتُهُ به؛ فيترتَّبُ عليه فواتُ أعظمِ محبوبٍ، وحصولُ أعظمِ مكروهٍ، فإذا أقدَمَتْ نفسهُ على هٰذا وآثرتْهُ، **فَلْيُكَبِّرْ عليها تكبيرَ الجنازةِ**، ولْيَعْلَمْ أنَّ البلاءَ قد أحاطَ بها.

٣ ـ **والقسمُ الثالثُ مِنَ العشقِ**: عشقٌ مباحٌ لا يُمْلَكُ، كعشقِ مَنْ وُصِفَتْ

له امرأةٌ جميلةٌ، أو رآها فجأةً مِنْ غيرِ قصدٍ؛ فتعلّقَ قلبُهُ بها، فأورثهُ ذٰلك عشقاً، ولم يُحْدِثْ له ذٰلك العشقُ معصيةً، فهٰذا لا يُمْلَكُ، ولا يُعاقَبُ عليه، والأنفعُ له مدافَعَتُهُ والاشتغالُ بما هو أنفعُ له منه، ويجبُ الكتمُ والعفّةُ والصبرُ فيه على البلوى، فَيُثيبهُ اللهُ على ذٰلك ويُعوِّضُهُ على صبرِهِ للهِ وعفّتِهِ، وتركِهِ طاعةَ هواه، وإيثارِ مرضاةِ اللهِ وما عنده.

١١٣ ـ فَصْلٌ [العشاق ثلاثة أقسام]:

والعشاقُ ثلاثةُ أقسامٍ:

منهم مَنْ يعشقُ الجمالَ المُطْلَقَ.

ومنهم مَنْ يعشقُ الجمالَ المُقَيَّدَ، سواءٌ طمعَ في وصالِهِ أو لا.

ومنهم مَنْ لا يعشقُ إلّا مَنْ يطمعُ في الوصول إليه.

وبين هٰذه الأنواعِ الثلاثةِ تفاوتٌ في القُوَّةِ والضعفِ.

فعاشِقُ الجمالِ المُطْلَقِ، يهيمُ قلبُهُ في كلِّ وادٍ، وله في كلِّ صورةٍ جميلةٍ مُرادٌ.

فيوماً بِحَزْوى ويوماً بالعقيقِ وبالْعَـ ... ـذيبِ يوماً ويوماً بالخُلَيْصَاءِ

وتَارةً ينتحي نجداً وآونَةً ... شِعْبَ العَقِيقِ وَطَوْراً قَصْرَ تَيْمَاءِ

فهٰذا عشقُهُ أوسعُ، ولٰكنّه غيرُ ثابتٍ كثيرُ التنقُّلِ.

يَهِيمُ بِهٰذا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ... وَيَسْلاهُمُ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وعاشقُ الجمالِ المُقَيّد أثبتُ على معشوقِهِ، وأدومُ محبَّةً له، ومحبَّتُهُ أقوى مِنْ محبَّةِ الأولِ؛ لاجتماعِهِما في واحدٍ، ولٰكنْ يُضعفُهما عدمُ الطمعِ في الوصالِ، وعاشقُ الجمالِ الذي يَطْمَعُ في وصالِهِ أعقلُ العشاقِ وأعرفُهم، وحُبُّهُ أقوى، لأنَّ الطمعَ يمدُّهُ ويقوِّيه.

١١٤ ـ فَصْلٌ [في الكلام على حديث «من عشق فعفّ»]:

وأما حديثُ «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ»؛ فهذا يرويهِ سُويدُ بنُ سعيدٍ، وقد أنكرهُ حُفَّاظُ الإسلامِ عليه:

قال ابنُ عديٍّ في «كاملِهِ»[١]: هٰذا الحديثُ أحدُ ما أُنكِرَ على سُويدٍ. وكـذا ذكـر البيهقيُّ وابنُ طاهـرٍ في «الذخيرةِ» و«التذكرةِ»[٢]، وأبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ ـ وعدَّه في «الموضوعاتِ»[٣] ـ.

وأنكرهُ أبو عبـدِ اللهِ الحاكمُ ـ على تساهُلِهِ ـ، وقال: أنا أتعجَّبُ منه.

قلت: والصوابُ في الحديثِ أنَّه مِنْ كلامِ ابنِ عباسٍ موقوفاً عليه؛ فغلطَ سويدٌ في رفعِهِ!

قال محمدُ بنُ خلفِ بنِ المرزبانِ: حدَّثنا أبو بكرٍ الأزرقُ عن سويدٍ به، فعاتَبَهُ على ذٰلك، فأسقَطَ ذكرَ النبيِّ ﷺ، وكانَ بعدَ ذٰلك يُسالُ عنه فلا يرفعُهُ.

ولا يشبهُ هٰذا كلامَ النُّبوةِ.

وأمَّا روايةُ الخطيبِ[٤] له عن الأزْهَريِّ: حدَّثنا المعافى بنُ زكريا، حدَّثنا قُطْبَةُ بنُ الفضلِ، حدَّثنا أحمدُ بنُ محمدِ بنِ مسروقٍ، حدَّثنا سويدُ بنُ مُسْهِرٍ عن هشامِ بنِ عروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ مرفوعاً؛ فَمِنْ أَبْيَنِ الخطأ، ولا يحملُ هشامٌ عن أبيه عن عائشةَ مثلَ هٰذا عندَ مَنْ شَمَّ أدنى رائحةٍ مِنَ الحديثِ.

ونحنُ نُشْهِدُ اللهَ أنَّ عائشةَ ما حدَّثَتْ بهٰذا عن رسولِ اللهِ ﷺ قطّ، ولا

---

(١) (٣ / ١٢٦٣).

(٢) (رقم ٨٤٢).

(٣) ليس هو في «الموضوعات»؛ نعم، هو في «الواهيات» (٢ / ٢٨٥).

(٤) (٥ / ١٥٦)، و(٦ / ٥٠)، و(١١ / ٢٩٨).

حدَّثَ به عروةُ عنها، ولا حدَّث به عنه هشامٌ قطُّ.

وأما حديثُ ابنِ الماجشونِ عن عبدِ العزيزِ بن أبي حازمٍ عن ابنِ أبي نُجَيحٍ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ مرفوعاً، فَكَذِبٌ على ابنِ الماجِشُونِ، فإِنَّه لم يُحَدِّث بهٰذا، ولا حدَّثَ به عنه الزُّبَيْرُ بنُ بكَّارٍ، وإنَّما هٰذا مِنْ تركيبِ بعضِ الوضَّاعينَ.

ويا سبحانَ اللهِ! كيفَ يحتملُ هٰذا الإسنادُ مثلَ هٰذا المتنِ؟! فقَبَّحَ اللهُ الوَضَّاعينَ.

وقد ذكرهُ أبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ[1] مِنْ حديثِ محمدِ بنِ جعفرِ بنِ سهلٍ: حدَّثنا يعقوبُ بنُ عيسى من ولـدِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوفٍ عن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ مرفوعاً.

وهٰذا غَلَطٌ قبيحٌ، فإنَّ محمدَ بنَ جعفرٍ هٰذا هو الخرائطيُّ، ووفاتُهُ سنةَ سبعٍ وعشرينَ وثلاثمئةٍ، فمحالٌ أن يدركَ شيخُهُ يعقوبَ وابنَ أبي نُجيحٍ، لا سيَّما وقد رواه في كتابِ «الاعْتِلالِ»[2] عن يعقوبَ هٰذا عن الزُّبيرِ عن عبدِ الملكِ عن عبدِ العزيزِ عن ابنِ أبي نُجَيحٍ.

والخرائطيُّ هٰذا مشهورٌ بالضَّعْفِ في الروايةِ، ذكرهُ أبو الفرجِ في «كتابِ الضعفاءِ»[3].

---

(١) في «العلل المتناهية» (١٢٨٨).

(٢) هو «اعتلال القلوب» للخرائطي، سبقت الإشارةُ إليهِ.

(٣) تعقَّب شيخُنا في «السلسلة الضعيفة» (١ / ٥٨٩ - ٥٩٠) المصنِّف في هذا الموضع من كتابِهِ بمسألتين:

الأولى: أنَّ الخرائطي لم يُرْمَ بالضعف.

الثانية: أنَّ ابنَ الجوزي لم يذكر في «الضعفاء» (٣ / ٤٦) - له - الخرائطيَّ، بل ذكر آخَرَيْن؛ فراجعه.

وكلامُ **حُفَّاظِ الإسلامِ** في إنكارِ هٰذا الحديثِ **هُوَ الميزانُ**، وإليهم يُرجَعُ في هٰذا الشأنِ، وما صحَّحَهُ ولا حسَّنَهُ أحدٌ يعولُ في علمِ الحديثِ عليه، ويُرجعُ في علم التصحيحِ إليه، ولا مَنْ عادَتُهُ التسامحُ والتساهلُ، فإنَّهُ لم يُصَفَّ نفسَهُ له، ويكفي أنَّ ابنَ طاهرٍ الذي يتساهَلُ في أحاديثِ التصوُّفِ، ويروي منها الغثَّ والسمينَ والمُنخنقةَ والموقوذةَ قد أنكرهُ و شهدَ ببطلانِهِ[1].

نعم، ابنُ عباسٍ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ذٰلك عنه[2].

وقد ذكر أبو محمدِ بنُ حزمٍ عنه[3]: أنه سُئِلَ عن الميتِ عشقاً، فقال: «قتيل الهوى لا عقلَ له ولا قِوَدٌ».

ورُفِعَ إليه بعرفاتٍ شابٌ قد صارَ كالفرخِ، فقال: ما شأنُهُ؟ قالوا: العشقُ، فجعلَ عامَّةَ يومِهِ يستعيذُ مِنَ العشقِ.

فهٰذا نفسُ مَنْ قالَ: «مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ وكَتَمَ وماتَ فهو شهيدٌ».

ومما يوضِّحُ ذٰلك: أنَّ النبيَّ ﷺ عدَّ الشهداءَ في «الصحيحِ»[4]، فذكرَ المقتولَ في الجهادِ، والمبطونَ، والحَرِقَ، والنُّفَساءَ يقتلُها ولدُها، والغَرِقَ، وصاحبَ ذاتِ الجنبِ، ولم يذكرْ منهم مَنْ يقتلُهُ العشقُ.

وحَسْبُ قتيلِ العشقِ أنْ يصحَّ له هٰذا الأثرُ عنِ ابنِ عباسٍ[5]، على أنَّه لا

---

(١) في «تذكرة الموضوعات» (٨٤٢)؛ كما سبق.

(٢) قال المصنِّف في «زاد المعاد» (٣ / ٣٠٦): «وفي صحَّته ـ موقوفاً ـ على ابن عباس نَظَرٌ».

(٣) قارن بـ «طوق الحمامة» (١ / ٢٥٧).

(٤) انظر الأحاديثَ المجموعة في ذٰلك في رسالة «أبواب السعادة في أسباب الشهادة» للسيوطي، وفي «أحكام الجنائز» (٥٨ ـ ٥٩ ـ طبع المعارف) لشيخنا الألباني.

(٥) يُنظر كلامٌ آخر للمصنِّف ـ رحمه الله ـ حول هٰذا الحديث، وبيان عدم ثبوته في =

يدخلَ تحتَهُ حتى يصبرَ للهِ، ويعفَّ للهِ، ويكتمَ للهِ، وهٰذا لا يكونُ إلَّا مع قُدرتِهِ على معشوقِهِ، وإيثارِ محبَّةِ اللهِ وخوفِهِ ورضاهُ.

وهٰـذا مِنْ أحقِّ مَنْ دخلَ تَحْتَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى . فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١]، وتحت قولِهِ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

فنسألُ اللهَ العظيمَ، ربَّ العرشِ الكريمِ، أنْ يجعلَنَا مِمَّنْ آثَرَ حبَّهُ على هواه، وابتغىٰ بذلك قُرْبَهُ ورضاهُ.

تـمَّ الكتاب المبارك، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً؛ حمداً يوافي نِعَمه، ويكافىء مزيدَه.

وتَمَّتْ الفتوى الشريفةُ بحمدِ اللهِ وعونِهِ.

● ● ● ● ●

فجزاهُ[1] اللهُ تعالى خيرَ الجزاءِ، وأسكَنَهُ أعلى فراديسِ الجنانِ، وأصولَهُ وفـروعَهُ وأشياخَهُ وتلامذتَهُ، وأعادَ عليَّ وعلى ذُرِّيَّتِي مِنْ بركاتِهِم، وحَشَرَنَا في زمرتِهِم في جنَّةِ الفردوسِ تحتَ لواءِ سيدِ المرسلين، وإمامِ المتَّقينَ، وقائدَ الغرِّ المحجلينَ، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبِهِ أجمعينَ، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ.

● ● ● ● ●

= «المنار المنيف» (ص ٦٣)، و«روضة المحبِّين» (ص ١٨٠)، و«زاد المعاد» (٣ / ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(١) هٰذا من كلامِ ناسخِ «الأصل».

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن يا كريم

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين
في رجل ابتلي ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته
وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد إلا توقدا
وشدة فما الحيلة في دفعها وما الطريق إلى كشفها فرحم الله
من أعان مبتلى والله في عون العبد ما كان العبد في عون
أخيه أفتونا مأجورين رحمكم الله قال الشيخ الإمام
العالم العلامة مفتي المسلمين شمس الدين أبو عبد الله محمد
ابن أبي بكر بن أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله ورضي عنه
الحمد لله ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ما أنزل الله
داء إلا أنزل له شفاء وفي صحيح مسلم من حديث جابر
بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل
داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله وفي مسند الإمام
أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وآله
وسلم قال إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه
وجهله من جهله وفي لفظ إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء
إلا داء واحدا قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم قال الترمذي
هذا حديث صحيح وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن
وأدويتها وقد جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجهل داء
وجعل دواءه سؤال العلماء فروى أبو داود في سننه من
حديث جابر بن عبد الله قال خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا
حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون
لي رخصة في التيمم قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على
الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما
شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب
على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده فأخبر أن

صورة الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة

فهو شهيد ومما يوضح ذلك ان النبي صلى الله عليه وآله
وسلم عدّ الشهداء في الصحيح فذكر المقتول في الجهاد
والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب
ذات الجنب ولم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب
قتيل العشق ان يصح له هذا الاثر عن ابن عباس رضي الله عنهما
على انه لا بد [illegible] حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم
لله وهذا لا يكون الا عن قدرة على معشوقه وايثار
محبة الله وخوفه ورضاه وهذا من احق من دخل تحت
قوله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى
فان الجنة هي المأوى ولمن خاف مقام ربه جنتان
فنسأل الله العظيم رب العرش العظيم الكريم ان يجعلنا ممن آثر حبه
على هواه وابتغى بذلك قربه ورضاه تم الكتاب
المبارك والحمد لله اولا وآخرا وظاهرا وباطنا
حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده وصلى الله
على سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا
محمد وآله الطيبين الطاهرين
وآل كل وسائر الصالحين وحسبنا
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك سابع شهر القعدة سنة ١٩٥
غفر الله لكاتبه ولوالديه ولمن نظر اليه ولمن سمعه
وللمؤمنين والمؤمنات كافة انه هو الغفور الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

وان تجد عيبا فسد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المعتمدة

فهرس الأحاديث

الباء

التّاء

الكاف

اللام

الميم

النّون

الهاء

الواو

الياء

●●●●●

فهرس المواضيع

● ● ● ● ●